مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث - دبي



الفكر الإداري في الإسلام

الدكتور محمد محمد ناشد
أستاذ في إدارة الأعمال
عميد كلية الاقتصاد في جامعة حلب (سابقاً)

اهداءات ٢٠٠١
مركز جمعة الماجد للثقافة
والتراث بدبي - الامارات

218. 4658. 4

ن ا ش

ف

ناشد، محمد محمد

الفكر الإداري في الإســـلام = The Administrative thought in Islam / محمد محمد ناشد.- دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، [١٩٩٧]

.- ٥٤٤ص؛ ٢٤ سم.

١ - الإسلام - إدارة أ. العنوان



الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

الإمارات العربية المتحدة - دبي

ص . ب (٥٥١٥٦) - هاتف : ٦٢٤٩٩٩ (٠٤)

فاكس : ٦٩٦٩٥٠ - تلكس : عرب ٣٦١٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تحقيقاً لأهداف مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي في إجراء البحوث والدراسات التي تسهم في نشر الفكر والثقافة والتراث الإنساني فقد وضع ضمن خطته نشر الكتب المفيدة التي تخدم تلك الأهداف.

ومن أجل تنفيذ ذلك كلف لجنة من الأساتذة الأكفياء أوكل إليها الإشراف على الدراسات المقدمة إليه من الجهات المختلفة أو التي يقترحها مسبقاً على بعض الأقسام، مهمتها اختيار المناسب.

وإذ يقدم اليوم كتاب «الفكر الإداري في الإسلام» للأستاذ الدكتور محمد محمد ناشد ليرجو أن يقع من نفوس القراء الموقع الحسن.

نسأل الله تعالى أن يسدد خطوات المركز إلى مافيه خدمة العلم والثقافة.

قسم الدراسات والنشر

إهــداء

إلى روح زوجتي .. تغمّدها اللّـه برحمـتـه وأسكنها فسـيح جناتـــه .

وإلى أبنائي .. الأطباء الدكاترة : وجدان ، محمد خلدون ، مأمون ، إيمان ، أحمد ؛ وابنتي المهندسة رغداء .. راجيًا لهم توفيقًا مطــردًا .

مقدمة

الحمد لله رب العالمين.. والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.. اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.. وبعد،

فقد كان الباعث لوضع هذا الكتاب **(الفكر الإداري في الإسلام)** هو محاولة الكشف عن المثل والقيم والفكر الحضاري الذي قدمه الإسلام في مجال الإدارة كجزء من نظام كامل متكامل للانسانية.

وقد بدأت بإعداد المادة العلمية فيه منذ ما يزيد عن العقدين من السنين، عندما كنت عميداً لكلية الاقتصاد بجامعة حلب، ثم رئيساً لقسم إدارة الأعمال بجامعة الإمارات العربية المتحدة.

وكنت كلما تعمقت في القراءات والبحث والاستقصاء تترسخ لدي القناعة بروعة ما قدمه الإسلام من فكر إداري. وكلما قطعت شوطًا أحسب أنه يقرّبني من الهدف.. وجدت المسافات تتباعد أمامي نظراً لسعة الموضوع وكثرة تفرعاته وثراء تفصيلاته.

ولما كنت قد نذرت أن يكون هذا العمل خالصاً لله وحده، فقد وطنت العزم في نفسي على المثابرة في هذا الطريق.. متوكلاً على الله، متسلحًا بالصبر، طالبًا منه سبحانه وتعالى العون والرشاد.

وقد آثرنا أن نعرض الفكر الإداري في الإسلام بمضمون سلوكي يركز على القيم والمثل التي دعا إليها الإسلام باعتبارها المَعين الذي تنبع منه، أو تستند إليه، جميع الأنشطة والفعاليات، وتدور حوله العلاقات والمعاملات، وتنطلق منه جميع القرارات في العملية الإدارية.

ولم يكن إيثارنا للمنهج السلوكي لأن المداخل الأخرى، التي تركّز على البنى التنظيمية والأساليب، قليلة الأهمية؛ ولكن لأن البنى التنظيمية تتغير من منظمة لأخرى، ومن وقت لآخر داخل المنظمة الواحدة. فضلاً عن أنها تتعلق بطبيعة النشاط ذاته. إلى جانب أن مكونات مدخلاتها، وبالتالي مخرجاتها التي تشكل عناصر النظام نفسه، هي عرضه للتغيّر باستمرار. وهي موجودة كهياكل تنظيمية وأساليب في جميع المجتمعات على اختلاف اتجاهاتها ونظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ولذلك فضّلنا التركيز على الجوهر الذي يتمثّل بالفكر والقيم والقواعد السلوكية بدلاً من التركيز على الهياكل التنظيمية والأساليب.

وتجدر الإشارة إلى أنه لم يكن الغرض من هذا الكتاب أن يكون كتاب سيرة أو تراجم؛ فقد زخرت كتب التراث والأصول بمضامين ثرة عن السير والتراجم. ولكننا آثرنا أن نتناول تلك المضامين بالبعد الإداري لها، انطلاقاً من أنها من ثمار القيم والمثل التي جاء بها الإسلام كعقيدة ليجعل من هذه الأمة خير أمة أُخرجت للناس.

كذلك لم نحاول أن ندخل في مجال المقارنات مع النظم الأخرى لاعتقادنا بأن عقد المقارنات سبيل خاطئ انزلق إليه كثيرون.. وقد يشفع

لهم حسن النية.. وأنهم اجتهدوا .. نسأل الله ألا يحرمهم أجره. وبالتالي لم نعقد مثل تلك المقارنات لاعتقادنا بأنه ليس ثمة مجال للمقارنة أصلاً بين نظام من صنع الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وبين نظام من صنع البشر. فضلاً عن أن ثمة فرقًا آخر يقوم بين نظام للإدارة ينبثق عن العقيدة الإسلامية وبين نظم تختلف الدوافع إلى إيجادها، والأهداف التي تسعى إليها، نظراً للاختلاف في الفكر وفي النظرة إلى الكون والإنسان والحياة. وإذا كان ثمة نقاط تماس تصادف وجودها مع نظم سياسية أو اقتصادية أو إدارية حينًا من الزمن، فهذا لا يسوّغ عقد المقارنات ليقال بعد ذلك إن الإسلام ينطوي على نظام ديمقراطي في الإدارة.. أو نظام يتشابه مع منهج العلاقات الإنسانية مثلاً.. لأن عناصر مدخلات النظام وبنيته وأهدافه تختلف في الإسلام عما عداها من النظم الأخرى. ولم يعنينا في هذا الكتاب، ولم يكن من أهدافنا كذلك، أن يقتنع الناس بروعة الفكر الإداري في الإسلام من خلال نقاط من تشابه تصادف وجودها مع أنظمة أخرى لالتزامنا بقول الله تعالى: ﴿وقلِ الحقُّ من ربكمْ فمن شاءَ فليؤمِن ومن شاء فَلْيَكْفُرْ ...﴾[1].

كذلك لم يكن من أهدافنا في هذا الكتاب الرد على ما كتبه بعض المستشرقين، فكثير منهم عجز عن فهم لغتنا أصلاً.. فكتب قبل أن يفهم.. وكثير منهم عجز عن فهم الأسرار الكامنة وراء الآراء في كتب الأصول، ولا الآراء نفسها غالبًا.

ولهذا فقد انطلقنا في هذا الكتاب من حقيقة أن الإدارة في الإسلام

---

١ - سورة الكهف، الآية ٢٩.

هي نظام يتكامل مع الأنظمة الأخرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيه، لتشكل نظامًا كاملاً متكاملاً يجمع في تناسق عجيب وتوازن رائع بين أمور الدنيا والآخرة، والعقل والعاطفة، والروح والمادة. وما ذلك إلا لأن الفكر الإداري في الإسلام، من حيث أسسه ومبادئه وقواعده العامة، قد بدأ من النهاية، فمضمونه غاية مثلى بحد ذاته لأنه ينبع من العقيدة الإسلامية التي صبغت المنهج الإسلامي بخصائص معينة من بعضها أنه:

* منهج كامل ومتكامل، يسمو بالإنسان روحيًا وعقليًا وخلقيًا وماديًا، وسياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا؛ ويرقى به إلى أعلى درجات الحضارة في أنموذج فريد ومتميِّز في مكوناته وفي منطلقاته وأهدافه.
* منهج وسط، فيحقق الاعتدال والتوازن بين النظرية والتطبيق، وبين مصالح الفرد والجماعة، وبين الدين والدنيا، وبين المثالية والواقعية، وبين المادة والروح.
* منهج عملي واقعي، فليس ثمة أبلغ بهذا الصدد مما رواه أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل». ومع الاعتراف بنزعة الفرد وميوله الفطرية، أمر الله سبحانه وتعالى أن يرتبط سعي الإنسان بالآخرة دون أن ينسى نصيبه من الدنيا في قوله تعالى: ﴿وابتغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبَكَ منَ الدُّنْيَا ...﴾[٢].
* منهج متطور صالح لكل زمان ومكان، فقد اعتبر الفقهاء أن الأصل في المعاملات هو الابتداع وليس الاتباع كما في العبادات. ذلك لأن أكثر

---

٢ - سورة القصص، الآية ٧٧.

أحكام المعاملات جاء في القرآن والسنة مجملاً وأشبه بالمبادئ العامة، الأمر الذي يتيح للناس أن يصوغوا التفاصيل طبقًا لمصالحهم وظروف الزمان والمكان. وعلم أصول الفقه وظيفته الأساسية هي وضع القواعد والضوابط لاستنباط الأحكام الفقهية فيما لم يرد فيه نص مما استجد على حياة الناس من متطلبات.

* منهج روحي، يدعو إلى التفكُّر والتذكُّر والتدبُّر.. فيطبع في النفس صور الجلال الرباني الذي يملأ النفس رهبة، وصور الجمال الذي يملأ النفس رغبة. فالحياة الدنيا امتحان وابتلاء لجوهر الإنسان، قال الله تعالى: ﴿ تبارَكَ الذي بيده المُلْكُ وهو على كلِ شيءٍ قديرٌ. الذي خلقَ الموتَ والحياةَ ليبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحسنُ عمَلاً ... ﴾[٣]. فهذه النظرة إلى الحياة هي أكبر حافز للجهاد النفسي. ولأن الدنيا في نضرتها مآلها إلى زوال كالنبات ينمو ويخضرُّ ثم يتحوَّل إلى هشيم، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ واضْرِبْ لَهُم مثَلَ الحياةِ الدنيا كماءٍ أنزلناهُ من السماء فاختلطَ بهِ نباتُ الأرضِ فأصبحَ هشيمًا تذروهُ الرياحُ ... ﴾[٤]. فضلاً عن أن الاعتقاد بالحياة الأخرى يُدخل العزاء في النفوس المعذبة التي أصابتها مصائب الحياة، وعذابات الغربة.

* منهج سلوكي أخلاقي، يحض على الصدق في العمل والمعاملات، والصبر والإيثار، والعدل والإحسان.. يوقظ الضمير ليجعله رقيبًا على السلوك، ويدعو إلى التسامح والعفو ومكارم الأخلاق.. والحلم والوفاء

---

٣ - سورة الملك، الآيتان ١ - ٢.

٤ - سورة الكهف، الآية ٤٥.

والتواضع والرحمة والتعاون.. وما من صفة حسنة أو سلوك قويم إلا وقد تمثَّل في هذا المنهج لما فيه من صلاح الفرد والمجتمع؛ فوضع الضوابط الأخلاقية ممثلة برقابة الضمير وتقوى الله، إلى جانب الرقابة الخارجية.

* منهج اقتصادي، لأن المعاملات جزء أساسي من نسيج الحياة في المجتمع. والجانب الاقتصادي لم يأت منعزلاً عن بقية الأجزاء في السياسة والحكم والإدارة والاجتماع؛ بل يتفاعل معها سعيًا للوفاء بحاجات الناس. فشؤون المال والتنمية لا تقوم بمعزل عن النظرة الكلية للإسلام نحو الحياة لا سيما من حيث اعتبار أن المال مال الله، ووجوب العمل والكسب في المجالات المشروعة، والكشف عن الموارد الطبيعية واستغلالها، وتنظيم المعاملات المالية.
* منهج اجتماعي، يقوم على حب الخير لجميع البشر، لا يفرِّق بين جنس أو لون؛ وعلى التكافل بما يحقق المسؤولية الاجتماعية، والتوازن؛ فيأخي بين الإنسان والإنسان، ويعالج المشكلات من جذورها فيقضي على الجهل والفقر والمرض، ويوفر عدالة التوزيع، ويحقق الاستقرار والطمأنينة في حياة الأمة، ويحفظ وحدتها، وينشر الإخاء بين أبنائها.. فيتكوَّن المجتمع الصالح، وتتجدد روح الحياة والقوة في الأمة.

ونعتقد أن ما آل إليه الوضع في العالم الإسلامي من تمزق وفرقة وضعف يُعزى إلى أننا تخلينا عن دستور حياتنا ومقومات نهضتنا فأضعنا الطريق، وتحوَّلنا إلى مقلدين مبهورين بما عند الغرب من تكنولوجيا وناطحات سحاب.. بعد أن فُتن بها بعضنا وخطف أبصارهم بريقُ المدنية

الغربية، وراعهم هذا الصنم فتعبدوا له وقدموا له القرابين، ووقفوا أمامه خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، ثم لم يلبث أن قبل التيارات الفكرية الدخيلة، وسلخ نفسه عن جذوره؛ ففقد أصالته.. وبالتالي هويته؛ ناسيًا، أو متناسيًا، ما عندنا من قيم حضارية معطلة، مما كبَّل القدرات وعطَّل الامكانيات. مع أن ما لدينا من فكر وقيم حضارية يحض على العلم والعمل ويدعو إلى التقدم. ولكننا عندما ابتعدنا عنها دخلنا في دوامة الضياع ومتاهاته فأصبحنا متفرجين مستهلكين للتكنولوجيا دون أن نكون فاعلين فيها أو مستوعبين لها.

إن هذا الضياع والسبات العميق سيظل رانيًا على القلوب، مكبِّلاً للنفوس مالم ندرك حقيقة ما نحن عليه.. فنغيِّر طريقتنا في التفكير وأسلوبنا في المعالجة مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴾[5].

ولهذا فقد حرصنا في هذا الكتاب أن نقدم لمحات من الفكر الإداري في الإسلام في إطار المنهج الإسلامي، فقد قال رسول الله ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تَضِلُّوا ما تمسَّكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله»[6]، و «... من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجذ ...»[7].

---

٥ - سورة الرعد، الآية ١١.

٦ - أخرجه الموطأ.

٧ - من رواية أبي داود، والنواجذ: الأضراس التي بعد الناب، جمع ناجذ، وهذا مثلٌ في شدة الاستمساك بالأمر، لأن العضَّ بالنواجذ عضٌّ بمعظم الأسنان التي قبلها والتي بعدها.

وقد جاء هذا المؤلف في تسعة فصول؛ بدأنا الحديث في الفصل الأول منها عن (الإدارة في عهد رسول الله ﷺ) فهو الذي أنشأ الدولة وأقام قواعدها ورسَّخ أركانها.

ثم تناولنا في الفصل الثاني (الإدارة في عهد الخلفاء الراشدين) الذين نهلوا من توجيه رسول الله ﷺ واقتدوا بسنته.

ثم تطرقنا في الفصل الثالث إلى (الشورى والقرارات الإدارية) فعرضنا موضوع القرارات باعتبارها تمثل جوهر العملية الإدارية، في إطار نظام الشورى. وتناولنا ماهية الشورى وأهميتها ومزاياها وموقعها في القرآن الكريم وفي إدارة رسول الله ﷺ وإدارة الخلفاء الراشدين، وخصائص نظام الشورى وأحكامها وأدلة وجوبها.

وفي الفصل الرابع تحدثنا عن (إدارة الأفراد) من حيث نظرة الإسلام إلى العمل وعوامل اختيار العاملين. وأشرنا إلى موضوع الأجور والحوافز والعلاقات الإنسانية وإلى صفات رجل الأعمال المسلم والعامل وحقوق وواجبات كل منهما، وذلك في إطار الضوابط الأخلاقية والسلوكية في العمل والتعامل.

وتطرقنا في الفصل الخامس إلى (إدارة الانتاج والتسويق) بالإشارة إلى المبادئ العامة التي حددها الإسلام بهذا الصدد، دون الدخول في التفاصيل أو العمليات الفنية. فأكدنا أهمية الانتاج واستغلال عناصره بكفاية والكشف عن الموارد الاقتصادية لانتاج المنافع وتنمية ثروة المجتمع، مع الإشارة إلى الضوابط الأخلاقية في ذلك. كما تطرقنا إلى

إدارة التسويق وترشيد الاستهلاك، وتوجيهات الإسلام في عمليات البيع والتعامل ومنهياته وأسسه العامة.

ثم تحدثنا في الفصل السادس عن (إدارة الأموال) كعنصر من عناصر الانتاج، فأشرنا إلى ما قدمه الإسلام من مبادئ عامة تكفل تسخير المال لمصلحة المجتمع وتمنع استغلال الإنسان للإنسان، أو تحكُّم الدول بالدول. وتناولنا ماهية المال وترشيد الانفاق وتوجيهات الإسلام في الدعوة إلى الاعتدال وتداول الثروة وتحريم الاكتناز. كما بيّنا دور الربا في استغلال الشعوب، وتحريم الإسلام للربا، والمغزى الاقتصادي والاجتماعي لهذا التحريم، وذلك في إطار ما ورد في القرآن الكريم وفي أحاديث رسول الله ﷺ. ثم تطرقنا إلى الملكية الفردية وفريضة الزكاة، وعرضنا بعض أنماط السلوك المالي في التعامل.

وتناولنا في الفصل السابع موضوع (إدارة القضاء) فتحدثنا عن ماهية القضاء وإدارته في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين. ثم تطرقنا إلى شروط الصلاحية للقضاء وعرضنا لبعض الأصول فيه، وأشرنا إلى ظاهرة الامتناع عن توليه. وقدمنا بعد ذلك قراءة في رسالة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري في القضاء.

وفي الفصل الثامن تطرقنا إلى موضوع (إدارة الحكم) فبيّنا أن الحكم هو من الإسلام الذي يستلزم إقامة دولة. ثم أشرنا إلى أهداف الدولة الإسلامية في إقامة الحكم والعدل وتحرير الإنسان، وإلى الأسس الاعتقادية والتنظيمية للحكم، ووظائف الدولة الإسلامية والحقوق الأساسية فيها وخصائصها.

وفي الفصل التاسع عمدنا إلى دراسة وتحليل بعض الوثائق الإدارية كوسيلة للتدليل على بعض (مآثر الفكر الإداري في الإسلام)، حيث تم اختيارها من عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، بهدف إبراز أصالة هذا الفكر واتجاهه الحضاري والإنساني.

وقد حرصنا فيما قدمناه أن نرجع إلى المصادر من كتب التفسير وكتب الحديث والفقه والسِيَر والتراجم.. واجتهدنا في استنباط واستخلاص المعاني والأحكام، والربط فيما بينها، والتعبير عنها بلغة العصر.

وقد يجد القارئ تكراراً في ورود بعض الأحاديث الشريفة، أو في بعض الأفكار؛ وهو أمر استلزمه الحرص على تكامل العرض غالباً في محاولة للوصول بالقارئ ومعه إلى تكوين تصوُّر واضح ومتكامل عن الموضوع، ومن خلال زواياه المختلفة حيثما كان ذلك ضرورياً.

ولا ندعي بأننا أحطنا في هذا الكتاب بجميع ما انطوى عليه الفكر الإداري في الإسلام. إذ يظل ما قدمناه مجرد لمحات.. وهي محاولة متواضعة.. هي أشبه ما تكون بذرة في محيط كبير.. كما أن ما قدمناه عن هذا الفكر من آراء أو استنباط أو استنتاج هو اجتهاد.. والإنسان يخطئ ويصيب.. فإن أصبنا فذلك بعون الله وتوفيقه، وإن أخطأنا فذلك منا.. نسأل الله الأجر والمغفرة؛ وحسبنا أن يكون ما أخذنا به نفسنا من جهد خالصاً لله وحده.

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة إلا أن أشكر للأخ الفاضل السيد جمعة الماجد رئيس مركز الثقافة والتراث بدبي؛ وإلى السيد الدكتور

عبد الرحمن محمد صالح فرفور نائب رئيس المركز الذي شجعني على الكتابة في هذا الموضوع وقدم لي جميع التسهيلات البحثية والمرجعية في المركز. كما أتوجه بالشكر للأستاذ الدكتور إبراهيم محمد سلقيني، عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي، الذي تفضل فقرأ بعض فصول الكتاب فأفادني بعلمه، وإلى الأستاذ الدكتور خليفة بابكر الحسن رئيس قسم الشريعة بجامعة الإمارات ووكيل كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، الذي تكرم بقراءة بعض فصول الكتاب أيضًا فنفعني بعلمه. وإلى السيد محمد أحمد الجميلي محمد على ما بذل من جهد في طباعة الكتاب، جزاهم الله جميعًا خير الجزاء.

والله تعالى أسأل أن ينفع به، ويجعله ذخراً لي يربو ما انتفع به منتفع لآخرته أو لدنياه، وأن يرزقنا السداد في القول والعمل، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً، إنه سميع الدعاء.

أ. الدكتور محمد محمد ناشد

* * *

دبي ٢٤ شعبان ١٤١٧ هـ

٣ كانون الثاني / يناير ١٩٩٧م

الفصل الأول

الإدارة في عهد رسول الله ﷺ

تمهيد - من خصائص سيرة رسول الله ﷺ - من ملامح إدارة رسول الله ﷺ :

مرحلة الدعوة في مكة - الهجرة إلى المدينة - الدولة الإسلامية في المدينة - المسجد مجمع الإدارات العامة - المستويات الإدارية للدولة في المدينة - الأسس العامة للإدارة كما وضعها رسول الله ﷺ - حرص رسول الله ﷺ على بناء الإنسان: في توطيد صلة الفرد بربه وتربيته على عزة النفس والصبر - في التعاون.. والعلم.. والمسؤولية الشخصية - في الحض على العمل.. وإعفاف النفس والمحافظة على الكرامة - في الصدق - في بناء الشخصية - في العفو وحسن التعامل - في الوفاء - في القناعة والعفة - في التوبة والرجوع إلى الله - تحديد رسول الله ﷺ للعلاقة بين الحاكم والمحكوم - استعمال رسول الله ﷺ العمال على الأمصار - اهتمام رسول الله ﷺ بالقضاء - وصية رسول الله ﷺ لأمراء الأجناد - وصية رسول الله ﷺ بالنساء - حنكة رسول الله ﷺ في التفاوض - البصيرة والملكة الإدارية لرسول الله ﷺ - لغة رسول الله ﷺ في الخطاب والإدارة - لطفه ورأفته ﷺ - حرصه ﷺ على مشاعر

الآخرين - عاطفته ﷺ على الحيوان - اهتمامه ﷺ بالعلم - تحديده ﷺ المسؤولية الجماعية - من خلق رسول الله ﷺ في القرآن الكريم - من بعض الصفات القيادية لدى رسول الله ﷺ - من قواعد التوجيه الإداري لدى رسول الله ﷺ.

تمهيد

تناولنا في هذا الفصل موضوع (الإدارة في عهد رسول الله ﷺ) الذي بُعث رحمة للعالمين فنقل المجتمع الإنساني من الظلمات إلى النور وتمم مكارم الأخلاق وبشر بالإسلام نظامًا كاملاً ومتكاملاً يتضمن شؤون الحياة الدنيا والآخرة... نظامًا اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا وإداريًا.

وقد حاولنا في هذا الفصل أن نشير إلى لمحات من الفكر الإداري في إدارة رسول الله ﷺ فبدأنا ببيان خصائص سيرته ومراحل دعوته وأسلوبه في الإدارة والتوجيه، بالتركيز على القيم والمثل والقواعد السلوكية في العمل الإداري. كما أشرنا إلى بعض الصفات القيادية لدى رسول الله ﷺ وحرصه في تعامله وتوجيهه على بناء الإنسان.

من خصائص سيرة رسول الله ﷺ

عند الحديث عن الإدارة في عهد الرسول الكريم ﷺ لابد من الإشارة إلى ما يلي:

١ - أن سيرته ﷺ هي أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل وأقواها ثبوتاً

متواتـراً[1].

٢ - أن حياة الرسول الكريم ﷺ واضحة كل الوضوح في جميع مراحلها ، وأن سيـرته ﷺ تحكي سيـرة إنسان أكرمـه الله بالرسالة فلم تخرجـه عن إنسانيته ولم تلحق حياته بالأساطير ، ولم تضف عليه الألوهية ، وفي ذلك أثر بعيـد المـدى في السلوك الإنسـاني والاجـتـمـاعي حـيث يصـبح ﷺ قـدوة أنموذجية للإنسان في حياته الشخصية والاجتماعية. فقد أنكر ﷺ عبادة الأصنام فلم يسجد لصنم قط. وأنكر اضطهاد المرأة والتعيّر منها ووأدها وهي حية كما كان أهل الجاهلية يصنعون. فقال ﷺ : «من كـانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنهـا ولم يؤْثر ولده - يعني الذكـور - عليـهـا أدخلـه اللـه الجنة»[2] وقـوله: «من عـال ثلاث بنات، أو ثلاث أخـوات، أو أخـتـين أو بنتـين،

---

١ - تجدر الإشارة إلى أن سيـرة مـوسى عليه السلام قد اختلطت وقـائعها بما أدخلـه عليها اليهود من زيف وتحريف. حتى إن بعض النقاد الغربيين يشكون في بعض أسفار التوراة، وبعضهم يجزم بأن بعض الأسفار لم يكتب في حياة موسى عليـه السلام ولا بعده بعهد قريب ومن غير أن يعرف كاتبها. ومثل ذلك يقال فـي سيرة عيسى عليه السلام. فهذه الأناجيل المعترف بها رسمياً لدى الكنائس قد أقرت عن السيد المسيح بعد مئات السنين وتمّ اختيارها - بدون مسوّغ علمي - من بين مئـات الأناجيل التي كانت منتشرة، كما أن نسبتـها إلى كـاتبيـها لم يثبـت عن طريق علمي ولم ترو بسند متـصل، فضـلاً عن اختلاف النقاد الغربيين أنفـسـهم في أسـمـاء بعض هؤلاء الكاتبين من حـيث من يكونـون ؟ وفـي أي عـصـر كـانوا ؟ انظر في ذلك د. مصطفى السـباعي، السـيـرة النبـويـة: دروس وعبـر، الطبعة الثامنة، دمشق / بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٥ ص: ١٥ - ٢٣.

٢ - أخـرجـه أبـو داود فـي الأدب برقـم ٥١٤٦، بـاب فـضـل مـن عـال يتيمـاً.

فأدبهن وأحسن إليهن وزوّجهن فله الجنة»[3]. وأنكر الجهل والأميّة فكانت أول محاولة عملية جديّة في مكافحة الجهل والأميّة إقدامه عليه الصلاة والسلام على فداء المتعلمين من أسرى بدر من المشركين بتعليم كل واحد منهم القراءة والكتابة لعشرة من المسلمين. وأنكر هتك حرمة شرف الكلمة فقال ﷺ: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً»[4]. وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت»[5]. وعن أبي هريرة قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالاً، يرفعه الله بها في الجنة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»[6]. كما أنكر ﷺ التعصّب للنسب والقبيلة وسوء توزيع الثروة بين الناس ومما قاله ﷺ: «إن في المال حقاً سوى الزكاة»[7].

٣ - إن سيرته ﷺ شاملة لكل النواحي الإنسانية في الإنسان، فهي تحكي سيرته صغيراً تحمّل آلام اليتم فجعله أكثر إحساساً بالمعاني الإنسانية النبيلة، وتحكي سيرة الشاب الأمين قبل إكرامه بالرسالة، وتحكي سيرته

---

٣ - أخرجه أبو داود، والترمذي برقم ١٩١٣ في البر والصلة، باب ما جاء في النفقة على البنات. وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «من عال جاريتين (بنتين) حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين» وضم أصابعه، رواه مسلم.

٤ - أخرجه البخاري في الأدب، باب: ما يكره أن يكون. والمقصود سيء الكلام وقبيحه.

٥ - أخرجه الترمذي.

٦ - أخرجه البخاري

٧ - أخرجه الترمذي في الزكاة، باب إن في المال حقاً سوى الزكاة.

كداعية إلى الله، وسيرته كرئيس دولة، كما تحكي سيرته كمرب ومرشد وسيرته كأب وزوج[8] وصديق وجار وسياسي... وهي سيرة إنسان كامل سار بدعوته من نصر إلى نصر عن طريق طبيعي بحت لا عن طريق الخوارق والمعجزات، لأن المعجزات المادية هي حجة على من شاهدها، والمسلمون الذين لم يروا الرسول ﷺ آمنوا برسالته للأدلة العقلية القاطعة على صدق رسالته ومنها القرآن الكريم الذي اعتمد في الإقناع على المحاكمة العقلية، وما من أحد من السابقين آمن برسول الله ﷺ عن طريق مشاهدته لمعجزة خارقة بل عن اقتناع عقلي وجداني يأتي في المقام الأول. والحقيقة فإن أعظم ما هو معجز في سيرة رسول الله ﷺ هو استغناؤه عن مدد الخوارق والمعجزات، فهو لم يدّع القدرة على إتيانها، وما قال شيئاً إلا فعله[9].

من ملامح إدارة رسول الله ﷺ

مرحلة الدعوة في مكة

عكف رسول الله ﷺ على الدعوة لدين الله في أحياء مكة وأسواقها وشعابها طوال ثلاث عشرة سنة أو نحوها، عانى فيها مع من تبعه من

---

٨ - مما يؤكد المسار الطبيعي لوقائع الأحداث في حياة رسول الله ﷺ أنه لجأ إلى زوجته خديجة بعد أن جاءه الوحي في غار حراء وعاد مرتعداً، وعندها قالت له: .. والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل (الضعيف) وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

٩ - الفونس إيتيين رينيه، محمد رسول الله، ص ٤٩ .. انظر أيضاً محمد شريف الشيباني، الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، بيروت، دار الحضارة العربية، ١٩٨٨، ص : ٣٢٤ - ٣٢٥.

المسلمين صنوفاً من العنت والنكال، صبها عليهم كفار قريش صباً لاهباً وبيلاً. وبلغ من كيد المشركين ومكرهم أن ضيقوا على المسلمين الخناق في أرزاقهم ومعاشهم، فأغرت قريش سائر القبائل بمقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب - عشيرة النبي وعصبيته - وإحكام الحصار الاجتماعي والاقتصادي من حولهم، واضطروهم إلى مغادرة مكة إلى شعب أبي طالب قريباً منها، وذلك حتى يجبروهم على التنكر للنبي والانفضاض من حوله وتسليمه لهم. وكتب منصور بن عكرمة صحيفة تدعو إلى هذه المقاطعة في البيع والشراء والزواج، وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة حتى تكون آكد وأفعل. واستمر ذلك طوال سنوات ثلاث، حتى أشرف المسلمون على الهلاك جوعاً، إذ كان يصلهم النزر من الطعام والماء خفية حتى استدرت حالهم الرثاء والإشفاق. فاجتمع من أقطاب القبائل هشام بن عمرو وزهير بن أمية وأبو البحتري وزمعة بن الأسود ومطعم بن عدي، وقالوا: كيف نأكل ونشرب ونأتي النساء وبنو هاشم وبنو عبد المطلب محصورون في الشعب لا يأكلون ولا يشربون ولا يتبايعون. وقال قائلهم والله لا أقعد حتى أشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، وقام بشق صحيفة المقاطعة فوجدوا حشرة الأرضة قد أكلتها إلا عبارة «باسمك اللهم» التي تصدرتها.

كما لاحق المشركون الرسول ﷺ بصنوف من الأذى وتآمروا على قتله لولا أن حفظه الله وأنجاه من مكرهم، وضاقت مكة على المسلمين بما رحبت كما ضاق بهم المشركون ذرعاً.

ولما ازداد أذى قريش فأذاقوا من أسلم ألوان العذاب اتخذ الرسول ﷺ أول تدبير إداري فأمر أصحابه بالهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة انقاذاً لهم من عنت قريش، وامتثالاً لأمر الله في قوله تعالى: ﴿إنَّ الذينَ

تَوَفَّاهمُ الملائكةُ ظالمي أنفسِهمْ قالوا فيمَ كنتمْ قالوا كنَّا مستضعفينَ في الأرضِ قالوا ألمْ تكنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجروا فيها فأولئكَ مأواهمْ جهنمُ وساءتْ مصيراً. إلاّ المستضعفينَ منَ الرجالِ والنساءِ والولدانِ لا يستطيعونَ حيلةً ولا يهتدونَ سبيلاً. فأولئكَ عسى اللهُ أن يعفوَ عنهمْ وكانَ اللهُ عفُوّاً غفُوراً. ومن يُهاجرْ في سبيلِ اللهِ يجدْ في الأرضِ مُراغَماً كثيراً وسَعةً ومن يخرجْ من بيتهِ مهاجراً إلى اللهِ ورسولهِ ثمَّ يُدركْهُ الموتُ فقدْ وقعَ أجرُهُ على اللهِ وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً﴾[10].

وقد كان الرسول ﷺ يسأل قريشاً: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونني؟ فيقولون: نعم، أنت عندنا غير متهم. اذن لم يكن ما بالقوم أنهم لا يصدقونه أو ينكرون فيه الأمانة، وإنما كان بهم أنهم ينفرون من التصديق كما ينفر المرء من خبر صادق يسوؤه فيمن يحب أو فيما يحب.

والحقيقة فإن رسول الله ﷺ لم يكن متهماً في قومه، فعن عبدالله بن عباس قال: حدثني أبو سفيان بن حرب من فيه إلى فيَّ، قال: انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ، قال: فبينما أنا في الشام، إذ جيء بكتاب من النبي إلى هِرَقْل، قال: وكان دِحيةُ الكلبيُّ جاء به، فدفعه عظيم بُصرى إلى هِرَقْل، فقال: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ؟ قالوا: نعم، فَدُعِيتُ في نَفَرٍ من قريش، فدخلنا على هِرَقْل، فأجلَسَنا بين يديه، فقال: أيُّكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ؟ قال أبو سفيان: فقلت: أنا، فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خَلْفي، ثم دعا بتَرجُمانه، فقال: قل لهؤلاء: إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه

---

١٠ - سورة النساء : الآيات ٩٧ - ١٠٠.

نبيٌّ، فإن كَذَبني فَكَذِّبوه، قال أبو سفيان: وأيْمُ الله، لولا أن يُؤثَرَ عليَّ الكَذِبُ لكذَبتُه، ثم قال لترجمانه، سَلْهُ: كيف حَسَبه فيكم؟ قال: قلت: هو فينا ذو حَسَب، قال: فهَل كان من آبائه من مَلِكٍ؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونَهُ بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يَتَّبِعه أشراف الناس أو ضعفاؤهم؟ قال: قلت: لا، بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: لا، بل يزيدون، قال: هل يَرتَدُّ أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سَخْطةً له؟ قال: قلت: لا، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال: قلت يكون الحربُ بيننا وبينه سِجالاً، يُصيب منّا ونُصيب منه، قال: فهل يَغدِر؟ قال: قلت: لا، ونحن منه في هذه المدة، لا ندري ما هو صانع فيها؟ - قال: والله ما أمكنني من كلمة أُدخل فيها شيئاً غير هذه - قال: فهل قال هذا القولَ أحدٌ قبله؟ قلت: لا، ثم قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه فيكم، فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تُبعَثُ في أحساب قومها، وسألتك: هل كان من آبائه مَلِكٌ؟ فزعمت أن لا، فقلتُ: لو كان من آبائه مَلِكٌ، قلتُ: رجل يطلب مُلك آبائه، وسألتك عن أتباعه: أضُعَفاؤهم، أم أشرافهم؟ فقلتَ: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت: أن لا، فعرفتُ أنه لم يكن لِيدَعَ الكذب على الناس، ثم يذهبَ فيكذبَ على الله، وسألتك: هل يرتدُّ أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سَخطةً له؟ فزعمت: أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشةَ القلوب، وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون؟ فزعمت: أنهم يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك: هل قاتلتموه؟ فزعمت: أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالاً، ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسُل تُبتَلَى، ثم تكون لها العاقبة، وسألتك: هل يغدِر؟ فزعمت: أنه لا يغدِر، وكذلك الرسل لا

تَغدرُ، وسـألتك: هل قال هذا القـول أحدٌ قبله؟ فـزعمت: أن لا، فقلت: لو كان قـال هذا القـول أحـد قبله، قلت: رجل ائتـمَّ بقول قـيل قـبله، قـال: ثم قـال: بمـا يأمـركم؟ قلنا: يـأمرنا بـالصلاة، والزكـاة، والصِّلة، والعفـاف، قـال: إن يَكُ مـا تقـول حـقـاً: فـإنه نبي، وقـد كنتُ أعلم أنه خـارج، ولم أكُ أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلُصُ إليـه لأحْبَبْتُ لقـاءهُ، ولو كنت عنده لغـسلتُ عن قـدمـيـه، وليبلُغَنَّ ملكُه ما تحت قَدَميَّ، ثم دعا بكتاب رسولِ الله ﷺ، فقرأه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهـدى، أمـا بـعـد: فـإني أدعـوكَ بدِعـاية الإسـلام، أسلِمْ تَسلَمْ، وأسلِمْ يُؤتِك الله أجرَك مـرتين، فإن توليت فإنَّ عليك إثمَ الأريسيِّين، و ﴿ ... يا أهلَ الكتـابِ تعـالَوْا إلى كلمـةٍ سـواءٍ بيننا وبينكمْ: ألا نعـبُدَ إلا اللهَ، ولا نُشـرِكَ بـه شـيـئًا، ولا يتَّخِذَ بعـضُنا بعـضـًا أربابًا من دونِ الله، فـإن تولّوا، فـقـولوا اشـهـدوا بأنّـا مـسلمـونَ ﴾[11] فلمـا فـرغ من قـراءة الكتـاب ارتفـعت الأصوات عنده، وكثُرَ اللَّغَط، وأمرَ بنا فأُخرِجنا، قال: فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أمِرَ أمرُ ابنِ أبي كَبْشة، إنه ليخافُهُ مَلِكُ بَني الأصفر، فما زلتُ مُوقِناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر، حتى أدخل الله علَيَّ الإسلام.

الهجرة إلى المدينة

بعد أن استحـال على المسلمين المقـام بين ظهراني قـريش لم يكن محـيص من الهـجرة من مكة ليإذا من الأسى والمعـاناة، ولم يكن أجدر من يثرب مـلاذاً، ولا أحنى وأبر من مسلميـها أنصاراً، وهم الذين عـاهدوا النبي في بيعـة العـقـبـة الكبـرى على نصـرتـه وعلى أن يمنعـوه مـمـا يمنعـون منه

١١ - سورة آل عمران : الآية ٦٤.

نساءهم وأولادهم.

فقد عزم رسول الله ﷺ على الهجرة إلى يثرب، ينشد في رحابها موئلاً يدرأ عنه شرة الكفار، وحمى يعصمه من كيدهم، وتقاة لدعوته تمهد لها قلوباً أسلس استجابة، ومطمأنا أوطأ أكنافاً وأهنأ مقاماً وأندى عطاء، وعصبية مسلمة أعز نفراً وأقوى نفيراً.

وكان بمنزل رسول الله ﷺ أمانات وضعها عنده المشركون لثقتهم في طهارته، فأبت نفسه الهجرة قبل رد الأمانات إلى أهلها[١٢]، لذلك أتى بعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه وكلفه بردها بعد أن أخبره بنبأ دار الندوة، حيث قررت قريش قتل رسول الله ﷺ بشكل جماعي على أن تشترك بذلك البطون العشرة المنتمية إلى قبيلة قريش، وقال له: «نم على فراشي وتسجّ ببردي.. لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم».

دعا النبي ﷺ من آمن بدعوته من أهل مكة إلى الهجرة إلى يثرب[١٣]، وكانت هذه الهجرة حداً فاصلاً بين عهدين للمسلمين: عهد كانوا فيه مستضعفين مخذولين على أمرهم، وعهد مشرق نضير، بدأت الشخصية الإسلامية في أكنافه تستكمل مقوماتها، وتبرز في أفقه وضيئة مؤتلقة، وما أن تهيأت لها الأسباب للممارسة السياسية حتى استقطبت أزمتها بإحكام

---

١٢ - حرص رسول الله ﷺ على رد الأمانات إلى أهلها قبل أن يغادر مكة مهاجراً، مع أنه لقي منهم الأذى والعنت والتآمر على قتله وتضييع دمه بين القبائل.

١٣ - "عن حبيش بن خالد صاحب رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ حين خرج من مكة خرج منها مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر ومولى لهم عامر بن فهيرة ودليلهما الليث بن عبيد الله بن الأريقط مروا على خيمتي أم معبد الخزاعية فسألوها تمراً ولحماً يشترونه منها فلم يصيبوا عندها من ذلك شيئاً وكان القوم مرملين مسنتين فنظر =

ونهضت في المحيط البدوي القبلي - ولأول مرة في تاريخه - دولة إسلامية.(١)

= رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد؟». قالت: خلفها الجهد عن الغنم. قال: «هل بها من لبن؟». قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «أتأذنين لي أن أحلبها؟». قالت: نعم بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها. فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها وسمى الله ودعا لها في شاتها، فتفاجت عليه ودرت، ودعا بإناء يربض الرهط، فحلب ثجاً حتى علاه إليها ثم سقاها حتى رويت ثم سقى أصحابه حتى رووا ثم شرب آخرهم، ثم حلب ثانياً بعد بدء حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها وبايعها وارتحلوا عنها. فقال ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً تساوكن هزلاً. فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال: من أين لك هذا يا أم معبد والشاة عازب حيال ولا حلوب في البيت؟ قالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا. قال: صفيه لي يا أم معبد. قالت: رجل ظاهر الوضاءة أبلج الوجه حسن الخلق لم تعبه ثجلة ولم تزر به صعلة وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، وفي عنقه سطع، وفي لحيته كثاثة، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حلو المنطق فصل، لا نزر ولا هذر كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، ربعة لا بائن من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً له رفقاء يحفون به إن قال أنصتوا لقوله وإن أمر تبادروا لأمره محفود محشود لا عابس ولا مفند.. قال أبو معبد: فهذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً".. مرملين: نفدت أزوادهم. كسر الخيمة: جانبها. يربض: يروي. تساوكن هزلاً: تمايلن. ويروى تشاركن: تساوين في الهزال. الشاة عازب: بعيد في المرعى. الأبلج: المشرق الوجه المضيئة. الثجلة: عظم البطن. الصعلة: صغر الرأس. الدعج: السواد في العين. الشُفْر: واحد أشفار العين وهي حروف الأجفان التي ينبتُ عليها الشعر وهو الهدب. الوطف: الطول. الصحل: البُحة. الأزج: الرقيق طرف الحاجبين. انظر الرياض النضرة في مناقب العشرة لأبي جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبري، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٤، الجزء الأول، ص: ١١٧ - ١١٩. وعن المعنى انظر: محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١، ص: ٣٤١.

وكان المجتمع في يثرب مجتمعاً ممزقاً تتوزعه عناصر متنافرة في مناهج حياتها وفي عقائدها وأفكارها، ويتمثل كل عنصر من هذه العناصر في قبيلة من قبائل العرب تختط لنفسها خطة من المدينة مستقلة بمساكنها وآطامها[15].

فقبيلة الأوس في شطر من المدينة وقبيلة الخزرج في شطر آخر، والعلاقات بينهما يسودها التوتر والتوفز والعداء المستحكم، لا تفتأ تؤجج أواره الثارات المتبادلة والمتجددة، تدعوهما إلى دوام الملاحاة والاحتراب، ولكل من الأوس والخزرج حلفاء من قبل العرب خارج يثرب وداخلها. تؤازرها حين الجلاد والحرب التي كثيراً ما كان وراءها مكر اليهود ودسائسهم.

وقد حدث قبيل وفادة الرسول ﷺ إلى يثرب أن نشبت الحرب بين قبيلتي الأوس والخزرج، وكان النصر فيها حليف الخزرج، ثم جمعت الأوس شملها وأعادت الكرة على الخزرج وانتصرت عليها في يوم مشهور بين قبائل العرب باسم يوم بعاث، وبهذا النصر تلظت وقدة الثأر وتجددت الترة بين الفريقين.

وقد كانت النقابة نظاماً إدارياً سائداً في المجتمع المحلي بيثرب فكان لكل قبيلة نقيب يتولى زعامتها وله فيها السيادة والريادة، وكان التنافس على هذا المنصب كلما شغر يثير نوازع الحسد والتباغض بين الطامعين فيه من سادة القبيلة.

ذلك كان الوضع الاجتماعي في يثرب حين الهجرة النبوية، أما من الناحية الفكرية فقد كان الوضع فيها أشد تناقضاً.

---

١٥ - الأطم : الحصن والبناء المرتفع : والجمع آطام.

فالأوس والخزرج قبيلتان وثنيتان مشركتان، وقد صادفت الدعوة الإسلامية فيهما صدى مقبولاً ومناخاً موطأ، وبدأ الإسلام يتغلغل في رحابهما وأسلم غير قليل منهما، وشخص من استجاب لدعوة الإسلام من الخزرج إلى النبي ﷺ يدعونه للمقام في يثرب ويبايعونه في العقبة الكبرى على نصرته وعلى أن يمنعوه وأصحابه مما يمنعون منه أنفسهم وأهلهم.

وهكذا كان المجتمع في يثرب حين وفد إليها النبي ﷺ مهاجراً، معتركاً محتدماً لا يفتأ ينبض بالعداء، يتحفز كل فريق للانقضاض على الآخر، ويتربص به الدوائر للإيقاع به والأخذ بسوالف الثارات المتجددة، خاصة بعد حرب يوم بعاث بين الأوس والخزرج ومن انتصر لكل منهما من قبائل اليهود.

وقد قرَّ في عزم النبي ﷺ أن يكون مقامه في يثرب مقام لبث واستقرار وأن يجعل منها مثابة ركينة للإسلام يدعم فيها كيان الدين ويشد أزر المسلمين ويوثق عراهم بأواصر اجتماعية وروحية قوية، ويجنبهم العنت والهوان اللذين طالما عانوا منهما في مكة وألجآهم إلى الهجرة منها، وأن يوفر لهم الأمن والأمان اللذين افتقدوهما وراحوا ينشدونهما مرة في الحبشة في هجرتين متواليتين الواحدة تلو الأخرى ومرة أخرى في يثرب، حيث انتهت بالنبي وبالمسلمين الهجرة والمقام، وذلك حتى يتوفر على الدعوة لدين الله في يسر وطمأنينة، ويهيىء لها جواً فتيقاً للازدهار.

فوطد النبي ﷺ عزمه على وضع الأسس الراسخة التي تؤمِّن المسلمين وتنظم علاقاتهم الاجتماعية فيما بينهم ومع جيرتهم من مواطني المدينة في إطار موحد من الألفة والموادعة والمعاونة.

فبدأ بدعم الأواصر بين المهاجرين المكيين وبين الأنصار من أهل يثرب، وفيهما يتمثل المجتمع الإسلامي، فآخى[16] بينهما، وحل الإسلام محل قرابة الدم والنسب في شؤون الحياة، فكان الأنصار يؤثرون المهاجرين على ذواتهم بطيب نفس ورضا وجداني وديني عميقين.

وإذ قد اطمأن النبي ﷺ إلى المجتمع الإسلامي المتماسك، فقد عمل على تأمين جانبه وتوطيد مركزه وسط ذلك المشيج الإنساني المتنافر الذي كانت تعج به يثرب.

فوجه عنايته عليه السلام إلى مجتمع يثرب بأسره، وعمل على أن يتألفه ويزيل ما يوقره ويؤوده من ثارات محتدمة لا يفتأ يتلظى ضرامها، وأن ينظم معاملاته وعلاقاته الاجتماعية، على مبادىء التضامن والتكافل، وأن يوحد سلطة الإشراف والمراقبة فيه فلا تتنازعها العصبيات المتصارعة.

فشرع في تنظيم المجتمع اليثربي تنظيماً جماعياً على أساس {إنما المؤمنون أخوة} بما يوفر للمسلمين - وكانوا بعد قلة غير أولي شوكة - حمى منيعاً يعتصمون به ويضمن لهم الأمن والأمان، ولجماع المواطنين المنعة والهدوء والطمأنينة.

كما بين رسول الله ﷺ أن من أسلم من اليهود والنصارى إسلاماً خالصاً من نفسه ودان دين الإسلام فإنه من المؤمنين له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يُفتن عنها. واهتم رسول الله ﷺ بالمعاهدين فقال: «من ظلم معاهداً أو انتقضه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة».

---

١٦ - عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، بيروت، المجمع العلمي العربي الإسلامي، ١٣٧٤هـ، ص: ١٤٣ - ١٤٤.

الدولة الإسلامية في المدينة

انعقدت ولاية المسلمين للرسول ﷺ بأمر من الله سبحانه وتعالى، وإيمان من المسلمين وتسليم، وقد تردد فحوى الأمر الإلهي في طائفة من آي القرآن الكريم حيث يقول جل شأنه: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكمْ فإن تنازعتمْ في شيءٍ فردُّوهُ إلى الله والرسولِ إن كنتمْ تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾[17].

وقوله تعالى: ﴿... ومن يُطعِ اللهَ ورسولَهُ يُدخلْهُ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها وذلكَ الفوزُ العظيمُ. ومن يَعصِ اللهَ ورسولَهُ ويتعدَّ حدودَهُ يدخلْهُ ناراً خالداً فيهَا ولهُ عذابٌ مهينٌ﴾[18]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُهُ أمراً أن يكونَ لهمُ الخِيَرَةُ من أمرهمْ ومن يعصِ اللهَ ورسولَهُ فقدْ ضلّ ضلالاً مبيناً﴾[19]. وقوله عز وجل: ﴿... ومن يُطعِ اللهَ ورسولَهُ فقدْ فازَ فوزاً عظيماً﴾[20]. وقوله جل شأنه: ﴿... وما آتاكمُ الرسولُ فخذوهُ وما نهاكمْ عنهُ فانتهُوا ...﴾[21].

وبذلك تولى رسول الله ﷺ ولاية المسلمين سواء في أمور العقيدة والدين أو في السياسة وتصريف شؤون الحكم والإدارة العامة.

وقد بلغ من إيمان المسلمين برسالة نبيهم وتسليمهم له بالولاية عليهم

---

١٧ - سورة النساء، الآية ٥٩.

١٨ - سورة النساء، الآية ١٣ و ١٤.

١٩ - سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

٢٠ - سورة الأحزاب، الآية ٧١.

٢١ - سورة الحشر، الآية ٧.

أن الرجل كان إذا اقترف إثماً في ستر غير مشهود، أتى رسول الله ﷺ طائعاً مختاراً واعترف له بزلته بواعز ديني عميق، واستسلم لتوقيع الحد عليه تكفيراً عن إثمه حتى ينقى إيمانه وسريرته من أدران المعصية.

وهكذا كان رسول الله ﷺ على رأس الدولة الإسلامية الناشئة وقد دانت له فيها القيادة الدينية والإدارية معاً، حيث استتب الأمر واكتملت مقومات الدولة على يديه، وانتقلت البلاد من حالة القبلية البدائية إلى النظام الإداري الرتيب، يسوسها بحدب ورعاية حانية ويرسي قواعدها ويضع معالمها ويحدد مسارها على الأسس التي اشترعها الله في كتابه الكريم لتنظيم العلاقات الفردية والجماعية والسياسية للدولة.

وكانت الحكومة الإسلامية حكومة دستورية شورية، تلتزم بمبادئ الدستور السماوي - القرآن الكريم - والسنة النبوية المطهرة، وإن يكن هذا الدستور غير مبوب في مواد متتابعة على ما جرى عليه العرف في الزمن الحاضر، إلا أن نصوصه جلية صريحة، تفصل الحقوق والواجبات لكل من الحكام والرعية، بحيث لا يستأثر الحكام بجماع الرأي بل يتحرون الصالح العام عن طريق المشاورة والقياس على الأصول الشرعية وما يجتمع عليه رأي الأمة وما يحقق لها مصالحها.

هذا ، ولم يفرض النظام الإسلامي أسلوباً معيناً لممارسة الشورى في ذلك المجتمع البدوي، أو منهجاً مسنوناً لاختيار ذوي المشورة من بين قبائل العرب المنبثين في شعاب الصحراء المترامية الأطراف، فقد ترك الأمر في ذلك لظروف العصر وتقاليد البيئة والمتاح من الأنماط والسبل المناسبة.

ومع ذلك ، فقد أفسح النبي ﷺ المجال لأمته في المناسبات الهامة

لكي تعبر عن رأيها في زعامته السياسية وقراراته الإدارية واختيار ولائهم له في نمط من الاستفتاء العلني العام يمارسه الصفوة من حكماء المسلمين وذوي الرأي والبصيرة من رجالاتهم، وهو قصارى ما يمكن انتهاجه وسيلة لاستطلاع الرأي العام في ذلك المجتمع الأمي البدوي. وسرعان ما كان المسلمون يهرعون إلى النبي ﷺ يبايعونه جهرة وعلى مشهد من الملأ، أي يعاهدونه بطريق المصافحة ويفوضونه في التصرف في أمورهم بإجماع فدائي، ويعلنون بمحض الولاء والإجلال تشرفهم برهن ثقتهم بإرادته، وبالانضواء تحت لوائه والاستظلال بأفياء حكومته، كما حدث في بيعة العقبة الكبرى، ثم في بيعة الرضوان تحت الشجرة لمناسبة عقد صلح الحديبية.

أما زعامة النبي ﷺ الدينية فهي أمر مسلم به بحكم التصديق بنبوته، فإن مجرد اعتناق الإسلام يتضمن بالضرورة الإيمان برسالته عليه الصلاة والسلام وزعامته الدينية.

وكان رائد النبي ﷺ في استشارة صحابته وذوي الحنكة والرأي من المسلمين قوله عليه الصلاة والسلام «يد الله مع الجماعة»[22]، وقوله أيضاً «لا تجتمع أمتي على ضلالة».

---

٢٢ - أخرجه الترمذي عن عبدالله بن عباس برقم ٢١٦٧ في الفتن باب رقم ٧، انظر أيضاً: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد (ابن الأثير الجزري)، جامع الأصول في أحاديث الرسول، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣، الجزء السادس، ص: ٥٦٤ وروي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يجمع أمتي - أو قال: أمة محمد - على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومن شذّ شذّ إلى النار» أخرجه الترمذي برقم ٢١٦٨ في الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، ويد الله على الجماعة: سكينته وأمنه ورحمته.

وكـان النبي ﷺ ينزل على مـا يسـتـصـوب من رأى ذوي شـوراه ومـا ينعقد عليه إجماعهم وإن بدا مخالفاً لبعض رأيه، كما فعل في وقعة بدر إذ نزل على رأي الحباب بن المنذر حين اختار منزلاً لجيش المسلمين غير الذي أشار به النبي ﷺ، وكما فعل في غزوة أحد حين أخذ برأي الأغلبية فخرج من المدينة لمواجهة المشركين، ولو أنه كان يفضل أن يقاوم في المدينة.

ذلك هو التقويم العام لشكل الدولة الإسلامية، حيث جمعت ولاية رسول الله ﷺ لأمور المسلمين بين صفة البشرية وصفته كنبي رسول.

فـأما صـفـتـه كنبي مـرسل فـمناطهـا الوحي بطريق القـرآن الكريم ثم الإلهام الرباني بطريق الحديث النبـوي الشريف. وأما بشريته عليه السلام فكانت مثالية النمط علوية السجايا كاملة المعاني الإنسانية وفضائلها ، ولا غرو فقد وصفه الله بقوله : ﴿وإنكَ لعلى خلقٍ عظيمٍ﴾[23] . ووصف النبي ﷺ نفسه بقوله: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

فمـا لم ينزل فيه وحي من شؤون الحياة العامة فكان الاجتهاد مناط حكمه فيه بالمقايسة على أحكام القرآن الأصولية.

أما في شؤون الحياة فكان اجتهاده مجرد رأي شخصي، كما حدث حين سئل عن تأبير النخل (أي تلقيحه) فأشار بعدم التأبير، فلما لم يثمر النخل في العام التالي لعدم تأبيره عدل الرسول عن رأيه ذاك وقال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» ويعتبر هذا القول مبدأً عاماً لمثل هذه الحالات من الشؤون العامة.

وكان النبي ﷺ حتى في قضائه بين الناس تغلب عليه طبيعته البشرية بما لها وما عليها، فهو يقرر أن لا سلطان له على السرائر، فهي من علم الله

---

٢٣ - سورة القلم : الآية ٤ .

وحده، وأن حكمه الشخصي فيما يقضي به إنما يصدره اجتهاداً منه فحسب، ولم يكن ليستنكف أن يعدل عن رأي له لما يرى أنه أصوب من آراء صحابته.

وهكذا يتبين مما أوردنا من أمثلة ووقائع أن رسول الله ﷺ لم يكن يصر على رأيه الخاص فيما كان يعن له من الشؤون الدنيوية العامة، مما لم يرد فيه نص من القرآن، وإنما كان ينسبه إلى محض رأيه ويأخذ به أو يعدل عنه مؤثراً رأي شوراه.

ولا يشوب الإدارة النبوية نزوله عليه السلام على رأي ذوي شوراه، فإنما هو بذلك يطبق حكم الله في سياسة أمور المسلمين الذي يقضي بالتزام الشورى فيما يعرض له من الأمور العامة، فيما ليس من مسائل الوحي وثوابت الحلول الربانية الحاسمة.

المسجد مجمع الإدارات العامة

لما كان الإسلام شريعة دينية وتشريعاً اجتماعياً، تعالج رسالته أمور المعاش والمعاد، بتكييف متوازن، ومزاوجة بين الدين والدنيا وثيقة العرى، فقد كان طبيعياً أن يجمع النبي ﷺ إلى رسالته الروحية، سياسة المجتمع المدني في الدولة التي وطّأ الإسلام نهجها، وأرسى رسول الله ﷺ قواعدها ووطد أركانها.

ولقد بادر رسول الله ﷺ فور وصوله إلى يثرب بإقامة مسجد له يؤدي فيه مناسكه ويبلّغ في رحابه رسالته الجامعة. وكان مسجداً غاية في البساطة، لا يعلو ارتفاعه قامة الإنسان إلا قليلاً، شيّدت جدرانه باللبن، وأقيمت دعائمه من جذوع النخل واتخذ سقفه من الجريد.

وإذ لم تعرف الدولة في مبتدأ نشأتها الدواوين مقراً لأجهزتها الإدارية ومثابة لولي أمرها يمارس سلطاته من خلالها، فقد كان طبيعياً أن يكون مجلس الرسول ﷺ في المسجد - مكانه المختار - هو مجلس الحكم يمارس منه سياسة المجتمع الإسلامي وتصريف شؤونه العامة.

وإذ كان المسجد مثابة الرسول ومجلسه المختار مع صحابته، فقد تعددت وظائفه في المجتمع الإسلامي. فهو في المقام الأول بيت الله ومثابة العبادة، حيث تؤدى فريضة الصلاة، وحيث يعتكف من شاء من المسلمين الاعتكاف، وكان رسول الله ﷺ يؤم المصلين فيه. ثم كان المسجد دار العلم يتلقى فيه الصحابة عن رسول الله ﷺ تعاليم الدين ويتدارسون القرآن ويتفقهون في أصول الشريعة.

كما كان المسجد دار الشورى يجتمع فيه ذوو الحنكة والحصافة، يتداولون الرأي مع رسول الله ﷺ فيما يمس شؤون الحياة وسياسة الدولة. وفيه كان يجلس الرسول للقضاء، يفصل فيما يشجر بين الناس وما ينشب بينهم من خصومات.

وقد تميّزت مظاهر الحكم في عهد رسول الله ﷺ بالبساطة المطلقة والبعد عن التكلّف وقيود المراسم المتحفظة والشكليات الرسمية التي تحف الهيئات الحاكمة وتتسم بها الدواوين عادة؛ خاصة وأن المسجد - وهو مقر الحكم ومجمع إداراته وأدواته - يتجافى عن الرسميات والمظاهر في أي من صورها بحكم وضعه في المجتمع الإسلامي، وضرورة انفتاحه للكافة لأنه بيت الله ومكان عبادته المفروضة على المسلمين خمس مرات في اليوم.

فكان رسول الله ﷺ إذا أراد دعوة المسلمين لأمر جلل يستشيرهم فيه أو يبلغهم حكماً من الله تنزل به الوحي عليه، دعا مؤذنه بلال بن رباح

رضي الله عنه فأذن للناس كما يؤذن للصلاة، إذ كان الأذان بديلاً عن رقاع الدعوة أو ما عرف من وسائل الإعلام والإعلان.

فإذا ما انعقد الجمع وكان ثمة ما يدعو للخطابة اعتلى رسول الله ﷺ منبراً متواضعاً من جذوع النخل، وألقى تعاليمه وأفضى إليهم بتعليماته وما عنَّ له إبداؤه لهم، حتى تبلغ الكافة بالسماع المباشر.

وكانت خطبة يوم الجمعة من كل أسبوع فريضة قبل أداء الصلاة، وفرصة لإبلاغ المسلمين ما يهمهم من أمور الدين والدنيا.

أما مجلس رسول الله ﷺ في المسجد - بيت الله ودار العبادة ومقر الحاكم - فكان غاية في البساطة والتواضع، حيث يتخذ مجلسه في ناحية منه يفترش الحصير ويحف به صحابته وكتاب وحيه ومن يستعين بهم من كتاب الإدارة العامة في بساطة يجللها الوقار، لا يستعين في ذلك بأي من مظاهر السلطان، فلا عرش ولا تاج ولا صولجان، ولا طيلسان ولا بلاط أو حاشية، ولا يقف دون بابه حجاب ولا حراس، فالمسجد بيت الله مفتوح للمسلمين، متاح للكافة، يغشونه دون استئذان أو سبق مواعدة.

وإذا وفدَ رسول الله ﷺ على مجتمع والناس جلوس أقرأهم السلام وأخذ مكانه بينهم حيث ينتهي به المجلس في تواضع دون امتياز أو تميّز، ودون اصطناع لمراسم أو تقاليد لاستقباله أو لوداعه.

وكان يأبى عليهم الوقوف له إعظاماً وإجلالاً ويقول: «لا تقفوا لي كما تفعل الأعاجم ولا تسودوني في الصلاة» كما كان يمنع من يحاول تقبيل يده ويقول له: «هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك إنما أنا رجل منكم».

فإذا أخذ مجلسه خيمت عليهم السكينة، وتعلقت به قلوبهم، واشرأبت أعناقهم، وشخصت إليه أبصارهم دون أن يحدوا النظر إليه إجلالاً ومهابة،

يأخذون عنه، ويتأسون به في قوله وفي حركاته وسكناته بوعي وحرص وامتثال. فإذا صافحه أحد لم ينزع يده بعد المصافحة حتى يكون هو البادىء ينزع يده، وإذا خاطبه أحدهم أحسن الإصغاء إليه والتفت إليه بكل جسمه ابتعاثاً للثقة والطمأنينة إلى نفسه.

وكانوا يخاطبونه برسول الله دون تكنية يعظمونه بها وبدون إضافة ألقاب التفخيم التي تضفى على الملوك والحكام.

المستويات الإدارية للدولة في المدينة

أولاً - الإدارة العليا :

الإدارة العليا هي مجمع السلطات العامة التي تضع للدولة سياستها وتسن تشريعاتها ومناهجها المسيطرة على شؤونها الداخلية والخارجية. وكانت في صدر الإسلام تتمثل في شخص رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، كما تشمل الولاة المفوضين في نطاق ولاياتهم. فهؤلاء بيدهم مقاليد الحكم ويمثلون الحكومة المركزية وجماع السلطات الإدارية.

وكانت سلطة الإدارة العليا في معالجتها للشؤون العامة محكومة بعاملين أساسيين يوجهانها: أحكام الدين ونظام الشورى.

فسلطة أولي الأمر مقيدة ابتداء بالدستور الإسلامي الأعظم - القرآن الكريم - يتحتم اتباع أحكامه بدقة والتزام، وإلا أضحت آراؤهم وتصرفاتهم مهدرة غير مشروعة.

ومن جهة أخرى فقد كان لزاماً على أولي الأمر، وقبل البت في الأمر الجلل من الشؤون العامة، أن يستشيروا ذوي الرأي والدراية من المسلمين،

سواء على المستوى الشعبي العام أم على المستوى الرسمي الخاص، وذلك امتثالاً لما قضى به القرآن الكريم إذ شرع الشورى فريضة واجبة في المجتمع الإسلامي.

ويعتبر ذوو الشورى بمختلف مستوياتهم ممثلين لأفراد الشعب، بما يقابل أعضاء مجالس النواب والشيوخ والشورى في عصرنا الراهن.

وكان لرسول الله ﷺ، كما كان لكل من الخلفاء الراشدين، «مجلس نقباء» وهو مجلس رسمي للشورى يضم الصفوة من ذوي الرأي والبصيرة يتداول معهم أوجه الرأي فيما يهم من الشؤون العامة، وذلك فضلاً عمن يرى استشارتهم من ذوي الحنكة والحصافة من أفراد الأمة فيما يرى الرجوع فيه إلى عامة المسلمين، وصولاً للرأي الأمثل وتحرياً للصالح العام.

ثانياً - الإدارة التنفيذية :

تلي الإدارة العليا التي تمثل الحكومة المركزية - على النحو السالف - الأجهزة الإدارية التي تتولى الإشراف على تنفيذ ما تمليه الإدارة العليا من سياسات ونظم.

ويمثل القائمون على هذه الأجهزة، الإدارة التنفيذية في التنظيم الإداري.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يعهد إلى رؤساء القبائل - في غالب الأحيان - جباية الفيء من جزية وصدقات، وتعليم المسلمين القرآن وتفقيههم بالدين، والقيام بالدعوة للإسلام. كما كان يعين من لدنه أحياناً بعض الجباة والقضاة للفصل في الخصومات.

ثالثاً - الإدارة المباشرة :

لم تكن ثمة إدارة مباشرة في الحكومة المركزية بمعناها المتميز المحدود. وانحصر وجودها في الأقاليم المفتوحة فحسب، وكانت تتكون عادة من أهل تلك البلاد.

ذلك أن الإدارة المباشرة لم تكن واضحة المعالم استقلالاً عن الإدارة التنفيذية. وكانت المتطلبات من البساطة بحيث لا تحتاج إلى طوائف من الموظفين.

الأسس العامة للإدارة كما وضعها رسول الله ﷺ

وضع رسول الله ﷺ النظام الأساسي لولاية أمور المسلمين وسياسة مجتمعهم وقعّده على دعائم أصولية تعالج مناهج الحكم ومقومات المجتمع، يأتي في طليعتها ما يلي:

- التزام الشريعة الإسلامية.
- الشورى.
- التكافل الاجتماعي.
- المساواة.
- كفالة الحريات العامة.

ويعتبر شرط الالتزام بالشريعة الإسلامية الشرط الجوهري الذي يجب أن يلتزم به ولي الأمر حتى يستأدي حقه على الرعية في طاعته.

فلئن قضى الله سبحانه وتعالى لولي الأمر بطاعة المسلمين، فإنما قرن هذه الطاعة أولاً بطاعته هو - سبحانه وتعالى - وطاعة رسول الله ﷺ

وذلك في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكمْ فإن تنازعتمْ في شيءٍ فردُّوهُ إلى اللهِ والرسولِ إن كنتمْ تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾[24].

ويحدد الرسول ﷺ ضوابط الطاعة المفروضة على المسلمين لأولياء أمورهم في قوله: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[25].

فطاعة الرعية لولي الأمر مرهونة بامتثاله لأحكام الله فيما يقضي به ويحمل الرعية عليه، ويحكم هذه الطاعة المبدأ الإسلامي العام الذي دعا إليه في خطبة الوداع بأن «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

وعلى هدى من هذا المبدأ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول الخلفاء الراشدين، في خطبته حين ولي الخلافة: «قد وُليت عليكم واست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم. فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم»[26].

حرص رسول الله ﷺ على بناء الإنسان

في إدارة الرسول ﷺ للدولة في مجتمع المدينة اهتم ببناء الإنسان أكثر من التنظيمات والبُنى التنظيمية حيث لم تكن الحاجة لها قائمة. ولعل

---

٢٤ - سورة النساء، الآية ٥٩.

٢٥ - رواه البخاري.

٢٦ - عبد السميع سالم الهراوي، لغة الإدارة في صدر الإسلام، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص: ٥٠ - ٥٣ و ٢٠٧.

من بعض الأمثلة التي توضح أسلوب إدارة الرسول ﷺ وحرصه على بناء الإنسان تركيزه على الضمير الأخلاقي في السلوك.

روى مسلم عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

والبر هو جماع أفعال الخير ، وعرّفه رسول الله ﷺ بأنه حسن الخلق. أما الإثم فهو ما يُكره أن يطلع عليه الناس إذا حاك في النفس. وهذا مقياس نبوي دقيق يعتمد على ما تحس به الضمائر بمشاعرها الوجدانية، يقوم على الحس الأخلاقي أو الضمير الأخلاقي. لأن لدى النفس الإنسانية حساً خلقياً بالخير والشر. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «استفتِ قلبك» في حديث رواه أحمد والدارمي عن وابصة بن معبد قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «جئت تسأل عن البر؟ «قلت: نعم، فقال: «استفتِ قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

وقد أعطى رسول الله ﷺ، في حالة اختلاط الأمر والتباسه، أو غموض مدرك الحكم فيه على الحس الأخلاقي، مقياساً آخر وهو اتقاء الشبهات. روى البخاري ومسلم من عدة طرق عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بيِّن، وإن الحرام بيِّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد

الجسد كله، ألا وهي القلب». وروى الترمذي عن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «دَعْ ما يَريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة». وقد مثّل رسول الله ﷺ لما يحدث الطمأنينة بالصدق ولما يحدث الريبة بالكذب. وفي هذا تنبيه على الحس الأخلاقي الموجود في ضمير الإنسان. وما ذاك إلا لأن الإنسان قادر على محاسبة نفسه ولهذا يُقال له يوم الحساب: ﴿اقرأْ كتابكَ كفى بنفسكَ اليومَ عليكَ حسيباً﴾[٢٧].. كما وضع رسول الله ﷺ قواعد لهداية البصيرة الأخلاقية لدى الإنسان من بعضها:

- روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره» وفي رواية مسلم «حُفَّت النار بالشهوات، وحفت الجنة بالمكاره».
- روى البخاري ومسلم عن أنس أن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه».
- وروى الترمذي عن عطية بن عروة السعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً لما به بأس».

وقد أقام رسول الله ﷺ مجتمع المسلمين على أساس التحرر الوجداني والمساواة الإنسانية والتكافل الاجتماعي مؤكداً أن لا عبودية لأحد غير الله، وأن ليس بين الإنسان وربه وسيط، وأن الله وحده هو مالك الملك ورب البشر. فليس في الإسلام كهانة ولا وساطة بين الخلق والخالق، والإمام المسلم لا يستمد ولايته من (الحق الإلهي)، كما كان الحال في

---

٢٧ - سورة الإسراء، الآية ١٤.

أوربا وإنما يستمد سلطته ذاتها من تنفيذ الشريعة. فمن حديث لأبي هريرة أن رسـول الله ﷺ قـال: «... الناس كلهم بنو آدم وآدم خلق من تراب»[28].

وبذلك وضع رسول الله ﷺ أساس نظرية الحكم في الإسلام القائمة على أن الحاكمية لله وحده، وعلى العدل من الحكام تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل ...﴾ وعلى الطاعة من المحكومين ما دام الحكام منفذين لكتاب الله، حيث روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى»، وعلى الشورى، تنفيذاً لقول الله: ﴿... وشاورهمْ في الأمرِ ...﴾[29] و ﴿... وأمرهمْ شورى بينهمْ ...﴾[30].

لقد تمكن رسول الله ﷺ بحسن إدارته وقيادته الحكيمة من جعل الأمة البادية الجاهلة المتفرقة (خير أمة أخرجت للناس)، فقد امتزجت روح الإسلام بأرواح المسلمين[31]، واستأصلت منها حب

---

28 - جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء العاشر، ص ٦١٧، أخرجه الترمذي برقم ٣٢٦٦ في التفسير، باب ومن سورة الحجرات، وهو حديث حسن.

29 - سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

30 - سورة الشورى، الآية ٣٨.

31 - مما يروى بهذا الصدد أن رسول الله ﷺ مرّ وهو راجع بامرأة من بني دينار قد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير إليه حتى إذا رأته، قالت: كل مصيبة بعدك جلل (أي هينة).. هذه امرأة من غمار الناس لم تذكرها السيرة إلا عرضاً لا يشغلها قتل زوجها وأخيها وأبيها وبقاؤها وحيدة عن إيمانها وحبها رسول الله ﷺ =

الدنيا[32] وانتزعت منها الطمع والحسد والغش والكذب[33]، وأنشأت من

= فتتلقى مصيبتها بصبر لا يضيق بخطب وبصدر رحب قد ملئ إيمانًا.
وعن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه شلاء، وقى بها النبي ﷺ يوم أحد. أخرجه البخاري وأبو حاتم. وقال الزبير بن بكار وغيره: أبلى طلحة رضي الله عنه يوم أحد بلاءً حسنًا، وثبت مع رسول الله ﷺ ووقاه بيده فشلت.. انظر الرياض النضرة للمحب الطبري، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص: ٢٥٤ - ٢٥٥.

٣٢ - يروي أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ عندما قال للمسلمين في معركة بدر: هلموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، كان لهذه العبارة وقع عميق في نفس عُمير بن الحُمام الأنصاري فاخترج تمرات من قَرَنه.. ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة!.. فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتل المشركين حتى قتل. أخرجه مسلم برقم ١٩٠١ في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد. اخترج افتعل من الإخراج أي: أخرج. قَرَنه: جعبة تتخذ من جلد تخزن فيها السهام. انظر في ذلك: جامع الأصول لابن الأثير المرجع السابق، الجزء الثامن ص ١٨٢.
وهذه نسيبة أم عمارة الأنصارية تركت سقاء الجرحى يوم أحد وأخذت تقاتل دفاعاً عن رسول الله ﷺ فأصيبت بجرح عميق في عنقها وكان معها زوجها وابناها فقال لهم ﷺ: بارك الله عليكم أهل بيت. فقالت له نسيبة: ادع الله أن نرافقك في الجنة. فقال رسول الله ﷺ: اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة. فقالت رضي الله عنها: ما أبالي ما أصابني من أمر الدنيا. وقد قال رسول الله ﷺ في حقها: ما التفت يميناً وشمالاً يوم أحد، إلا ورأيتها تقاتل دوني. وقد جرحت يومئذ اثني عشر جرحاً ما بين طعنة برمح وضربة بسيف، انظر في ذلك: د. السباعي، المرجع السابق: ص ٨٥

٣٣ - روى سفيان بن اسيد الحضرمي أن رسول الله ﷺ قال: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب» أخرجه أبو داود برقم ٤٩٧١ في الأدب. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع». أخرجه مسلم، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع. =

أصحابها -وكانوا يعبدون الأصنام في جاهليتهم، ويئدون بناتهم، ويتحاربون فيغزوا بعضهم بعضاً ويأكل قويهم ضعيفهم - قوماً هم خلاصة البشر وغاية ما يبلغه السمو الإنساني.

وكان معين الإدارة مستمداً من العقيدة الإسلامية التي أنشأت من أصحابها قوماً يغضبون لله ويرضون لله، وقد ماتت في نفوسهم الأهواء ولم يبق إلا دين يهدي وعقل يستهدي وظلت تلك العقيدة أصل كل خير ناله المسلمون، ثم كان وهنها في نفوس المتأخرين منهم أصل كل شر نالهم بعد ذلك.

تلك الأمة البدوية التي فرقها الجهل والخلاف، فلا دين يوحد قبائلها ويهذب نفوسها، ولا حكومة تدير أمورها وتسوس شؤونها، باستثناء حكومة في العراق تخضع للفرس وحكومة في الشام تخضع للروم.. ثم تنهض نهضة واعية لتضيء الدنيا بنور القرآن. وفي هذا بيان ساطع على سر الإسلام، فإذا هذا التفرق وهذه الجاهلية أخوة وتمسك بالفضائل، وإذا هذا الضعف والهوان قوة ومنعة، وإذا هذه الحمية الجاهلية تواضع لله. وإذا

= وعن عبدالله بن عامر قال: «دعتني أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت: ها تعال أعطيك، فقال لها رسول الله ﷺ: ما أردت أن تعطيه قالت أردت أن أعطيه تمراً، فقال رسول الله ﷺ: أما أنك لو لم تعطه شيئاً كُتبت عليك كذبة».. وعن بهز بن حكيم قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب ويل له.. ويل له». رواه أبو داود برقم ٤٩٩٠ في الأدب، باب في التشديد في الكذب، والترمذي برقم ٢٣١٦ في الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة ليضحك بها الناس، وإسناده حسن. الويل: الحزن والكرب، وإنما يقال ذلك عند المكروه، وقيل: هو شدة العذاب، وقيل: هو اسم واد في جهنم. انظر أيضاً: جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء العاشر، ص: ٥٩٩ - ٦٠٢.

بفـرد من بني وهيب وهو سـعـد بن أبي وقـاص رضي الله عنه يكون بسـر الإسلام قائداً يدك بنيان الجور والجبروت الفارسي في القادسية. وإذا بفرد من بني عدي وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكون بسر الإسلام قائداً عـادلاً يبـرز في الإدارة والسـيـاسـة فـيـسـوس الجـزيرة الـعـربيـة وبلاد الشـام والرافدين وإفريقية.

قوم ينصب لهم أميرهم قاضياً فيلبث سنة لا يختصم إليه اثنان!.. لأن كل واحد منهم يعرف ما يحق له وما يجب عليه، ويحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويسـعى ليسلم الناس من لسانه ويده. وكان ذلك التزامـاً بالمبـادىء العـامة التي أعلنهـا رسول الله ﷺ في حجة الوداع بقوله: «أيهـا الناس، اسمعـوا قـولي لا أدري لعلي لا ألقـاكم بعـد عـامي هذا بهـذا المـوقف أبداً (وهذا بحـد ذاته بصيرة معجزة له ﷺ) إن دمـاءكم وأمـوالكم عليكم حـرام إلى أن تلقـوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسـألكم عن أعمالكم..»[٢٥].

بل إن الخلاف الذي ما يكاد يخبو حيناً في مجتمع المدينة إلا ليستعر بين الأوس والخزرج أحياناً أخرى بتأثير العصبية وأحابيل اليهود، قد تحول إلى إخاء ومودة امتثالاً لتوجيه رسول الله ﷺ في حديث رواه سعد بن أبي وقـاص رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال: «قـتـال المسلم كفر وسـبابه فسق» وفي حديث آخر رواه سالم مولى عبدالله بن عمر أن رسول اللـه ﷺ قال: «لا يحل لمسلم تفزيع مسلم»[٢٦] وعن أبي هريرة أن رسـول الله ﷺ قـال:

---

٢٥ - د. السباعي ، المرجع السابق ، ص: ١٦٤.

٢٦ - أخرجه رزين، وقد رواه مسلم بمعناه مختصراً. انظر أيضاً: جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء العاشر، ص ٧١.

«ليس الشديد بالصُرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٢٧]. وعن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لأهله»[٢٨].

وقد بلغ رسول الله ﷺ مستوى الكمال المطلق في توجيه الفرد المسلم فيما رواه أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «مامن مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[٢٩].

وفي بناء الإنسان حرص رسول الله ﷺ على أن يتناول خصائص

---

٢٧ - رواه البخاري ١٠ / ٤٣١ في الأدب، باب الحذر من الغضب، ومسلم برقم ٢٦٠٩ في البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب.. بالصُّرعة: بضم الصاد وفتح الراء: شديد الصَّرْع للرجال والمراد به ههنا: الحليم عند الغضب، وهذا من الألفاظ التي نقلها النبي ﷺ عن وضعها في اللغة بضرب من التوسع والمجاز، وهو من فصيح الكلام، كأنه لما كان الغضبان بحالة شديدة من الغيظ، فقهرها بحلمه وصرعها بثباته، كما يصرع الصُّرعة الرجال. انظر أيضاً: جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء الثامن، ص ٤٣٨-٤٣٩.

٢٨ - أخرجه الترمذي برقم ١١٦٢ وقال: هذا حديث حسن صحيح، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، وأبو داود برقم ٤٦٨٢ في السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، وإسناده حسن، انظر أيضاً: جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص ٥.

٢٩ - رواه البخاري ٥ / ٢ في الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، وفي الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ومسلم برقم ١٥٥٣ في المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، والترمذي برقم ١٣٨٢ في الأحكام، باب ما جاء في فضل الغرس، انظر أيضاً: جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء التاسع، ص ٥٧٧.

وصفات تنتظم في عقد متكامل بحيث يتحول الفرد إذا تحلّى بهذه الصفات إلى أشبه ما يكون بملاك يمشي على الأرض. ولعل من بعض ذلك:

- في توطيد صلة الفرد بربه وتربيته على عزة النفس والصبر

فعن ابن عباس قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[٤٠]. وفي رواية عند غير الترمذي: «احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أنّ النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسراً».

هذا الحديث الشريف يشتمل على كليات كبرى من كليات العقيدة والأخلاق الإسلامية. فهو يدل على اهتمام رسول الله ﷺ بالصغار، وحرصه على استغلال كل فرصة للتوجيه والتربية. كما يرشد إلى واجب المسلم في أن يحفظ حقوق الله ويؤديها خير أداء، وأن يكون قلبه معلقاً في كل المطالب بالله، مما يغرس في المرء عزة النفس، والرضى بقضاء الله وقدره، والصبر كأصل من أصول مكارم الأخلاق، ولأن «ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك» .. وفي هذا توجيه للإنسان بأن يؤمن بالقَدَر.

---

٤٠ - رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

- في التعاون .. والعلم .. والمسؤولية الشخصية

روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كُرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ماكان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له [به] طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلاّ نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه»[٤١].

في هذا الحديث حثّ على وجوه من معونة المؤمن لأخيه المؤمن، وتوجيه إلى التيسير والمسامحة[٤٢]، وأن يستر المسلم أخاه المسلم فلا يفضحه[٤٣]. وفيه دعوة إلى الأخذ بسبُل العلم والمعرفة وحثّ جميل على التماس العلم وسلوك طرقه، لأن العلم يوصل إلى معرفة الحقيقة وهذه

---

٤١ - رواه مسلم برقم ٢٦٩٩ في الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، وأبو داود برقم ٤٩٤٦ في الأدب، باب في المعونة للمسلم، والترمذي في الحدود، باب ما جاء في الستر على المسلم وبرقم ١٩٣١ في البر والصلة. أنظر أيضاً: جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء السادس، ص: ٥٦٢.

٤٢ - يقول رسول الله ﷺ: «حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال الله عز وجل: نحن أحقّ بذلك منه، تجاوزوا عنه» رواه مسلم.

٤٣ - يقول رسول الله ﷺ: «لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة». وعن عبدالله بن عباس أن النبي ﷺ قال: «من سمّع سمّع الله به، ومن راءى =

الحقيقة لابدّ أن تنقل الإنسان إلى معرفة الله. وينطوي الحديث على فضيلة الالتقاء لدراسة كتاب الله في المسجد حيث تتلاحم القلوب والأفكار، وكذلك دعوة إلى عدم الاعتماد على مجد النسب بل العمل الذاتي[44].

كما بين رسول الله ﷺ أن كل فرد في المجتمع مسؤول عن أداء واجب معين، ومسؤول مسؤولية شخصية.

فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع، ومسؤول عن رعيته، فالإمام راع، ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية، وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع، وهو مسؤول عن رعيته». قال: فسمعت هؤلاء من النبي ﷺ، وأحسب النبي ﷺ قال: «والرجل في مال أبيه راع، ومسؤول عن رعيته، فكلكم راع، وكلكم مسؤول

= راءى الله به» أخرجه مسلم. وسمّع فلان بفلان إذا فضحه وأظهر عيباً كان يستره، ومن فعل ذلك بالناس فإن الله يفعل به مثله، بأن يهتك ويكشف عيوبه إلى الناسِ في الدنيا والآخرة، ويجوز أن يريد بالتسميع الرياء أو بأن ينسب إلى نفسه عملاً صالحاً لم يفعله. وعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر مَن آمن بلسانه، ولم يدخلِ الإيمانُ قلبَه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتّبعوا عوراتهم، فإنه من اتّبَعَ عوراتِهم يتّبعِ اللهُ عورتَهُ، ومن يتّبعِ اللهُ عورتَهُ يفضحْهُ في بيته» أخرجه أبو داود، رقم ٤٨٨٠ في الأدب، باب في الغيبة، ورواه أيضاً أحمد في «المسند» ٤ / ٤٢١، وهو حديث صحيح.

٤٤ - مع أن أرقى الأنساب وأعظمها مجداً نسب محمد رسول الله ﷺ، فقد نادى في الأقربين من أهله فقال: «ياصفية عمةَ رسول الله اعملي لنفسك لا أغني عنك من الله شيئاً. يا فاطمة بنتَ محمد اعملي لنفسك لا أغني عنك من الله شيئاً، يا عباس ابن عبدالمطلب اعمل لنفسك لا أغني عنك من الله شيئاً». ولو كانت الأنساب تنفع أصحابها لنفع النسب إلى نوح عليه السلام ولَده الذي كان من المغرقين، لكن كفره بالله وسوء عمله قد قطع ما بينه وبين أبيه من وشائج النَسب.

عن رعيته» وفي رواية مثله إلا قوله: «والرجل في مال أبيه». وفي أخرى: «والعبد راع في مال سيده، وهو مسؤول»[45].

وفي أخرى للبخاري قال: «ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، الأمير الذي على الناس، والرجل على أهل بيته، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده، وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده، وهو مسؤول عنه، ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»[46].

- في الحضّ على العمل.. وإعفاف النفس والمحافظة على الكرامة

روى البخاري عن الزبير بن العوّام أن رسول الله ﷺ قال: «لأن يأخُذ أحدكم أحبُلَه ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمةٍ من حطب على ظهره فيبيعها، فيكفّ الله بها وجهه، خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطَوْه أو منعوه».

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خيرٌ من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه».

---

٤٥ - هذه رواية البخاري ومسلم.

٤٦ - أخرج الترمذي وأبو داود الرواية الأخيرة التي للبخاري. البخاري ١٣ / ١٠٠ في الأحكام، في فاتحته، وفي الجمعة، باب في القرى والمدن، وفي الاستقراض، باب العبد راع في مال سيده، وفي العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، وباب العبد راع في مال سيده، وفي الوصايا، باب تأويل قول الله تعالى: ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾، وفي النكاح، باب قوا أنفسكم وأهليكم ناراً، وباب المرأة راعية في بيت زوجها، ومسلم رقم ١٨٢٩ في الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، والترمذي رقم ١٧٠٥ في الجهاد، باب ما جاء في الإمام، وأبو داود رقم ٢٩٢٨ في الإمارة.

فالعمل وسيلة لاكتساب الرزق، وفيه صلاح للفرد والمجتمع. وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً بالنبي داود عليه السلام ليلفت أنظار المسلمين إلى قدوة حسنة في مجال العمل وليشحذ همتهم إليه. فقد روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: كان داود عليه السلام لا يأكل إلا من عمل يده». وروى البخاري عن المقدام بن معد يكرب عن النبي ﷺ قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنّ نبيّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده». فداود عليه السلام على الرغم من كونه ملكاً عظيماً وذا سلطان كبير، كان لا يأكل إلا من عمل يده، لأنّ انتفاع الإنسان في الحياة الدنيا من كسب يده أشرف له وأكرم لنفسه.

فالغنى غنى النفس كما روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض[47]، ولكن الغنى غنى النفس»، فكم من إنسان يملك الكثير من عرض الحياة الدنيا إلا أنه فقير النفس بشدة طمعه وبخله.

ومن الأمثلة الرائعة التي ضربها رسول الله ﷺ في الحض على العمل والمحافظة على كرامة الإنسان ما رواه أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله، فقال: أمَا في بيتك شيء؟ قال: بلَى، حِلْسٌ نَلْبَسُ بعضَه، ونَبْسُطُ بعضَه، وقَعْبٌ نَشْرَبُ فيه من الماء، قال: ائتني بهما فأتاه بهما، فأخذهما رسولُ الله بيده، وقال: مَنْ يشتري هَذَيْنِ؟ قال رجل: آخذهما بدرهم، قال رسول الله ﷺ: مَنْ يزيد على درهم؟ - مرتين أو ثلاثاً - قال رجلٌ: أنا آخذهما بدرهَمَيْنِ، فأعطاهما إياه، فأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاريَّ، وقال: اشترِ بأحدهما طعاماً، فانبِذْه إلى أهلك، واشترِ بالآخر

٤٧ - العرَض: ما يتموله الإنسان ويقتنيه من المال وغيره..

قَدُوماً فـائْتِني به، فـأتاه به، فـشَدَّ فـيـه رسـول الله ﷺ عـوداً بيـده، ثم قـال: اذهَبْ فاحتَطِبْ وَبِعْ، ولا أرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عشر يوماً، ففعل، فجاء وقد أصاب عشرةَ دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال له رسولُ الله ﷺ: هذا خـيرٌ لك من أن تجيء المسـألة نُكْتَةً في وجـهك يومَ القـيـامـة، إن المسـألة لا تَصلُحُ إلا لثـلاث: لذِي فـقـرٍ مُدْقِعٍ، أو لذي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أو لذي دمٍ مُوجِعٍ» أخرجه أبو داود[٤٨].

- في الصدق

أكد رسول الله ﷺ في بناء الإنسان على الصدق باعتباره الأصل في مكارم الأخلاق وما تفضي إليه من سلوكيات في التعامل، وفي بناء العلاقات مع الله ومع النفس ومع الناس. فعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصـدق يهـدي إلى البـر وإن البـر يهـدي إلى الجنة، وإن الرجل ليـصـدق حـتى يُكتب عند الله صـدّيقـاً، وإن الكذب يهـدي إلى الفـجـور وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذبُ حتى يكتبَ عند الله كذّاباً»[٤٩].

وعن صفوان بن سليم قال: قلنا: يا رسول الله أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، قيل له: أيكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: لا». أخرجه الموطأ. وعن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كذب العبد تباعد عنه المَلَكُ ميلاً من نتن ما جاء به» أخرجه الترمذي. وقد ذكرنا

---

٤٨ - الحلس: الكساء يكون على ظهر البعير، وسُمي به غيره من الأكسية التي تُمتهن وتُداس.

٤٩ - أخرجه البخاري ومسلم. البر: الإحسان والاتساع فيه، الفجور: الفحش، والأصل فيه الميل عن القصد.

سابقًا عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للذي يُحدث بالحديث ليُضحك به القوم، فيكذبُ، ويلٌ له، ويلٌ له» أخرجه أبو داود والترمذي[50]. وعن سفيان بن أسيد الجضرمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَبُرَتْ خيانةً أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق، وأنت له به كاذب» أخرجه أبو داود. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع» أخرجه مسلم وأبو داود.

- في بناء الشخصية ..

حرص رسول الله ﷺ في بناء الإنسان على بناء شخصيته لأن الشخصية هي من مكونات التكوين النفسي في الإنسان كما تذهب إلى ذلك الاتجاهات السلوكية في الإدارة.

فعن حذيفة وابن مسعود قالا: قال رسول الله ﷺ: «لا يكن أحدكم إمَّعةً، يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنتُ، وإن أساؤوا أسأتُ، ولكن وَطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناسُ أن تُحسِنوا، وإن أساؤوا أن لا تظلموا»[51].

- في العفو .. وحسن التعامل

بلغ رسول الله ﷺ في تعامله مستويات رفيعة من مكارم الأخلاق، وحرص في بناء الإنسان على توجيهه إلى الالتزام بالفضائل.. ومن ذلك ما

---

٥٠ – الويل: الحزن والكرب، وإنما يقال ذلك عند المكروه، وقيل هو شدة العذاب، وقيل: هو اسم واد في جهنم.

٥١ – أخرجه الترمذي عن حذيفة وحده، وقال فيه: «لا تكونوا إمعةً» فجمع. والأول ذكره رزين. ورجل إمَّعةٌ وإمَّعٌ بكسر الهمزة وتشديد الميم: إذا كان لا يثبت مع أحد ولا على رأي.

رواه عبدالله بن عمر قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم أعفو عن الخادم؟ فصمت عنه رسول الله ﷺ ثم قال: يا رسول الله: كم أعفو عن الخادم؟ فقال: اعف عنه كل يوم سبعين مرة». أخرجه الترمذي.

ونعتقد أن السبعين ليس رقماً بالضرورة، ولا تعني عدد مرات العفو وإنما تعطي صورة عن مدى التسامح الذي يجب أن يتحلى به الإنسان في تعامله.

وعن المعرور بن سويد من حديث رواه أبو ذر قال: «.. هم إخوانكم وخَوَلُكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليُطْعِمْه مما يأكلُ، ولْيُلْبِسه مما يَلْبَس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه».

- في الوفاء

في بناء رسول الله ﷺ للإنسان حرص على جعل الإنسان متكامل الصفات.. ملاكاً يمشي على الأرض أو كالملاك.

فالوفاء بالعهد هو من الفضائل ومن مكارم الأخلاق إذا كان في إطار العلاقات والتعاملات بين الناس في المجتمع. ولكن الوفاء بالعهد مع الأعداء، والالتزام بشرف الكلمة حتى مع من يغتنم الفرص للإيقاع بك هو خلق رفيع يتجاوز المستوى العادي. حدّث أبو الطفيل قال: حدثنا حذيفة بن اليمان قال: «ما منعني أنْ أشهدَ بَدْراً إلا أنِّي خرجتُ أنا وأبي، حُسَيْلٌ، فأخَذَنا كُفَّارُ قُريش، فقالوا: إنَّكم تُريدون محمداً، فقلنا: ما نُريده، ما نريد إلا المدينةَ، فأخذوا منَّا عهدَ الله وميثاقَه: لَنَنْصَرِفَنَّ إلى المدينة، ولا نُقَاتِلَ معه، فأتينا رسولَ الله ﷺ، فأخبرناه الخبر، فقال: انْصَرِفا نَفِي لهم

بعهدهم، ونستعينُ الله عليهم» أخرجه مسلم.

- في القناعة والعفة

لا يكون المرء مثالياً إذا تكالب على الدنيا وغرق في متعها ومتاعها، فقد يدفعه حب الدنيا وما فيها من مغريات إلى الانحراف فيأتي القبيح من الأعمال والسلوكيات ليحظى بالمتع. والدنيا لا تخلو من حلاوة.. وهي براقة نضرة كالزهرة في ريعانها ثم لا تلبث أن تذبل.. ولهذا حرص رسول الله ﷺ في بناء الإنسان على تأكيد أهمية القناعة والعفة، وإلا تحوّل المرء إلى حيوان يرتع ولا يشبع.

روى عبيد الله بن محصن أن رسول الله ﷺ قال: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[52]. وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لابنِ آدم حق في سوى هذه الخصال: بيتٌ يسكُنه، وثَوْبٌ يُوارِي عورتَه، وجِلْفُ الخبزِ والماء»[53]. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا نظرَ أحدُكم إلى مَنْ فُضِّل عليه في المال والخَلْقِ، فلينظر إلى من هو أسفل منه» أخرجه البخاري.

---

٥٢ - أخرجه الترمذي. ومعنى آمناً في سربه أي: في نفسه، يقال: فلان واسع السرب أي: رَخِيُّ البال وروي بفتح السين، وهو المسلك والمذهب. والحذافير مفردها حذفار وتعني عالي الشيء ونواحيه، ويقال: أعطاه الدنيا بحذافيرها أي بأسرها.

٥٣ - أخرجه الترمذي، وقال النضر بن شميل: «جِلْفُ الخبز» يعني ليس معه إدام، وفي رواية رزين «وجلف خُبز يَرُدُّ بها جَوْعَتَهُ، والماء القَراح». جلف الخبز: الخبز وحده لا أدم معه، وقيل: هو الخبز الغليظ اليابس، والقَراح: الذي لا يشوبه شيء ولا يخالطه، مما يُجعل فيه كالعسل والتمر والزبيب وغير ذلك مما يُتخذ شراباً.=

وفي رواية مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدرُ أن لا تزدَرُوا نعمة الله عليكم».

وتجدر الإشارة إلى أن ابتعاد الإنسان عن القناعة والعفة وإيثاره متع الدنيا وزينتها قد يدفعه إلى ارتكاب السيء من الفعال في أعماله وتعاملاته وعلاقاته نظراً لتكالبه على الدنيا وحرصه عليها وتناسيه الموت. وقد نبّه إلى ذلك رسول الله ﷺ في بناء الإنسان وقيادة المجتمع. روى ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «يوشكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عليكم كما تَدَاعى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها، فقال قائل: «من قلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنَّكم غُثاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، ولَيَنْزِعَنَّ الله مِنْ صدور عدوكم المهابةَ منكم، وليقذفنَّ في قُلُوبكم الوَهْنَ، قيل: وما الوهْنُ يا رسول الله؟ قال: حُبُّ الدُّنْيا، وكراهيَةُ الموتِ»[54].

- في التوبة والرجوع إلى الله

بيّن رسول الله ﷺ عفو الله ومغفرته وأنه جلّ جلاله يصفح عن الإنسان المذنب فإذا تاب توبة نصوحاً تاب الله عليه.

= وعن أبي أمامة الباهلي أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: إنَّ أغْبَطَ أوليائي عندي: مؤمنٌ خفيفُ الحاذ ذو حظٍّ من الصلاة، أحْسن عبادة ربّه، وأطاعه في السّرّ، وكان غامضاً في الناس، لا يُشار إليه بالأصابع، وكان رزقُه كفافاً فصبر على ذلك، ثم نقَرَ بيده، فقال: عُجِّلَتْ منيَّتُه، قلَّ تُراثُه، قلَّتْ بواكيه».
وبهذا الإسناد: أن النبي ﷺ قال: «عَرَض عليَّ ربِّي ليَجْعَلَ لي بطحاءَ مكةَ ذهباً، فقلت: لا يارَبِّ، ولكن أشبعُ يوماً، وأجوعُ يوماً، فإذا جعتُ تضرَّعْتُ إليكَ وذكَرْتُكَ، وإذا شبعتُ حَمدتُكَ وشكَرْتُك» أخرجه الترمذي.

٥٤ – أخرجه أبو داود، التداعي: التتابع، أي: يدعو بعضها بعضاً فتجيب. الأَكَلة: جمع آكل. الغُثاء: ما يلقيه السَّيل.

وتلك ناحية هامة في بناء الإنسان.. فقد يخطىء الإنسان ويأتي ببعض الأعمال غير الحسنة.. فهذا لا يعني أن يضيع ويسرف في المعصية ويتمادى في الزلّة لأنه تصوّر أن لا عودة أو سبيل للرجوع إلى الله، وهذا يعكس حرص رسول الله ﷺ على تنقية نفس الإنسان وتطهير أحاسيسه وفتح أبواب العودة إلى رحمة الله التي وسعت كل شيء.

فعن أنس بن مالك قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «قال الله: يا ابن آدم، إنك ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني غفرتُ لك على ما كان منك، ولا أُبَالي، يا ابنَ آدم، لو بلغتْ ذنوبُك عَنَانَ السماء، ثم استغفرتني: غَفَرْتُ لك، ولا أُبالي، يا ابنَ آدم إنك لو أتيتني بِقُراب الأرض خَطَايَا، ثم لَقِيتَني لا تُشْرِكُ بي شيئاً لأتَيْتُكَ بِقُرابها مَغْفِرَةً»[55].

كما رُوِي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كان رجل يُسْرِفُ على نَفسه، فلما حَضَرَهُ الموتُ، قال لبنيه: إذا أنا متُّ فأحْرِقُوني، ثم اطْحنوني، ثم ذَرُّوني في الرِّيح، فو الله، لئِن قَدَرَ عليَّ ربيٍّ لَيُعذِّبَنِّي عذاباً ما عذَّبَه أحداً، فلما مات فُعِل به ذلك، فأمر الله الأرض، فقال: اجْمَعي ما فِيكِ منه، ففعلتْ، فإذا هو قَائِمٌ، فقال: ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْتَ؟ قال: خَشْيَتُك يا ربِّ – أو قال: مَخَافَتُكَ – فَغُفِرَ له بذلك»..

وقال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط: أن يُقلع عن المعصية، وأن يندم على فعلها، وأن يعزم أن لا يعود إليها أبداً. وعن أبي موسى عبدالله بن قيس الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إن الله يبسط يده

---

٥٥ – أخرجه الترمذي، عنان: السحاب، واحدته عنانة، وقيل: هو ما عنَّ لك منها، أي: عرض. بقُراب الأرض: هو ما يُقارب ملأها.

بالليل ليتوب مُسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[56]

تحديده ﷺ للعلاقة بين الحاكم والمحكوم

وضع رسول الله ﷺ أساس العلاقة بين الحاكم والمحكومين في العمل الإداري بقوله: «إذا ابتغى الأمير الريبة في الناس أفسدهم»[57]، والريبة هي التهمة، بمعنى أن الأمير إذا اتهم رعيته وخامرهم بسوء الظن فيهم أدّاهم ذلك إلى ارتكاب ما ظن فيهم ففسدوا، وفي هذا جماع الضوابط التي تقوم عليها الإدارة الحكيمة.

كما فرض على المحكوم واجب النصح والتقويم. ومن ذلك ما رواه كعب بن عجرة قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن خمسة وأربعة – أحد العددين من العرب والآخر من العجم – فقال: اسمعوا إنه سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد علي الحوض، ومن دخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه وارد علي الحوض[58].

وحدد رسول الله ﷺ إطار العلاقة التي تربط بين الراعي والرعية

---

٥٦ – رواه مسلم، انظر رياض الصالحين لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي، بيروت، دار الجيل (د. ت)، ص: ٩ – ١٠.

٥٧ – عن جبير بن نفير وكثير بن مرة وعمرو بن الأسود والمقدام بن معدي كرب، أخرجه أبو داود برقم ٤٨٨٩ في الأدب، باب النهي عن التجسس، وأخرجه أحمد في المسند ٦ / ٤ وهو حديث حسن.

٥٨ – أخرجه النسائي ٧ / ١٦٠ وقال فيها: ونحن تسعة ولم يذكر من العرب والعجم، في البيعة باب الوعيد لمن أعان أميراً على الظلم.

وعناصر هذه العلاقة ليكون الحكم التزاماً بأداء الحقوق. وهذا ما وضح في أول خطبة خطبها أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد بيعة السقيفة التزاماً بتوجيه رسول الله ﷺ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أما بعد أيها الناس فإني ولِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح (أرد) عليه حقه إن شاء الله تعالى... لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[٥٩].

وكذلك فعل عمر بن الخطاب رضيَ الله عنه عندما خطب الناس فقال في خطبة له: «.. فاتقوا الله عباد الله وأعينوني على أنفسكم بكفها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحضاري النصيحة فيما ولاّني الله من أمركم»[٦٠].

ومن خطب عمر بن عبد العزيز قوله: «.. ألا إني لست بقاض وإنما أنا منفذ لله، ولست بمبتدع ولكن متبع، لست بخيركم وإنما أنا رجل منكم ألا وإني أثقلكم حملاً»[٦١]. ومما قاله في خطبة أخرى: «.. ألا فمن ظلمه إمامه

---

٥٩ - علي الطنطاوي ، أبو بكر الصديق ، الطبعة الثالثة، جدة، دار المنارة، ١٩٨٦ ، ص ١٦٣.

٦٠ - علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، سيرة عمر بن الخطاب، دمشق، المكتبة العربية، لم يذكر تاريخ النشر، ص ١٠٧.

٦١ - عبد الله بن الحكم، (أبو محمد)، سيرة عمر بن عبد العزيز، بيروت، مؤسسة دار الفكر الحديث، ١٩٨٧، ص ٢٣ - ٢٤.

فلا إذن له علي ..»[62].

استعمال رسول الله ﷺ العمال على الأمصار

كان رسول الله ﷺ يختار أمثل من دخلوا في الإسلام ليكونوا رسله في تعليم الناس أمور الدين وأخذ الصدقات. فبعث معاذ بن جبل إلى اليمن وقال له: إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب[63].

ومن روائع الأمثلة الإدارية التي ضربها رسول الله ﷺ تحديده الدور الذي يجب أن ينهض به الفرد في قوله: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته

---

٦٢ - المرجع السابق، ص ٢٤.

٦٣ - عن عبدالله بن عباس، رواه البخاري ٥ / ٨١ في المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، وفي الزكاة باب وجوب الزكاة، وباب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، وباب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء، وفي المظالم، باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم، وفي التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ومسلم برقم ١٩ في الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، وأبو داود برقم ١٥٨٤ في الزكاة، باب زكاة السائمة، والترمذي برقم ٦٢٥ في الزكاة، باب ما جاء في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة، والنسائي ٥ / ٥٢ و ٥٥ في الزكاة، باب وجوب الزكاة، وباب إخراج الزكاة من بلد إلى بلد. انظر أيضاً: جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء الثامن، ص: ٤٢٠ - ٤٢١.

..» الحديث. وكذلك في نظرته إلى العمل الإداري على أنه أمانة ومسؤولية على الحاكم.

وإذ يتخيّر رسول الله ﷺ عماله من الصالحين وأولي الدين والعلم، فقد أسفر ذلك عن نتائج جيدة هي من نتائج حسن الاختيار في الإدارة. فعندما حاول يهود خيبر رشوة عبدالله بن رواحة، وكان الرسول ﷺ يبعثه كل عام يخرص عليهم تمرهم، قال لهم عبدالله: يا معشر اليهود إنكم لمن أبغض خلق الله تعالى إليّ، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم، وأما ما عرضتم علي من الرشوة فإنها السحت وإنا لا نأكلها.

كما كان رسول الله ﷺ يستوفي الحساب على العمال يحاسبهم على المستخرج والمصروف. فقد روى مسلم أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً من الأزد يدعى ابن اللتبية على صدقات بني سليم، فلما جاء حاسبه، قال: هذا ما لكم وهذا هدية، فقال رسول الله ﷺ: فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً، ثم خطب قائلاً: «أما بعد فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاّني الله فيأتيني فيقول: هذا ما لكم وهذا هدية أُهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً؟ والله لا يأخذ أحد منكم منها شيئاً بغير حقه إلا لقي الله عز وجل بحمله يوم القيامة، فلأعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر». ثم رفع يديه حتى رئي بياض ابطيه يقول: «اللهم هل بلغت»[٦٤].

وعن عدي بن عدي أن رسول الله ﷺ قال: «من بعثناه على عمل فليبح

---

٦٤ - علي بن محمد الخزاعي التلمساني، أبو الحسن، تخريج الدلالات السمعية، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٨٠، ص: ٢٥٢.

بقليله وبكثيره فمن خان خيطاً فما سواه فإنما هو غلول يأتي به يوم القيامة»[٦٥].

وما انفك رسول الله ﷺ من استشارة أهل الرأي والبصيرة والإيمان من أصحابه، كما كان يكلف بعضهم بمهمات تبعاً لقدراتهم، فبلغ عدد كتابه اثنين وأربعين رجلاً، وصاحب سره حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، ومن أصحابه من كلّف بالخاتم والتوقيعات والترجمة والتعليم.

وكان ﷺ يقول: أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأشدهم حياء عثمان، وأقضاهم علي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي بن كعب، ولكل قوم أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح...[٦٦]

وكان المسلمون في صدر الإسلام من التقى والزهد بحيث كانوا يتهيبون الاضطلاع بولاية الوظائف العامة والنهوض بالمسؤوليات تورعاً وتعففاً، وإشفاقاً على أنفسهم من الزلل، بوازع من إيمانهم السوي وضمائرهم النقية، وحرصهم على رضا الله وإرضاء الناس بالعدل المطلق والقسطاس المستقيم.

فكانت تأخذهم رهبة المساءلة أمام الله وأمام الناس وأولي الأمر، وقد رسخ في أذهانهم ما روته عائشة عن رسول الله ﷺ «يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين في

---

٦٥ - يعقوب بن إبراهيم (القاضي أبو يوسف)، كتاب الخراج، الطبعة السادسة، القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٣٩٧ هـ، ص ١٢١، والغُلُول: السرقة من الغنيمة أو الفيء.

٦٦ - من حديث أنس بن مالك.. رواه الترمذي برقم ٣٧٩٣ و ٣٧٩٤ في المناقب..

تمرة قط»[٦٧].

كما رأوا كيف أشفق النبي ﷺ على عمه العباس حينما طلب إليه أن يقلده ولاية إذ قال له: «يا عم، نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها»[٦٨].. ومن أجل ذلك فقد حرص رسول الله ﷺ على أن لا يولي أحداً عملاً ألحف في طلبه لنفسه خشية أن يكون تهافته على تقلده وولعه به طمعاً في الابتزاز به واستغلاله لتحقيق مآربه الخاصة، أو عن نزعة تسلطية يخشى استبدادها به، أو أن يكون من ضعف النفس بحيث يغدو مطمعاً يغري المتزلفين والانتهازيين بالتسلل إلى ذمته بالرشا، أو أن يستأسر لمظاهر السلطة التي ازدهته وأثارت لهفته. فتشيع في نفسه الزهو والمخيلة وتغريه بالاعتكاف دون الناس استعلاء، أو أن يقيم حجازاً صفيقاً يشق على عامة الناس جوازه ويحول دون مواجهتهم والتصدي لمطالبهم. ويروى عن النبي عليه الصلاة والسلام قوله لعبد الرحمن بن سمرة «لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فائت الذي هو خير، وكفِّر عن يمينك»[٦٩].

ويروى أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ طلب إليه أن يقلده عملاً من

---

٦٧ - السنن الكبرى لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ٤٥٨هـ، بيروت، دار المعرفة، (د. ت)، الجزء العاشر، ص: ٩٦.

٦٨ - أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي، العقد الفريد، القاهرة، المطبعة الأزهرية، ١٩٢٨، الجزء الأول ص: ٤٤.

٦٩ - أخرجه البخاري ومسلم والترمذي، وأخرج أبو داود والنسائي إلى قوله: «أعنت عليها» البخاري ١٣ / ١١ في الأحكام، باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله =

الأعمال العامة فقال له النبي ﷺ: «إنا لا نستعين على عملنا بمن يريده».

وعن أبي موسى الأشعري قال دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي فقال أحدهما: يا رسول الله أمّرنا على بعض ما ولاّك الله عز وجل، وقال الآخر مثل ذلك، فقال النبي ﷺ: «إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً يسأله أو أحداً حرص عليه»[70].

وعلى هذا القياس تصرف عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أصبح خليفة المسلمين مع رجل كان عمر قد اعتزم في نفسه أن يوليه عملاً من أعمال الدولة، غير أنه حدث أن بادر الرجل فطلب من عمر أن يسند إليه هذا العمل، وكان هذا الطلب قبل أن يفضي إليه الخليفة بعزمه ذلك، فما كان من عمر إلا أن صرف نيته عنه وقال له: «والله لقد كنت أردتك لذلك، ولكن من طلب هذا الأمر لم يعن عليه»[71].

ولقد سئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يجعل الخلافة من بعده لابنه عبدالله فأبى وقال: «بحسب آل الخطاب أن يسأل واحد منهم عن أمور

= عليها، وباب من سأل الإمارة وكل إليها، وفي الأيمان والنذور في فاتحته، وباب الكفارة قبل الحنث وبعده، ومسلم برقم ١٩٥٢ في الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة، وأبو داود برقم ٢٩٢٩ في الخراج والإمارة، باب ما يلزم الإمام من حق الرعية، والترمذي برقم ١٥٢٩ في النذور، باب فيمن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، والنسائي ٨ / ٢٢٥ في آداب القضاة، باب النهي عن مسألة الإمارة، وأخرجه أحمد في المسند ٥ / ٦٢ و ٦٣.

٧٠ - هذه رواية البخاري ومسلم. البخاري ١٣ / ١١٢ في الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة ومسلم برقم ١٧٣٣ في الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة. انظر أيضاً: جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص: ٦٠ - ٦١.

٧١ - المرجع السابق: ص ٤٤.

المسلمين».

فهو قد أبى على ابنه ولاية المسلمين إشفاقاً عليه من جسامة المسؤولية وتحمل تبعتها أمام ضميره وأمام الناس وأمام الله يوم يقوم الحساب.

وقد حدث حين دعا عمر بن الخطاب الزبير بن العوام رضي الله عنهما ليلحق عمرو بن العاص في مسيرته لفتح مصر بنجدة حربية أن سأله: «يا أبا عبدالله هل لك في ولاية مصر» فأجابه الزبير: «لا حاجة لي فيها ولكني أخرج مجاهداً، وللمسلمين معاوناً فإن وجدت عمراً فتحها لم أعرض لعمله وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به وإن وجدته في جهاد كنت معه».

وقد وضع رسول الله ﷺ القواعد المثلى لاختيار موظفي الدولة، فتحرى فيمن يلي أمراً من أمور المسلمين خصالاً خمسة تتم بها صلاحية المرشح للولاية ضماناً للمصلحة العامة، وتجمل تلك الخصال فيما يلي:

١ - توفر الكفاءة الإدارية :

وهو شرط لا يغني عنه توفر الكفاءة الفنية للاضطلاع ولا يشفع دونه صلات شخصية من قربى أو صداقة.

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام «من ولي أمر المسلمين فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله».

وقال عليه الصلاة والسلام «أيما رجل استعمل رجلاً على عشرة أنفس علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله ورسوله».

وقد طلب أبو ذر الغفاري من النبي ﷺ أن يستعمله على بعض الأعمال، وإذ قد رأى النبي ﷺ أنه غير كفء للولاية لما لمس فيه من ضعف

في الإدارة فإنه لم يجبه إلى طلبه ولم يشفع له ما يعلم من ورعه وتقواه، وقال له: «يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»[٧٢].

ومن أجل ذلك فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُعيِّن عماله تحت الاختبار، فلا يثبتهم في وظائفهم حتى يقتنع بأهليتهم للاضطلاع بما يوكل إليهم من أعمال، ومن ذلك أنه قال لأحد عماله عندما ولاّه عمله «إني قد عينتك لأبلوك فإن أحسنت زدتك وإن أسأت عزلتك».

٢ - الالتزام بحدود الشرع واجتناب ما يخالف الدين :

وضع النبي ﷺ لذلك سنة حكيمة أجملها في قوله: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»[٧٣].

وروى البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال، تحديداً للصلة بين المسلمين وولاة أمورهم «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره

---

٧٢ - وفي رواية قال له: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمَّرنَّ على اثنين، ولا تولَّينَّ مال يتيم» أخرجه مسلم، وأخرج أبو داود الثانية. مسلم برقم ١٨٢٦ في الإمارة، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة، وأبو داود برقم ٢٨٦٨ في الوصايا، باب ما جاء في الدخول في الوصايا. والنسائي ٦/ ٢٥٥ في الوصايا، باب النهي عن الولاية على مال اليتيم، وأخرجه أحمد في المسند ٥/ ٧٣.

٧٣ - رواه البخاري ٨/ ٤٧ و ٤٨ في المغازي، باب سرية عبدالله بن حذافة السهمي.. وفي الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ومسلم برقم ١٨٤٠ في الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، وأبو داود برقم ٢٦٢٥ في الجهاد، باب في الطاعة، والنسائي ٧/ ١٥٩ في البيعة، باب جزاء من أمر بمعصية فأطاع.

ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

ومصداقاً لهذا المبدأ القويم قال أبو بكر الصديق في خطبته حين ولي الخلافة «... أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم ...»[٧٤].

ومن مظاهر التزام الشرعية وتقوى الله تحري العدل واجتناب الظلم والمحاباة ويقول النبي عليه الصلاة والسلام «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[٧٥].

وقال عليه السلام «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرّم الله عليه الجنة»[٧٦].

---

٧٤ - أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي، العقد الفريد، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٢، الجزء الرابع، ص: ٥٩.

٧٥ - رواه مسلم من حديث جابر بن عبدالله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم» أخرجه مسلم برقم ٢٥٧٨ في البر والصلة، باب تحريم الظلم. وعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة» رواه البخاري ٥ / ٧٣ في المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، ومسلم برقم ٢٥٧٩ في البر، باب تحريم الظلم، والترمذي برقم ٢٠٣١ في البر، باب ما جاء في الظلم.

٧٦ - وفي رواية: «فلم يحُطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة» وهذه رواية البخاري ومسلم. وفي أخرى لمسلم: «ما من أمير يلي أمور المسلمين، ثم لا يجهد لهم، وينصح لهم، إلا لم يدخل معهم الجنة» البخاري ١٣ / ١١٢ في الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح. ومسلم رقم ١٤٢ في الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، وفي الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وأخرجه أحمد في المسند ٥ / ٢٥ و ٢٧.

٣ – التوفر على عمله والانقطاع له :

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ «من ولاّه الله شيئًا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخَلَّتِهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة»[٧٧].

٤ – التمتع بالثقة والرضا من المرؤوسين ومن الرعية :

وقد رسم رسول الله ﷺ معالم هذا المبدأ في قوله «أيما رجل أمّ قوماً وهم له كارهون لم تجز صلاته».

وكما تسري هذه القاعدة في إمامة الصلاة، فإنها تسري – من باب أولى – في ولاية الأعمال العامة، ذلك لأن الثقة والتراضي أدعى إلى التفاهم الصادق والتناصح المخلص، وهما السبيل إلى التجاوب مع السياسة العامة وتقبلها دون برم أو عناد بما قد تنطوي عليه من تكاليف وأعباء يتطلبها الصالح العام مهما شقت وأعضلت.

٥ – التحلي بنقاء الذمة وطهارة اليد، والتنزه عن استغلال المنصب في الابتزاز، سواء بالرشوة، أو باستغلال النفوذ للكسب والإثراء :

تلك كانت المسوغات العامة لولاية الوظائف الرسمية، ولم يكن السن شرطاً جوهرياً في التعيين فيها مهما بلغت من الأهمية ما دامت الشروط

---

٧٧ – عن أبي مريم الأذري، أخرجه أبو داود برقم ٢٩٤٨ في الخراج والإمارة، باب فيما يلزم الإمام من أمر الرعية. ورواه أيضاً أحمد في المسند ٥ / ٢٣٨ بمعناه من حديث معاذ بن جبل، ولفظه: «من ولي من أمر الناس شيئاً فاحتجب عن أولي الضعفة والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة». الخَلَّة: الحاجة. وفي رواية الترمذي عن عمرو بن مرة الجهني: «ما من إمام يُغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسكنة، إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته».

المطلوبة قد اكتملت واستوفيت. وقد عيّن النبي عليه الصلاة والسلام أسامة ابن زيد قائداً لجيش المسلمين وهو حدث يافع دون العشرين من عمره وتحت قيادته كثير من جلة الصحابة. كما قلّد عثمان بن أبي العاص إمارة ثقيف بعد إسلامهم وكان أحدثهم سناً، كما بعث علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى اليمن قاضياً وهو حديث السن.

وكذلك لم تكن العصبية ذات بال في تولي المناصب العامة، فكان الأصلح والأكفأ هو الأجدر بتقلدها، حتى أن ثلاثة أرباع الولاة الذين عيّنهم النبي ﷺ كانوا من بني أمية وليسوا من بني هاشم عشيرته الأدنين.

وقد حرص الإسلام على تنزيه مجتمعه، حكاماً ومحكومين، من عوامل الفتنة ودواعي الإغراء توخياً للصالح العام وكفالة للعدالة أساس الملك الصالح والمجتمع الرخي الآمن.

فلا يسوغ لأولى الأمر أن يستغلوا مناصبهم للابتزاز والإثراء على حساب المصلحة العامة والعدالة الاجتماعية، فتضحى ذممهم وضمائرهم مطمعاً لذوي الحاجة من المتزلفين والانتهازيين، يتسللون إليها بالرشا والهدايا فتنة وشراكاً يجعل الحكام صنائع طيعة لهم، ومطايا ذلولة لأطماعهم، فتستنيم ضمائرهم وتعشى بصائرهم فتلفتهم عن مناط الحق، وتتردى بالمجتمع كافة إلى مهاوي الفوضى الجائحة والانحلال الوخيم.

وقد حذّر القرآن الكريم من الإدلاء بالمال إلى الحكام طعماً لإفساد ذممهم وتطويعهم لمآربهم الباطلة فيلفتهم عن جادة الحق. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ولا تأكلُوا أموالكُم بينكُم بالباطلِ وتدلُوا بها إلى الحكامِ لتأكلُوا فريقًا من أموالِ الناسِ بالإثمِ وأنتمْ تعلمونَ﴾[٧٨].

---

٧٨ - سورة البقرة، الآية ١٨٨.

كما توعد النبي عليه الصلاة والسلام طرفي الرشوة بالعذاب المبين في قوله «لعن الله الراشي والمرتشي» رواه الأربعة. وفي قوله «من ارتشى في الحكم شدت يساره إلى يمينه ثم رمي به في قعر جهنم» رواه الحاكم. وكذلك في قوله عليه السلام «الرشوة في الحكم كفر وهي بين الناس سحت» رواه الطبراني. وقال عليه السلام «من شفع لأخيه شفاعة فأهدى له هدية فقبلها فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الربا» رواه أحمد وأبو داود – فقد حرم النبي الهدية في مقابل الشفاعة حتى ولو كانت مع غير الحكام.

وقد سنّ النبي عليه السلام محاسبة عمال الدولة على ما يجنون من ثروات مدة عملهم لا توفره لهم رواتبهم المقدرة لهم ومصادرة ما يفيض عما تقاضوه من مرتبات. وبذلك فقد حاسب ابن اللتبية الأزدي. وقال عليه السلام «من استعملناه على عمل، فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غُلول»[٧٩]. وقد التزم الخلفاء بتوجيه رسول الله ﷺ. فقد تشدد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تطبيق مبدأ محاسبة الولاة عن كسبهم مدة ولايتهم حتى شق على عماله وولاته تنزيهاً لهم من شوائب الريب والظنون، فلم يكن يجيز لهم – فضلاً عن التدني للارتشاء – استثمار أموالهم في التجارة وما إليها من طرائق الكسب المشروعة تحرزاً من مظنة استغلال نفوذهم فيها فكان يحاسبهم على أموالهم فما يفضل عما كانوا يملكون عند بدء تعيينهم وما رتب لهم من عطاء، يشاطرهم إياه ضميمة لبيت المال.

وقد حدث أن علم أن عمرو بن العاص أثرى في ولايته على مصر وبدت عليه سعة لم يعهدها له من قبل ، فكتب إليه يستجوبه[٨٠] : «سلام عليك فإنه

---

٧٩ – أخرجه أبو داود برقم ٢٩٤٣ في الخراج والإمارة باب في أرزاق العمال.

٨٠ – ابن عبد ربه، المرجع السابق، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، الجزء الأول، ص: ٢٦.

بلغني أنه فشت لك فاشية من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد، وعهدي بك قبل ذلك أن لا مال لك، فاكتب إلي من أين أصل هذا المال ولا تكتمه».

فكتب إليه ابن العاص يحاججه ويدفع عن نفسه : «من عمرو بن العاص إلى عبدالله أمير المؤمنين - سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا لي وأنه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي، وإني أعلم أمير المؤمنين أني بأرض السعر فيها رخيص وأني أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله، وفي رزق أمير المؤمنين سعة. والله لو رأيت خيانتك حلالاً ما خنتك، فاقصر أيها الرجل فإن لنا أحساباً هي خير من العمل لك، إن رجعنا إليها عشنا بها، ولعمري أن عندك من تذم معيشته ولا تذم له، فأنى كان ذلك ولم يفتح قفلك ولم نشركك في عملك».

فبعث إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسوله محمد بن سلمة لمحاسبته ومشاطرته ماله مع كتاب يقول فيه : «أما بعد فإني والله ما أنا من أساطيرك التي تسطر ونسقك الكلام في غير مرجع، لا يغني عنك أن تزكي نفسك، وقد بعثت إليك محمد بن سلمة فشاطره مالك، فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون المال لم يزعكم عذر، تجمعون لأبنائكم وتمهدون لأنفسكم، أما أنكم تجمعون العار وتورثون النار والسلام».

فلما قدم رسول الخليفة على عمرو بن العاص شاطره ماله جله ودقه حتى نعليه - إمعاناً في عدالة المشاطرة - أبى إلا أن يتقاسماهما فصادر أحدهما وترك له الآخر.

وهكذا اطردت سياسة الخلفاء مع عمالهم - أياً كانت شخصياتهم أو مناصبهم - يحاسبونهم على ثرواتهم من أين اكتسبوها، حتى يطمئنوا إلى

نقاء ذممهم وسلامة تصرفاتهم في ولاياتهم.

وكان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في خلافته نهجا على هذه السنن يحاسب عماله بدقة وعناية تنزيهاً للمنصب ولمن يشغله وصيانة لأموال الدولة وأموال الرعية على السواء لا يحول دون المساءلة قرابة أو جاه.

اهتمام رسول الله ﷺ بالقضاء

أولى رسول الله ﷺ إدارة القضاء اهتماماً خاصاً لأن مرفق العدل يسهم بإشاعة السلام الاجتماعي بين أفراد المجتمع، والقضاء على أسباب الشقاق والعداء بينهم، وتوفير النصفة في المعاملات، وإحقاق الحقوق والانتصاف من العادين.

وقد تميّز الحكم الإسلامي بصفة عامة بأن قضاء الأحوال الشخصية لغير المسلمين كان متروكاً لأربابه تحقيقاً للحرية الدينية، يتولاه قضاة من كل طائفة ليحكموا فيه بحسب ما تقضي به شرائعهم، إلا إذا احتكم الخصمان إلى القاضي المسلم طواعية فإنه يحكم طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية. أما فيما عدا قضاء الأحوال الشخصية فإن للقاضي المسلم الولاية المطلقة في الحكم بين رعايا الدولة قاطبة مسلمين وغير مسلمين[٨١].

وقد تولى رسول الله ﷺ بنفسه مهمة القضاء بين المسلمين في المدينة، وعهد إلى الولاة القضاء في الأقاليم، أو إلى قضاة متخصصين ممن آنس فيهم التفقه في الدين وحصافة الرأي.

وقد كان عليه الصلاة والسلام مع حرصه على تطبيق حدود الله، يضع

---

٨١ - الهراوي ، المرجع السابق ، ص ٣١٣ .

الرأفة والرحمة حيث يستوجب الحال ذلك مع الحفاظ على ما لأحكام الله وحدوده من قدسية وإلزام، والرأفة والرحمة من صفات الله سبحانه وهو القائل في محكم التنزيل ﴿ ... إنَّ اللهَ بالناسِ لرؤوفٌ رحيمٌ﴾[٨٢].

وإن من سمات الرأفة المشروعة في الإسلام مبدأ «درء الحدود بالشبهات» أي أن مجرد الشك في إسناد الواقعة الإجرامية إلى المتهم يؤول لصالحه، ويرفع عنه إصرار الاتهام أصالة، حذر الإيقاع بمن يحول دون استجلاء براءته قصور في البينة أو غموض في الوقائع[٨٣]، وذلك عملاً بالحديث النبوي الشريف «ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام أن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة»[٨٤].

وقد أخذ الفقه القانوني الحديث بهذا المبدأ وأصبح من القواعد العامة المسلَّم بها أن الشك يؤول دائماً لصالح المتهم.

وروى البيهقي عن رسول الله ﷺ قوله: «البينة على المدعي واليمين على من أنكر»، وقد أصبح هذا المبدأ من القواعد القانونية التي أخذت بها التشريعات الحديثة.

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام في قضائه بين الناس بشراً يحكم

---

٨٢ - سورة الحج، الآية ٦٥.

٨٣ - قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لأن أخطأ في الحدود بالشبهات، أحب إلي من أن أقيمها بالشبهات. انظر جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء الثالث، حاشية الصفحة رقم ٦٠٣.

٨٤ وفي رواية: «أدرأوا الحدود ما استطعتم». أخرجه الترمذي برقم ١٤٢٤ في الحدود، باب في درء الحدود.

بما ينجح الخصم في إقناعه به، ويأخذ بما يبدو له من ظاهر الأمر حسبما يستبين له.

وقد روى عن أم سلمة زوجة النبي أنها قالت: جاء رجلان من الأنصار إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد درست[85] ليس عندهما بينة، فقال لهما رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي وإنما أنا بشر ولعل أحدكم يكون ألحن[86] بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأحكم له، فإني أقضي على نحو ما أسمع، من قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يطوق بها من سبع أرضين يأتي بها سطاما[87] فليأخذها أو ليدعها» فبكى الرجلان لما سمعا ذلك وقال كل منهما: يا رسول الله حقي لأخي، فقال الرسول ﷺ: «أما إذ قلتما هذا فاذهبا واقتسما ثم توخيا الحق ثم استهما[88] ثم ليأخذ كل منكما ما يخرج عليه سهمه، ثم ليحلل[89] كل منكما صاحبه»[90].

أما عن المناهج العملية التي يتعين تأسيها في ممارسة القضاء والتحكيم بين الناس، فإن القرآن الكريم لم يغفلها وإنما أجملها في توخي العدل وهو المبدأ الأمثل الجامع الذي يستوعب سائر الإجراءات التي

---

٨٥ - درست: أي تقادم عليها العهد.

٨٦ - ألحن أي أبلغ وأبين.

٨٧ - السطام : الحديدة التي تسعر بها النار.

٨٨ - استهما : أي اقترعا.

٨٩ - يحلل أي يتسامح معه ويحلله من حقه.

٩٠ - رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

تستهدفه وتتحرى تحقيقه.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ... وإذا حكمتُم بينَ الناسِ أن تحكموا بالعدلِ ... ﴾[91]. ويقول أيضاً: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا كونُوا قوامينَ بالقسطِ شهداءَ لله ولوْ على أنفسكُمْ أو الوالدينِ والأقربينَ ... ﴾ إلى أن يقول: ﴿ ... فلا تتبعُوا الهَوَى أن تعدلُوا ... ﴾[92]. ويقول جل شأنه: ﴿يا أيها الذينَ آمنُوا كونُوا قوامينَ للهِ شهداءَ بالقسطِ ولا يجرمنَّكُمْ شنآنُ قومٍ على ألا تعدلُوا اعدلُوا هو أقربُ للتقوى واتقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعملونَ﴾[93]. ويقول عز من قائل: ﴿إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القربى ... ﴾[94]. و: ﴿قلْ أمرَ ربي بالقسطِ ... ﴾[95]. ويقول تبارك وتعالى: ﴿ ... وإذا قلتمْ فاعْدلُوا ولوْ كانَ ذا قُرْبَى ... ﴾[96].

والنبي عليه الصلاة والسلام تعاليم مأثورة بما يتعين على القاضي التحلي به ومراعاته حتى يصدر الحكم أدنى إلى العدل والصواب منزهاً عن الخطأ والزلل. ومن ذلك قوله «لا يحكم أحدٌ بين اثنين وهو غضبان»[97] وقوله كذلك «سو بين الخصمين لحظك ولفظك» وقوله عليه الصلاة والسلام «لا يبيع

---

٩١ - سورة النساء، الآية ٥٨.

٩٢ - سورة النساء، الآية ١٣٥.

٩٣ - سورة المائدة، الآية ٨.

٩٤ - سورة النحل، الآية ٩٠.

٩٥ - سورة الأعراف، الآية ٢٩.

٩٦ - سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

٩٧ - وفي رواية: «لا يقضينّ حكم بين اثنين وهو غضبان» أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

القاضي ولا يبتاع».

ومن أحكم المبادىء التي أوصى بها رسول الله ﷺ القضاة قوله عليه السلام: «ردوا الخصوم كي يصطلحوا فإن فصل القضاء يورث الضغائن». بل إن رسول الله ﷺ في أحاديثه الشريفة قد ساهم في الحد من الخلافات بين الناس ومن ذلك «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقِره ولا يخذُلُه. التقوى هاهنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه» رواه مسلم. وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من جعل قاضياً بين الناس فقد ذبح بغير سكين»[98]. ولهذا فإنه كان يختار من يثق بإيمانه وتقواه لأعمال القضاء. فقد روى أبو داود عن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه أنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضياً وأنا حدث السن ولا علم لي بالقضاء، فقال: «إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول فإنه أحرى أن يبين لك القضاء». قال: فما زلت قاضياً أو ما شككت في قضاء بعد. كما روى أبو داود أيضاً أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذ بن جبل رضي الله

---

٩٨ - رواية الترمذي برقم ١٣٢٥ في الأحكام: منْ وُلّيَ القضاء، أو جُعل قاضياً بين الناس فقد ذُبح بغير سكين، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ في القاضي وهو حديث صحيح. ورواه أبو داود برقم ٣٥٧١ و ٣٥٧٢ في الأقضية، باب في طلب القضاء. والذبح بغير سكين تعذيب، فضرب به المثل لذلك ليكون أبلغ في الحذر من الوقوع، وأشد في التوقي منه. انظر جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء العاشر، ص: ١٦٥ - ١٦٦.

عنه إلى اليمن قال: «كيف تقضي إذا عرض لك القضاء؟» قال: أقضي بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد في كتاب الله؟» قال: فبسنة رسول الله، قال: «فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله»؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسول الله»[99].

تقسيم الفيء والصدقات

لم يكن لرسول الله ﷺ بيت مال، بل كان يقسم الفيء من يومه، وقد وحّدت العقيدة بين المسلمين فصفت نفوسهم ورغبت عن متاع الدنيا وآثروا غيرهم على أنفسهم. ومما يروى أنه أهديت هدية إلى عبادة بن الصامت وفي داره اثنا عشر من أهل بيته، فقال: اذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج إليها منا، قال الوليد بن عبادة فكنت كلما جئت أهل بيت يقولون اذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج إليها منا، حتى رجعت الهدية إلى عبادة قبل الصبح.

بل إن رسول الله ﷺ لما ظهر على بني النضير قال للأنصار إن إخوانكم من المهاجرين ليس لهم أموال، فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة، فقالوا: لا، بل نقسم هذه فيهم، وأقسم لهم من أموالنا ما شئت، فنزلت آية ﴿والذينَ تبوأوا الدارَ والإيمانَ من قبلهمْ يحبونَ مَن هاجرَ إليهمْ ولا يجدونَ في صدورهمْ حاجةً مما أوتُوا ويؤثرونَ على أنفسهمْ ولوْ كانَ بهمْ خصاصةٌ ...﴾[100].

---

٩٩ - التلمساني، تخريج الدلالات السمعية، المرجع السابق، ص: ٢٦٤ - ٢٦٥.

١٠٠ - سورة الحشر، الآية رقم ٩.

وهذا أبو طلحة جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله أنزل عليك ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن أحب مالي إليّ (بيرحاء) وإنها صدقة لله تعالى أرجو برّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: بخ! .. ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة: افعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

إحصاء المسلمين

لم يكن لدى رسول الله ﷺ ديوان مكتوب، وقد أراد مرة إحصاء المسلمين فقال: اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام.

وصيته ﷺ لأمراء الأجناد

كان رسول الله ﷺ يحرص على رجاله ويوري بغزواته، فإذا أراد أن يغزو قوماً ورّى بغيرهم[101]، وقل أن يعين الجهة التي يقصدها في غزواته. وإذا كانت الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان سنة حكيمة فهي في مواقف الدعوات على التخصيص أقمن بالاتباع. وهذا ما لوحظ في كتابه ﷺ لعبدالله بن جحش من كتمان الخبر عن أصحابه، ثم وصايته ألا يكره أحداً منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته.

لم تشرع الحرب في الإسلام كمقتلة بين البشر من غير ضابط، أو للدمار الجائح يتجرد فيه الإنسان من آدميته ويستحيل وحشاً ضارياً يفتن في التشفي والتهلكة.

---

١٠١ - القاضي أبو يوسف ، المرجع السابق ، ص ٢٠٨.

فقد سنّ الإسلام للقتال آداباً وتقاليد تحفظ على المحارب غالباً أو مغلوباً كرامته، وإنسانيته، ويقف احتراب المتصارعين فيه عند حد رجحان فريق على فريق، لتضع الحرب أوزارها، دون إمعان في التنكيل لمجرد شفاء الغليل بالتعذيب أو للولوغ في الدماء لإبادة الحرث والنسل.

وقد وضع رسول الله ﷺ المبادىء العامة لآداب القتال هذبت من شراسته وخففت من غلوائه لتكون سنة يلتزم بها المسلمون في حروبهم مع أعدائهم، تجمع بين الشهامة والرأفة والعدالة، وقد سبق الإسلام بها محاولات العالم المتحضر ودول الغرب المعاصرة التي تمخضت عن اتفاقيات جنيف الأربع الصادرة في ١٢ آب سنة ١٩٤٩ وأصبحت الدستور الإنساني للحرب والمتحاربين.

فكان يوصي أمراء الأجناد إذا وجههم بتقوى الله ويمن معهم من المسلمين خيراً ويقول: «اغزوا باسم الله وفي سبيل الله من كفر بالله لا تغدروا ولا تغلوا (الغلول السرقة) ولا تمثّلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً ولا كبيراً فانياً ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء»[١٠٢]. وقد التزم المسلمون بأمر رسول الله ﷺ، فعندما وجه أبو بكر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان إلى الشام قال له: «إني موصيك بعشر لا تغدر ولا تمثل ولا تقتل هرماً ولا امرأة ولا وليداً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا ما أكلتم، ولا تحرقن نخلاً، ولا تخربن عامراً، ولا تغل ولا

---

١٠٢ - المرجع السابق ص ٢٠٩، انظر أيضاً: د. السباعي، المرجع السابق، ص ٩٨.
يتبين من هذا التوجيه أن الفتوح الإسلامية كانت فتوح رحمة تقوم على المبادىء الإنسانية النبيلة. وقد حرص الجيش الإسلامي على تطبيق ذلك والالتزام به عملياً حتى في العهود التالية. فعندما استرد صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس من الصليبيين أعطى الأمان للشيوخ ورجال الدين والنساء والأطفال، =

تجبن» وجاء في هذه الوصية أيضاً «لا تقاتل جريحاً فإن بعضه ليس منه».

وأوصى قائدَ الجيش أسامة بن زيد بقوله: «لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له..».

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول عند عقد ألوية الحرب[١٠٣]: «بسم الله وبالله وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله، وما النصر إلا من عند الله، ولزوم الحق والصبر، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور»[١٠٤].

= بل وللمحاربين أيضاً فأوصلهم إلى جماعاتهم بحراسة الجيش الإسلامي، لم يمسسهم سوء. بينما كان موقف الصليبيين حين فتحوا بيت المقدس أنهم غدروا بالناس فقد أمّن الصليبيون سكان بيت المقدس المسلمين إذا رفعوا الراية البيضاء فوق المسجد الأقصى، فاحتشد فيه المسلمون مخدوعين بهذا العهد، فلما دخل الصليبيون بيت المقدس ذبحوا كل من التجأ إليه، وقد بلغ من ذبحوا فيه سبعين ألفاً من العلماء والزهّاد والنساء والأطفال حتى أن كاتباً صليبياً كتب إلى البابا (يبشره) مباهياً: لقد سالت الدماء في الشارع حتى كان فرسان الصليبيين يخوضون في الدماء إلى قوائم خيولهم. وقد سطّر التاريخ صفحات سوداً عن فظائع محاكم التفتيش في إسبانيا، ولا زالت هذه الصفحات السود تسطّر كل يوم في فلسطين وفي البوسنة والهرسك وجمهورية الشيشان..

١٠٣ - ابن عبد ربه، المرجع السابق، الجزء الأول، ص: ٦٦.

١٠٤ - الظهور: أي الغلبة، من قولهم ظهر على عدوه إذا غلبه.

وهكذا لم تكن الحرب لدى المسلمين مجرد أداة ماحقة للدمار لا تبقي ولا تذر، حرثاً أو نسلاً، مقاتلين وغير مقاتلين.

فقد أوصى الإسلام بتجنيب غير المقاتلين ويلات الحرب، كما حرّم التمثيل بالقتلى، وأوجب الكف عن القتال إذا ما استسلم الخصم وجنح إلى السلم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وإن جنحُوا للسَّلم فاجنحْ لهَا ...﴾[١٠٥]. وذلك كله على نقيض العرف الوحشي بالغ الشراسة الذي كان شائعاً حينذاك، ومن معالم البينة – على سبيل المثال – ما شرعته التوراة، التي كتبوها بأيديهم، للمقاتلين اليهود سنناً يحتذونه في قتالهم لأعدائهم، كأسلوب همجي مشروع لإبادة الحرث والنسل وإشاعة الخراب في أعقابه[١٠٦].

ويعزو التكييف الإنساني ذلك السلوك النبيل في معاملة المحاربين من الأعداء إلى عاطفة الرحمة وهي من مكارم الأخلاق الإسلامية، ومن قيم الإسلام الأصيلة ومناقبه الأثيرة التي لا يفتأ يدعو المسلمين إلى التحلي بها. ولا غرو فقد بلغت من سمو المنزلة في الدين الإسلامي مبلغ القداسة حتى لقد اشتق الله سبحانه وتعالى لنفسه من الرحمة أسمى الرحمن الرحيم

---

١٠٥ - سورة الأنفال، الآية ٦١.

١٠٦ - تقول التوراة في الإصحاح العشرين من سفر التثنية من رقم ١٠ إلى رقم ١٧: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن إجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بالسيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما.

من أسمائه الحسنى، تقدست أسماؤه وجلت صفاته.

والرحمة أجلّ من الشفقة بالنسبة للإنسان، ومن الرفق بالنسبة للحيوان، فهي بالنسبة لهما أرهف حساً وأعمق عاطفة وأجمع لمعاني الشفقة والعطف والرأفة والرفق والحنو والحنان. ولقد حضّ الإسلام على اصطناع الرحمة حتى مع الأعداء في ميدان القتال، ومع الحيوان الأعجم حتى عند ذبحه لأكله.

ومظهر الرحمة في هذه المواطن تجنب التعذيب والمثلة، وذلك بالإجهاز على ما يحل قتله أو ذبحه، وإزهاق روحه بأيسر الطرق وأسرعها وأقلها ألماً. وقد عبّر النبي ﷺ عن ذلك بالإحسان، وعنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحدَّ أحدكم شفرته وليرِحْ ذبيحته»[١٠٧].

ومن ذلك أيضاً أن النبي عليه الصلاة والسلام نهى أن يقتل شيء من الدواب صبراً، حتى لا يطول ألمه وعذابه. وعنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور»[١٠٨]. فالتمثيل بالقتلى منهي عنه شرعاً حتى ولو على سبيل معاملة الأعداء بمثل ما يعاملون به قتلى المسلمين.

---

١٠٧ - أخرجه مسلم والترمذي. مسلم برقم ١٩٥٥ في الصيد، باب الأمر بالإحسان بالذبح والقتل، والترمذي برقم ١٤٠٩ في الديات، باب ما جاء في النهي عن المثلة. والقِتلة: بكسر القاف: هيئة القتل وبفتحها: المرة الواحدة من القتل.

١٠٨ - وعن عبدالله بن يزيد الأنصاري أن رسول الله ﷺ: نهى عن المُثلة والنُّهبى، أخرجه البخاري ٥ / ٨٦ في المظالم، باب النهي بغير إذن صاحبه، وفي الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة. والمثلة: تشويه خلقة القتيل...

ويؤثر عنه – عليه السلام – أنه كان على رأس جيش للمسلمين فشاهد كلبة ترضع جراءها في ناحية من طريق الجيش، فأشفق عليها أن ينالها من زحف الجيش أذى هي أو صغارها، فأمر أحد المسلمين بحراستها وتأمينها هي وأولادها حتى يتم مرور الجيش ويتجاوزها الخطر.

ومن معالم الرحمة التي شرعها الإسلام وأوصى بالتزامها عند التحام الجيوش واصطراع الأجناد، الحرص على تجنيب غير المحاربين ويلات الحرب والاقتصار في العراك على المحاربين من الأعداء دون أن يتجاوزهم القتال إلى غيرهم ممن لا يشتركون في المعركة، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وقاتلوا في سبيلِ اللهِ الذينَ يقاتلونكُمْ ولا تعتدُوا إنَّ اللهَ لا يُحبُّ المعتدينَ﴾[109].

تلك آداب القتال التي سنَّ الإسلام الالتزام بها في حومة الوغى ووطيس القتال. بيد أن ثمة مبادىء أخلاقية عامة اشترعها الإسلام كذلك حتى يخلع على الحروب مسحة إنسانية تخفف من وطأتها وتنظم ممارستها لتنأى بها عن شراسة الفوضى والهمجية.

وقد سبق الإسلام بهذه المبادىء قواعد الحرب والسلام التي انتهت إليها المدنية الحديثة بعد جهد ولأى ومحاولات مضنية، لم تسفر مع الأسف عن نجاح كامل عند التطبيق لعدم استنادها إلى قوة ملزمة، بينما تستند المبادىء الإسلامية إلى الوازع الديني، وهو وازع عميق أصيل يدعو إلى اتباعها تلقائياً بوحي ذاتي ووعي ديني مقدس يلتزم به المسلمون.

فمن أولى مبادىء القتال أن لا يباغت المسلمون بشن الحرب غيلة

---

١٠٩ - سورة البقرة، الآية ١٩٠.

وعلى غرة، وإنما كان عليهم أن ينذروهم بمطالبهم أولاً فإن لم يستجيبوا لها كان للمسلمين أن يشهروا عليهم الحرب، وذلك تعميماً للحكم المستفاد من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ... وما كنا معذبينَ حتى نبعثَ رسولاً ﴾[110].

وكان النبي عليه الصلاة والسلام لا يبدأ أعداءه بالحرب حتى تقوم إماراتها من جانبهم ويقول: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور»[111].

وجرت عادة المسلمين في صدر الإسلام في إنذارهم لأعدائهم بالحرب أن يخيروهم بين إحدى ثلاث: إما اعتناق الإسلام، وحينئذ تصبح دماؤهم حراماً على المسلمين، وإما الصلح على جزية يستأديها المسلمون منهم، وإما الحرب.

ولا يكون اعتناق الإسلام حينذاك هو الهدف المنشود من القتال ولكنه يكون سبباً لحقن الدماء حيث إن الإسلام يمنع القتال بين المسلمين[112].

ومن المبادىء التي رعاها الإسلام كذلك الكف عن القتال فيما يعتبره الأعداء من الأشهر المحرم عليهم فيها القتال أو من الحرمات والمقدسات التي لا تجيز تقاليدهم القتال فيها، وبشرط المعاملة بالمثل.

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ الشهرُ الحرامُ بالشهرِ الحرامِ والحرماتُ قصاصٌ فمنِ اعتدى عليكمْ فاعتدوا عليهِ بمثلِ ما اعتدى عليكمْ

---

١١٠ - سورة الإسراء، الآية ١٥.

١١١ - من حديث سلمة بن الأكوع .. انظر جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء الثامن، ص: ٣١٢.

١١٢ - الهراوي، المرجع السابق، ص ٨٩ - ٩٣.

واتقوا اللهَ واعلموا أنَّ اللهَ معَ المتقينَ﴾[113].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿... ولا تُقاتلوهمْ عندَ المسجدِ الحرامِ حتى يقاتلوكمْ فيهِ، فإن قاتلوكمْ فاقتلوهمْ كذلكَ جزاءُ الكافرينَ. فإنِ انتهوْا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾[114].

وقد أوصى الإسلام برعاية ما بين المسلمين وأعدائهم من عهود ومواثيق تؤمن كل منهما جانب الآخر وتقضي بمنع إشعال الحرب بينهما طوال الأجل المضروب، وذلك طالما حافظ أعداء المسلمين على العهد والمهادنة.

وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿إلا الذينَ عاهدتم منَ المشركينَ ثمَّ لمْ ينقصوكمْ شيئًا ولم يظاهروا عليكمْ أحداً فأتموا إليهمْ عهدهمْ إلى مدتهمْ إنَّ اللهَ يحبُّ المتقينَ﴾[115].

ويقول جل شأنه: ﴿... إلا الذينَ عاهدتمْ عندَ المسجدِ الحرامِ فما استقاموا لكمْ فاستقيموا لهمْ إنَّ اللهَ يحبُّ المتقينَ﴾[116].

وقد جعل الإسلام حق الميثاق فوق كل حق، يلتزم المسلمون بالحفاظ عليه ومسالمة المعاهدين من أعدائهم حتى ولو استعاذ بهم فريق من المسلمين المقيمين في بلاد أولئك الأعداء، فإن ذلك لا ينهض عذراً لنقض

---

١١٣ - سورة البقرة، الآية ١٩٤.

١١٤ - سورة البقرة، الآيتان: ١٩١ - ١٩٢.

١١٥ - سورة التوبة، الآية ٤.

١١٦ - سورة التوبة، الآية ٧.
ويلاحظ أن الالتزام بالعهد حتى للأعداء، في آيتي سورة التوبة رقم ٤ و ٧، قد جعله الله من التقوى، وهي من أعلى درجات الإيمان في الإسلام.

العهد ونكث الميثاق.

وفي ذلك يقول عز من قائل: ﴿ ... وإنِ استنصروكمْ في الدينِ فعليكمُ النصرُ إلا على قومٍ بينكمْ وبينهم ميثاقٌ ... ﴾[117].

وتقضي الشريعة الإسلامية بمعاملة من يقتله المسلمون من أعدائهم خطأ معاملة القتيل المسلم إذا كان من قوم غير مسلمين ولكن لهم مع المسلمين ميثاق وعهد. حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ ... وإن كانَ من قومٍ بينكمْ وبينهم ميثاقٌ فديةٌ مسلمةٌ إلى أهلهِ وتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ ... ﴾[118].

وقد نظم القرآن معاملة الأسرى بما يحفظ عليهم حياتهم وكرامتهم، يقول الله تعالى: ﴿ ... حتى إذا أثخنتموهمْ فشدُّوا الوثاقَ فإما منًّا بعدُ وإمَّا فداءً حتى تضعَ الحربُ أوزارها ... ﴾[119]. ومضمون ذلك أن يقاتل المسلمون أعداءهم حتى إذا خارت قواهم وانهارت مقاومتهم أخذوا من بقي على قيد الحياة من المقاتلين أسرى حرب، فإذا ما انتهت المعركة فللمسلمين أن يطلقوا سراح الأسرى دون عوض أو يفدوهم بمال أو يبادلوا بهم أسرى من المسلمين.

ومفهوم ذلك أيضاً أن الأسر لا يكون إلا من المحاربين، ولا يكون من المدنيين غير المقاتلين، مع الأخذ في الاعتبار أن الإسلام يوصي بتجنيب غير المحاربين كل عدوان ما داموا بنجوة من معتركها.

وكان النبي ﷺ يوصي بحسن معاملة الأسرى حتى يفك أسرهم ويقول «استوصوا بالأسارى خيراً».

---

١١٧ - سورة الأنفال، الآية ٧٢.

١١٨ - سورة النساء، الآية ٩٢.

١١٩ - سورة محمد، الآية ٤.

وأوصى القرآن الكريم بإكرام الأسرى في قوله تعالى: ﴿ ويطعمونَ الطعامَ على حبهِ مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكمْ لوجهِ اللهِ لا نريدُ منكمْ جزاءً ولا شكوراً ﴾[120] .

مما تقدم نستنتج أن الإسلام يغرس السلام ويدعو له حتى أصبح شعيرة من شعائره. فتحية المسلمين السلام، والجنة التي وعد الله المؤمنين هي دار السلام.. قال الله تعالى: ﴿لهمْ دارُ السلامِ عندَ ربهمْ وهوَ وليهم بما كانوا يعملونَ﴾[121] .

ويتوِّج هذا كله أن السلام من أسماء الله الحسنى التي يقدسها المسلمون ويتعبدون بها. قال الله تعالى: ﴿هوَ اللهُ الذي لا إلهَ إلا هوَ الملكُ القدوسُ السلامُ ...﴾[122] .

فالسلم هو المبدأ العام في الإسلام .. يقول الله تعالى: ﴿يا أيهَا الذينَ آمنُوا ادخُلُوا في السلمِ كافةً ...﴾[123] . و ﴿وإن جنحوا للسلمِ فاجنحْ لها ...﴾[124] .

---

١٢٠ - سورة الإنسان، الآيتان ٨ و ٩.

١٢١ - سورة الأنعام، الآية ١٢٧.

١٢٢ - سورة الحشر ، الآية ٣٣.

١٢٣ - سورة البقرة ، الآية ٢٠٨.

١٢٤ - سورة الأنفال، الآية ٦١.
تجدر المقارنة هنا مع القول المنسوب إلى سيدنا عيسى عليه السلام في الإصحاح العاشر من إنجيل متّى تحت رقم ٣٤ إلى ٣٦: «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً. فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها. وأعداء الإنسان أهل =

وصيته ﷺ بالنساء خيراً

كان رسول الله ﷺ يحسن معاملة النساء عامة ويسمح باستخدامهن في حروبه وغزواته، يخدمن الجرحى ويخطن القرب ويطهين الطعام، وقد أوصى بهن بخطبته في حجة الوداع[125]، فكان مما قاله ﷺ: «... فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيراً»[126].

حُنكته ﷺ في التفاوض

ومن حسن الإدارة والسياسة أن رسول الله ﷺ قد رضي يوم الحديبية أن يكاتب سهيل بن عمرو فقال رسول الله ﷺ: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهم. فقال المسلمون والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم،

= بيته؛ وذلك رغم ما هو معروف عن الدين المسيحي أنه دين السلام والمحبة، وقارنه أيضاً بقول الله سبحانه وتعالى في الآية رقم ١٥ من سورة لقمان ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾. وفي الآية ٨ من سورة العنكبوت ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾. وتجدر الإشارة إلى أن النص المذكور من الإصحاح العاشر من إنجيل متّى قد جاء في سياق الإيمان واتباع السيد المسيح عليه السلام. انظر كتاب الأناجيل المقدسة، إنجيل مارمتى، الإسكندرية، المطبعة المرقسية الكاثوليكية، ١٩٠٢م. انظر أيضاً: الهراوي، المرجع السابق، ص: ٧٤.

١٢٥ - محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، الطبعة الرابعة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢، الجزء الثالث، ص ١٥١.

١٢٦ - انظر خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع في البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط.٥، ١٩٨٥، ٢ / ٣١ - ٣٣.

فقال رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم، ثم قال هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبدالله، قال رسول الله ﷺ: والله إني لرسول الله وإن كذّبتموني، وقال لعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه امح رسول الله، فقال علي: لا والله لا أمحوه أبداً، قال فأرنيه، فأراه إياه فمحاه رسول الله ﷺ بيده وقال: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضُغطة ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ قال سهيل ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه..

وكان من ذلك أن وجد المسلمون حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقاً؟ قال: «بلى» قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ قال: «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري»[127]..

فقد أحب الرسول ﷺ حقن الدماء فقبل من خصمه هذا التعنت وكانت العاقبة له ولقومه[128]. لأن المسلم الذي يترك النبي باختياره ليلحق قريشاً ليس بمسلم، ولا خير فيه. أما المسلم الذي يُرَدُّ إلى المشركين مكرهاً

١٢٧ - خرجه البخاري ومسلم بألفاظ متقاربة. انظر الرياض النضرة للمحب الطبري، المرجع السابق، ص: ١٤١.

١٢٨ - محمد كرد علي، الإدارة الإسلامية في عز العرب، القاهرة، مطبعة مصر ١٩٣٤، ص ٢٣، انظر أيضاً: جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، =

فالصلة بينه وبين النبي ﷺ هي صلة الإسلام، وهي لا تنقطع بالبعد والقرب.

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش أنها الخاسرة لأن المسلمين الذين نفروا من قريش، ولم يقبلهم رسول الله ﷺ في حوزته رعاية لعهده مع قريش، خرجوا إلى طريق القوافل ولم يستطع المشركون أن يشكوهم إلى النبي ﷺ لأنهم خارجون من ولايته بحكم الهدنة. أما رسول الله ﷺ فقد تفرغ ليهود خيبر وللممالك الأجنبية يرسل الرسل إلى حكامها بالدعوة إلى الإسلام. ويوم نزلت الآيات الكريمة على إثر اتفاق الحديبية: ﴿إنَّا فتحنا لكَ فتحًا مبينًا. ليغفرَ لكَ اللهُ ما تقدّمَ من ذنبكَ وما تأخرَ ويتمَّ نعمتهُ عليكَ ويهديكَ صراطًا مستقيمًا وينصركَ اللهُ نصرًا عزيزًا﴾[129]. لم يفقه الكثيرون معناها في حينه بعد أن ظنوا أن اتفاق الحديبية محض تسليم ولكنهم فهموا أي فتح هو بعد ذلك وأدركوا أن من الفتوح ما يكون مبيناً بغير السيف.

البصيرة والملكة الإدارية لرسول الله ﷺ

أوتي رسول الله ﷺ ما يطلق عليه اليوم (الملكة الإدارية) والإلهام النافذ السديد في الكثير من تدابير المصالح العامة. فكان منها ما قضى به رسول الله ﷺ، وهو النبي الأمي وقبل كشف الجراثيم وتأسيس الحجر الصحي بين الدول وقبل العصر الحديث بعشرات القرون، في مسائل

= الجزء الثامن، ص ٢٩١ - ٢٩٢ والقاضي أبا يوسف، المرجع السابق، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

١٢٩ - سورة الفتح ، الآية رقم ١ و ٢ و ٣.

الصحة واتقاء انتشار الأوبئة حيث قال ﷺ: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»[130]. وكانت هذه الملكة أيضاً أساساً مكيناً له ﷺ فما عرض له تدبير أمر من معضلات الشقاق قبل الرسالة أو بعدها إلا أشار فيه بأعدل الآراء وأصوبها وأرضاها إلى جميع المتنازعين. وقد فعل ذلك حين اختلفت القبائل على أيها يستأثر بإقامة الحجر الأسود في مكانه، وهو شرف لا تنزل عنه قبيلة لقبيلة، ولا تؤمن عقبى الفصل فيه بإيثار إحداهما.

فاتفقت قريش على أن يجعلوا بينهم فيما يختلفون فيه أول من يدخل باب المسجد يقضي بينهم فيه. ففعلوا، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد[131]. فجاء بالثوب ووضع الحجر الأسود عليه وأشرك كل زعيم في طرف من أطراف الثوب، وكان من قسمته أن يقيمه بيده حيث كان على غير خلاف بين القبائل.

ويوم هاجر ﷺ إلى المدينة وخرج أهلها يستقبلونه وكل منهم يتنافس على ضيافته، ورسول الله ﷺ يشفق أن يقدح في نفوسهم شرر الغيرة بتمييز أناس على أناس، ترك لناقته خطامها تسير ويفسح لها الناس حتى بركت.

ويوم فضل بالغنائم أناساً من أهل مكة على الناس من الأنصار الذين نصروه وآمنوا بدعوته، وكان من ذلك أن وجد بعض الأنصار، لم يكن أسرع منه ﷺ إلى إقناعهم بالحجة فقال: «يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم،

---

١٣٠ - الطبري ، المرجع السابق ، الجزء الرابع ، ص ٥٨ . انظر أيضاً جامع الأصول لابن الأثير ، المرجع السابق، الجزء السابع، ص: ٥٧٩ .

١٣١ - عبد السلام هارون ، تهذيب سيرة ابن هشام، المرجع السابق ، ص ٥٤ .

وجدة (أي عتب) وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألّف الله بين قلوبكم؟ .. ثم قال ﷺ: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل، قال ﷺ أما والله، لو شئتم لقلتم فلصدقتم: أتيناك مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك؛ أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة (البقية اليسيرة) من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، وتركتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

وفي هذا الكثير من معاني الإدارة والسياسة وحسن التدبير سواء من حيث تدبير الأمر أو تدبير المشاعر. فبدأ ﷺ بذكر فضلهم وذكّرهم بفضل الله عليهم، وأكد أنه لم ينحز إلى قومه وينساهم كما زعم بعضهم وإنما اعتمد على قوة دينهم وعظيم إيمانهم. وعندها أعلنوا إيثارهم لرسول الله على كل ما تفيض به الدنيا من مال ومتاع وسالت مدامعهم فرحاً بدعوة الرسول المستجابة لهم فضربوا أروع الأمثلة في صدق الإيمان ورقة القلوب[١٣٢].

---

١٣٢ - د. السباعي ، المرجع السابق ، ص ١٤٤ - ١٥٢ .

لغته ﷺ في الخطاب والإدارة

أرسل رسول الله ﷺ رسله إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وخاطب ملوك الأطراف بلغة مضر، واستعمل ألفاظاً في كتبه إلى أهل اليمن وغيرهم غير معروفة للكافة من القبائل إلا في قبيلة واحدة، وتلك إرادة إفهام القوم ومخاطبتهم بالمألوف من عباراتهم. فقد سأل علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه رسول الله ﷺ وقد سمعه يخاطب وفد بني نهد: يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره. فقال: أدبني ربي فأحسن تأديبي، وربيت في بني سعد. وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم، كان يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه. وروى الترمذي عن عائشة قالت: ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام يبيِّنه، فصل، يحفظه من جلس إليه. وروى أبو داود عن جابر قال: كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل وترسيل.

وقد أوتي رسول الله ﷺ جوامع الكلم في خطابه ووصاياه ورسائله، واتسمت كلها بسمة البلاغ المبين فكل كلمة تصل إلى سامعها، وكل كلمة مقصودة بمقدار. ومن ذلك رسالته ﷺ إلى النجاشي حيث قال: «سلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله. وقد بعثت إليك ابن عمي

جعفراً ونفراً من المسلمين فإذا جاءك فاقرهم ودع التجبر.. فإني أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي، والسلام على من اتبع الهدى»[١٣٣].

واللغة في الإدارة من أهم وسائل الاتصال الفعّال، وقد أوتي ﷺ قوة الإبلاغ باجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، ومن ذلك جمعه قواعد السلوك للدنيا والآخرة بقوله ﷺ: «أحرث لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا» وقوله ﷺ: «كما تكونوا يُول عليكم» دلالة على أن مسؤولية الأمم عن حكوماتها لا يعفيها من ذلك العذر بالجهل بما تصنع الحكومة، لأن الجهل جهلها الذي تعاني منه وتعاقب عليه، ولا يعذرها في ذلك الإكراه، لأن الإكراه ضعفها الذي تلقى جزاءه. كما يدل ذلك على أن الأمة مصدر السلطات، وأن العبرة تكمن في أخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التي تعلنها الحكومة. وأن الأمة تستحق الحكم الذي تصبر عليه لأن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

لطفه ورأفته ﷺ

من أبلغ صفات القيادة الإدارية لدى رسول الله ﷺ أنه كان عطوفاً يرأم من حوله ويودهم ويدوم على المودة لهم. فمن روائع الشعور القيادي المرهف أنه ﷺ قد واسى في موت طائر كان أخو خادمه يلهو به. وكان يلقى مرضعته حليمة السعدية هاتفاً بها: أمي أمي ويفرش لها رداءه! .. ويعطيها ما يغنيها. وقد قال أنس بن مالك: خدمت النبي ﷺ عشر سنين

---

١٣٣ - عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، مجموعة العبقريات الإسلامية، بيروت، المكتبة العصرية (لم يذكر تاريخ النشر)، ص ٧٣ - ٧٤.

فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء صنعته: لم صنعته؟ ولا لشيء تركته: لم تركته؟ وقد اتسع عطفه ليشمل الناس جميعاً في عاطفة إنسانية رحبت حتى شملت كل ما أحاطت به وأحاط بها مع ذوق سليم يضارعها نبلاً ورفعة. فكان إذا ودع رجلاً أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده. وكان يكره أن يجلس ويبقى الناس قياماً تعظيماً له، ويقول: «من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار»[١٣٤]، ويكره إذا مشى مع أصحابه وكانت معه حاجة أن يحملها له بعض أصحابه ويقول: «صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله إلا أن يكون ضعيفاً يعجز عنه فيعينه عليه أخوه المسلم»[١٣٥]. ولم يرض ﷺ أن يعمل الناس وهو جالس فشارك في حفر الخندق، وفي جمع الحطب لإعداد الطعام، كما أنه لم يرض أن يركب ويمشي مرافقه.

حرصه ﷺ على مشاعر الآخرين

ومن الصفات القيادية لرسول الله ﷺ عدم جرح أحاسيس الناس فإذا أراد أن ينتقد تصرف إنسان كان لا يسميه بل ينتقد الفعل الخاطيء ويوجه إلى الصواب من غير ذكر الأسماء لأن ذكر المخطيء بخطئه على ملأ من الناس تشهير به فيقول مثلاً: «ما بال رجال.. أو ما بال أقوام ...». ويترك الفاحش من القول، وفي هذا يقول أنس: لم يكن رسول الله ﷺ سبّاباً ولا فحّاشاً، كان يقول لأحدنا في المعتبة: ماله؟ تربت يمينه. ويقول أبو الدرداء: كان رسول الله ﷺ إذا حدّث بحديث تبسّم في حديثه. وكان فكهاً في مزاحه

١٣٤ - أبو داود والترمذي في الأدب باب قيام الرجل للرجل.

١٣٥ - قال في الجامع الصغير: أخرجه الطبراني في الأوسط.

فيقول لأنس بن مالك: يا ذا الأذنين. وعندما أتاه رجل يطلب منه أن يحمله - أي: يعطيه ما يركبه - قال عليه الصلاة والسلام: إنا حاملوك على ولد ناقة، فقال الرجل: يا رسول الله: ما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: وهل تلد الإبل إلا النوق[136]. وأتت عجوز النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ادع لي أن يدخلني الله الجنة، فقال: يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز، فولت العجوز تبكي فقال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز. ومعاملته لعبدالله بن أبي، الذي كان يمثل رأس النفاق، مثل من أمثلة الاغضاء والصفح الجميل بعد أن عاهد وغدر ثم عاهد وغدر وعاش يكيد للنبي ﷺ في سره ويمالىء عليه أعداءه حتى قال ابنه: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه. فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالديه مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار. وكان رسول الله ﷺ قد آثر الرفق به.. وعندما مات عبدالله بن أبي أعطى رسول الله ﷺ قميصه الطاهر لابنه يكفن به أباه، وصلى عليه ميتاً ووقف على قبره حتى فرغ من دفنه، وعندما حاول عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يثنيه عن الصلاة عليه ذاكراً الآية: ﴿استغفرْ لهمْ أوْ لا تستغفرْ لهُمْ إن تستغفرْ لهمْ سبعينَ مرةً فلن يغفرَ اللهُ لهمْ ...﴾[137] فقال رسول الله ﷺ: «لو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له زدت».

---

١٣٦ - أبو داود في الأدب باب المزاح، والترمذي في البر والصلة باب المزاح.

١٣٧ - سورة التوبة، الآية رقم ٨٠.

ولهذا فقد ظفر ﷺ بولاء رجال بينهم الكثير من التفاوت في التقدير لخصائص القيادة، بحكم اختلاف سماتهم ونشأتهم وطباعهم، ولكنهم جميعاً يجمعون على سموه وتقديره، ويؤمنون إيماناً عميقاً بنعت الله سبحانه له بقوله: ﴿وإنكَ لعلى خلقٍ عظيمٍ﴾.

عاطفته ﷺ على الحيوان

اتسعت العاطفة الإنسانية لرسول الله ﷺ فشملت الأحياء كافة. فكان يصغي الإناء للهرة لتشرب. ومن وصاياه: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة ..»[138]. و«إن الله غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركي (بئر) يلهث قد كاد يقتله العطش فنزعت خفها فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك»[139]. وقال أيضاً: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[140]. وروى شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحدَّ أحدكم شفرته وليُرح ذبيحته»[141] ورأى ﷺ رجلاً أضجع شاة فوضع رجله على عنقها وهو يحدّ

١٣٨ - مما أخرجه أبو داود عن سهل بن حنظلة، انظر جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص: ٥٢٨.

١٣٩ - انظر جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص: ٥٢٣.

١٤٠ - وفي رواية: «عُذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت النار، لا هي أطعمتها وسقتها، إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض» أخرجه البخاري ومسلم. خَشاش الأرض: هوامُّها وما فيها من الحشرات.

١٤١ - أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي. رواه مسلم برقم ١٩٥٥ في =

شفرته فقال رسول الله ﷺ: «ويلك أردت أن تميتها ميتات؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها»[142].

اهتمام رسول الله ﷺ بالعلم

لم يعرف العالم رسالة تدفع إلى العلم والتعلم والتعليم مثل رسالة الإسلام. فأول كلمة في القرآن الكريم نزلت على سيدنا محمد ﷺ: (اقرأ)، والآيات القرآنية التي تناولت العلم والعلماء كثيرة منها: ﴿... يرفعِ اللهُ الذينَ آمنوا منكمْ والذينَ أوتوا العلمَ درجاتٍ ..﴾[143]، ﴿... قلْ هلْ يستوي الذينَ يعلمونَ والذينَ لا يعلمونَ ...﴾[144]، ﴿وما يستوي الأعمى

= الصيد، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، والترمذي برقم ١٤٠٩ في الديات، باب النهي عن المثلة، وأبو داود برقم ٢٨١٥ في الأضاحي، باب النهي أن تصبر البهائم والرفق بالذبيحة، والنسائي ٧/ ٢٢٧ في الضحايا، باب الأمر بإحداد الشفرة. انظر أيضاً جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص: ٤٨١.

١٤٢- إن الذين توصلوا حديثاً إلى إعلان مبدأ الرفق بالحيوان وأصبحوا يفخرون بهذا الرقي الإنساني، إذا تعلقت مصالحهم السياسية أو الاقتصادية بإهلاك أمم وشعوب من البشر لم يتورعوا عن ذلك ولم تخفق في قلوبهم خافقة رحمة، فكأنهم مصابون بازدواج أو بانفصام في شخصياتهم وفي معاييرهم. إن المدنية التي يرفلون بها من آلات وأدوات وتكنولوجيا وناطحات سحاب ليست حضارة، لأن الحضارة هي قيم ومثل وسلوك حضاري إنساني..

وهكذا عمل الإسلام على غرس خلق الرحمة في قلب المسلم وتغذيته وتنميته وتوسيع دائرة شموله ليصبح مسؤولاً عن الرحمة بكل ذي كبد رطبة.

١٤٣ - سورة المجادلة، الآية ١١.

١٤٤ - سورة الزمر، الآية ٩.

والبصير﴾[١٤٥].

وقد اهتم رسول الله ﷺ بالعلم واعتبره من أركان قيام الدولة فشجع عليه وعمل على غرس وتنمية الدوافع الذاتية لدى الفرد للتعلم. ومن بعض ما ورد من أحاديث شريفة بهذا الصدد:

روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة».

وروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».

وروى قيس بن كثير قال: كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فجاءه رجل فقال: يا أبا الدرداء إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ، ما جئت لحاجة، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سلَكَ طريقاً يطلبُ فيه علماً، سلك الله به طريقاً من طُرُق الجَنَّة، وإن الملائكة لَتَضَعُ أجْنِحَتها رِضىً لطالب العلم، وإن العالِم لَيَسْتَغْفِرُ له مَن في السموات ومَن في الأرض، والحيتَانُ في جَوف الماء، وإن فَضْلَ العالم على العابد كفَضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماءَ ورَثَةُ الأنبياء، وإن الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا ديناراً ولا دِرْهماً، وَرَّثوا العلم، فمن أَخَذَه أخذ بحظٍّ وَافِر».

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سُئل علماً يعلمه فكتمه أُلجم بلجام من نار».

وكان حرص رسول الله ﷺ على العلم منذ أن بدأ ببناء الدولة في مجتمع المدينة. فقد فادى من رأى فداءه من أسارى بدر، فمن لم يكن له

---

١٤٥ - سورة فاطر، الآية ١٩.

فداء أمره أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة، ففشت الكتابة في المدينة[146].

تحديده ﷺ المسؤولية الجماعية

أبرز رسول الله ﷺ المفهوم العام للمسؤولية الجماعية، وهي من أهم متطلبات الإدارة، لا سيّما وأن إنجاز العمل الإداري وتحقيق الكفاية فيه يتطلب تعاون وتضافر الجهود المشتركة لفريق العمل. وقد عرض رسول الله ﷺ ذلك المفهوم العام للمسؤولية الجماعية في صورة تمثيلية بديعة.

روى البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قومٍ استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقّوا من الماء مروا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجوْا جميعاً»[147].

وهذا يعني أن الفرد أو مجموعة أفراد لا يملكون الحرية الشخصية في أن يفعلوا كل ما يريدون. فعليهم مسؤولية جماعية تمنعهم من عمل ما يضر

146- محمد بن يزيد المبرد (أبو العباس)، الكامل، تحقيق محمد أحمد الدالي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1986، ص 395.

147- هذه رواية البخاري وللترمذي نحوها برقم 2174 في الفتن، باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب. الاستهمام: طَلَبُ السهم والنصيب، والمراد به الاقتراع.

بالجماعة أو ما يضر بأنفسهم. فإذا تجاوز هؤلاء حدود مسؤوليتهم الجماعية فعلى الآخرين ردعهم والأخذ على أيديهم لأنهم إن لم يفعلوا حلّ البلاء بالجماعة كلها.

من بعض صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم

أولاً - من خلق الرسول ﷺ في القرآن الكريم

- كان خلقه القرآن

وصف الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً ﷺ بأنه على خلقٍ عظيم فقال تعالى: ﴿وإنكَ لعلى خلقٍ عظيمٍ﴾[148]، فهو المثل الإنساني الكامل..

كما وصفت السيدة عائشة رضي الله عنها خلق الرسول ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن، أي كان خلقه مطابقاً لما وجّه له القرآن من فضائل ومكارم أخلاق.

- الأسوة الحسنة

قال الله تعالى: ﴿لقدْ كانَ لكمْ في رسولِ اللهِ أسوةٌ حسنةٌ ...﴾[149]، فقد كانت حياة الرسول ﷺ وسيرته مدرسة تربوية خلقية سلوكية شاملة،

---

١٤٨ - سورة القلم، الآية ٤.

١٤٩ - سورة الأحزاب، الآية ٢١.

وكان أعلى مثل في كل صفة من صفات مكارم الأخلاق. يعود المريض، ويتبع الجنازة، ويخيط ثوبه، ويخدم نفسه.

وكانت أمة من إماء أهل المدينة تأخذ بيده فتنطلق به حيث شاءت.

وإذا جلس بين أصحابه كان كأحدهم فيأتي قاصده فلا يعرفه فيقول: أيكم محمد.

- الرؤوف الرحيم

قال الله تعالى: ﴿لقدْ جاءكمْ رسولٌ منْ أنفسكمْ عزيزٌ عليهِ ما عنتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ﴾[150]، والرأفة كالرحمة إلا أنها أرق وقيل: هي أشد من الرحمة. والرأفة والرحمة هما معين معظم الفضائل الأخرى التي تصل إلى الآخرين كالعفو والمعونة والعطاء ولين الجانب والتواضع والمشاركة الوجدانية..

وعن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأقوم إلى الصلاة أريد أن أطوِّل فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشقّ على أمه»[151].. وهذا يعكس رحمة رسول الله ﷺ بالصغار.

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير وذا

---

١٥٠ - سورة التوبة : الآية ١٢٨.

١٥١- أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي. رواه البخاري ٢ / ١٦٩ في صلاة الجماعة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، وفي صفة الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد بالليل والغلس، وأبو داود برقم ٧٨٩ في =

الحاجة، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ماشاء»[152]. وهذا يعكس رحمته بالضعفاء والمرضى وكبار السن.

من رأفته ورحمته أنه كان يعفو عمن أساء إليه فصفح ﷺ عن المرأة اليهودية التي دست له السم في ذراع شاة أهدتها إليه، وترفق كما ذكرنا سابقًا بعبدالله بن أبي بن سلول كبير المنافقين في المدينة وأحسن صحبته، وقدّم لابنه قميصه ليكفنه به بعد موته، وصلى عليه.. وقال لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه: «لو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له زدت».

- حياؤه

كان رسول الله ﷺ كثير الحياء، يناله ما يؤذيه من بعض أصحابه فيستحيي أن يجرح مشاعرهم. وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿ ... إذا دُعيتمْ فادخلوا فإذا طعمتمْ فانتشرُوا ولا مستأنسينَ لحديثٍ إنَّ ذلكمْ كانَ يؤذي النبيَّ فيستحي منكمْ واللهُ لا يستحي من

= الصلاة، باب تخفيف الصلاة للأمر يحدث، والنسائي برقم ٢ / ٩٥ في الإمامة، باب ما على الإمام من التخفيف. ومما رواه أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «إني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي، مما أعلم من شدة وجْد أمه من بكائه». وعن عثمان بن أبي العاص قال: آخر ما عهد إليّ رسول الله ﷺ: إذا أممْت قومًا فأخفّ بهم الصلاة، وفي رواية: «أمّ قومك، فمن أمّ قومًا فليخفف، فإن فيهم الكبير، وإن فيهم المريض، وإن فيهم الضعيف، وإن فيهم ذا الحاجة، وإذا صلى أحدكم وحده فليصل كيف شاء». أخرجه مسلم.

١٥٢- البخاري برقم ٢ / ١٦٨ في صلاة الجماعة، ومسلم برقم ٤٦٧ في الصلاة...

الحـقِّ ...﴾[153].

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه.

وروى البخاري ومسلم عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير» وفي رواية «الحياء خير كله».

وروى البخاري عن أبي مسعود الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت»[154].

- فإنك بأعيننا

قال الله تعالى مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿واصبرْ لحكمِ ربكَ فإنكَ بأعيُنِنَا ...﴾[155] أي بمرأى ومنظر منا نرى ونسمع ما تقول وتفعل، وقيل بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك. . أية منزلة رفيعة حظي بها محمد ﷺ إذ يقول له الله سبحانه وتعالى: ﴿ ... فإنكَ بأعيُنِنَا ...﴾، يكلؤه ويرعاه.

واشتد حرص الرسول ﷺ على هداية من أصر على الكفر من قومه، وبلغ الحرص من نفسه مبلغ الحزن عليهم والأسف الموصل إلى الهلاك، فقال الله تعالى: ﴿فلعلكَ باخعٌ نفسكَ على آثارهمْ إن لمْ يؤمنوا بهذا الحديثِ

---

١٥٣ - سورة الأحزاب، الآية ٥٣.

١٥٤ - رياض الصالحين للنووي، المرجع السابق، ص: ٥٠٢.

١٥٥ - سورة الطور، الآية ٤٨.

أسفًا ﴾[156] و ﴿واصبرْ وما صبركَ إلا باللهِ ولا تحزنْ عليهمْ ...﴾[157] و ﴿ولا تحزنْ عليهمْ ولا تكُن في ضيقٍ مما يمكرونَ﴾[158] و ﴿... فلا تذهبْ نفسكَ عليهمْ حسراتٍ إنَّ اللهَ عليمٌ بما يصنعونَ﴾[159] و ﴿لعلكَ باخعٌ نفسكَ ألا يكونوا مؤمنينَ﴾[160] و ﴿ومن كفرَ فلا يحزنكَ كفرهُ ...﴾[161] و ﴿ولا يحزنكَ الذينَ يسارعونَ في الكفرِ إنهم لن يضروا اللهَ شيئًا ...﴾[162] و ﴿يا أيُّها الرسولُ لا يحزنكَ الذين يسارعونَ في الكفرِ منَ الذينَ قالوا آمنَّا بأفواههمْ ولم تؤمن قلوبُهُمْ...﴾[163] وقول الله تعالى: ﴿طه. ما أنزلنا عليكَ القرآنَ لتشقى﴾[164] توجيه ضمني له بأن لا يضني نفسه ويشقيها أسفًا وحزنًا على الذين لم يستجيبوا لدعوة الحق بدافع محبة الخير لهم.. وهكذا تكررت على الرسول ﷺ من ربه التوجيهات ليخفف عنه.

فالرسول الكريم ﷺ يحزن على الكافرين ويصبر على أذاهم ويصفح الصفح الجميل ويدفع بالتي هي أحسن.. كل ذلك بأمل أن يهتدوا ويؤمنوا

---

١٥٦ - سورة الكهف، الآية ٦.

١٥٧ - سورة النحل، الآية ١٢٧.

١٥٨ - سورة النمل، الآية ٧٠.

١٥٩ - سورة فاطر، الآية ٨.

١٦٠ - سورة الشعراء، الآية ٣.

١٦١ - سورة لقمان، الآية ٢٣.

١٦٢ - سورة آل عمران، الآية ١٧٦.

١٦٣ - سورة المائدة، الآية ٤١.

١٦٤ - سورة طه، الآيتان ١ و ٢.

بالله، وهو أمر فيه صلاحهم وسعادتهم.

ثانياً ـ من بعض الصفات القيادية لدى رسول الله ﷺ :

تكاملت الصفات النبيلة في رسول الله ﷺ نفسياً وتربوياً وسلوكياً. فبالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه نعرض بعضها فيما يلي:

- الزهد : فاختار الفقر المقرب إلى الله عن طيب خاطر وفضله على لذائذ الحياة الدنيا فقال لعائشة: «عَرَض عليَّ ربي ليجعَلَ لي بطحاء مكة ذهباً فقلت: لا يارب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتُك وشكرتك» أخرجه الترمذي. وقال ﷺ: «الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال وإضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يد الله»[١٦٥].

واعتبر ﷺ هذه الدنيا دار ممر وليست بدار مقر، وفي ذلك يقول عبدالله ابن مسعود: دخلنا على رسول الله وقد نام على رُمال حصير أي: حصير مضفور وقد أثر في جنبه، فقلنا يارسول الله لو اتخذنا لك وطاءً تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه فقال: «مالي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[١٦٦].

وهذا امتثال لأمر الله لرسوله ﷺ في الآية: ﴿ولا تمدنَّ عينيكَ إلى ما متعنا بهِ أزواجًا منهمْ زهرةَ الحياةِ الدنيا لنفتنهمْ فيهِ ...﴾[١٦٧]

---

١٦٥ - أخرجه الترمذي وابن ماجه في الزهد.

١٦٦ - الترمذي في الزهد.

١٦٧ - سورة طه، الآية ١٣١ .. أزواجًا منهم: أصنافًا منهم.

فأبان الله تعالى أن كل ما يتمتع به الناس في الحياة الدنيا هو كالزهرة.. قصيرة العمر.. سريعة الذبول والفناء.

وقد ظهر زهد رسول الله ﷺ في كثير من الحاجات كالطعام واللباس والمسكن...

فقد كان خبزه خبز شعير في أكثر أحيانه وما أكل نقياً – أي خبز طحين منخول – حتى مات ﷺ. قال عبدالله بن عباس: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة وأهله طاوياً لا يجدون عشاء وإنما كان أكثر خبزهم خبز الشعير[168] وكان الخل إدامه أحياناً، فعن جابر أن النبي ﷺ سأل أهله الأُدْمَ. فقالوا: ما عندنا إلا خَلٌّ، فدعا به، فجعل يأكل ويقول: «نِعْمَ الأُدْمُ الخل، نِعْمَ الأُدْمُ الخل»[169] . وكان أنس بن مالك يقول: ما أعلم رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مرقّقاً حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطاً بعينيه حتى لحق بالله[170]، وروى البخاري عن عبدالله بن عمر قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدينا كأنك غريب أو عابر سبيل».

وما اتخذ رسول الله ﷺ كما تقول السيدة عائشة من شيء زوجين، لا قميصين ولا رداءين ولا إزارين ولا من النعال[171] ، وكثيراً ما كان يلبس المرقع من الثياب. وكان فراشه ومخدته من جلد محشو بالليف. وما كان يدخر شيئاً لغد، ولما مات ما ترك غير سلاحه وبغلته وأرضاً جعلها صدقة

---

١٦٨ – الترمذي في الزهد : باب معيشة النبي ﷺ.

١٦٩ – رواه مسلم.

١٧٠ – البخاري في الأطعمة، والشاة السميط : المشوية.

١٧١ – صفوة الصفوة : ١ / ٢٠٠.

ودرعاً مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير أخذها ﷺ رزقاً لعياله.. وروى الترمذي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجلفُ الخبز والماء»[172]. وروى الترمذي عن عبيد الله بن محصن أن رسول الله ﷺ قال:: «من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[173].

- التواضع : من أهم خصائص القيادة الإدارية القدرة على التأثير فإذا تعالى القائد فإن تعاليه يزيد في الهوة بينه وبين الناس، وإذا زادت الهوة انعدم التأثير. وقد كان رسول الله ﷺ أكثر الناس تواضعاً حتى أنه مرّ بصبيان فسلّم عليهم[174]، وكانت الأَمَةُ من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله

١٧٢- رواه الترمذي برقم ٢٣٤٢ في الزهد، باب رقم ٣٠ وقال هذا حديث صحيح، ورواه أحمد في المسند ١ / ٦٢ وإسناده حسن، وقال المناوي في «فيض القدير»: وقال الحاكم: صحيح، وأقره الذهبي. وفي روايه رزين: وجلف خبز يرد بها جَوْعَته، والماء القراح. وقال النضر بن شميل: جلف الخبز: يعني ليس معه إدام. القراح: الذي لا يشوبه شيء ولا يخالطه، مما يُجعل فيه كالعسل والتمر والزبيب وغير ذلك مما يتخذ شراباً.

١٧٣- رواه الترمذي برقم ٢٣٤٧ في الزهد، باب رقم ٣٤، ورواه البخاري في الأدب المفرد برقم ٣٠٠ باب من أصبح آمناً في سربه، وابن ماجه برقم ٤١٤١ في الزهد، باب القناعة... آمناً في سربه: أي في نفسه، وروي بفتح السين وهو المسلك والمذهب، الحذافير: عالي الشيء ونواحيه، أي بأسرها، الواحد حذْفار.

١٧٤- البخاري في الاستئذان : باب التسليم على الصبيان، ومسلم في السلام : باب استحباب السلام على الصبيان.

فتنطلق به حيث شاءت[١٧٥]، وكان إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو يصرفه[١٧٦]. وعندما كانت تأتي الوفود إلى رسول الله ﷺ كانت تراه جالساً على حصير مضفور من ورق شجر النخل.. وكان هذا هو أثاث المنزل كله.

- الكرم : وهو شعبة من شعب الزهد أو الوجه الآخر له. فإذا كان الزهد انصراف النفس عن الشيء فالكرم هو دفع الشيء إلى الآخرين عن طيب نفس. وكان جابر بن عبدالله وأنس بن مالك يقولان: ما سُئل رسول الله ﷺ شيئاً إلا أعطاه. ومما قاله عبدالله بن عباس: كان رسول الله أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في شهر رمضان.. وأجود بالخير من الريح المرسلة[١٧٧]. مما يدل على تحرر نفس رسول الله ﷺ من أن تملكها الدنيا.

روى البخارى عن سهل بن سعد أن امرأة جاءت النبي ﷺ ببردة منسوجة فقالت: نسجتها بيدي لأكسوكَها، فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنها إزاره، فقال فلان: اكسُنيها، ما أحسنها! فقال: «نعم». فجلس النبي ﷺ في المجلس ثم رجع فطواها ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجًا إليها، ثم سألته وعلمت أنه لا يردّ سائلاً. فقال: إني والله ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني. قال سهل: فكانت كفنه.

---

١٧٥ - البخاري في الأدب : باب الكبر.

١٧٦ - أبو داود في الأدب : باب حسن العشرة.

١٧٧ - مسلم في الفضائل : باب الجود، والبخاري في بدء الخلق.

- الرحمة : بعث الله محمداً ﷺ رحمة بالإنسانية ليهديها سبيل الرشاد فقال تعالى: ﴿وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمينَ﴾[178] و ﴿لقدْ جاءكمْ رسولٌ منْ أنفسكمْ عزيزٌ عليهِ ما عنتّمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ﴾[179] وقد انعكست هذه الرحمة في تصرفاته عليه السلام.

وقد أشرنا إلى ذلك سابقًا فيما رواه البخاري عن أنس أن النبي ﷺ قال: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي ...»[180] (الحديث). ويقول أنس: ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ[181].

ومن رحمته أنه ذكر أمراً ليس يسهل على النفس ذكره ليخفف بذلك حزن رجل مؤمن جاء يسأله: أين أبي؟ قال ﷺ: في النار، فلما رأى رسول الله ﷺ ما في وجهه من الحزن قال: «إن أبي وأباك في النار»[182]. وقد شملت رحمته ﷺ الكافرين أيضاً فحرص على إنقاذهم وأرهق نفسه في دعوتهم وتملكه الحزن لإعراضهم حتى خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿فلعلكَ باخعٌ نفسكَ على آثارهمْ إن لمْ يؤمنوا بهذا الحديثِ أسفًا﴾[183]. وقوله تعالى:

---

١٧٨ - سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

١٧٩ - سورة التوبة، الآية ١٢٨.

١٨٠ - البخاري في صلاة الجماعة ، ومسلم في الصلاة : باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة.

١٨١ - مسلم في الفضائل : باب رحمته بالصبيان.

١٨٢ - مسلم في الإيمان.

١٨٣ - سورة الكهف، الآية ٦.

﴿ ... فلا تذهبْ نفسكَ عليهمْ حسراتٍ ... ﴾[184].

وعندما خرج ﷺ إلى الطائف يدعو أهلها إلى الإيمان بالله ردوه رداً غليظاً، وحرَّضوا صبيانهم عليه يرشقونه بالحجارة.. وعندما قال له جبريل: يا محمد لو شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت قال ﷺ: بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً.

- الحِلم : وهي صفة إنسانية يتمتع بها من أراد الله به خيراً فيودعها قلبه ليدفع بالتي هي أحسن. فقد روى أنس قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك - وفي رواية: فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك - فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء[185]. وعندما تعمد زيد بن سُعنة إثارة رسول الله ﷺ ليختبر حلمه لأنه ورد في وصفه ﷺ في كتب السابقين: أنه يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل إلا حلماً...

قدم عليه زيد - قبل إسلامه - يتقاضاه ديناً عليه فجبذ ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ عليه ثم قال: إنكم يا بني عبد المطلب مُطُلٌ، فانتهره عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشدَّد عليه في القول، والنبي ﷺ

---

184 - سورة فاطر، الآية 8.

185 - البخاري في الأدب : باب التبسم ، ومسلم في الزكاة : باب إعطاء المؤلفة قلوبهم ، وابن ماجة في اللباس، وأحمد في المسند 3/ 153، وكم في ضحكة الرسول ﷺ - وكان ضحكه التبسم - في وجه الاعرابي الجاهل من معنى يفهمه أصحاب الذوق الرفيع.

يتبسّم، فقال رسول الله ﷺ: «أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي» ثم قال: لقد بقي من أجله ثلاث – حتى يحل أجل وفائه – وأمر عمر أن يقضيه دينه ويزيده عشرين صاعاً لما روّعه.

وقد أشرنا فيما سبق كيف ظهر حلم رسول الله ﷺ حتى مع عبد الله ابن أبي بن سلول الذي حمل لواء المعاداة منذ أن وطئت قدما رسول الله ﷺ المدينة فتآمر عليه وحاول الإيقاع بين المسلمين والكيد لرسول الله ﷺ. ولما توفي جاء ابنه عبدالله بدافع من عاطفة البنوة طالباً من رسول الله ﷺ قميصه ليكفن به أباه وطلب منه أن يصلي عليه وأن يستغفر له ففعل رسول الله ﷺ فأعطى قميصه وقال للابن: آذنّي لأصلي عليه.

ويوم أحد كسرت رباعيته ﷺ وشُجّ وجهه فجعل يسلتُ الدم عنه وقد صُوِّبت نبال المشركين إليه لقتله، ويقول: «كيف يفلح قوم شجّوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته؟». فقال بعض الصحابة وقد شقّ عليهم ذلك: لو دعوتَ عليهم، فقال: «إني لم أُبعث لعّاناً، ولكني بُعثت داعياً ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»، فعفا عنهم وأشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم واعتذر عنهم بجهلهم، وهذا يمثل غاية الحلم والصبر وجماع الفضل وحسن الخلق وكرم النفس. فقد صبر ﷺ على أذى قومه له في بدنه، وعلى أذاهم له في نفسه حتى تبين لهم نبل مقصده فانقلب بغضهم له إلى حب، وأذاهم إلى إيثار.

- الشجاعة : وقد جمع رسول الله ﷺ في شخصه الشجاعة المادية والشجاعة الأدبية من حيث الجرأة على قول الحق. فعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو فارس مغوار، يقول: كنا إذا حَمِيَ الوطيسُ واحمرت الحِدَق

اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدو منه، ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا للعدو[186]. وحين سُمع في ظاهر المدينة صوت أفزع أهلها فخرج بعضهم إلى جهة الصوت وأقعد الفزع بعضهم وجدوا رسول الله ﷺ قد سبقهم على فرس عُرْي وهو عائد إليهم ليقول لهم: لم تُراعوا.

ويوم نزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿وأنذرْ عشيرتكَ الأقربينَ﴾[187] صعد على الصفا ونادى: يا صباحاه فاجتمع الناس إليه فقال: «يابني عبد المطلب، يابني فهر، يابني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تُغير عليكم، صدّقتموني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يَدَيْ عذاب أليم.

وعندما قالت قريش لعمه أبي طالب: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على عيب آلهتنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.. قال له عمه: يا ابن أخي ابق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر مالا أطيق. لم يفتّ هذا في عضد رسول الله ﷺ فقال: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»..

وبذلك فإنه ﷺ لم يساوم ولم يقبل المساومة لحظة واحدة في موضوع

---

١٨٦ - الشفاء ١ : ٨٦.

١٨٧ - سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

رسالته[188].

* * *

وقد خطط رسول الله ﷺ لبناء دولة عَقَدِية في المدينة لا تقتصر أهدافها على توفير الرفاهية المادية للناس، بل تحرص على بناء الإنسان بناءً فكرياً سليماً بغية بناء الحضارة ورقي العلوم. وهيأ لهذه الدولة العَقَدِية قاعدة واسعة تؤمن بها وتنفذ بكل إخلاص نظمها وتدافع عنها.

إن تصوّر رسول الله ﷺ في مرحلة التخطيط لإقامة الدولة العقدية كان راسخاً في نفسه ومستقراً في ضميره ووجدانه فرفض ما عرض عتبة ابن ربيعة من مال وسيادة وملك عندما قال: يامحمد إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا.

وكان منهج رسول الله ﷺ في بناء وتربية الإنسان يرتكز على أن تبدأ التربية من داخل النفس وأن يقوم ذلك على:

- تخليص النفس من الأمراض الفكرية كالكفر والخرافات، ومن الأمراض النفسية كالحقد والحسد وسوء الظن والكِبْر.. فقال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تَحَسَّسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا – ويشير إلى صدره ثلاث مرات – بحسب امرىءٍ من الشر: أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله، إن الله لا ينظر إلى

188 - الشيباني، المرجع السابق، ص: ٢٧٣.

أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[189].

- غرس القناعة والإيمان بالمبادئ المهذبة للنفس والمؤدية إلى استقامة السلوك.

- التطبيق العملي، انطلاقاً من أن الله تعالى لم يفرض الإيمان إلا للعمل فقرن الإيمان بالعمل الصالح في أكثر من خمسة وخمسين موضعاً في القرآن الكريم، وهذا تدعيم للمعرفة النظرية بالتطبيق العملي. ولأن الإيمان القلبي والتطبيق العملي صنوان لا يفترقان ولا يُغني أحدهما عن الآخر.

وقد اعتمد رسول الله ﷺ في توجيه الناس على قواعد التوجيه الإداري السليم والتي منها:

- التكليف بقدر الطاقة: فقال: «خذوا من العمل ما تطيقون، فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا»[190] وقوله: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»[191].

- الخطاب على قدر الفهم: وذلك بمراعاة المستوى العقلي للفرد فلا يحدثه ولا يأمره إلا بما يعقله، فقد قال ﷺ: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[192].

وقد وضّح وقرّب إلى أفهام الناس بالتمثيل أو بغيره. كما وضح رؤية أهل الجنة الله تعالى يوم القيامة من غير تزاحم على ماهم عليه من الكثرة

١٨٩- جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء السادس، ص: ٥٢٣ - ٥٢٦، وقد ورد في روايات متقاربة عند البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود.

١٩٠ - مختصر صحيح مسلم برقم ٣٧٨.

١٩١ - مسلم في الحج : باب فرض الحج مرة.

١٩٢ - مسلم في المقدمة : باب النهي عن الحديث بكل ما سمع.

فقال: «إنكم سترَوْن ربكم عِياناً كما ترون هذا القمر ولا تضامّون في رؤيته»[١٩٣]. هذا إلى جانب مراعاة الفروق الفردية فيتسامح مع البدوي الذي جبذه بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد بصفحة عنق رسول الله ﷺ. ويقول في التعامل مع النساء: «استوصوا بالنساء خيراً ...»، و «ارفق بالقوارير» إلى جانب عدم الإكثار من المواعظ لأن كثرة المواعظ ينسي بعضها بعضاً.

- اختيار الظرف المناسب للتوجيه: وهذا يجعل التوجيه أكثر قبولاً ورسوخاً في النفس. فقد أنزل الله الكثير من آيات القرآن الكريم حين حدوث أسبابها المهيئة لنزولها. وأورد الرسول الكريم ﷺ الحديث الواعظ حين حدوث سببه. ونذكر من ذلك أن حكيم بن حِزام سأل رسول الله ﷺ شيئاً من المال فأعطاه، ثم سأله شيئاً آخر فأعطاه ثم سأله شيئاً آخر فأعطاه؛ فأحب رسول الله ﷺ أن لا تفوت هذه الفرصة دون توجيه فقال له: «يا حكيم إن هذا المال خضِر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفسه بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفسه لم يبارَك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى»[١٩٤]. وكان رسول الله ﷺ يستخدم التوجيه المباشر في بعض الأحيان فينتقي الظروف التي تكون فيها النفوس مستعدة لقبول هذا النوع من التوجيه، ومن ذلك ما رواه ابن عمر قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[١٩٥]. ومن ذلك ما

---

١٩٣ - البخاري في التوحيد : باب وجوه يومئذٍ ناضرة.

١٩٤ - البخاري في الزكاة : باب الاستعفاف عن المسألة ، ومسلم في الزكاة : باب اليد العليا خير من اليد السفلى.

١٩٥ - البخاري في الرقاق : باب كن في الدنيا كأنك غريب.

ذكره ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً - وفي رواية: رديف رسول الله ﷺ - فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات...» الحديث.

- تقديم الأهم على المهم : من أهم قواعد التوجيه ترتيب الأولويات فلا يتم التركيز على نافلة مع ترك فريضة، وهذا ما يتضح في توجيه رسول الله ﷺ لأصحابه. فعندما سأله أعرابي: متى الساعة؟ أثار رسول الله ﷺ أهمية الاستعداد لها بالعمل الصالح فسأل الأعرابي: وما أعددتَ لها؟ فأجاب الأعرابي: لاشيء إلا أني أحب الله ورسوله، فقال: «أنت مع من أحببت»[196].

- التيسير والتبشير : فقد قال رسول الله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»[197] و«ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثماً»[198].

وبعض الموظفين الإداريين يتشدد ويتمسك باللوائح والإجراءات الإدارية لا رغبة بجودة العمل وإتقانه وإنما رغبة بالتشدد والتعقيد، فتتحول الإجراءات إلى هدف مع أنها وسيلة، مثلما تتحول أدوات القيمة إلى قيمة نهائية.

- التقويم الذاتي: فالفرد في الإسلام مفروض عليه أن يتولى بذاته تهذيب نفسه وإصلاحها وتقويم تصرفاته.

---

١٩٦ - البخاري في الأدب : باب علامة الحب في الله ، ومسلم في البر : باب المرء مع من أحب. انظر أيضاً الرياض النضرة، للمحب الطبري، المرجع السابق، الجزء الأول، ص: ٢١.

١٩٧ - البخاري في العلم : باب ما كان النبي يتخولهم بالموعظة ، ومسلم في الجهاد: باب التيسير.

١٩٨ - البخاري في الأدب : باب يسروا ولا تعسروا.

ويبدأ إصلاح الذات بالمحاسبة فقد قال رسول الله ﷺ: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[199]. ثم تأتي المرحلة الثانية في إصلاح الذات بجهاد النفس وإقامتها على الحق والفضيلة. فقد قال رسول الله ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه»[200]. والمحاسبة وجهاد النفس أساسان في تقويم الأعمال وتهذيب النفس حيث تسقى قطرات الخير قطرة قطرة حتى تتفتح أزهارها ويفوح أريجها، وعلى المرء أن يختار الوسط الذي يعيش فيه لأنه يتأثر بمن حوله من الناس، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثوبك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»[201].

* * *

وعندما بدأ رسول الله ﷺ ببناء الدولة في المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، وحرص على توفير الاستقرار الداخلي فعقد معاهدة مع اليهود جاء فيها: أن اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين

---

١٩٩ - أخرجه الترمذي عن شداد بن أوس برقم ٢٤٦١ في صفة القيامة، باب رقم ٢٦، ورواه أيضاً أحمد، وابن ماجه والحاكم. دان نفسه: حاسبها في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة. انظر: جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء الحادي عشر، ص: ١٣.

٢٠٠ - الترمذي في فضائل الجهاد : باب فضل من مات مرابطاً ، وأحمد في المسند ٦/ ٢٢.

٢٠١ - مسلم في البر : باب استحباب مجالسة الصالحين.

دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ - أي يهلك - إلا نفسه وأهل بيته..[٢٠٢]. كما حرص على إطفاء نار الفتنة التي يسعى إليها المنافقون وعلى رأسهم عبدالله بن سلول[٢٠٣].

كما حرص رسول الله ﷺ أن يبدد ما ساور بعض النفوس فاخترق أغوارها وعالج مخاوفها بحكمة إدارية واعية فأكد أن الإسلام لا يزيد العزيز إلا عزاً وذلك عندما أعلن يوم فتح مكة: أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

وللجانب الاقتصادي في بناء الدولة شأن عظيم يحقق لها القوة

---

٢٠٢ - تهذيب سيرة ابن هشام، المرجع السابق، ص: ١٤٢.

٢٠٣ - من ذلك مثلاً أنه بعد أن فرغ رسول الله ﷺ من عدوه في غزوة بني المصطلق تزاحم رجلان أحدهما من الأنصار والآخر من المهاجرين على الماء فاستغل ذلك ابن سلول فقال: أوفعلوها قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما نحن وجلابيب قريش إلا كما قال الأوَل: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذل... ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم... وقد عمد رسول الله ﷺ بحكمة إدارية فذة وبصيرة نافذة إلى إخماد نيران هذه الفتنة فأمر الناس بالمسير ومشى بهم يومهم حتى أمسى وتابع المشي بالليل حتى أصبح، وتابع المشي في اليوم الثاني حتى الضحوة الكبرى دون أن يمكنهم من الاستراحة، فنسي الناس الفتنة واشتغلوا بأنفسهم ولم يعد لهم حديث إلا التعب. وبذلك فقد آثر ألا يقطع رأس الأفعى كيلا يتولد الكره لدى فراخها وأن يسوس الناس بالحب لله لا بالسيف. ومثل ذلك فعل مع أهل مكة بعد أن فتحها فخطبهم وأعلن عليهم مبادىء المساواة التي جاء بها الإسلام ومنحهم حريتهم وقال: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم، قال: لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء.

والمنعة والكفاية. والثروة الحقيقية هي التي تشكل زيادة في الدخل العام للدولة الناجم عن الزراعة والصناعة والتجارة. ولذلك شجع رسول الله ﷺ الناس على الزراعة فقال: «مامن مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[٢٠٤]. وحرص ﷺ على أن لا تبقى في الدولة الإسلامية أرض ميتة غير مستغلة فقد روى جابر بن عبدالله وسعيد بن زيد أن رسول الله ﷺ قال «من أحيا أرضاً ميتة فهي له»[٢٠٥]، وقال أيضاً: «من أحيا أرضاً قد عجز صاحبها عنها وتركها بمهلكة فهي له»[٢٠٦].

وكان العرب يأنفون من مزاولة المهن اليدوية، حتى أن تسميتهم العمل اليدوي بالمهنة تعبير عن أنفتهم منه. ولهذا بدد رسول الله ﷺ هذا الشعور لديهم، لأنه لا تقوم دولة ولا يبنى اقتصاد إلا بالعمل، فوجه أصحابه إلى العمل اليدوي فقال: «من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له» و«ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»[٢٠٧].

كما حرص رسول الله ﷺ على نقاء الحياة الاقتصادية من حيث

---

٢٠٤ - أخرجه البخاري في الحرث والمزارعة، ومسلم في المساقاة وكلاهما في باب فضل الغرس والزرع.

٢٠٥ - أخرجه الترمذي برقم ١٣٧٩ في الأحكام باب ما ذكر في إحياء الموات وقال حديث حسن صحيح. وأخرجه أبو داود عن سعيد وحده برقم ٣٠٧٣ في الخراج باب إحياء الموات.

٢٠٦ - ذكره ابن الأثير في جامع الأصول برقم ١٣٦ عن سعيد بن زيد. وبِمَهْلَكَة المهلكة: موضع الهلاك أو الهلاك نفسه.

٢٠٧ - البخاري في البيوع : باب كسب الرجل عمله بيده.

عدالة الأسعار ومنع التلاعب والتغرير، ونهى عن تلقي البيوع وعن الاحتكار فقال: «من احتكر طعاماً أربعين يوماً يريد به الغلاء فقد برىء من الله وبرىء الله منه»[208].

واهتم رسول الله ﷺ بردم الفجوة الاقتصادية التي كانت بين الأغنياء والفقراء فكانت الزكاة وزكاة الفطر وحظ الفقراء من خمس الفيء والصدقات والكفارات، ولم يمض زمن طويل حتى ردمت تلك الفجوة حتى لم يجدوا في اليمن في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه من يقبل الزكاة مما حقق الكثير من التكافل الاقتصادي والاجتماعي والعدالة.

ومن دلائل الفطنة وحسن الإدارة لدى رسول الله ﷺ حرصه على معرفة خصائص الشخصيات القيادية قبل التفاوض معها لاختيار التصرف الأمثل تجاه كل شخصية فساسها بما يناسبها. فعندما وفد في صلح الحديبية من العدو مكرز بن حفص بن الأخيف، رآه رسول الله ﷺ فقال هذا رجل غادر. وعندما أقبل الحُلَيْس بن علقمة، قال رسول الله ﷺ: هذا من قوم يتألّهون - أي يعظمون الله - فأمر أصحابه أن يبعثوا الهَدْيَ في وجهه حتى يراه فرجع الحليس إلى قومه بعد أن رأى الأنعام المهداة وفي أعناقها القلائد فقال: أيُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظماً له!.. وعندما أقبل سهيل بن عمرو قال رسول الله ﷺ «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل».

* * *

يتبين مما سبق أن الفكر الإداري الإسلامي هو فكر حضاري حيث تمكن رسول الله ﷺ وهو يضع أسس ومقومات هذا الفكر الإداري من

---

٢٠٨ - مسند الإمام أحمد ٢ / ٣٣.

تشييد حضارة من أبرز خصائصها ما يلي:

١ - قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فيها يقف المخلوق أمام الخالق بدون أن يكون بينهما وسيط[٢٠٩] فرفعت مستوى الإنسان، وحررته من طغيان الملوك والإقطاع ورجال الدين، وبالإضافة لانتفاء الوساطة بين العبد وربه في الإسلام فالأرض كلها مسجد لله. ومن مميزات الإسلام ملاءمته لجميع الأجناس البشرية. وإذا كان صالحًا لكل جنس كان صالحًا بالضرورة لكل عقل، إذ هو دين الفطرة، وهو صالح لكل زمان ومكان[٢١٠]. وهي الحضارة الوحيدة في التاريخ التي أعطت الفرد الحق في أن يحاسب الخليفة عما يلبس ومن أين جاء به؟!.. فيستجيب الخليفة.. ويعرض الأسباب حتى يقتنع ذلك الفرد.

ولأول مرة في تاريخ الحضارات يقول أحد أفراد الرعية للخليفة: السلام عليك أيها الأجير.. وعندما يضرب ابن الوالي قبطياً سبقه في سباق الجياد يشكوه إلى الخليفة فيأمر بإحضاره وأبيه من مصر إلى المدينة، على بعد المسافة وصعوبة الانتقال، ويحكم بأن يضرب القبطي ابن الوالي.. أليس هذا ممارسة تطبيقية لحقوق الإنسان منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرناً.

٢ - بأنها حضارة إنسانية النزعة والهدف وتقوم على المساواة. فقد أعلن القرآن الكريم وحدة النوع الإنساني في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكمْ شعوباً وقبائلَ لتعارفوا إنّ أكرمكمْ عندَ اللهِ

---

٢٠٩ - الشيباني، المرجع السابق، ص: ٣٦.

٢١٠ - الفونس أتيين رينيه، محمد رسول الله ﷺ، ص: ٣٦٢-٣٦٣، انظر: الشيباني، المرجع السابق، ص: ٤٨٣-٤٨٥.

أتقاكمْ ...﴾[211]. وأكد هذه النزعة رسول الله ﷺ بقوله: «الناس سواسية كأسنان المشط لا فرق...»الحديث. وقال ﷺ في حجة الوداع: «الناس من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»[212]. وقد تجسدت هذه المساواة في التعامل على مختلف مستوياته وأمام القانون أيضاً. فعندما سرقت امرأة من بني مخزوم في عهد الرسول ﷺ وجيء بها إليه لتعاقب، أهمّ ذلك قريشاً وطلبوا من أسامة بن زيد أن يشفع لها عند رسول الله ﷺ فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام في الناس خطيباً فقال: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[213].

٣ – جعلت المبادىء الأخلاقية المحل الأول، وقيدت السلوك الفردي بهذه المبادىء سواء في الحكم والإدارة أو العلم أو الاقتصاد أو الأسرة أو الحرب.

٤ – بأنها حضارة دعت إلى التسامح الديني والعدالة والرحمة. فقد دعا الإسلام إلى التسامح الديني، وأكد أن الأنبياء أخوة. ولهذا يؤمن المسلمون بالأنبياء جميعاً ويذكرونهم بإجلال واحترام. وبذلك وضع الإسلام الأساس لسلم سرمدي بين مختلف الأمم، فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قولوا آمنّا باللهِ وما أُنزلَ إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ

---

٢١١ – سورة الحجرات، الآية ١٣.

٢١٢ – ابن سعد عن أبي هريرة.

٢١٣ – د. مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، المكتب الإسلامي، ١٩٨٢ ، ص ٦٥.

ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتيَ موسى وعيسى وما أُوتيَ النبيونَ من ربهمْ لا نفرقُ بين أحدٍ منهمْ ونحنُ لهُ مسلمونَ﴾[٢١٤]. وأن العقيدة لا يمكن الإكراه عليها فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لا إكراهَ في الدينِ ...﴾[٢١٥]، وأماكن العبادة مصانة، وأن الناس يجب ألا يقتتلوا بل أن يتعاونوا كما في قوله تعالى: ﴿... وتعاونوا على البرِ والتقوى ولا تعاونوا على الإثمِ والعدوانِ ...﴾[٢١٦].

كما دعى الإسلام إلى مبدأ لو طُبق في العصر الحاضر فإن من شأنه أن يضع حداً لجميع المنازعات الدينية، فقد قال الله تعالى: ﴿قلْ يا أهلَ الكتابِ تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكمْ ألا نعبدَ إلا اللهَ ولا نشركَ به شيئًا ولا يتخذَ بعضُنا بعضًا أربابًا من دونِ اللهِ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمونَ﴾[٢١٧].

وأن التفاضل بين الناس في الحياة وعند الله هو بمقدار ما يقدم أحدهم من نفع للآخرين كما قال رسول الله ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله

---

٢١٤ - سورة البقرة، الآية ١٣٦.

٢١٥ - سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

٢١٦ - سورة المائدة، الآية ٢.

٢١٧ - سورة آل عمران، الآية ٦٤.
يقول بنتام في كتابه المعنون: الحياة: «إن دين الإسلام هو دين الوداعة والوفاق والصدق والأمانة، وكل ما جاء به لا تنكره الأذواق السليمة والعقول الناضجة لذلك فإننا لو أنصفنا أنفسنا لوحّدنا صفوفنا مع المسلمين، ولنبذنا ما بنا من عصبية عمياء خلقها لنا ذوو الأطماع..» أويك بنتام، الحياة.. انظر في ذلك: الشيباني، المرجع السابق، ص: ٤٠٩، ويقول شاخت: إن الإسلام نظـــام =

فأحبهم إليه أنفعهم لعياله»[218]. ومن أعمال الرسول ﷺ أنه بعد وصوله المدينة كان أول ما عمله من شؤون الدولة أن أقام بينه وبين اليهود ميثاقاً تحترم فيه عقائدهم. ومن وصاياه ﷺ: «استوصوا بالقبط خيراً فإن لكم فيهم نسباً وصهراً».

٥ - آمنت بالعلم وخاطبت العقل والقلب معاً، وكان الدين الإسلامي عاملاً من عوامل التقدم والنهضة. ففي الوقت الذي كان فيه المسلمون يتحدثون بحرية عن الأرض وكرويتها وحركات الأفلاك والأجرام السماوية والرياضيات والكيمياء والصيدلة كانت العقول في الغرب ممتلئة بالخرافات والأوهام.

* * *

- كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معاً، انظر: جوزيف شاخت نقلاً عن كتاب النظام السياسي في الإسلام، ص: ١٤، أنظر أيضاً الشيباني، المرجع السابق، ص: ٤٢٢-٤٢٣. ويقول محمد أسد (ليوبولد فايس) في كتابه: الإسلام على مفترق الطرق، ص: ١٠٢-١٠٣: «إن الإسلام يشمل الحياة بأسرها: إنه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، وبالفرد والمجتمع... إنه ليس سبيلاً بين السبل ولكنه السبيل..».

٢١٨ - رواه البزار.

الفصل الثاني

الادارة في عهد الخلفاء الراشدين

تمهيد – من مواقف القيادة الإدارية في إدارة أبي بكر الصديق رضي الله عنه – في إدارة عمر بن الخطاب رضي الله عنه – في إدارة عثمان بن عفان رضي الله عنه – في إدارة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

تمهيد

كان رسول الله ﷺ المثل الكامل، والأسوة الحسنة لصحابته رضوان الله عليهم. ولهذا فقد نهل من معين توجيهه وتربيته وأخلاقه الخلفاء من بعده، فامتدت الدولة الإسلامية، واتسعت رقعتها، لتنتشر بذلك قيم العدل والمساواة والإنسانية.

وقد حاولنا في هذا الفصل أن نعرض الخصائص العامة للإدارة في عهد الخلفاء الراشدين، لا من حيث البنى التنظيمية وإنما من حيث المواقف السلوكية، بالتركيز على معاني القيادة الإدارية فيهم... تلك المعاني التي انعكست في أسلوبهم في الإدارة، وفي طريقة معالجتهم للمواقف، وفي نظرتهم إلى كل أمر؛ ومن حيث الاحساس المرهف بالمسؤولية والمساءلة، والرقابة الذاتية.

من مواقف القيادة الإدارية

في إدارة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

التزم أبو بكر الصديق[1] رضي الله عنه بنهج رسول الله ﷺ في الإدارة فاحتفظ بالعمال الذين استعملهم والأمراء الذين أمّرهم. وبعد أن بويع بالخلافة خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال : «أما بعد أيها الناس فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان أحسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه ان شاء الله والقوي منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ان شاء الله. لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله فانه لا يدعه قوم الا

---

١ - قال ابن اسحاق: كان رسول الله ﷺ فيما بلغني يقول: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت منه كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عكم (العكم: الانتظار) عنه حين ذكرته له وما تردد فيه».
وجاء في الرياض النضرة للمحب الطبري عن عائشة أم المؤمنين قالت: لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس كانوا آمنوا به، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: وقد قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق. قالوا: تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، في خبر السماء في غدوة وروحة. فلذلك سمي (الصديق). خرجه الحاكم في المستدرك وابن اسحاق، وقال مكان غدوة وروحة: في ساعة من ليل أو نهار، وزاد: فهذا أبعد مما تعجبون منه. انظر: الرياض النضرة للمحب الطبري، المرجع السابق، الجزء الأول، ص: ٧٩ و ٨٥.

ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم..»[٢]

وبذلك وضع أسس العلاقة التي تربط الراعي بالرعية مبينا إنه ليس بخيرهم، وإن وليّ عليهم، وأوضح بجلاء حقهم في المحاسبة والمساءلة، وان طاعتهم له معلقة على شرط أساسي في الفكر الإداري في الإسلام وهو انه لا طاعة لمخلوق، حتى ولو كان حاكما، في معصية الخالق، وان الضعيف قوي حتى يوصله إلى حقه والقوي ضعيف حتى يأخذ الحق منه.

كما أوضح أيضاً أن هذه العلاقة تمتد لتسع جميع الناس في كتابه إلى نصارى نجران حيث قال فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله أبي بكر خليفة محمد النبي رسول الله ﷺ لأهل نجران، أجارهم من جنده ونفسه وأجاز لهم ذمة محمد ﷺ..... أجارهم على أنفسهم وملتهم وسائر أموالهم وحاشيتهم وعاديتهم وغائبهم وشاهدهم وأسقفهم ورهبانهم وبِيَعهم حيثما وقعت وعلى ما مالكت أيديهم من قليل أو كثير. عليهم ما عليهم فاذا أدوه فلا يحشرون ولا يعشرون ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته، لهم بكل ما كتب لهم رسول الله ﷺ وعلى ما في هذا الكتاب من ذمة محمد رسول الله ﷺ وجوار المسلمين، وعليهم النصح والاصلاح فيما عليهم من الحق..».

ويروى أن أبا عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه قال لأبي بكر

---

٢ - محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك، المرجع السابق، الجزء الثالث، ص: ٢١٠.

رضي الله عنه : أنا أكفيك المال، وقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنا أكفيك القضاء. وقد مكث عاما لا يأتيه من يخاصم أو يطالب بحق لأن الإيمان قد رسخ في القلوب وانعكس في سلوك الناس قولا وعملا.

وإذا كان من خصائص القيادة الإدارية الواعية القدرة على التصرف في الموقف، فإن أهمية هذه الصفة تزداد في الموقف الجلل، عندما تتزلزل القلوب ويعظم المصاب، ويصبح الناس في حيرة لا يدرون ما هم صانعون. وقد تمكن أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم وفاة رسول الله ﷺ من أن يعيد الناس إلى أنفسهم فلم تنسه المصيبة، على شدتها، ما عرف من الحق. فعندما توفى رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى، وإنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران عليه السلام وقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم. والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى عليه السلام فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات. وأقبل أبو بكر الصديق رضي الله عنه ودخل على رسول الله ﷺ في بيت السيدة عائشة ورسول الله ﷺ مسجى فاكب عليه حتى كاد يمس وجهُهُ وجهَه. فلما تبين له قال : ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ ثم خرج إلى الناس وقال : أيها الناس انه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت. ثم تلا هذه الآية ﴿وما محمدٌ الا رسولٌ قدْ خلتْ من قبلهِ الرسلُ أفإن ماتَ أو قُتلَ انقلبتمْ على أعقابكمْ ومن ينقلبْ على عقبيهِ فلن يضرَّ اللهَ شيئًا وسيجزي الله الشاكرينَ﴾[٣]. فكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حتى تلاها أبو بكر

---

٣ - سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

الصديق[4].

ومن المواقف الصعبة التي واجهت أبابكر الصديق رضي الله عنه بعد أن وُسِّدت إليه الخلافة ارتداد الكثيرين من الناس. فارتد من كل قبيلة عامة أو خاصة الا قريشا وثقيفا. وهمّ بذلك كثير من أهل مكة. واستغلظ أمر مسيلمة الكذاب وطليحة الذي اجتمع عليه عوام طيء وأسد، كما ارتدت غطفان وخواص من بني سُليم. ويروى قتادة بن النعمان ان العرب ارتدت بعد وفاة رسول الله ﷺ الا مكة والمدينة والبحرين، فقالوا : أما الصلاة فاننا نصلي وأما الزكاة فوالله لا تغصب أموالنا منا. وتروي السيدة عائشة ان النفاق اشرأب بالمدينة وارتدت العرب قاطبة، واشرأبت اليهودية والنصرانية، وكان المرتدون فريقين : فريق بذلوا الصلاة ومنعوا الزكاة وقالوا: نؤمن بالله ونشهد أن محمدا رسول الله ولكنا لا نعطيكم أموالنا، وفريق كفروا بالدين كله وآمنوا برسالة الشيطان إلى مسيلمة وطليحة والأسود وصار المسلمون كالغنم السائبة في الليلة الماطرة.

ولكن أبا بكر رضي الله عنه قال : والله لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه. بل ان عمر بن الخطاب قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما: كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فمن قال لا اله الا الله فقد عصم مني نفسه وماله الا بحقه وحسابه على الله. فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقا – وهي الأنثى من أولاد المعز – لقاتلتهم على منعها.

وقد اعتبر كثير من الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب وأبو عبيدة

---

٤ - الطبري، المرجع السابق، الجزء الثالث، ص: ٢٠٠ - ٢٠٣.

وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهم ان اللين أولى، حتى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد وجد أن الأرض قد زلزلت بالردة، قال : يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم فأجابه أبو بكر الصديق رضي الله عنه : رجوتُ نصرتك وجئتني بخذلانك؟ أجبّار في الجاهلية وخوّار في الإسلامْ، انه قد انقطع الوحي وتم الدين أوينقص وانا حي؟. أليس قد قال رسول الله ﷺ ... الا بحقها، ومن حقها الصلاة وايتاء الزكاة والله لو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي. وبهذا يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : فما هو الا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال حتى عرفت أنه الحق.

ان ذاك الموقف الذي نزل بأبي بكر الصديق رضي الله عنه وقد أصبح خليفة لو انه نزل بالجبال الراسيات لهاضها. ولكنه، وقد استلهم الكثير من معاني القيادة الإدارية من رسول الله ﷺ، تصدى لكل ذلك بايمان قوي وعمل حازم وبرباطة جأش وحكمة. وقف وحده أمام الجزيرة العربية الهائجة

---

٥ - يذكر صاحب الرياض النضرة عن ابن مسعود قال: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر، خرجه البخاري وأبو حاتم. وعنه قال: كان إسلام عمر فتحاً وهجرته نصراً، وإمارته رحمة، لقد رأيتنا ولم نستطع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا..
وعن ابن عباس قال: قال علي: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هاجر تقلّد سيفه، وتنكّب قوسه، وانتضى في يده أسهماً واختصر عنزته ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً ثم أتى المقام فصلى متمكناً ثم وقف على الحلق واحدة واحدة فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن يثكل أمه أو ييتم ولده، أو يرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي. قال علي: فما اتبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم ما أرشدهم ثم مضى لوجهه. انظر في ذلك: الرياض النضرة للمحب الطبري، المرجع السابق،ص: ٢٨٦.

المائجة بالقبائل المرتدة وقد انفجرت كالبركان ثائرة وقد جردت سيوفها للدفاع عن موقفها ثم تكون له الغلبة على أجسامها لتخضع، وعلى قلوبها حتى ترجع وتفيء إلى أمر الله.

بل ان الموقف ليزداد صعوبة وقد قال أسامة بن زيد - وكان قد بعثه رسول الله ﷺ يتجهز إلى البلقاء والداروم من أرض فلسطين - لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : ارجع إلى خليفة رسول الله ﷺ فاستأذنه يأذن لي أن أرجع بالناس فان معي وجوه الناس ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ، وقالت الأنصار : فان أبى الا أن نمضي فأبلغه عنا وأطلب إليه أن يولي رجلا أقدم سنا من أسامة.

فخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا خليفة رسول الله ان العرب قد ارتدت على أعقابها كفارا كما قد علمت، وأنت تريد أن تنفذ جيش أسامة؟. وفي جيش أسامة جماعة العرب وأبطال الناس فلو حبسته عندك لتقويت به على من ارتد من هؤلاء العرب.

وقد يبدو هذا الرأي مقبولا وقد أحاط الخطر بالمسلمين فأصبحوا أحوج لهذا الجيش من أن يغادرهم إلى أرض أخرى والأرض تتزلزل تحت أقدامهم في دارهم. ولكن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان قائدا نافذ البصيرة، وما كانت قراراته لتصدر الا عن ايمان وثقة... ايمان بالله ينصر من ينصره، وثقة بسداد ما عزم عليه رسول الله ﷺ حين عقد الراية لأسامة، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: والله لو علمت ان السباع تجر برجلي ان لم أرده ما رددته، ولا حللت لواء عقده رسول الله ﷺ. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ان الأنصار أمروني ان ابلغك، وهم يطلبون ان تولي امرهم رجلا أقدم سنا من أسامة. فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

ثكلتك أمك يا بن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه؟. ثم قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : «أيها الناس اني وليت هذا الأمر وأنا له كاره. والله لوددت لو أن بعضكم كفانيه، وانما أنا مثلكم، واني لا أدري لعلكم ستكلفوني ما كان رسول الله ﷺ يطيق... وانما أنا متبع ولست بمبتدع ولست بخير من أحدكم فراعوني فان رأيتموني استقمت فتابعوني. وإن رأيتموني زغت فقوموني..». ثم شيع جيش أسامة وهو ماش وأسامة راكب. فقال أسامة: يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن، قال: والله لا تنزل ووالله لا أركب، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة، ثم قال لأسامة: ان رأيت أن تعينني بعمر فافعل، فأذن له[6].

ثم توجّه أبو بكر رضي الله عنه إلى الجيش قائلاً: يا أيها الناس قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني: «لا تخونوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له..»[7].

ولا نعلم شاهدا أصدق في الدلالة من أن يدين المرء نفسه فيلتزم

---

٦ - إن المتأمل لهذا الموقف يدرك أن الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو القائد العام بالمفهوم الحديث لم يتوجه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد رآه في الجيش، يأمره بالبقاء، بل توجه إلى قائد الجيش يستأذنه بأن يسمح لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بالبقاء، ويقدم له المبرر لذلك بقوله: ... أن تعينني ... وهذا من روائع السلوك الإداري الرشيد.

٧ - الطبري، المرجع السابق، ص: ٢٢٦ - ٢٢٧.

بعقيدته أمام أعدائه. وبذلك أرسى أبو بكر رضي الله عنه قواعد الفتح مستلهما توجيه رسول الله ﷺ، فتمكن المسلمون من فتح البلاد بإيمانهم، وفتح القلوب بعدلهم، وفتح العقول بعلمهم، وكانوا بناة الحضارة.

وما مرّ أسامة بقبيل يريدون الارتداد الا قالوا : لو لا ان لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، وانا لندعهم حتى يلقوا الروم، وكان ان تحقق النصر على الروم فهزموهم ورجعوا سالمين.

ولو تأملنا ما أحاط بالمسلمين، فقد حار الصحابة وجزعوا بعد وفاة رسول الله ﷺ، وارتد من كان ايمانه من العرب ضعيفا أو يميل إلى حطام الدنيا، وطفق اليهود والنصارى يحيكون الدسائس، وتجرأ بعض المرتدين من العرب على مهاجمة المدينة فازداد الناس حيرة وجزعا، وحاول كبار الصحابة أن يثنوا من عزيمة أبي بكر رضي الله عنه قائلين : لا ترسل أسامة بجيشه إلى الشام واستعن بهم على قتال المرتدين، وأطفيء به هذه النار التي اندلع لسانها من كل جانب، ثبِّت به هذه الأرض التي زلزلت زلزالها ومادت.. وما نقدر على شيء إذا أخلينا المدينة من هذا الجيش، وما لنا بقتال الروم من حاجة.

ولكن أبا بكر رضي الله عنه استقبل التبعة العظيمة وواجه الخطر ببصيرة نافذة وحكمة بالغة، وتصدى لتيارات الأخطار كلها، وكانت لديه قوة العقيدة بالخير هي نفسها أساسا مكينا لكل عمل عظيم فقال : لقد تم الدين وانقطع الوحي، أفينقص وأنا حي؟. ثم خرج بنفسه يرتب الجيوش، وينظم الطلائع، ويأمر أسامة بالسير إلى حيث أمره رسول الله ﷺ، وقد فعل ذلك

كله بصلابة وعزم وحزم، وتحمل مسئولية الموقف[8]. ولا ريب أن القدرة على تحمل المسئولية واتخاذ القرار الصعب في الموقف الصعب من أهم خصائص القيادة الإدارية.

حتى إذا زالت الشدة غدا فرعى غنم أهله بنفسه وحلب للحي أغنامهم، وقال للجارية التي ظنت انه لن يفعل : بل لعمري لأحلبنها لكم... فكان يحلب لهن، وكن إذا أتينه بأغنامهم يقول : أنفج أم ألبد؟. فان قالت أنفج باعد الاناء من الضرع حتى تشتد الرغوة ويقول : أرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه. وليس الذي دخل فيه بالأمر اليسير بل هو خلافة رسول الله ﷺ، وقيادة الجيوش، ورعاية المصالح العامة والخاصة. ومع ذلك لم يكن متكبرا، لأن الكبر صفة النفوس الصغيرة ولأنه العجز والخوف والشر. فالكبر عجز لأن صاحبه لو استطاع أن يكون كبيرا لما كان متكبرا، وهو الخوف لأن صاحبه لا يجرؤ أن يراه الناس كما هو فيستتر وراء حجاب من الكبر يخفي نقصه وصغاره، وهو الشر لأن صاحبه لا يقدر أن يكون خيّرا يحترمه الناس لخيره، فيكون شريرا يخشاه الناس لشره.

وهكذا كان أبو بكر رضي الله عنه متواضعا في عظمته، عظيما في تواضعه[9] لأنه رافق رسول الله ﷺ فنهل من معينه وتوجيهه الذي جعل ممن آمنوا بدعوته قادة التاريخ فحوّل شكهم إلى يقين وضياعهم إلى هدى، وضعفهم إلى قوة، وجاهليتهم إلى ايمان. ولا ريب أن الفرق شاسع بين

---

٨ - إن هذه الصلابة والعزم والحزم في دين الله قد رافقها رقة في المشاعر لدى أبي بكر رضي الله عنه.. فقد عُرف عنه أنه كان رجلاً بكّاء لا يملك دموعه حين يقرأ القرآن. انظر الرياض النضرة للمحب الطبري، المرجع السابق، ص: ٩٧.

٩ - علي الطنطاوي، أبو بكر الصديق، المرجع السابق، ص: ٢١٩.

حياة لها معنى وحياة فارغة من كل معنى[10].

ومـمـا يروى عن أبي بكر الصـديق رضي الله عنه أنه لمـا اسـتُخلف أصبح غاديا إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما[11] فقالا : أين تريد يا خليفة رسول الله ﷺ قال : السوق. قالا : ماذا تصنع وقد وليت أمور المسلمين؟. قال : فمن أين أطعم عيالي؟.[12]

وقد جاء في الرياض النضرة ان رزقه الذي فرضوه له خمسون ومائتا دينار في السنة وشاة يؤخذ منه بطنها ورأسها واكارعها، فلم يكن يكفيه ذلك ولا عياله، بعد أن جاد بكل ماله للمسلمين. وعندما طلبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجده في السوق فقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لا

---

١٠ - يذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما خرج النبي ﷺ مهاجراً إلى مكة.. خرج ليلاً، فتبعه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره. فقال له رسول الله ﷺ : «ما هذا يا أبا بكر؟ ما أعرف هذا من فعلك؟». قال: يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك، لا آمن عليك... انظر: الرياض النضرة، المرجع السابق، ص: ١٠٦.

١١ - عن حذيفة بن اليمان قال: جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ابعث إلينا رجلاً أميناً، فقال: «لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حقّ أمين» فاستشرف لها الناسُ، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجراح. أخرجه البخاري ومسلم، وعند مسلم «حقّ أمين، حقّ أمين - مرتين»، وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل أمة أميناً، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح» أخرجه البخاري ومسلم.

١٢ - ان المتأمل ليدرك ان أبا بكر الصديق رضي الله عنه وقد أصبح خليفة يعتقد في نفسه ان هذا المنصب لا يميزه بشيء أو يعطيه شيئا...

حاجة لي في امارتكم رزقتموني ما لا يكفيني ولا عيالي. قال : فانا نزيدك. قال أبو بكر رضي الله عنه : ثلاثمائة دينار والشاة كلها، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أما هذا فلا ... فجاء علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وهما على حالهما تلك، قال أكملها له. قال ترى ذلك؟. قال : نعم، قال قد فعلنا. قال أبو بكر رضي الله عنه : أنتما رجلان من المهاجرين لا أدري أيرضى بها بقية المهاجرين أم لا؟. وانطلق أبو بكر الصديق رضي الله عنه فصعد المنبر واجتمع الناس فقال : أيها الناس ان رزقي كان خمسين ومائتي دينار وشاة يؤخذ مني بطنها ورأسها وأكارعها، وان عمر وعليا كملا لي ثلاثمائة دينار والشاة أفرضيتم؟ قال المهاجرون : اللهم نعم قد رضينا.

ان المتأمل لهذا الموقف لا يملك الا أن يعجب من سمو هذا النظام الحكومي في الدولة الإسلامية الذي ما شهد العالم مثيلا له في قديمه وحديثه.

وكان للمسلمين في عهد أبي بكر رضي الله عنه بيت مال ليس يحرسه أحد فقيل له: ألا تجعل عليه من يحرسه؟. فقال : لا يُخاف عليه. قيل له : ولم؟. قال : عليه قفل... وكان يعطي ما فيه حتى لا يبقى فيه شيئا ويسوى في ذلك بين الناس، الكبير والصغير والذكر والأنثى. وعندما قال له بعض الناس : إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم، فقال : أما ما ذكرتم من الفضل والسوابق والقدم فما أعرفني بذلك وإنما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة.[13]

---

١٣ - يعقوب بن ابراهيم (أبو يوسف)، الخراج، المرجع السابق، ص : ٤٥.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه القائد القدوة، فعندما وفد عليه ذو الكلاع ملك حمير وعليه تاج وبرود وحلي سرعان أن ألقى ما عليه بعد أن شاهد لباس أبي بكر رضي الله عنه وزهده وتواضعه ورد على عشيرته إذ عاتبته على ذلك فقال : أردتم أن أكون ملكا جباراً في الجاهلية، جباراً في الإسلام، فاقتدى بأبي بكر رضي الله عنه واستحيى أن يقابله بالتاج والبرود والحلي، فصغرت عليه نفسه، وهدأت ثورتها وانطفأت سورتها . وبذلك علَّم القائدُ القدوةُ الناسَ بأفعاله لا بأقواله.

وقد ورد في تاريخ ابن الأثير أن زوجة أبي بكر رضي الله عنه اشتهت حلوا فقال لها: ليس لنا ما نشتري به[١٤]، فقالت : أنا استفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشتري به، قال: افعلي ففعلت واجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير فعرّفته بذلك ليشتري، فأخذه فرده إلى بيت مال المسلمين وقال : هذا يفضل عن قوتنا .. وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه إلى بيت المال من ملك كان له. وهذا دليل ساطع على احساسه بأمانة المسؤولية والرقابة الذاتية، وهي من روائع صفات القيادة في الإسلام. بل لقد بلغ من رقابته الذاتية على نفسه انه كان إذا مُدح قال : «اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيرا مما يظنون، واغفر لي ما

---

١٤ - عن إسماعيل بن قيس قال: اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفوق بالحجارة بخمس أواق ذهبًا، فقالوا: لو أبيت إلا أوقية لبعناكه. فقال: لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته   خرجه في الصفوة . وكان قد اشتراه ليعتقه وينقذه من عذاب أمية بن خلف الذي كان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صلبه ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد. انظر الرياض النضرة للمحب الطبري، المرجع السابق، ص: ١٣٣ - ١٣٤.

لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.

وقال بعض الناس لأبي بكر رضي الله عنه بعد أن استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد ألح عليه المرض : ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلاف عمر علينا، وقد ترى غلظته، وهو اذا ولي كان أفظ وأغلظ؟. فأجابهم أبالله تخوفونني؟. خاف من تزود بأمركم بظلم، أقول اللهم اني قد استخلفت على أهلك خير أهلك. ثم قال للقائل : أبلغ عني ما قلت لك مَن وراءك ثم اضطجع ودعا بعثمان بن عفان رضي الله عنه فقال له اكتب : «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجا منها، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، اني استخلفت عليكم بعدي...» وأخذته غشية فذُهب به قبل أن يسمي أحدا فكتب عثمان رضي الله عنه : (عمر بن الخطاب) ثم أفاق أبو بكر رضي الله عنه فقال : اقرأ علي ما كتبت فقرأ عليه ذكر عمر. فكبَّر أبو بكر رضي الله عنه وقال : أراك خفت أن تذهب نفسي في غشيتي تلك فيختلف الناس فجزاك الله عن الإسلام خيرا، والله ان كنت لها لأهلا. ثم أمره أن يكتب تتمة الكتاب : «فاسمعوا له وأطيعوا، واني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيرا. فان عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وان بدل فلكل امرىء ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب[15] ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ والسلام عليكم ورحمة الله». ثم أمره فختم الكتاب، وخرج به مختوما فقال للناس : اتبايعون لمن في هذا

---

١٥ ورد نص يشبهه وبمعناه في: مآثر الإنافة في معالم الخلافة لأحمد بن عبدالله القلقشندي، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، سلسلة التراث العربي في الكويت، ١٩٨٥، الجزء الثاني، ص: ٣١٩ ـ ٣٢٠.

الكتاب؟ قالوا : نعم.

وفي رواية ان أبا بكر رضي الله عنه أشـــرف على الناس من كـــوته فقال: يا أيها الناس، اني قد عهدت عهدا أفترضونه؟ فقال الناس : رضينا يا خليفة رسول الله ﷺ . فقام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال : لا نرضى الا أن يكون عمر قال : فانه عمر، فأقروا بذلك جميعا ورضوا به، ثم بايعوا . فرفع أبو بكر رضي الله عنه يديه فقال: اللهم اني لم أرد بذلك الا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم ما انت أعلم به، واجتهدت لهم رأيي فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليه، وأحرصهم على ما أرشدهم. وقد حضرني من أمرك ما حضر، فأخلفني فيهم فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، وأصلح لهم أميرهم، واجعله من خلفائك الراشدين، يتبع هدى نبي الرحمة وهدى الصالحين بعده، وأصلح له رعيته[16] .

---

١٦ - ان المتأمل لهذا الموقف يدرك كيف وصل هؤلاء القادة إلى مستوى رفيع من انكار الذات والبعد عن الأثرة، فعثمان بن عفان رضي الله عنه يكتب اسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه مخافة أن يختلف الناس إذا اذهبت الغشية نفس أبي بكر رضي الله عنه. وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ينكر ذاته ويؤثر عمر بن الخطاب رضي الله عنه على نفسه...

ويُذكر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما تُوفي وخالد بن الوليد على الشام واليًا واستُخلف عمر رضي الله عنه كتب إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه بالولاية على الجماعة، وعزل خالداً، فكتم أبو عبيدة الكتاب عن خالد وغيره حتى انقضت الحرب وكتب خالد الأمان لأهل الشام وأبو عبيدة الأمير وهم لا يدرون ثم لما علم خالد بذلك بعد ما مضى نحو من عشرين ليلة دخل على أبي عبيدة فقال. يغفر الله لك، جاءك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تعلمني وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك؟ فقال له أبو عبيدة: ويغفر الله لك، ما كنت لأعلمك حتى تعلمه من غيري، وما كنت لأكسر عليك حربك حتى ينقضي ذلك كله وقد كنت أعلمك إن شاء الله تعالى، وما سلطان الدنيا =

من مواقف القيادة الإدارية

في إدارة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

بقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه على حاله قبل الولاية، بعد أن بويع بالخلافة، في زيه ولباسه وأفعاله وتواضعه، يسير مفردا في حضره وسفره من غير حرس ولا حجاب، لم يغيره الأمر ولم تبطره النعمة، ولا استطال على مؤمن بلسانه، ولا حابي أحدا في الحق لمنزلته، لا يطمع الشريف في حيفه ولا ييأس الضعيف من عدله، ولا يخاف في الله لومة لائم ونزّل نفسه من مال الله منزل رجل من المسلمين، وجعل فرضه كفرض رجل من المهاجرين.

= أريد، وما للدنيا أعمل، وإن ما نرى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن إخوان وقوام بأمر الله عز وجل، وما يضر الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ولا دنياه بل يعلم الوالي أنه يكاد أن يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما في الخطيئة لما يعرض من الهلكة إلا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم. فدفع أبو عبيدة عند ذلك الكتاب إلى خالد.

وعليه ليس ثمة صراع على السلطة وانما ايثار واعتراف للآخرين. وقد ظهر هذا الاعتراف حتى في حياتهم العادية فمن بعض ما يروى انه بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد قد أطاف به أصحابه إذ أقبل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فوقف فسلم ثم نظر مجلسا. فنظر رسول الله ﷺ في وجوه أصحابه أيهم يوسع له، فكان أبو بكر رضي الله عنه جالسا عن يمين النبي ﷺ فتزحزح له عن مجلسه، وقال: ههنا يا أبا الحسن، فجلس بين رسول الله ﷺ وبين أبي بكر رضي الله عنه. وبهذا يقول أنس بن مالك: فرأيت السرور في وجه رسول الله ﷺ على أبي بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر انما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل .خرجه أحمد في المناقب.. انظر الرياض النضرة للمحب الطبري، المرجع السابق، الجزء الأول، ص: ١٨٧، والجزء الرابع، ص: ٣٥٣.

ومـمـا قـاله للناس: «... ولكم عليّ أيها النـاس خـصـال أذكـرها لكم فخذوني بها: لكم عليّ أن لا أجتبي شيئًا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجـهـه، ولكم عليّ إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقـه، ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى وأسد ثغوركم. ولكم عليّ ألا ألقيكم في المهالك ولا أجمركم في ثغوركم، وإذا غبتم فـي البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا ...»[١٧].

وإذا كـان من خـصـائص القـيـادة الإدارية الجـيـدة الالتـزام وترجـمـة الأقوال إلى أفعال، فقد التزم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخذ نفسه بما وعد فحلف في عام الرمادة أن لا يذوق لحمًا ولا سمنًا حتى يحيى الناس. وغيّر الزيت لونه فاسود جلده منه وكان ينقر بطنه بأصبعه ويقول: تقرقر إنه ليس عندنا غيره حتى يحيى الناس "ولتمرنن أيها البطن على الزيت ما دام السمن يباع بالأواقي..". وعندما نحرت بعض الجذور غرفوا له من سنامها وكبدها فقال: أنى هذا؟ قالوا من الجذور التي نحرنا اليوم. قال: بخ بخ، بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها، وأمر غلامه بحمل الجفنة إلى أهل بيت قائلاً: اني لم آتهم منذ ثلاثة أيام وأحسبهم مقفرين فضعها بين أيديهم.

وعن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: اشتريت إبلاً وارتجعتها إلى الحمى، فلما سمنت قدمت بها، فدخل عمر رضي الله عنه السوق فرأى إبلاً سمانًا، فقال: لمن هذه؟ فقيل: لعبد الله بن عمر، فجعل يقول: يا عبدالله.. ابن أمير المؤمنين. فجئت أسعى. فقال: ما هذه الإبل؟

---

١٧ - علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، سيرة عمر بن الخطاب، المرجع السابق، ص: ١٠٧.

قلت: إبل انضاء اشتريتها، وبعثت بها إلى الحمى ابتغي ما يبتغي المسلمون، فقال: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين!.. اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين!.. يا عبدالله بن عمر، أغدُ على رأس مالك، واجعل باقيه في بيت مال المسلمين[١٨].. مما يدل على أن الخلافة مسؤولية تصل إلى حد البلاء على صاحبها وأهل بيته، فجعلت حظهم من الدنيا دون حظهم منها لو أن الخليفة ليس منهم.. ومن حرصه الشديد على أموال المسلمين أن زوجته استقرضت ديناراً فاشترت به عطراً بعثت به مع البريد إلى زوجة ملك الروم، فأرسلت الملكة جواهر ترد بها على هديتها، فلما أتتها فرغتهن زوجة عمر رضي الله عنه على البساط. فدخل عمر رضي الله عنه فقال: ما هذا؟ فأخبرته، فأخذ الجوهر فباعه، ودفع إلى زوجته ديناراً، وجعل ما بقي من ذلك في بيت مال المسلمين.

ويروي معيقيب ـ الذي كان على بيت المال ـ أنه وجد فيه في أحد الأيام درهماً، فدفعه إلى ابن لعمر رضي الله عنه، وانصرف إلى بيته. فإذا رسول عمر رضي الله عنه قد جاء يدعوه، وإذا الدرهم في يد عمر رضي الله عنه وهو يقول: ويحك يا معيقيب، أوجدت عليَّ في نفسك سبباً؟ فقلت: وما ذاك؟ قال: أردت أن تخاصمني في أمة محمد ﷺ في هذا الدرهم يوم القيامة؟.

وبلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه مستوى عالياً في إدارته لأحوال الرعية وسهره على مصالحهم واهتمامه بشؤونهم.. ومن ذلك ما رواه عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه فقال: قدمتْ رفقة من التجار، فنزلوا المصلى، فقال لي عمر: هل لك أن نحرسهم الليلة من السرق؟ فباتا

---

١٨ - الرياض النضرة للمحب الطبري، المرجع السابق، ص: ٣٧٧.

يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاء صبي، فتوجه نحوه، فقال لأمه: اتق الله وأحسني إلى صبيك. ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه، فعاد إلى أمه، وقال: اتق الله وأحسني إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه.. فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه، فأتى أمه فقال: ويحك أني لأراك أم سوء، مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ قالت: يا عبد الله قد أبرمتني منذ الليلة، أني أريغه عن الفطام فيأبى. قال: ولم؟ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم. قال: وكم له؟ قالت كذا وكذا شهراً. قال: ويحك لا تعجليه. فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء. فلما سلم قال: يا بؤساً لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين.. ثم أمر منادياً فنادى أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام، وكتب بذلك إلى الآفاق.

وقد قدم وفد من العراق فيهم الأحنف بن قيس، وعمر رضي الله عنه معتجر بعباءة، يهنأ بعيراً من إبل الصدقة ـ يطليه بالقطران ـ فقال للأحنف: ضع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير، فانه من إبل الصدقة، فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين، فقال رجل من القوم: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك؟ فقال عمر رضي الله عنه وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف؟ انه من ولي أمر المسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده في النصيحة وأداء الأمانة.

وقد تصادف أن رأى طلحة رضي الله عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلاً وقد دخل بيتاً ثم دخل بيتاً آخر، فلما أصبح طلحة رضي الله عنه ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوز عمياء مقعدة، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت: انه يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني ويخرج

عني الأذى.

وعن أسلم قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى حرة واقم، فإذا نار تؤرث. قال: يا أسلم أني أرى ها هنا ركباناً قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا. فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار، وصبيانها يتغاضون ـ أي يتصايحون ـ فقال عمر رضي الله عنه: السلام عليكم يا أهل الضوء، وكره أن يقول يا أصحاب النار. فقالت: وعليكم السلام. فقال: أأدنو؟ فقالت: أدن بخير أو دع. فدنا منها فقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد. قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع. قال: وأي شيء في هذا القدر؟ قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر. فقال: أي رحمك الله، وما يدري عمر بكم؟ قالت: يتولى أمرنا، ثم يغفل عنا. فأقبل عليّ فقال: انطلق بنا.. فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق وكبة من شحم، وقال: احمله عليّ، قلت: أنا أحمله عنك، قال: أنت تحمل وزري يوم القيامة، لا أم لك. فحملته عليه فانطلق، وانطلقت معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئًا، فجعل يقول لها: ذري عليّ وأنا أحر لك، وجعل ينفخ تحت القدر وكانت لحيته عظيمة. فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته، حتى طبخ لهم. ثم أنزلها وقال: أبغني شيئًا، فأتته بصحفة فأفرغها فيها، فجعل يقول لها: أطعميهم وأنا أسطح لهم ـ أي أبسطه حتى يبرد ـ، فلم يزل حتى شبعوا، وترك عندها فضل ذلك، وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيراً، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين، فيقول: قولي خيراً، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله.

ثم تنحى عنها، ثم استقبلها فريض مريضاً، فقلت له: لك شأن غير هذا؟ فلا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون، ثم ناموا وهدأوا، فقام يحمد الله ثم أقبل عليّ فقال: يا أسلم، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت.

ويروى أنه بينما يعس ذات ليلة خارج المدينة شاهد رجلاً من أهل البادية خارج بيت شعر، وسمع صوتاً من البيت فسأل الرجل فقال: انطلق رحمك الله لحاجتك. قال عمر رضي الله عنه: على ذاك ما هو؟ قال: امرأة تمخض. فسأله عمر رضي الله عنه: وهل عندها أحد؟ قال: لا. فانطلق عمر رضي الله عنه إلى زوجته السيدة أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وقال لها: هل لك في أجر ساقه الله إليك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة غريبة تمخض ليس عندها أحد. فانطلقا يحملان من القوت وما يصلح المرأة لولادتها. وطفق عمر رضي الله عنه يطبخ طعاماً إلى أن خرجت زوجته قائلة: يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام.. وعندها علم الرجل أنه أمام الخليفة، فهابه، وإذا بعمر رضي الله عنه يقول: مكانك كما أنت، وإذا كان غداً فائتنا نأمر لك بما يصلحك.

وفي يوم قائظ جلس عثمان بن عفان يكتب، وعلي بن أبي طالب يملي عليه ما يقول عمر رضي الله عنهم يتفقد إبل الصدقة يكتب ألوانها وأسنانها، فقال علي كرم الله وجهه لعثمان رضي الله عنه أما سمعت قول ابنة شعيب في كتاب الله: ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ وأشار إلى عمر وقال: هذا القوي الأمين[19].

وكان عمر رضي الله عنه أبا العيال ـ كما قال سعيد بن المسيب وأبو

١٩ - الطبري، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص: ٢٠١.

سلمة ـ ومن ذلك أن رجلاً كاشفه بأمر ابنة له أصابها حد، ثم تابت واستقامت، فسأله: أأخبر القوم الذين يخطبونها بما تقدم من سيرتها؟ فقال له عمر رضي الله عنه: ويلك أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه؟ والله لئن أخبرت بشأنها أحداً من الناس لأجعلنك نكالاً، أنكحها نكاح العفيفة المسلمة.

وكان يمشي إلى اللواتي غاب أزواجهن فيقف على أبوابهن ويقول: ألكن حاجة؟ وأيتكن تريد أن تشتري شيئًا؟ وكان يأتيهن بالقراطيس، أو يكتب إليهن ليبعثن بالرسائل إلى أزواجهن. وإذا قدم البريد دار بالكتب عليهن فقرأ لهن من وراء الأبواب إن كن لا يعرفن القراءة.

وقد بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه مستوى عاليًا من الإحساس بأمانة المسؤولية في إدارته، فقد مكث زمانًا لا يأكل من مال المسلمين شيئًا حتى دخلت عليه في ذلك خصاصة. فاستشار بعض الصحابة في ذلك قائلا: أني كنت امرءًا تاجراً، وقد شغلتموني بأمركم هذا، فما ترون انه يصلح لي من هذا المال؟ فقال له عثمان بن عفان وسعيد بن زيد رضي الله عنهما: كل وأطعم وأكثر القوم وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ساكت، فقال له: ما تقول أنت في ذلك؟ قال: غداء وعشاء أو ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف، ليس لك من هذا الأمر غيره. فأخذ بذلك عمر رضي الله عنه. وكان يقول: اني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم، ان استغنيت استعففت، وان افتقرت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت.. وقد ردّ على الربيع بن زياد الحارثي عندما قال لعمر رضي الله عنه إن أحق الناس بمطعم طيب وملبس لين ومركب وطيء لأنت. فاستوى عمر رضي الله عنه جالساً، وكان متكئًا وبيده جريدة، وضرب بها رأس الربيع، وقال: والله ما أردت بهذا إلا مقاربتي، وإن كنتُ لأحسب فيك خيراً، ألا أخبرك بمثلي

ومثل هؤلاء، إنما مثلنا كمثل قوم سافروا فدفعوا نفقتهم إلى رجل منهم فقالوا له: أنفق علينا، فهل له أن يستأثر عليهم بشيء؟ قال: لا.. وكان يقول: لنحن أعلم بلين الطعام من كثير من آكليه، ولكنا ندعه ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها.

وقد بعث إليه عتبة بن فرقد طعاماً حلواً طيباً، فقال عمر رضي الله عنه: أي شيء هذا؟ قالوا: خبيص، فذاقه، فإذا بشيء حلو فقال لمن قدم به: أكلُّ المسلمين تشبع من هذا في رحالهم؟ قال: لا. فقال: أما لا فأردِدهما. وكتب لعتبة: أشبع المسلمين مما تشبع منه في رحلك.. وعلى هذا فقد كان عمر رضي الله عنه معرضاً عن زخارف الحياة، لأنه كان قادراً على الإعراض، غير ممتحن به في إرادة ولا عزيمة، ولأنه شغل عن نفسه بأمانة المسؤولية.

ولم يقتصر اهتمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمسلمين فحسب، بل امتد ذلك ليشمل الذميين من أهل الكتاب، ويروى أنه مر بباب قوم وعليه سائل يسأل - شيخ كبير ضرير البصر - فضرب عضده من خلفه، وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي. قال: فما ألجاك إلى ما أرى؟ قال: اسألِ الجزية والحاجة والسن. فأخذه بيده وذهب به إلى منزله، فرضخ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه ﴿ ... إنما الصدقات للفقراء والمساكين... ﴾، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه. وقد مرَّ عند مقدمه الجابية من أرض دمشق بقوم مجذّمين من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت.

وكتب إلى عمرو بن العاص - واليه على مصر - فقال: «إن الله يراك

ويرى عملك.. وان معك أهل ذمة وعهد، وقد أوصى رسول الله ﷺ بهم وأوصى بالقبط فقال: استوصوا بالقبط، فإن لهم ذمة ورحما.. وقال ﷺ: «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة». احذر يا عمرو أن يكون رسول الله ﷺ لك خصماً، فإنه من خاصمه خصمه..

وكتب إلى أهل لد: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم، انه لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ولا يُنتقص منها ولا من حيزها ولا مللها، ولا من صلبهم ولا من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم».. بل إنه اهتم بذلك حتى في حالة الحرب، فكان إذا بعث أمراء الجيوش أوصاهم: «.. ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرماً ولا امرأةً ولا وليداً».

وقد بلغ من حرص عمر رضي الله عنه في إدارته أنه كان يتحرى الدقة في اختيار الولاة، فيختار ممن كانوا على سمته وزهده، ويتابع أحوالهم مع الرعية ويحاسبهم، وكان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه، فعندما كتب إليه عمرو بن العاص يشكو ما يلقى من أهل مصر أجابه: «كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك، ووقع إليّ أنك تتكيء في مجلسك، فإذا جلست فكن كسائر الناس ولا تتكيء».

ومما يروى أنه بعدما بعث عمير بن سعد عاملاً على حمص مكث حولاً لا يأتيه خبره، فكتب إليه أن يحضر وأن يقبل بما جبى من فيء المسلمين، فأخذ عمير جرابه فجعل فيه زاده وقصعته، وعلق أداوته وأخذ عنزته ثم أقبل يمشي من حمص حتى دخل المدينة، فقدم وقد شحب لونه،

وأغبر وجهه، وطال شعره، فدخل على عمر رضي الله عنه وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال عمر رضي الله عنه: ما شأنك؟ فقال عمير: ما ترى من شأني؟ ألست تراني صحيح البدن، طاهر الدم، معي الدنيا أجرُها بقرنها.. قال: وما معك ـ ظن عمر رضي الله عنه أنه قد جاء بمال ـ فقال: معي جرابي اجعل فيه زادي وقصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثيابي، وأداوتي، أحمل فيها وضوئي وشرابي، وعَنَزَتي أتوكأ عليها وأجاهد بها عدواً إن عرض، فو الله ما الدنيا إلا تبع لمتاعي. قال عمر رضي الله عنه: فجئت تمشي؟ قال: نعم. قال: أما كان لك أحد يتبرع لك بدابة تركبها؟. قال: ما فعلوا وما سألتهم. ثم قال عمر رضي الله عنه: فأين بعثتك، وأي شيء صنعت؟ قال: وما سؤالك يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر رضي الله عنه: سبحان الله.. فقال عمير: أما لولا أني أخشى أن أغُمك ما أخبرتك، بعثتني حتى أتيتُ البلد، فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيئهم، حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه، ولو نالك منه شيء لأتيتك به. قال: فما جئتنا بشيء؟ قال: لا. قال: جددوا لعمير عهداً. قال: إن ذلك لشيء مضى. لا عملت لك ولا أحد من بعدك، والله ما سلمت بل لم أسلم، لقد قلتُ لنصراني: أي أخزاك الله فهذا ما عرضتني له يا عمر[٢٠]، ثم استأذنه ورجع إلى منزله وبينه وبين المدينة أميال.

وعمير بن سعد قد بلغ من إحسانه لنفسه وتقواه أن عمر رضي الله عنه عندما كتب إلى أهل حمص أن يكتبوا له فقراءهم، فكتبوا إليه أسماء الفقراء، وذكروا فيهم عمير بن سعد ـ وكان والياً عليهم ـ، قال: أوفقير هو؟

---

٢٠ - يدرك المتأمل مدى شعور عمير بن سعد بالذنب لأنه تفوه بهذه العبارة لنصراني، وفي الإمارة ما فيها من قول وتصريف ومنع وإقرار بالضرورة.

قالوا: ليس أهل بيت أفقر منه.. قال: فأين عطاؤه؟ قالوا: يخرجه كله، لا يمسك منه شيئاً. فوجه إليه بمائة دينار، فأخرجها كلها. فقالت له امرأته: لو كنت حبست لنا منها ديناراً واحداً. فقال: لو ذكرتيني فعلت[21].

ويمكننا أن نتصور مبلغ حرص الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على تحمل أمانة المسؤولية وأن يحاسب أمثال عمير بن سعد وكذلك عامله سعيد بن عامر الذي قدم عليه بالمدينة فلم ير معه إلا عكازاً وقدحاً، فقال له عمر رضي الله عنه: ليس معك إلا ما أرى؟ فقال له سعيد: ما أكثر من هذا!..

بل إن الخليفة عمر رضي الله عنه نفسه أبطأ جمعة بالصلاة فخرج. فلما صعد المنبر اعتذر إلى الناس فقال: إنما حبسني قميصي هذا لم يكن لي قميص غيره.

ومن أبلغ خصائص القيادة الإدارية لدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه اعترافه بالخطأ إذا أخطأ، والإذعان للحق إذا تبين له، فعندما قال: لا تزيدوا في مهور النساء. قامت امرأة من صف النساء فقالت: ما ذاك لك.. قال: ولم؟ قالت: لأن الله تعالى يقول: ﴿ ...وآتيتم إحداهنَّ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً... ﴾[22]، فقال عمر رضي الله عنه: أخطأ عمر وأصابت امرأة.

ومن ذلك أيضاً أنه بينما يمر في الطريق فإذا برجل يكلم امرأة، فعلاه

---

٢١ - لقد سبق إحساسه بالمسؤولية تجاه الرعية إحساسه بحاجة نفسه رضي الله عنه وهذا من أنصع معاني القيادة الإدارية في الإسلام.

٢٢ - سورة النساء، الآية ٢٠.

بالدرة، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما هي امرأتي. فقال له: فلمَ تقف مع زوجتك في الطريق، تعرضا المسلمين إلى غيبتكما؟ فقال: الآن قد دخلنا المدينة، ونحن نتشاور أين ننزل. فرفع إليه الدرة فقال: اقتص مني يا عبدالله. فقال: هي لك يا أمير المؤمنين. فقال: خذ واقتص، فقال بعد ثلاث: هي لك، قال: الله لك فيها[23].

ومن إحساسه البالغ بالمسؤولية أنه كان أيام خلافته لا ينام ليلاً ولا نهاراً، وإنما هي خفقات برأسه وهو جالس، وكان يقول: إذا نمت في الليل ضيعت نفسي، وإن نمت في النهار ضيعت رعيتي..

وكان يسأل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: هل أنا من المنافقين؟ وفي ذلك يقول حذيفة: دخلت على عمر رضي الله عنه فرأيته مهموماً حزيناً. فقلت له: ما يهمك يا أمير المؤمنين؟ فقال: اني أخاف أن أقع في منكر فلا ينهاني أحد منكم تعظيماً لي. فقال حذيفة: والله لو رأيناك خرجت عن الحق لنهيناك، فإن لم تنته ضربناك بالسيف، ففرح عمر رضي الله عنه وقال: الحمد لله الذي جعل لي أصحاباً يقوِّموني إذا اعوججت.

وفي ذلك ما يدعو إلى التأمل في كيف يفهم الحكمَ والإدارةَ أمير المؤمنين، وكيف تفهمه رعيته أيضاً.. ومن ذلك ما روي أنه قال يوماً على المنبر: يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا كذا؟ وميّل رأسه. فقام إليه رجل فسل سيفه وقال: أجل كنا نقول بالسيف كذا[24]

---

٢٣ - علي وناجي الطنطاوي، المرجع السابق، ص: ٣٢١ - ٣٢٢، أنظر أيضاً الرياض النضرة للمحب الطبري، المرجع السابق، ص: ٣٧٤ - ٣٧٥.

٢٤ - تأمل العبارة: نقول بالسيف!... كلمة يقولها أعرابي للخليفة، ولا يجد في ذلك حرجاً.

وأشار إلى قطعه، فقال عمر رضي الله عنه: إياي تعني بقولك؟ قال: نعم، إياك أعني بقولي، فنهره عمر رضي الله عنه ثلاثًا، وهو ينهر عمر. فقال: رحمك الله، الحمد لله الذي جعل في رعيتي من إذا تعوّجت قوّمني.

وقال رجل لعمر رضي الله عنه: اتق الله يا عمر، وأكثر عليه. فقال له قائل: اسكت، فقد أكثرت على أمير المؤمنين. فقال له عمر رضي الله عنه: دعه، لا خير فيهم إن لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إن لم نقبل.. وفي رواية أن الرجل قال: اتق الله يا أمير المؤمنين.. فسمعها رجل فقال: أتألت على أمير المؤمنين ـ أي تجسر وتشنع عليه ـ فقال عمر رضي الله عنه: دعه فلن يزالوا بخير ما قالوها لنا..

وأثنى رجل عليه فقال له: أتهلكني وتهلك نفسك؟. دلالة على زهده بالمديح، وكان يقول: ما وجد أحد في نفسه كبراً إلا من مهانة يجدها في نفسه.

ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج من المسجد ومعه أحد المسلمين يدعى الجارود العبدي، فتصدت له امرأة على قارعة الطريق، فسلم عليها، فردت عليه السلام ثم قالت: رويدك يا عمر حتى أكلمك كلمات قليلة. فقال لها: قولي. قالت: عهدي بك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ، تصارع الفتيان، فلم تذهب الأيام حتى سُميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سُميت أمير المؤمنين. فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خشي الفوت. فقال لها الجارود العبدي: قد اجترأت على أمير المؤمنين. فقال له عمر رضي الله عنه: دعها أما تعرفها؟ إنها خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من فوق سمائه، فعمر والله أحرى أن يسمع

كلامها[٢٥]، مما يدل على أن لكل فرد في الدولة الإسلامية، رجلاً كان أم امرأة، حق المحاسبة والنصح والاعتراض، حيث يصبح كل فرد من الرعية وكأنه عضو في "البرلمان".

وقد بلغ عمر رضي الله عنه مستوى رفيعاً في محاسبة الذات، فكان يحاسب نفسه ويسائلها شعوراً بالخشية من الله، وإحساساً عميقاً بالرقابة الذاتية، ومن ذلك أنه زار أبا الدرداء فقال له: أتذكر حديثاً حدثناه رسول الله ﷺ؟ قال: أي حديث: قال: «ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب»، قال: نعم، قال: فماذا فعلنا بعده يا عمر؟ فما زالا يتجاوبان بالبكاء حتى أصبحا.

هذه الرقابة الذاتية التي استقرت في أعماقه قد جعلت سلوكه الإداري تجاه نفسه وأهله ورعيته يسمو فلا يقف عند حد. ومن ذلك أنه بينما يعس في المدينة بالليل أتى على امرأة من الأنصار تحمل قربة فسألها عن شأنها، فذكرت أن لها عيالاً، وان ليس لها خادم، وانها تخرج في الليل فتسقيهم الماء، فحمل عمر رضي الله عنه القربة عنها حتى بلغ منزلها، وقال: اغدي على عمر غدوة يخدمك خادماً، فغدت عليه فإذا هي به، فعرفت انه الذي حمل قربتها، فذهبت تولّى!.. فأرسل في أثرها وأمر لها بخادم ونفقة[٢٦].

ومع ذلك فعندما عرضت له هذه الآية: ﴿والذينَ يؤذونَ المؤمنينَ

---

٢٥ - يريد بذلك قوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير﴾، انظر في ذلك للمؤلف كتاب: إدارة الأفراد، دبي ، دار القلم، ١٩٩٠، ص: ٢٠٥.

٢٦ - علي وناجي الطنطاوي، المرجع السابق، ص: ٤٤٩.

والمؤمنات بغيرِ ما اكتسبوا...﴾[٢٧] حدَّث نفسه فقال: لعلي أوذي المؤمنين والمؤمنات!.. وانطلق إلى أبي بن كعب يسأله.

كما انطلق إلى أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها بعد أن سمعها تروي حديثًا عن رسول الله ﷺ فتقول: «إن من أصحابي من لا يراني بعد أن أموت أبدًا». فقام حتى أتاها يسألها قائلاً: أنشدك الله أمنهم أنا؟ فقالت: لا، ولن أبرئ بعدك أحداً[٢٨].

* * *

من العرض السابق يمكننا أن نتلمس طبيعة القيادة الإدارية لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وأسلوبه في الحكم وتصريف شؤون الرعية وأداء مسؤولية الأمانة تجاهها وهو أمر يتصل بالإدارة الداخلية.

إلا ان إدارته لم تقتصر على الإدارة الداخلية فحسب بل امتدت أيضاً لتشمل ترتيب الفتوح وتحرير الأقاليم العربية من تحكم الروم والفرس لتصل العقيدة الإسلامية إلى الناس لإعلاء كلمة الله الواحد في الأرض.

ففي السنة الرابعة عشرة تم فتح دمشق صلحًا بقيادة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، وعنوة بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، ثم أمضيت صلحاً بعد مراجعة عمر رضي الله عنه وفيها كانت وقعة الجسر باتجاه الكوفة، ثم فتحت بعلبك وحمص صلحا.

وفي السنة الخامسة عشرة كانت وقعة اليرموك، وانتصر ثلاثون ألفًا من المسلمين على أكثر من مائة ألف من الروم، كما كانت وقعة القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكان المسلمون سبعة آلاف

---

٢٧ - سورة الأحزاب، الآية ٥٨.

٢٨ - الرياض النضرة للمحب الطبري، المرجع السابق، ص: ٣٧٤.

والمجوس ستين ألفًا، ثم افتتحت الأردن.

وفي السنة السادسة عشرة افتتحت حلب وانطاكية، وفرغ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من المدائن وما حولها، ومصّرت الكوفة، وحاصر المسلمون القدس فقال أهلها: لن يفتحها إلا رجل له علامة عندنا، فلو كان إمامكم بتلك العلامة سلمناها بدون قتال. فجاءهم عمر رضي الله عنه فلما رآه الكفار قالوا: هو هذا. فسلموها له.

واستمرت الفتوح من السنة السابعة عشرة إلى الثانية والعشرين بإفتتاح الأهواز وحران والموصل والرها وجندي سابور وتكريت وقيسارية ومصر، وكان ذلك في السنة العشرين والسنة الحادية والعشرين، ثم أذربيجان ونهاوند وهمذان وطرابلس الغرب وجرجان..

* * *

ومما تجدر الإشارة إليه أن عمر رضي الله عنه قد أعطى نفسه كلها لرعاية شئون الدولة، فلم يفته من الأمر شيء، يمنع قطع الأشجار، ويمنع التسول، جاعلاً للعاجزين راتبًا يعيشون منه، ويقيم فنادق مجانية لإعانة المنقطع وإطعام الجائع، ويعنى بنظافة المدن، ويأمر بفتح الطرق، وحفر الخلج والأنهار، ويقوم بوظيفة المحتسب، وينظر في الموازين والمكاييل، ومنع الغش، ورفع الضرر عن الطريق، ويصلي بالناس، ويحج بهم، ويفتي إذا استفتى، ويقضي بين الخصوم، يحرس القوافل، ويداوي إبل الصدقة، ويخدم العجائز، ويحمل الدقيق على ظهره ليطبخ للأطفال الجياع، ويطوف على النساء اللواتي غاب أزواجهن في الجهاد يشتري لهن ما يطلبن، ويكتب

لهن الرسائل، ولا يأخذ من بيت المال إلا أقل القليل ويتبلغ باليسير، ومع ذلك يبكي مخافة أن يكون مقصراً في أداء الواجب الذي تفرضه أمانة المسؤولية في الإدارة الإسلامية.

يرسل جيش سعد رضي الله عنه ويقيم ينتظر خبره على أحر من الجمر، يخرج كل صباح إلى أطراف الحرة، ويوغل في الصحراء يتلمس خبراً، ثم يقفل راجعاً ليعود ينظر الصباح التالي، وبينما هو ينتظر ويراقب يرى راكباً قادماً من جهة العراق فيسأله الخبر وهو يخب إلى جانبه، والرجل راكب لا يحفل به ولا يأبه له، وإنما يجيبه باقتضاب، لأنه إنما جاء ليبشر أمير المؤمنين!.. وعندما دخل المدينة ورأى الناس يسلمون على أمير المؤمنين، نزل يعتذر إليه، فيقول عمر رضي الله عنه: لا عليك يا أخي..

عبَّر عن طبيعة الإدارة في الفكر الإداري في الإسلام عندما عمم على الأمصار أن الولاة ليسوا سادة الناس، وليس لهم حق في أموالهم ولا أبشارهم، وأنهم خدام الرعية يقومون بمصالحهم ورعاية شئونهم وصيانة حرياتهم، وفتح بابه لكل شكوى، وقال كلمته الخالدة لعمرو بن العاص عندما ضرب ابنُه القبطي: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ فأعطى القبطي حق الاقتصاص من الابن ومن أبيه.. لم يقل كلمته طامعاً بحكم أو بكرسي، بل قالها وهو الحاكم الأكبر في الدولة، وبذلك قرر احدى أهم قواعد الحكم في الإدارة الإسلامية.

وكان إذا استعمل عاملاً أوصاه بتقوى الله، وأن لا يغلق بابه دون حاجات الناس، وكتب إلى عماله: أما بعد.. فاياكم والهدايا فإنها من الرشا.. ويسأل أهل البلاد عن أميرهم هل يدخل إليه الضعيف، وهل يعود المريض؟.

ومن بدائع إدارته حرصه على تقوية قلوب الأمة، والاعتماد على نفسها، فقال: اعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إليّ. وكان يريد أن يسوق الناس إلى المدنية في رفق وتؤدة فيقول: من كان له مال فليصلحه، ومن كانت له أرض فليعمرها، ورحم الله امرءاً أمسك فضل القول وقدم فضل العمل. وقال لعماله: لا تؤخروا عمل اليوم لغد، فإنكم إذا فعلتم ذلك تداعبت عليكم الأعمال، فلا تدرون بأيها تبدأون ولا بأيها تأخذون. وكان يقول: القوة في العمل ألا تؤخر عمل اليوم لغد، والأمانة ألا تخالف سريرة علانية، واتقوا الله عز وجل فإنما التقوى بالتوقي، ومن يتق الله يقه[29].

ولا شك أن حرص عمر رضي الله عنه على الوقت في العمل الإداري، وتوكيد أهميته لدليل واضح على حنكته ووعيه، لأن الوقت هو الحياة، أو هو المادة التي صنعت منها الحياة، ومن لا يستطيع إدارة وقته لا يستطيع إدارة أي شيء آخر، لا سيما وأن الوقت كعنصر من عناصر الإنتاج لا يمكن ادخاره أو إيقافه أو مضاعفته أو اقتراضه.

وكان يوزع الأعمال على أرباب التخصص، فيقول: أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني.

وأحصى عمر رضي الله عنه الناس على قبائلهم، وفرض الفروض والعطايا على السابقة فبدأ بالأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ، وفرض لأهل بدر ولمن بعدهم إلى الحديبية وبيعة الرضوان، ثم لمن بعدهم ممن اشترك

---

٢٩ - الطبري، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص: ٢١٣.

في حرب الردة، ثم لأهل القادسية واليرموك. وحلف فقال: والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا أحق به من أحد، ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى، وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه[30].

وكان يسأل الناس في المسجد عن آرائهم في المسائل العامة، ثم يعرض رأيه ورأيهم على مجلس شوراه، وهم من كبار الصحابة متلمساً القرار السديد والحكم الصائب، وكان يقول: الرأي الفرد كالخيط السحيل ـ الذي يفتل على طاق واحد وهو رِخو ضعيف ـ والرأيان كالخيطين المبرمين، والثلاثة مِرار لا يكاد ينتقض.

وما كان ليبعث أحداً إلى الأمصار إلا بعد اختباره ليطمئن إلى رجاحة عقله.. كان كعب بن سور جالساً عنده فجاءته امرأة تشتكي زوجها فقال لكعب: اقض بينهما، فلما قضى بما أعجبه قال لكعب: اذهب قاضياً على البصرة، وساوم بفرس فركبه ليشوره فعطب، فقال للرجل: خذ فرسك، فقال الرجل: لا. قال: اجعل بيني وبينك حكماً. قال الرجل: شريح. فتحاكما إليه، فقال شريح: يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت. فقال عمر رضي الله عنه: وهل القضاء إلا هكذا، سر إلى الكوفة قاضياً عليها.

وكان عمر رضي الله عنه يكره الوساطة ويأباها، فعندما توسط مولاه أن يكتب كتاباً إلى عامله في العراق ليكرم أحد من قصدوا إليها انتهره عمر رضي الله عنه قائلاً: أتريد أن يظلم الناس، وهل هو إلا رجل من المسلمين يسعه ما يسعهم!.. وأراد أن يحد جبلة بن الأيهم ـ وهو من ملوك غسان ـ،

---

٣٠ - محمد كرد علي، الإدارة الإسلامية في عز العرب، المرجع السابق، ص: ٤٤.

لأن رجلاً فزارياً في الحج وطئ على إزاره، فلطمه جبلة فهشم أنفه، وشكاه الفزاري، فأمر عمر رضي الله عنه أن يفتدي نفسه أو يأمر الرجل بلطمه، فقال جبلة: كيف ذلك وأنا ملك وهو سوقة؟ فقال عمر رضي الله عنه: إن الإسلام جمعكما، وسوى بين الملك والسوقة في الحد.

ومن روائع تدابيره الإدارية ما أخذ به عام الرمادة، وقد اشتد الأمر على الناس، واشتدت معاناتهم، ولولا تدابيره تلك لهلك أهل الحجاز، ولكم حمل على ظهره إلى حيث الجياع والمهزولين، وأوصل القوت إليهم وإلى الأطراف في زمن أسرع وسائله بعير، ولم يكتف بالإشراف والمتابعة، ولو كان ذلك لكفاه، ولكنه كان يحمل على ظهره ويتعقب بعينه.

وكان أول من بايع أبا بكر رضي الله عنه قائلاً: أنت أفضل مني. فيقول له أبو بكر رضي الله عنه: بل أنت أقوى مني. فيجيبه عمر رضي الله عنه: إن قوتي لك مع فضلك.

ومع هيبته وقوة نفسه كان سريع البكاء إذا جاشت نفسه بالخضوع والخشوع بين يدي الله، فكان غاية في البأس والفطنة، وغاية في العدل وغاية في الرحمة، ولا يذهب الخوف منه إلا الثقة بعدله وتقواه، وهذه من بعض صفاته، وكل منها تركيب فريد يؤدي الغرض منه ضمن مجموعة الصفات، إذ ما العدل مثلاً بغير الرحمة التي تمزجه بالإحسان؟ وما العدل والرحمة معًا بغير الغيرة على الحق والفطنة التي تضع الأمور في مواضعها وتعصم المرء أن ينخدع لمن لا يستحق ويغفل عمن يستحق، وما العدل والرحمة والغيرة والفطنة بغير الإيمان الذي هو الرقيب الأمين على النفس الإنسانية.. صفات متراكبة كأنها صفة واحدة يأخذ بعضها من بعض، فكان بأسه معوانًا لرحمته، وكانت غيرته معوانًا لعدله، وهذا هو السر

العميق في الإدارة الإسلامية، لأنها إدارة نابعة من العقيدة الإسلامية، وبذلك فقد كان عمر رضي الله عنه مسلماً شديداً في إسلامه دون أن يكون في شدته ما يهدد الناس، بل كانت ضماناً لهم ألا يخافه مسلم أو ذمي في غير حدود الكتاب والسنة.

لم يكن ليفوته من أمر الإدارة شيء، وحتى ما قد يبدو صغيراً كان يعتبره كبيراً لأنه ينظر إليه من خلال دلالاته، فيكتب لوالي مصر عمرو بن العاص قائلاً: وقع إليّ أنك تتكئ في مجلسك، فإذا جلست فكن كسائر الناس ولا تتكئ.. ويراعي المراتب فينزل درجة من سلالم المنبر بعد أبي بكر رضي الله عنه، لأنه يعرف الفضل لذوي الفضل.

أصبح العدل والحق طبيعة في حياة عمر رضي الله عنه، لا يأكل طعامه ولا يروي ظمأه إلا ليعدل ويعرف الحق، وكأن العدل والحق دين عليه يطالبه به ألف ألف غريم. وكان بغضه أن يظلم غيرَه أشد من بغضه أن يظلمه غيره، فأعطى الدرة إلى الأعرابي ليقتص منه، فسما بذلك على نفسه.. وتلك من أبرز خصائص الإدارة في الإسلام، لأن القائد يخشى الله، ويدرك أنه يحاسبه يوم لا ينفع مال ولا بنون.

كتب للنصارى في بيت المقدس أماناً على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسهم، وحان وقت الصلاة وهو جالس في صحن كنيسة القيامة، فخرج وصلى خارجها، وقال للبطرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدي، وقالوا: هنا صلى عمر. فكان حريصاً عليهم وهم أهل ذمة في حياته وبعد مماته، ثم لا يقنع حتى يشفع ذلك بالوصاية للولاة أن يمنعوا من ظلم أهل الذمة، وأن لا يكلفوهم فوق طاقتهم، وذاك العهد هو مثال للسماحة والمروءة، ليس لذي عهد من ظافر أن يطمع في

أمان أكرم منه.

وإذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد وطد العقيدة بما صنعه في حرب الردة، وعمل على تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد عمل على تأسيس الدولة الإسلامية.

وقد بدأ هذا التأسيس يوم بايع أبا بكر رضي الله عنه، ويوم أشار وألح عليه بجمع القرآن، وهو دستور الأمة حتى شرح الله صدره لهذا العمل الجليل، وهو عمل ندهش له لو صدر من ملك تربى على الملك، ولكنه إذ يصدر عن عمر رضي الله عنه وليس له في الملك سابقة لندهش له أكثر.. ثم أشار بوضع علم النحو، وأنشأ حكومة رتب لها الدواوين ونظم فيها أصول القضاء والإدارة، واتخذ لها بيت مال، ووصل بين أجزائها بالبريد وحمى ثغورها بالمرابطين، ووطد دعائم الحكم على أساس نظام الشورى، وجمع عنده نخبة الصحابة للمشاورة والاستفتاء، وضن بهم على العمالة في أطراف الدولة تنزيهاً لأقدارهم وانتفاعاً برأيهم، وجعل موسم الحج مؤتمراً عاماً للمراجعة والمساءلة، وهما قيمة كبيرة نشأت مع العقيدة الإسلامية، ولهذا فقد أعطى الحق في ذلك لكل فرد في الرعية، وكان إذ يقول يعني ما يقول، ويعمل بما يقول.

وقد حذق عمر رضي الله عنه ما هية الشورى كفن عسير، فهو إذ يسأل الرأي كان أقدر من الذي يجيبه بالصواب، لأنه كان يحدد الطريق السديد إليه. قال لأصحابه: دلوني على رجل أستعمله، فسألوه عن شرط فيه. فقال: إذا كان في القوم وليس أميرهم، كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم، كان كأنه رجل منهم.

من مواقف القيادة الإدارية

في إدارة عثمان بن عفان رضي الله عنه

استقرت الخلافة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه فمضى على عهد رسول الله ﷺ وعهد العمرين. فقد كان كاتب الوحي لرسول الله ﷺ وموضع ثقته، وبينهما صهر ومودة وقرابة، وسفيره في كثير من المواقف[٣١]، كما تهيأت له فترة تربية سياسية أفادته في الفهم والتدبير وإدارة شؤون الدولة، لأنه كان من أهل الشورى في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[٣٢].

ولعل من المواقف الناصعة التي تكشف أصالة معدنه وإخلاصه وحرصه على مصلحة الأمة ما سبق أن ذكرناه من أن أبا بكر رضي الله عنه وقد بدأ يملي عهده الأخير وهو على سرير الموت، وعثمان رضي الله عنه إلى جواره، فلما قال استخلفت بعدي ـ أخذته غشية دون أن يذكر اسماً ـ فأتم عثمان رضي الله عنه وصيته باسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما

---

٣١ - روى أنس بن مالك قال: "لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، قال: فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله، فضرب بإحدى يديه على الأخرى فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم". أخرجه الترمذي رقم: ٣٧٠٣ في المناقب، وعند ابن الأثير في جامع الأصول برقم: ٦٤٧٧، المرجع السابق، الجزء الثامن، ص: ٦٤٣. وجاء في الرياض النضرة أن رسول الله ﷺ قال لعثمان بن عفان رضي الله عنه: «إن لكل نبي رفيقاً، وأنت رفيقي في الجنة ....». انظر الرياض النضرة للمحب الطبري، المرجع السابق، الجزء الأول، ص: ٤٣.

٣٢ - سألت عائشة رسول الله ﷺ - وقد سوّى ثيابه عندما دخل عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه ولم يفعل عندما دخل عليه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما - فقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة» المرجع السابق، الجزء الثالث، ص: ١٢ - ١٣.

أفاق سأله: من كتبت؟ قال: عمر.. كتبها وهو يعلم أنه لا يعدو بها نية أبي بكر رضي الله عنه، فإن أفاق أتم عهده كما أراد، وان ذهب في تلك الغشية بطلت الخصومة فيما أراد، وانسد باب الفتنة والخلاف، فقال أبو بكر رضي الله عنه مستريحاً إلى وفاء صاحبه مطمئنًا إلى أمانة كاتبه: بارك الله فيك، بأبي أنت وأمي، لو كتبت نفسك كنت لها أهلاً.

وقد اختار عمر رضي الله عنه للمشاورة في أمر الخلافة من رضي عنهم رسول الله ﷺ قبل وفاته وهم ملتقى الآراء بين خاصة المسلمين وعامتهم، وقد حسم عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه الخطوة الأولى حين قال: أنا انخلع منها، ثم تقدم إلى الخطوة التالية فقال لعلي كرم الله وجهه: ".. لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بها؟ قال: عثمان".. ولقيَ عثمان رضي الله عنه فسأله: ".. أي هؤلاء الرهط تراه أحق؟ قال: علي"[٣٣].

وقد أثار نفر أقوالاً وتفسيرات عن ذلك الموقف هي ضرب من ضروب المخترعات[٣٤]، لأنهم يميلون أن يسندوا كل شيء إلى دهاء الدهاة وخديعة المخدوعين، مع أن الأمثل في كل قول أو تفسير أن علياً وعثمان رضي الله

---

٣٣ - الطبري ، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص: ٢٣١.

٣٤ - يذكر القلقشندي في مآثر الإنافة في معالم الخلافة قول عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ... لك من قرابة رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت، والله عليك لئن أمَّرتك لتعدلَنَّ، ولئن أمرتُ عثمان لتسمعنَّ وتطيعنَّ، ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك. فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه وبايع له عليّ، وولج أهل الدار فبايعوه. انظر مآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي، المرجع السابق، الجزء الأول، ص: ٥٤ - ٥٥.

عنهما هما أرفع من كل دهاء وأنزه من كل خديعة، وهما من النقاء والخير أن يقول أي منهما ما قاله في جوابه لعبد الرحمن رضي الله عنه، وهذا أقطع في الحجة مما تواتر في المصادر وبعضها يسرد، أو ينقل عن بعضها.. بدليل أنه لما بويع عثمان رضي الله عنه خرج في أهل الشورى وهو أشدهم كآبة حتى أتى منبر رسول الله ﷺ وقام يخطب الناس، فارتج عليه ولم يقدر على إجادة الكلام، فقال: أيها الناس.. إن أول مركب صعب، وإن بعد اليوم أياماً، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها، وما كنا خطباء وسيعلمنا الله.. مما يبرهن أن عثمان رضي الله عنه لو كان على علم باختياره أو على توقع لما أعياه أن يعد لهذا المقام كفايته من المقال البليغ، وبالتالي فالأمر ليس مكيدة إلا في أذهان من يحبون التأويل، واختراع القصص، وتوزيع أدوار أبطالها.

وقد حمل عثمان رضي الله عنه أمانة المسؤولية بكفاءة إدارية عالية، على الرغم من امتداد وتباعد المسافات وتعدد الفتن وتكاثر العناصر والأجناس، ونجح في تثبيت مهابة الدولة حتى وقر في أخلاد الأمم المحيطة بها أنهم ينازلون قوماً لا يقدح في قوتهم موت خليفة، وأنهم منتصرون على تبدل القادة. ثم سرعان أن امتد الفتح شرقاً إلى حدود الهند والصين، وشمالاً إلى ما وراء بحر الخزر، وغرباً إلى أبواب القسطنطينية وتخوم الأندلس، وجنوباً إلى السودان والحبشة. ولم يقصر في إنفاذ نجدة أو تسيير مدد أو تدارك خطر في أوانه وإسناد كل عمل إلى من يحسنه من أقصى تلك البقاع إلى أقصاها، مما يدل على حنكته الإدارية وكفاءته في تسيير الأمور إلى الحد الذي تجاوز فيه الشعور بالخوف من اقتحام البحر، منعاً لتهديد الروم لساحل الشام وفلسطين ومصر، فدفع بذلك الأخطار

الخارجية.

ومن الأعمال الجليلة التي أتمها عثمان رضي الله عنه هو جمع القرآن الكريم ليقرأه المسلمون على نسخة واحدة.

ومن توجيهه إلى عماله قوله: ".. ان عدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فتعطوهم الذي لهم وتأخذوا بما عليهم، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء..". ومنه كذلك: " خذوا الحق واعطوا الحق، والأمانة الأمانة، قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم.."

وكتب إلى الناس في الأمصار: ".. أن ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، ولا يذل المؤمن نفسه، فإني مع الضعيف على القوي مادام مظلوماً إن شاء الله".

وقد عُرف عن عثمان رضي الله عنه انه نزل عن ماله لتسيير جيش في سنة العسرة، ونزل عن ماله لشراء بئر يستقي منه المسلمون بغير ثمن، ونزل عن ماله لتوسعة المسجد، ونزل عن ماله لحمل المغارم وإغاثة الملهوف والبر بالأقربين والأبعدين..

ولا يزعم أحد انه غنم من الخلافة مالاً، فقد ترك الدنيا وماله أقل مما كان لديه قبل الخلافة، مع انه كان أكثر قريش مالا وأجدهم في التجارة.. فعندما قحط الناس في زمن أبي بكر رضي الله عنه قدمت لعثمان رضي الله عنه ألف راحلة براً وطعاماً، فأتاه التجار مشترين يزيدون ويزيدون، وفي كل مرة يقول زادوني حتى قالوا: العشرة خمسة عشر، قال: زادوني بكل درهم عشرة.. وحسم الموقف ليقول: "أشهدكم معشر التجار أنها صدقة على

فقراء المدينة، فالحسنة عند الله بعشرة أمثالها".

وقد اختصه رسول الله ﷺ بكتابة الوحي، واستخلفه على المدينة في غزوته إلى ذات الرقاع، وأرسله إلى اليمن مستطلعاً حين كانت إمارتها إلى علي كرم الله وجهه، ومات رسول الله ﷺ وهو عنه راض.

والجدير بالذكر أن أعداء الدولة الإسلامية قد بدأوا بمؤامرتهم منذ بدء دعوة رسول الله ﷺ، وكانوا يراقبون انتشار الدعوة وظهورها، ويأكل هذا الانتشار قلوبهم حقداً، فحاولوا قتله ليلة الهجرة، وتضييع دمه بين القبائل تعجيزاً لبني هاشم، بل عمدت امرأة يهودية إلى دس السم في شاة قدمتها طعاماً لرسول الله ﷺ، وعندما سألها بعد اكتشافه للسم قالت: لو كنت نبياً فلن يضرك، ولو كنت كاذباً نستريح منك. ومع ذلك لم يعاقبها رسول الله ﷺ..

ولم يتوقف المتآمرون في عهد أبي بكر رضي الله عنه وإنما أخذوا موقف المراقبة، إذ وجدوا أن الجزيرة العربية بدأت تميد بنار الردة التي أوشكت أن تقضي على كل شيء. وعندما تصدى لها أبو بكر رضي الله عنه وظهر الحق، عاد المتآمرون لسياسة القتل وقلوبهم يأكلها الحنق على انتصارات الدولة الإسلامية وامتدادها. وكانت المؤامرة أكبر جداً من ظواهرها التي تحصرها في أبي لؤلؤة[35] والهرمزان

٣٥ - خرج عمر رضي الله عنه يوماً يطوف في السوق فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وكان نصرانياً، فقال: يا أمير المؤمنين أعدني - أي أعني وانصرني - على المغيرة، فان عليّ خراجاً كثيراً. قال: وكم خراجك؟ قال: درهمان في كل يوم. قال: وآيش صناعتك؟ قال: نجار نقاش حداد. قال: فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال، قد بلغني أنك تقول: لو أردت أن أعمل رحا تطحن بالريح فعلت. قال: نعم. قال: فاعمل لي رحا. قال: لئن سلمت لأعملن لك =

وجفينة[٣٦] بدليل أنه مـا ان قـتل عـمـر رضي الله عنه حـتى تلاحـقت الفـتن، وكأنهـا كانت على موعد، وتمرد من قبائل الفرس والروم والترك من كـان قـد أذعن وتعاقد على الصلح والطاعة، ونقضت دولة الروم صلحها فأغارت على الاسكندرية برًا وبحـرًا، وأرسلت أسـاطيلها إلى شـواطئ فلسطين، وأطلقت من يبث فيها الوعد والوعيد ويغري بالعصيان. وبذلك واجهت عثمان رضي الله عنه مـحنة لا تقل عن مـحنة الردة أو أكـبـر منهـا في اتسـاع مـيـادينهـا وتباعد أطرافهـا، وكان عـثمان رضي الله عنه كفوًا لها عزمًا ورأيًا وسـرعة وحنكة.

وإذا أخذنا في الاعتبار أن التاريخ مليء بالأحداث، فإنها لا تعدو أن تكون مظاهر لما هو أعمق منها، والعبرة التاريخية ليست بالحدث وإنما بما ينطوي عليه أو يشير إليه من دلالات.

وإذا كان من الخطأ القفز إلى النتائج دون الإلمام بما أحاط بالدولة، فقد رافقت الأحداث الخارجية فتن داخلية ليشكلا معًا تحديًا لإدارة عثمان رضي الله عنه، وألبست الفتن الداخلية خليطًا غير متجانس أو متوافق من الأسباب، ولكنها تتفق مع سياق الفوضى والتمرد والتعليلات المموهة وغير

= رحًا يتحدث بها من بالمشرق والمغرب.. ثم انصرف عنه. فقال عمر رضي الله عنه: لقـد توعـدني، "وفي ابن الأثيـر والنويري (أوعـدني)" العـبـد آنفًا. أنظر في ذلك: المرجع السابق، ص: ١٩١.

٣٦ - كان نصرانيًا من أهل الحيرة، وقد صلب بين عينيه لما علاه عبيد الله بن عمر بالسيف، ومما قاله عبدالرحمن بن أبي بكر غداة طعن عمر رضي الله عنه: "مررت على أبي لؤلؤة عشي أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجي، فلما رهقتهم ـ ضيقت عليهم ـ ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه". وقد ثبت بعد ذلك أنه الخنجر الذي طعن به عمر رضي الله عنه. انظر في ذلك: المرجع السابق، ص: ٢٤٠.

المبررة. فكان هناك من يتمرد ليمضي مع الماضي، ومن يتمرد ليقبل مع المستقبل، ومن يغضب باطلاً ولا يخجل من غضبه بالباطل، ومن يغضب حقًا وليس هو على يقين أن الخليفة أحق منه وأجدر بالفضل والطاعة. ومنهم من يحار بين الفريقين ولا يدري كيف يهتدي في حيرته إلى صواب، وفي ذلك قال عبدالله بن عمر: لقد عيبت عليه أشياء، لو فعلها عمر ما عيبت عليه.

وقد بلغ دهاء وخبث المتآمرين أنهم استغلوا صيحات النصح الصادق من بعض الصادقين إذ يروعهم الترف والبذخ فينعون على الذين يكنزون الذهب والفضة، فتُحسب هذه الصيحات على عثمان رضي الله عنه ويعتبرونه مسؤولاً عن تغيير الزمن وتبديل الأوان!.. والأمر كان مؤامرة عملت فيها الدعاية والاستثارة والشعوذة والضلالة المدبرة وإساءة التفسير عن عمد لإثارة الفتنة. ومن ذلك ما رُوِى أن يونس بن خباب سأل اسماعيل بن علين: من أين أنت؟ فقال: من أهل البصرة. قال يونس: أنت من أهل المدينة الذين يحبون عثمان بن عفان وقد قتل ابنتي رسول الله ﷺ. فقال اسماعيل: أتراه قتل واحدة، فزوجه الثانية من أجل ذلك!.. وهذا يؤكد أن الفتنة مدبرة من خلال اتهامات واهية ضخمها المتآمرون بسوء القصد والطوية[37].

---

٣٧ - ذكر المحب الطبري في الرياض النضرة عن أنس بن مالك في حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال: «أين عثمان بن عفان؟» فوثب عثمان رضي الله عنه وقال: ها أنا ذا يا رسول الله. فقال: «أدن مني». فدنا منه، فضمه إلى صدره وقبَّل بين عينيه، ورأينا دموعه تجري على خده، ثم أخذ بيده وقال: «يا معاشر المسلمين هذا شيخ المهاجرين والأنصار، هذا الذي أمرني الله أن أتخذه سنداً وختناً على ابنتي، ولو كان عندي ثالثة لزوجتها إياه، هذا الذي استحيت منه ملائكة السماء، فعلى مبغضه لعنة الله ولعنة اللاعنين» انظر الرياض النضرة للمحب الطبري، المرجع السابق، الجزء الأول، ص: ٤٩.

ومن ذلك ما أثاره بعض أهل الكوفة عن واليها سعيد بن العاص، حيث أشار عليه عثمان رضي الله عنه أن يبعث بهم إلى معاوية بن أبي سفيان في الشام الذي حاورهم وحاول نصحهم، فأعيوه حتى كتب: قدم عليّ أقوام يتكلمون بألسنة الشياطين وما يملون عليهم، ويأتون الناس من قبل القرآن فيشبهون على الناس، وليس كل الناس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فرقة، ويقربون فتنة.. ليست لهم عقول ولا أديان، أثقلهم الإسلام وأضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة، إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة[٣٨].

ومن ذلك ما جرى في البصرة حيث كان عبدالله بن سبأ ـ وهو يهودي من أهل صنعاء ـ أسلم زمان عثمان رضي الله عنه ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز ثم بالبصرة ثم الكوفة ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيها. وكان يختلف إلى قاطع طريق اسمه حكيم بن جبلة الذي كان يغير على أهل الذمة، مما دفع عثمان رضي الله عنه إلى أن يأمر والي البصرة بحبسه حتى يأنس منه الرشد. ومما قاله ابن سبأ: لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذّب بأن محمداً يرجع!.. ثم قال لهم بعد ذلك: انه كان ألف نبي، ولكل نبي وصي، وكان عليّ وصي محمد!.. ثم قال: محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء!! ثم قال بعد ذلك: ... ان عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم..وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر.. وهكذا بث دعاته، وكاتب من كان

---

٣٨ - الطبري، المرجع السابق، ص: ٣٢١، ٣٢٥.

استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم[39]، وما إلى ذلك من الادعاءات لإثارة الفتنة[40] والبلبلة في الرؤوس وفي النفوس، حتى وجد من يزعم أنهم من دعاة علي كرم الله وجهه، مع انه ما كان ليرضى بما يدعون لدينه ولا لدنياه.

وقد استمر شغب الغوغاء، لأن يداً كانت تعمل فيه لمحض الشغب، وللتوصل إلى أن يفسد الأمر على الدولة الإسلامية. ولم يكن ابن سبأ لوحده في ذلك، وان كان من أبرز رؤوس الفتنة، حتى قيل فيهم: "لا ندري أعرب هم أم عجم، مسلمون هم أم مفسدون مدسوسون على الإسلام.."[41].

وقد كشفت إدارة عثمان رضي الله عنه عن جانب الخير في أغوار نفسه وإنسانيته، فقد صمد ظمآنًا وهو شيخ في التسعين[42] محصورًا في داره بغير نصير، ولو شاء لكان له الألوف من النصراء. آمن بالحق الذي لم

---

39 - المرجع السابق، ص: ٣٤٠ - ٣٤١.

40 - روى عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر فتنة، فقال: «يُقتل هذا فيها - مظلومًا - يعني: عثمان» أخرجه الترمذي رقم: ٣٧٠٨ في المناقب، وذكره ابن الأثير في جامع الأصول برقم: ٦٤٨١، المرجع السابق، الجزء الثامن، ص: ٦٤٤.

41 - عباس محمود العقاد، العبقريات الإسلامية: عثمان بن عفان، القاهرة، المكتبة العصرية (لم يذكر تاريخ النشر)، ص: ١٦٧.

42 - عن ثمامة بن حزن القشيري قال: شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان فقال: أنشدكم بالله وبالإسلام هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء مستعذب غير بئر رومة فقال: «من يشتري بئر رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة»، فاشتريتها من صلب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها... انظر الرياض النضرة للمحب الطبري، المرجع السابق، الجزء الثالث، ص: ٢٠.

يؤمن به دعاة الفتنة، فأراهم أنهم أهل لحساب الخليفة، وقد امتد سلطان الدولة من تخوم الصين إلى بحر الظلمات. وأبى أن يبقى في داره من يقتل أحداً ممن يحيطون بها ويعالجون اقتحامها. وأبى أن يخلع نفسه[43]، لا ضناً بالخلافة، فلا شيء أغلى من الحياة ـ وقد هانت عليه ـ، وإنما حذراً وأملاً من أن لا يتحمل جريرة النزاع والقتال. وعندما يرى بعضهم في موقف السماحة ضعفاً، فانه لا يدرك أن السماحة نفسها هي عين القوة[44].

* * *

---

٤٣ - روت عائشة فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا عثمان، لعل الله يُقَمِّصك قميصاً، فإن أرادوك على خلْعه فلا تخلعْه حتى يخلعوه» أخرجه الترمذي رقم: ٢٧٠٦ في المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه وذكره ابن الأثير في جامع الأصول برقم: ٦٤٨٠، المرجع السابق، الجزء الثامن، ص: ٦٤٤.

٤٤ - روى أبو سهلة فقال: سمعتُ عثمان رضي الله عنه يقول يوم الدار: «إن رسول الله ﷺ عهد إليّ عهداً، فأنا مُمْتثلٌ له، وصابر عليه إن شاء الله، فصبر حتى قُتل رحمه الله شهيداً» أخرجه الترمذي، وهذا لفظه، قال: قال لي عثمان يوم الدار: «إن رسول الله ﷺ عهد إليّ عهداً، فأنا صابر عليه» لم يزد، رواه الترمذي برقم: ٣٧١٢ في المناقب، ورواه ابن ماجة برقم: ١١٣ في المقدمة، وقال الترمذي حديث حسن صحيح، وذكره ابن الأثير في جامع الأصول برقم: ٦٤٨٢، المرجع السابق، الجزء الثامن، ص: ٦٤٥.

من مواقف القيادة الإدارية

في إدارة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

جمع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في شخصه مكارم الأخلاق، لأنه عاش طفولته وشبابه مع رسول الله ﷺ، فنهل من معينه، وأوتي إلى جانب العلم السماحة والعدل والشجاعة والصدق والمروءة، فقد نام في فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة، وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على هذا الفراش.

مما يعكس شخصيته الإدارية قوله: ".. علاقة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك، وألا يكون في حديثك فضل على علمك..."، وهكذا فقد كان صادقًا قولاً وعملاً، فعن قيس بن عبادة قال: قال لي علي بن أبي طالب إن رسول الله ﷺ مرض ليالي وأيامًا ينادي بالصلاة فيقول: «مروا أبا بكر فليصل بالناس». فلما قُبض رسول الله ﷺ نظرتُ فإذا الصلاة علم الإسلام وقوام الدين.. فرضينا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا فبايعنا أبا بكر.

ويذكر صاحب الرياض النضرة أن أبا بكر الصديق أقام ثلاثًا يقول: أيها الناس قد أقلتكم بيعتكم، هل من كاره. قال: فيقوم علي بن أبي طالب في أوائل الناس يقول: لا والله لا نقيلك ولا نستقيلك، قدَّمك رسول الله ﷺ فمن ذا الذي يؤخرك. وكان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: لا يبلغني أن أحداً فضلني على عمر إلا ضربته حدَّ المفتري[45].

---

٤٥ - انظر الرياض النضرة للمحب الطبري، المرجع السابق، ص: ٢١٨ - ٢١٩ و ٢٥٢ و ٤٠١.

ومع ذلك فقد تنازع الناس حوله، وتناقضت آراؤهم فيه، حتى عبر عن ذلك بقوله: "ليحبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبي، ويبغضني أقوام حتى يدخلوا النار في بغضي". و "يهلك فيَّ رجلان: محب مفرط بما ليس فيّ، ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني"..

وقد امتاز بالفقه الذي يراد به الفكر المحض والدراسة الخالصة، وجعل الدين موضوعًا للتفكير والتأمل، ولم يقصره على العبادة، كما كانت فتاواه مرجعًا للخلفاء والصحابة في عهود أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

وكان لا يتكلف إظهار شيء، ولا يتكلف إخفاء شيء، ولا يقبل التكلف ممن يمدحه فيقول: "أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك"، وما استطاع أحد قط أن يحصي عليه كلمة خالف فيها الحق الصراح في سلمه وحربه، وبين صحبه وأعدائه، ولعله كان أحوج إلى المصانعة مع النصراء مما كان بين الأعداء، لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعنتوه بالخلاف.

كان صادقًا في تقواه وإيمانه وعمله وقوله، وزاهدًا في الدنيا كما قال عنه عمر بن عبدالعزيز: "أزهد الناس في الدنيا عليّ بن أبي طالب" يأكل الشعير الذي تطحنه امرأته بيديها، وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام. وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال: "دخلت على عليّ كرم الله وجهه فإذا بين يديه لبن حامض آذتني حموضته وكسر يابسه، فقلت: يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا؟ فقال لي: يا أبا الجنوب كان رسول الله ﷺ يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا ــ وأشار إلى ثيابه ــ فان لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به..".

وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة، إيثارًا للخصاص التي

يسكنها الفقراء، ولم يبن آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، وكان يرعد للبرد إذا اشتد، ولم يتخذ له عدة من دثار يقيه.. قال هارون بن غترة عن أبيه: دخلت على علي بالخورنق - وهو فصل شتاء - وعليه خلق قطيفة، وهو يرعد فيه. فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً، وأنت تفعل هذا بنفسك؟ فقال: والله ما أرزؤكم شيئًا وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة.

سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين، فقال لهم: "إني أكره أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم أحقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحقَّ من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لج به".

وجد درعه عند نصراني فخاصمه إلى شريح - قاضيه - مخاصمة رجل من عامة رعاياه، وقال: انها درعي ولم أبع ولم أهب. وقال النصراني: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب. فطلب شريح من علي كرم الله وجهه البينة. فقال علي كرم الله وجهه: أصاب شريح، مالي بينة!، فقضى شريح بالدرع للنصراني، فأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر إليه!.. وما لبث أن عاد النصراني ليقول: أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه يقضي عليه!. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين.. اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين، فخرجت من بعيرك الأورق.

والجدير بالذكر انه إذا كان عصر أبي بكر رضي الله عنه هو العصر الذي نشأت فيه الدولة، فان عصر عمر رضي الله عنه هو العصر الذي تم فيه

انشاؤها، وعصر عثمان رضي الله عنه كان العصر الذي تكوّن فيه المجتمع الإسلامي بعد نشوء الدولة، أما عصر علي كرم الله وجهه فقد أحاطت به مجموعة مختلفة ومتباينة من المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتشكل معًا ما يشبه الأزمة الإدارية. وعلى الرغم من أنه قد تصدى لها بإيمان راسخ، وبذل في سبيل معالجتها الكثير من الجهد والصبر، إلا أنها استمرت تتسع وتتفاقم لتجعل الحليم حيرانًا والأريب محتاراً. وما ذاك إلا لأنها امتداد لمحاولات التآمر على الدولة بهدف زعزعة استقرارها وتقويض أركانها. ولم يكن ليتم ذلك بشكل ارتجالي، بل كان مخططًا، دفعت ببعضهم إلى أن يقول لعلي كرم الله وجهه: نبايعك على انا شركاؤك... ومنهم من كان يتعلل بقلة المشورة له... ومنهم من كان يحارب عثمان رضي الله عنه ثمّ أصبح يحارب عليًا باسم عثمان، تمحلاً لذرائع الخلاف، وكراهة استقرار الدولة.. فلا دعاة الدنيا المترفون راضون مطيعون، ولا دعاة الدين راضون مطيعون، ولا الفقراء المتربون والجهلاء راضون مطيعون، وما منهم إلا من هو قلق متوفز[٤٦]. مع ان الصيحة إلى الإصلاح والتغيير إذا جاءت عن طريق التدين والتقوى والفقه فعلي كرم الله وجهه هو أحق من يتكلم بالفقه، ولو

---

٤٦ – مما يؤكد تمحّل بعض الناس وابتكارهم الذرائع ما ذكره القلقشندي في مآثر الإنافة: ... أول من بايع عليًا كرم الله وجهه بالخلافة طلحة "طلحة بن عبيد الله"، وكانت يده شلاء، فقال حبيب بن ذُؤَيب: أول من بايعه أشلٌ فما أظن أن هذا الأمر يتم!.. انظر مآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي، المرجع السابق، الجزء الثالث، ص: ٣٤١.. علماً بأن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه هو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وقد أبلى يوم أحد بلاء حسناً وثبت مع رسول الله ﷺ ووقاه بيده فشلت.. ومع هذا لم يستحي بن ذؤيب فزعم ما زعم!... وترك العنان لخياله أن ينسج ويختلق..

جاءت من الفقراء فعلي كرم الله وجهه كان أفقر الفقراء، ولو جاءت الشكوى بسبب تهافت بعض الولاة فعلي كرم الله وجهه كان يبغض هذا التهافت لما عرف عنه من تقوى وزهد. فما شكا شاك قط إلا وعلي كرم الله وجهه شريك له في شكواه، ومع ذلك ظلت الأمور تشتد وتتعاظم وتتعقد، حتى وجد نفسه يعالج أزمة إدارية تخفي وراءها مجموعات من أزمات إدارية متفاقمة ومركبة. فكان عليه أن يكبح الفرس عن الجماح، وأن يرفع العقبات والحواجز من طريقه في الوقت نفسه. وهناك من أمثال عبدالله بن سبأ وجماعة السبئية والخوارج ومجموعات الحاقدين الذين يجدون في المضي مع العناد لذة يستمرئونها من الحق والمعرفة، فمردوا على الشقاق.

بويع علي كرم الله وجهه بالخلافة بعد فاجعة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، فواجه موقفًا صعبًا منذ يومه الأول. وما كانت الأسباب التي أُخذت على عثمان رضي الله عنه لتبرر تلك الفعلة، وما كان منطق الحوار مع الخصوم يرضيهم، لأن المؤامرة على استقرار الدولة مبيتة، أما الأسباب فهي غطاء يخفيها، ولو لم تكن لاختلقوا غيرها، كي تنطلق الفتنة من أعنتها، وتستمر الغاشية.

ومما جاء في رواية شداد بن أوس أن عليًا كرم الله وجهه خرج من منزله يومًا في نفر من المهاجرين والأنصار ومعه ابنه الحسن وعبدالله بن عمر فحملوا على الناس وفرقوهم، ثم دخلوا على عثمان رضي الله عنه فاستأذنوه بقتال القوم وحمايته منهم، فقال عثمان رضي الله عنه: "أنشد الله رجلا رأى لله حقًا، وأقرّ أن لي عليه حقًا، أن يهريق في سببي ملء محجمة من دم أو يهريق دمه فيّ.."، فأعاد علي كرم الله وجهه القول، فأعاد عليه عثمان رضي الله عنه هذا الجواب.. وعندما هجم القوم على باب

الخليفة، منعهم الحسن بن علي وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة.. واجتلدوا بالسيوف، فمنعهم عثمان رضي الله عنه وقال لهم: "أنتم في حل من نصرتي". وفتح الباب ليمنع الجلاد حوله، حرصاً عليهم، وضناً بحياتهم، ولأنه أدرك ببصيرته أن القوم ماضون في تنفيذ ما بيتوه، وان علة الثورة عليه هي تعلل موضوع ينخدع به قائله، ويخدع به غيره.

والجدير بالذكر أن الأمر لم يكن متعلقاً بعثمان رضي الله عنه أو بالأسباب التي اختلقها القوم، ولو كان كذلك لانتهى بتلك الفاجعة. ولكن الفتنة استمرت لزعزعة استقرار الدولة وتقويض أركانها، فبدأت خيوط الفتنة تتجه إلى الخليفة الجديد علي كرم الله وجهه تتهمه بالتقصير في القود من الثائرين!، وكان الأولى لو أنهم صدقوا أن يؤيدوه حتى يقوى على إقامة الحدود ثم يحاسبونه، وحق الحساب مكفول لكل فرد في الدولة بحكم الشريعة. وكان معه من يخونون عهده ويشغبون عليه، ومن هم مسخرون لعدوه، ومع ذلك فقد بدأ إدارته بتجنيد قوى الخلافة الدينية تسخيراً للطاقات المعنوية، وعزل الولاة الذين ثبت أنهم طمعوا وتمرغوا بالدنيا، فخسر بهذه السياسة أولئك الذين أحبوه، ولم يربح بها أولئك الذين أبغضوه. كما رد القطائع إلى مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سنة المساواة، ورجع إلى خطة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في تجنيب الصحابة الإمارة، ونقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة، لأنها ملتقى الشعوب من الأجناس، وكانت مثابة التجارة بين الهند وفارس واليمن والعراق والشام، والعاصمة الثقافية التي ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة.

وكان يدرك ما يدور في أوساط بعض الجماهير من لغط فقال: "انهم أتباع كل ناعق"، وانهم: "هم الذين اذا اجتمعوا ضروا، وإذا تفرقوا نفعوا".

وقد نهج في إدارته نهج من سبقه من الخلفاء الراشدين، فمن وصاياه لولاته: "انصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم، فانهم خزان الرعية.. ولا تحسموا أحداً عن حاجته، ولا تحبسوه عن طلبته.."، ومن وصاياه في تحصيل الخراج والصدقات: ".. امض إليهم بالسكينة والوقار، حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخدج بالتحية لهم، واسألهم: هل لله في أموالكم حق فتؤدوه؟ فان قال قائل: لا، فلا تراجعه. فان كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه فان اكثرها له. فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به، ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعها، ولا تسوءن صاحبها فيها.."، وهذا من أجود وصايا الإدارة في التعامل مع الناس، ومن أرق أساليب السلوك في التعامل حتى مع الحيوان.

وكان اهتمامه بعمارة الأرض أبلغ من النظر في استجلاب الضريبة، فكان يكتب إلى واليه: "تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج. لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن جلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، وانما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها اسراف الولاة على الجمع..".

ويتضح أسلوبه في الإدارة والتعامل مع الولاة في كتابه إلى الأشتر النخعي حيث قال له فيه: ".. انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً، ولا تولهم محاباة وأثرة.. وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام، فانهم أكثر أخلاقًا وأصح أعراضًا وأقل في

المطامع اسرافًا، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً، ثم أسبغ عليهم الأرزاق، فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك، ثم تفقد أعمالهم..".

ومع حرصه على استطلاع أحوال الولاة، كان ينهى عن كشف معائب الناس، فيقول لولاته: "وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعايب الناس، فان في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك منها، فانما عليك تطهير ما ظهر لك.."

وكان ينهي ولاته عن بطانة السوء، فقد أوصى محمد بن أبي بكر ـ واليه على مصر ـ فقال: "لا تدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور، فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله، ان شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة".

وقد بلغ من حسابه للولاة انه كان يحاسبهم على حضور الولائم التي لا يجمل بهم حضورها، فكتب بهذا الصدد إلى عثمان بن حنيف الأنصاري ـ عامله على البصرة ـ: "... فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة، فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو..".

وعلى الرغم مما عرف عن شريح من أمانة في القضاء، فقد استكثر عليه أن يبني داراً بثمانين ديناراً، وهو يرزق خمسمائة درهم[٤٧].

٤٧- العقاد، عبقرية الإمام علي، المرجع السابق، ص: ١٢٤.

وعلى الرغم مما أثر عنه من زهد وتقوى وإخلاص في إدارة شئون الرعية، والسهر على مصالحها. وعلى الرغم من سلوكه الإداري السوي النابع من العقيدة مع نفسه وأصحابه وأعدائه، فقد التبس الأمر على من قاتل معه من الخوارج، ثم قاتلوه، متصورين أنهم على حق. وانبرى لقتله من غلاتهم من ترك المجال مفتوحاً لمزيد من الاستمرار في عدم استقرار الدولة، وتشاء الصدف أن ينجح في قتل علي كرم الله وجهه، فيكون ضحية لنقائض الموقف كله، وان يخفق منهم من تعهد بقتل معاوية. وتأبى النفس الكريمة إلا أن تظل كريمة حتى في أشد لحظات الألم، فيقول لابنه الحسن: "ان أنا مت من ضربته هذه، فاضربه ضربة بضربة، ولا تمثّل بالرجل، فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إياكم والمثلة، ولو أنها بالكلب العقور»، ويقول: يا بني عبدالمطلب.. لا ألفينكم تخوضون في دماء المسلمين، تقولون قتل أمير المؤمنين، ألا لا يقتلن أحد إلا قاتلي".

وقد كان هذا خاتمة فاجعة أخرى، بعد فاجعة عثمان رضي الله عنه، لينتقض بذلك ذلك النسيج الإنساني النابض الذي تخلل حياته في لحمتها وسداها، وفي تفاصيل أجزائها التي جمعت الكثير من عوامل التقوى والشجاعة والنخوة والعلم والإيمان.

* * *

والجدير بالذكر أن هذه الأنماط القيادية والسلوكيات الإدارية التي صدرت عن هؤلاء الثلة من الخلفاء الراشدين الذين نهلوا من هدي الإسلام وسنة رسول الله ﷺ قد ظلت ماثلة في عقول وقلوب من تأخر من القادة أيضاً، لأنها قيم ومثل تنبع من العقيدة.

فهذا الخليفة عمر بن عبد العزيز يتقدم إلى الحرس إذا خرج عليهم طالباً أن لا يقوموا إليه. ويقول لهم: لا تبتدئوني بالسلام، إنما السلام علينا لكم.

ويروى أن غلامه كان يأتيه بقمقم من ماء مسخن يتوضأ منه، فقال للغلام يوماً: أتذهب بهذا القمقم إلى مطبخ المسلمين حتى يسخن ثم تأتي به؟ قال: نعم، أصلحك الله. قال: أفسدته علينا.. ثم أمر مزاحماً أن يغلي ذلك القمقم، ثم ينظر ما يدخل فيه من الحطب، ثم يحسب تلك الأيام التي كان يغليه فيها، فيجعله حطباً في مطبخ المسلمين.

وقرأ بالناس ذات ليلة: ﴿والليل إذا يغشى﴾، فلما بلغ: ﴿فأنذرتكم ناراً تلظى﴾ خنقته العبرة، فلم يستطع أن ينفذها، فرجع حتى إذا بلغها خنقته العبرة....

وأبطأ يوماً عن الجمعة قليلاً، فعوتب في ذلك، فقال: إنما انتظرت قميصي غسلته أن يجفّ.

وأتت عمة له إلى فاطمة امرأته، فقالت: إني أريد كلام أمير المؤمنين، قالت لها: اجلسي حتى يفرغ، فجلست. فإذا بغلام قد أتى فأخذ سراجاً. فقالت لها فاطمة: إن كنت تريدينه فالآن، فانه إذا كان في حوائج العامة كتب على الشمع، وإذا صار إلى حاجة نفسه دعا بسراجه. فقامت فدخلت عليه، فإذا بين يديه أقراص وشيء من ملح وزيت ـ وهو يتعشى ـ، فقالت: أتيت لحاجة لي، ثم رأيت أن أبدأ بك قبل حاجتي. قال: وما ذاك يا عمة؟ قالت: لو اتخذت لك طعاماً ألين من هذا. قال: ليس عندي يا عمة، ولو كان عندي لفعلت. ثم طلبت أن يزيد عطاءها، فقال: ليس ذلك المال لي فأعطيك، ولكني أعطيك مالي إن شئت. قالت: وما ذاك؟ قال: عطائي مائتا دينار فهل

لك؟ قالت: وما يبلغ مني عطاؤك؟ وانصرفت.

وأجاب عامله الذي طلب القراطيس: أدق قلمك، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة، فانه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضرّ ببيت مالهم.

وقد رافق هذه التربية في الرقابة الذاتية، والحرص على بيت مال المسلمين، حرص آخر على مصالحهم، مهما كانت أقدارهم.. ومما يذكر أن بريد عمر بن عبدالعزيز لا يعطيه أحد من الناس إذا خرج كتاباً إلا حمله، فخرج بريد من مصر فدفعت إليه فرتونة السوداء ـ مولاة ذي أصبح ـ كتاباً إلى الخليفة، تذكر فيه أن حائط بيتها قصير، وأنه يُقتحم عليها منه فيُسرق دجاجها. فأجابها الخليفة: بلغني كتابك، وما ذكرت من قصر حائطك، وأنه يدخل عليك فيه فيسرق دجاجك. فقد كتبت لك كتاباً إلى أيوب بن شرحبيل ـ وكان أيوب عامله على مصر ـ آمره أن يحصنه لك مما تخافين.. وكتب إلى أيوب: إذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها.. فأتى أيوب الجيزة يسأل عن فرتونة، فأعلمها بما كتب به الخليفة فيها، وحصنه لها[48].

* * *

٤٨ - عبدالله بن الحكم، سيرة عمر بن عبدالعزيز، المرجع السابق، ص: ٢٣، ٢٨، ٣١، ٤٣، ٤٦.

الفصل الثالث

الشورى والقرارات الإدارية

تمهيد - المعنى اللغوي والفقهي للشورى - أهمية الشورى ومزاياها - الشورى في السياق القرآني - الشورى في إدارة الرسول ﷺ - الشورى في إدارة الخلفاء الراشدين - خصائص الشورى - أهل الشورى - حكم الشورى ومدى إلزامها - : أدلة وجوب الشورى - مدى إلزامية الشورى : الشورى معلمة - الشورى ملزمة.

تمهيد

يحتل القرار الإداري مركز العملية الإدارية، من حيث التخطيط والتنظيم والتوجيه والرقابة، ويمثل جوهر العمل الإداري نظراً لتأثيره في مستوى الأداء وجودته وفاعليته؛ على اعتبار أن اتخاذ القرار الإداري هو الاختيار الواعي من عدة بدائل، بعد تشخيص الموقف وتحديد أبعاده وأسبابه بما في ذلك معرفة الظروف المحيطة بالقرار والعوامل التي تحكم، أو تؤثر في اتخاذه. ومن ثم وضع الحلول البديلة وتحليل النتائج المتوقعة عن كل بديل بغية اختيار البديل الأفضل ووضعه موضع التطبيق.

ويعتبر نظام الشورى من روائع ما قدم الإسلام للفكر الإداري في عملية اتخاذ القرارات. ولهذا فقد تناولنا في هذا الفصل موضوع القرارات الإدارية في إطار نظام الشورى. وقد أشرنا إلى مفهوم الشورى وأهميتها ومزاياها وموقعها في القرآن الكريم وفي إدارة رسول الله ﷺ وإدارة الخلفاء الراشدين. كما تناولنا خصائص الشورى وأهلها وأحكامها.

معنى الشورى

قولهم: شُرْتُ الدابة شَوْرا إذا عرضتها للبيع، ومكان العرض هو المِشوار. وقولهم: شُرتُ العسل: أخذته من موضعه[1]، والمشار: خلية النحل التي يشتار منها العسل أي يؤخذ. والتشاور والمشاورة والمشورة: استخراج الرأي. ونقول: شاورته في الأمر واستشرته بمعنى.

والشورى بمعناها الفقهي هو رجوع الإمام أو القاضي أو آحاد المكلفين في أمر لم يستبن حكمه بنص قرآن أو سنة أو ثبوت إجماع إلى من يرجى منهم معرفته بالدلائل الاجتهادية من العلماء المجتهدين ومن قد ينضم إليهم في ذلك من أولي الدراية والاختصاص[2].. وعليه فان الشورى هي استخراج الرأي بمواجهة البعض إلى البعض[3] أو هي المفاوضة في الكلام ليظهر الحق[4]، وفيها طرفان، وحتى يتحققا يجب أن يكون الموضوع من الأمور الاجتهادية فإذا كان الأمر لا يحتمل إلا رأيًا واحدًا، أو كان فيه نص، فهذا مما لا شورى فيه.

ان الأفكار والآراء لا تجتمع وتتلاقح وتتناسق إلا عن طريق الشورى التي تتمخض عن الرأي الصائب كما يُنْتَج العسل من اجتماع جهود

---

١ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٤ / ٢٩٤. الفخر الرازي، التفسير الكبير: ٩ / ٦٥، ابن منظور، لسان العرب: شور

٢ - د. محمد سعيد رمضان البوطي، خصائص الشورى ومقوماتها، من كتاب الشورى في الإسلام، عمان / الأردن، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ١٩٨٩، الجزء الثاني، ص: ٤٨٨.

٣ - الألوسي، روح المعاني: ٢٥ / ٤٢.

٤ - الطبرسي، مجمع البيان: ٩ / ٣٣.

شغالات النحل التي تأخذ أحسن ما في الورود والأزهار من شذى ورحيق.

أهمية الشورى ومزاياها

الشورى دعامة من دعائم الحكم في الإسلام، تعطي الحق للأمة في إدارة شؤونها والإشراف عليها، وتمثل ضمانة أساسية تحول دون مخالفة الحكومة للأحكام أو الانحراف في استعمال السلطة، لأن القرار الذي ستقوم عليه الإدارة لن يخرج إلى حيز التنفيذ إلا بعد بحث واستقصاء وتحري المصلحة العامة، ومشاورة المختصين في هذا الأمر[5].

وتنطوي الشورى كأسلوب في اتخاذ القرارات في الإدارة، على مزايا وفوائد كثيرة لعل منها:

١ - تعتبر من العوامل الهامة في نسج عناصر الألفة والمحبة بين أفراد الأمة وقادتها، وهي وقاية للحاكم والمحكوم والمجتمع كله، فقوله تعالى: ﴿فبما رحمةٍ منَ اللهِ لنتَ لهمْ ولو كنتَ فظًا غليظَ القلبِ لانفضوا من حولِك فاعفُ عنهمْ واستغفرْ لهمْ وشاورهمْ في الأمرِ فإذا عزمتَ فتوكلْ على اللهِ إن اللهَ يحبُّ المتوكلينَ﴾[6]، ينطوي على أوامر وتوجيهات تلتقي على الدعوة إلى الرفق بالأمة والرحمة بها بما يؤدي إلى تطييب النفوس ورفع الأقدار، وهذه مزية أخلاقية.

---

٥ - سعيد عبدالمنعم الحكيم، الرقابة على أعمال الإدارة في الشريعة الإسلامية والنظم المعاصرة، القاهرة، ١٩٧٦، ص: ٢٠١-٢٠٢.

٦ - سورة آل عمران، آية ١٥٩.

٢ ـ تبين الشورى أن الحاكم لا يتمتع بصلاحية التسلط على الأمة والتحكم بمصالحها، ولكنه موظف لإدارة شؤونها وتوفير أمنها*، كما تبين الشورى أن الأمة هي سيدة الموقف، وهذه مزية اجتماعية.

٣ ـ تؤكد الشورى أهمية الاستفادة من علم العلماء وذوي الخبرات فيكونون عونًا في حل المشكلات واصطفاء الرأي السديد لا سيما أن حكمة التشريع اقتضت أن تكون معظم الأحكام الفقهية مستندة إلى مدارك وأدلة ظنية خاضعة للنظر والاجتهاد وقابلة لاستنباط أكثر من وجه واحد منها. لأن الظروف تتبدل والأحوال تتغير، وكلما كان الاجتهاد جماعيًا بحيث يمكن اقتطاف ثمار الاجماع في الأمر كان ذلك أكثر انطباقًا مع أمر الشارع وهديه. والحاكم في الدائرة الاجتهادية فرد من أعضائها ينصهر رأيه مع سائر الآراء الاجتهادية، وهذه مزية علمية.

٤ ـ تعتبر الشورى وسيلة لكي يستوثق الحاكم من أذن الأمة له في التصرف في أمر أو مال هو من خالص حقهم أو ملكهم كفرض ضرائب أو منع استيراد.. وقد استشار رسول الله ﷺ المسلمين عندما جاءه وفد هوازن مسلمين بعد غزوة حنين فقال للناس: «إن اخوانكم قد جاؤوا تائبين، وإني رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب

---

* قال أبو مسلم الخولاني (فقيه عابد زاهد) لمعاوية بن أبي سفيان: أنت أجير أقامه الله لخدمة الأمة وليس أميرًا مهيمنًا عليها، انظر في ذلك: تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله (ابن تيمية)، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، بيروت، دار الكاتب العربي، (لم يذكر تاريخ النشر)، ص: ١٠.

منكم أن يطيب ذلك فليفعل» فتصايح الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله. فقال: «انا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم». فكلمهم عرفاؤهم ورجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا.. وفي خيبر استشار رسول الله ﷺ الناس واستأذنهم في أن يسهم لمن عاد من الحبشة، وكان فيهم جعفر بن أبي طالب ومعه ستة عشر رجلاً وأمرأة، وهذه مزية حقوقية.

٥ ـ تمكن الشورى الحاكم من معرفة مطامح قومه وآمالهم وروحهم المعنوية، ومن ذلك أن رسول الله ﷺ أرسل في غزوة الأحزاب إلى قائدي غطفان يعرض عليهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عن قتال المسلمين.. وكُتبت بذلك مسودة الصلح، ولكنه ﷺ لم يمض الصلح ولا عزمه ولا أشهد عليه وإنما استشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فقالا: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟.. قال: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم من قوس واحدة، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما». فقال له سعد بن معاذ: قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟.. والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك». وتهلل وجه رسول الله ﷺ رضاً وسروراً.

وقد استشار رسول الله ﷺ الأنصار يوم بدر وقال: «سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

والمتأمل يدرك أن استشارة رسول الله ﷺ لم تكن لمعرفة الرأي السديد فهو يعرفه ويعرف النتائج، فقد تحددت له مصارع القوم وأسماؤهم. وإنما هي استشارة لمعرفة حقيقة الميثاق الذي واثق الأنصار أنفسهم به، أهو عهد حرفي أن يدافعوا عنه إذا داهم المدينة عليهم عدو، أم هو عهد مع الله أن يطيعوا رسوله وينتصروا لدينه. وقد كان موقف الرسول ﷺ موقف القائد الحكيم الذي يستطلع أحوال جنوده ويستجلي ببصيرته عزائمهم وطوايا نفوسهم. وهذه مزية سياسية[8].

إن هذه المزايا: الأخلاقية والاجتماعية والعلمية والحقوقية والسياسية، وفي طوايا كل منها الكثير من المزايا الجزئية، لتؤكد أهمية الشورى كدعامة للحكم الإسلامي ولنظام المجتمع فيه.

الشورى في السياق القرآني

وردت مادة شَوَر أربع مرات في القرآن الكريم. الأولى: تشاور، وهو مصدر الفعل الماضي تشاورَ، قال تعالى: ﴿ ... فإنْ أرادا فصالاً عن تراضٍ

---

٨ - د. البوطي، المرجع السابق، ص: ٥٨٠ - ٥٩٧. انظر أيضاً: قحطان عبدالرحمن الدوري، الشورى بين النظرية والتطبيق، الطبعة الأولى، بغداد، مطبعة الأمة، ١٩٧٤، ص: ٣٥ وما بعدها.

منهما وتشاورٍ فلا جناحَ عليهما ...﴾[9]. الثانية: شاورْ وهو فعل الأمر من الماضي شاورَ، قال تعالى: ﴿... وشاورهمْ في الأمرِ ...﴾[10]. الثالثة: شورى وهي مصدر الفعل الماضي شار، قال تعالى: ﴿... وأمرهمْ شورى بينهمْ ...﴾[11]. الرابعة: أشارت حيث ذكر القرآن إشارة مريم العذراء إلى وليدها عيسى عليه السلام: ﴿فأشارتْ إليهِ ...﴾[12].

والإشارة قريبة من الشورى ومرتبطة بها فمادتها واحدة وهي (شور) وهي جذر المادة الثلاثي.. والإشارة الحسية باليد والعين والحاجب عندما يتعدى الفعل بحرف الجر (إلى)، أما إذا تعدى بحرف الجر (على) فتكون الإشارة معنوية بتقديم الرأي والاقتراح والشورى.

ومما يدل على اهتمام الإسلام بالشورى في اتخاذ القرارات أن في القرآن سورة عنها، وهي سورة مكية، دلالة على أن نظام الشورى في الإدارة الإسلامية نظام سبق تكوين الدولة. وبالتالي فوضع الشورى في حياة المسلمين أعمق من مجرد أن تكون من أسس النظام السياسي للدولة، أو اسلوبًا في اتخاذ القرارات فحسب، ويستدل من قوله تعالى: ﴿... وأمرهم شورى بينهم...﴾، أن الشورى من صفات المسلمين، وأنها تتعلق بمجالات حياتهم الفردية والجماعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية

---

٩ - سورة البقرة، الآية ٢٣٣.
ومن دلالة الآية الكريمة أنه إذا كان التشاور مطلوبًا بين الزوجين في أمر خاص كفطام الطفل الرضيع (الفصال)، فهو ألزم في الأمور الكلية العامة.

١٠ - سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

١١ - سورة الشورى، الآية ٣٨.

١٢ - سورة مريم، الآية ٢٩.

والثقافية، لأن هذه المجالات التي يتشاورون فيها قد جاءت بصيغة {أمرهم} لتدل على الشمول.

وقد عبر القرآن الكريم عن صفة الشورى بين المسلمين بالجملة الاسمية لتوحي بثبات هذه الحقيقة ورسوخها واستقرارها وتأكيدها. فضلاً عن أن صفة الشورى قد وردت بين عبادتين في قوله تعالى: ﴿ ... وأقاموا الصلاة، وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون.. ﴾.

وقد أمر الله رسوله ﷺ بمشاورة المسلمين في قوله تعالى: ﴿ ... فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ... ﴾ ، وقد نزلت الآية بعد غزوة أحد، ضمن آيات تتحدث عن هذه الغزوة. وكان أن شاور رسول الله ﷺ المسلمين، فأشارت الأكثرية بالخروج من المدينة للقاء قريش، وكان رأيه ﷺ أن لا يخرجوا، وعلى الرغم من تأويل رؤياه ﷺ فقد أخذ برأي الأكثرية، وكان من نتائج الغزوة ما كان، ودفع الصحابة فيها ما دفعوا من ثمن كبير، وكانت نكسة للشورى لأول وهلة، ومع ذلك ينقذ الله الشورى من هذه الظنون ويثبتها في حياة المسلمين، فتنزل الآية لتؤكد نظام الشورى في الإدارة الإسلامية. وظل رسول الله ﷺ يشاور المسلمين، على الرغم مما تمخض عن الشورى من نتائج مريرة في غزوة أحد. لأن الشورى ذاتها لم تكن السبب المباشر لما حصل من جراحات. واستمر رسول الله ﷺ يعتمد على الشورى في إدارته لأنه كان ينشيء أمة ويربيها، ولأن خير وسيلة لتربية الأمم أن تربى بالشورى، وأن تدرب على حمل التبعة، وأن تخطئ لتتعلم[١٣].

---

١٣ - د. صلاح عبدالفتاح الخالدي، الشورى في القرآن، من كتاب الشورى في الإسلام، المرجع السابق، الجزء الأول، ص: ٤٩ - ٦١. انظر أيضاً: =

ولا يعرف أسلوب قديم أو حديث له ما لأسلوب الشورى الإسلامية من قدسية العمل به في مختلف الظروف والأحوال، حتى مع من كانت آراؤهم غير صائبة، فأمثال هؤلاء حتى العصر الحديث بعد خمسة عشر قرناً من الهجرة، في الدول التي تتشدق بحرية الرأي يختفي المستشارون المخطئون عن الأنظار وينكّل بهم..

أما في الإسلام فيعاملون باللين والحسنى والصفح والعفو، ويُستغفر لهم، ويُشاورون في الأمر[14]. وفي هذا تشجيع على الشورى وإبداء الرأي، وتأكيد بأن الذين لا يخطئون هم الذين لا يعملون. وهذا بحد ذاته يمثل أرقى مستويات الوعي في النظرة إلى الخطأ، وفلسفة المشاركة في اتخاذ القرارات.

ومن دلالات الآية الكريمة إقرار الشورى بصيغة فعل الأمر ﴿وشاورهم﴾، والأصل في الأمر الوجوب، ولا يصرف عن الوجوب إلى الندب أو الإباحة إلا لدليل. والأمر يوجب الشورى على الحاكم المسلم، لأنه وإن كان خطاباً موجهاً للرسول ﷺ فان خطابه خطاب لأمته ما لم يقم دليل على تخصيصه به. والمفعول به في ﴿وشاورهم﴾ يعود على المسلمين عامة، فكل فرد في الأمة من حقه أن يقدم رأيه، وأن يشير بما يراه.. وقد جاءت أل التعريف في ﴿الأمر﴾ للاستغراق، بمعنى أن تستغرق كل صور الأمر ومجالاته وحالاته وألوانه.. كل أمر يهم المسلمين.

= سيد قطب، في ظلال القرآن: ١ / ٥٠١.

١٤ - محمود شيت خطاب، الرسول القائد، الطبعة الخامسة، بيروت، ١٣٩٤هـ، ص: ١٧٥.

قال رسول الله ﷺ: «من أراد أمراً فشاور فيه وقضى، هدي لأرشد الأمور»[15].. ولهذا فقد حرص ﷺ على الشورى، ويدل على هذا قول أبي هريرة: ما رأيت أحداً قط أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ.

كما درّب رسول الله ﷺ أصحابه على إصدار الرأي في حضرته وبين يديه، واستشارهم في أمور الخبرة الإنسانية والحرب والبعوث، أما في حلال أو حرام أو حد فتلك قوانين شرع. وقد روى عنه أنه قال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «لو اجتمعتما ـ وفي لفظ: لو اتفقتما ـ في مشورة ما خالفتكما».

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمَ اللهُ»[16]..

ولما نزلت: ﴿وشاورهم في الأمر﴾، قال رسول الله ﷺ: «أما ان الله

---

١٥ - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان. الألوسي، روح المعاني: ٢٥ / ٤٢. الزمخشري، الكشاف: ١ / ٤٣٢. الطبرسي، مجمع البيان: ٩ / ٣٣. الفخر الرازي، التفسير الكبير: ٩ / ٦٦.

١٦ - أخرجه البخاري في الأحكام، باب بطانة الإمام وأهل مشورته.. والنسائي ٧ / ١٥٨ في البيعة، باب بطانة الإمام، واللفظ عند النسائي عن أبي هريرة وحده: «ما من والٍ إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، فمن وُقي شرّها فقد وُقي، وهو من التي تَغْلبُ عليه منهما» وبطانة الرجل: صاحب سره، وداخلة أمره الذي يشاوره في أحواله. لا تألوه خبالاً: لا تُقصّر في إفساد أمره، والخبال: الفساد.

ورسوله لغنيان عنها، ولكن جعلها الله تعالى رحمة لأمتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غياً»[17].

وقد ترجم الرسول الكريم ﷺ هذه الأقوال إلى أفعال ـ وهذه من أروع صفات القيادة الإدارية ـ فاستشار الناس في غزوة بدر، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال وأحسن، ثم قام عمر رضي الله عنه فقال وأحسن، وظل رسول الله ﷺ يقول: أشيروا عليَّ. فقام سعد بن عبادة فقال: ايانا تريد يا رسول الله؟ ، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا. وقال سعد بن معاذ الأنصاري الأوسي: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: «أجل». قال: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله.

واستشار رسول الله ﷺ أصحابه في أسرى بدر، وفي غزوة أحد، وغزوة الخندق، والطائف.. كما استشار في أمر الأذان، وحتى في قصة الإفك.

وأهل الشورى هم أهل الاختصاص، فالأمور الحربية تختلف عن الأمور الزراعية، وعن الأمور السياسية.. وقد تمس الشورى مصالح أناس

---

١٧ - أخرجه ابن عدي والبيهقي في الشعب عن ابن عباس. الألوسي، روح المعاني: ٩٤/٤.

بأعيانهم، فيكونون أصحاب الاختصاص بها.. وفي إدارة الرسول الكريم ﷺ حكم بالغة في أمور الشورى، من ذلك أنه استشار زعماء الأنصار دون المهاجرين في أمر مصالحة غطفان، لأن الأنصار هم أصحاب النخيل والثمار، والصلح سيكون على حساب أرضهم وثمارهم. واستشار أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، لأنهما من المهاجرين في أسرى بدر، ولهما رحم مع الأسرى، وهم أعرف بقومهما. واستشار الأنصار في أمر غزوة بدر ولم يستشر المهاجرين، لأن الاختصاص في هذا الأمر للأنصار الذين بايعوه على نصرته داخل المدينة لا خارجها..

ومن الحكم البالغة في إدارة الرسول أنه إذا تمت الشورى وصدر القرار فلا عودة عنه، فعندما لبس لأمته وعزم يوم أحد قالوا: أقم، فلم يمل إليهم بعد العزم، وقال: «لا ينبغي لنبي يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله»، لأن المشاورة قبل العزم لقوله تعالى: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾، وبذلك ضرب رسول الله ﷺ مثالاً في القيادة الإدارية، بأن القائد إذا اتخذ قراره وعزم على تطبيقه فلا بد أن يمضي قدمًا في التطبيق دون تردد، وألا يفسح المجال لتبديل قراراته، لأن ذلك يجعل رجاله يسمونه بالتردد وعدم الثبات على قرار.

وقد أتقن رسول الله ﷺ فن الشورى اتقانًا متميزًا، واتقن أساليب تطبيقها وطرق تعليمها لمن حوله بخاصة ولأصحابه بعامة وللأجيال من بعد.. فأي مسؤول يتقبل مبادرة رجاله بمشورته، ويتقبل المشورة ويطبقها حتى ولو كانت مخالفة لرأيه الصريح؟ وأي مسؤول لا يتخلى عن استشارة رجاله الذين ثبت له خطأ مشورتهم ويعفو عنهم، ويستغفر لهم، ويعود إلى مشاورتهم من جديد، ولكن انه محمد رسول الله ﷺ.

الشورى في إدارة الخلفاء الراشدين

استقرت الخلافة إلى كل من الخلفاء الراشدين عن طريق الشورى التي تجسدت في بيعة عامة الناس أو أكثريتهم، فخلافة أبي بكر رضي الله عنه قامت على الشورى بطبيعتها وبشكل مباشر.

وخلافة عمر رضي الله عنه وان جاءت بناء على عهد من أبي بكر رضي الله عنه، إلا أنها لم تستقر إلا على أساس من المبايعة العامة، ولولا هذه لما استقرت الخلافة له، ولا هو رضيها لنفسه..فقد طلب أبو بكر رضي الله عنه من المسلمين لما ثقل عليه مرضه، أن يبحثوا لأنفسهم عن خليفة من بعده، وقد خشي عليهم الاختلاف، فوضعوا الأمر بين يديه قائلين: رأيُنا إنما هو رأيك. وعندها أخذ يستشير أعيان الصحابة من أهل الحل والعقد، ويسأل كلاً منهم على انفراد عن رأيه في عمر رضي الله عنه، فلما رأى اتفاقهم على جدارته وفضله طلع على الناس فقال: اني والله ما ألوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، واني قد استخلفت عمر بن الخطاب، فقالوا: سمعنا وأطعنا.

وخلافة عثمان رضي الله عنه، وان كانت محصورة فيما أوصى به عمر رضي الله عنه، إلا أن الاتفاق على عثمان رضي الله عنه لم يتم إلا عن مشورة تامة وبيعة مباشرة.

وخلافة عليّ كرم الله وجهه لم تستقر إلا بعد بيعة معلنة في المسجد، وتمت برضى الكثيرين لا الجميع..

مما يدل على أن الشورى قد تحققت في كل حالة من هذه الحالات، ولكن صور التنفيذ اختلفت، وهذا أمر بدهي. لأن كيفية التنفيذ أمر يختلف

فيه الناس حسب ظروفهم، وتختلف الأساليب كذلك حسب الزمان والمكان، والمهم في آخر الأمر أن تؤدي هذه الأساليب إلى تحقيق مبدأ الشورى، وقد ترك الله سبحانه تحديد طريقة الشورى لعلمه سبحانه أن هذه الطريقة تختلف من بيئة لبيئة أخرى، ومن زمان لزمان، وأن الظروف السائدة في بيئة قد تفرض طريقًا لا يجدى أو لا يتيسر في بيئة أخرى.

وقد كان كل من الخلفاء الراشدين إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله، فان وجد فيه ما يقضي به قضى، وإن علمه من سنة رسول الله ﷺ قضى به، وان لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنة، فان أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم واستشارهم، وعليه فليس ثمة حاجة إلى الشورى في معرض النص الثابت والواضح من القرآن أو من السنة.

فعندما جاءت فاطمة رضي الله عنها فقالت لأبي بكر رضي الله عنه: ميراثي من رسول الله أبي ﷺ، قال أبو بكر رضي الله عنه: أمن الرثة أو من العقد. قالت: فدك وخيبر وصدقاته بالمدينة، أرثها كما يرثك بناتك إذا متّ. فقال أبو بكر رضي الله عنه: أبوك والله خير مني، وأنت والله خير من بناتي، وقد قال رسول الله : «لا نُورثُ، ما تركنا صدقة»[18]. فتعلمين أن أباك أعطاكِها؟ فو الله لئن قلت نعم لأقبلنّ قولك ولأصدّقنك.

وقد أشرنا سابقًا إلى أنه عندما أشار الكثيرون، ومنهم عمر رضي الله عنه، على أبي بكر رضي الله عنه أن لا يوجه أسامة مع جيشه إلى الشام، وكان رسول الله ﷺ قد وجهه إليها ثم توفي، ونار الردة قد أخذت بالقبائل،

---

١٨ - جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص: ٦٩٨، والجزء الرابع، ص: ١٠٤، والجزء التاسع، ص: ٦٣٦. ورواه البخاري ١٢ / ٥ في الفرائض، ومسلم برقم ١٧٦٠ و ١٧٦١ في الجهاد، والموطأ ٢ / ٩٩٣ في الكلام، وأبو داود برقم ٢٩٧٤ في الخراج والإمارة.

رفض أبو بكر رضي الله عنه أن يحل لواء عقده رسول الله ﷺ، كما رفض أن يولي الجيش رجلاً أقدم سناً من أسامة، مع أن الأنصار قد أرسلوا عمر رضي الله عنه إلى أبي بكر رضي الله عنه بذلك، وعندما قال له عمر رضي الله عنه في مسألة مقاتلة مانعي الزكاة: علام تقاتل الناس، وقد قال رسول الله : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها». فأجابه أبو بكر رضي الله عنه: والله لو منعوني عناقاً ـ وفي رواية: عقالاً ـ كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها، ان الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يستشير في تولية العمال والأمراء وفي الأمور العسكرية، وينصح القادة بالشورى، وقد كتب إلى عمرو بن العاص يقول: اني كتبت إلى خالد بن الوليد ليسير إليك مدداً لك، فإذا قدم عليك فأحسن مصاحبته، ولا تطاول عليه، ولا تقطع الأمور دونه، لتقديمي إياك عليه وعلى غيره، شاورهم ولا تخالفهم.

بل إن الخطبة الأولى التي خطبها أبو بكر رضي الله عنه حين تولى الخلافة كانت تدعيماً عملياً قوياً للشورى، وطلباً صريحاً إلى الناس أن يعاونوه برأيهم في شؤون الحكم والإدارة، فقال: اني وليت عليكم ولست بخيركم، فان رأيتموني على حق فأعينوني، وان رأيتموني على باطل فسددوني، اطيعوني ما أطعت الله فيكم، فان عصيته فلا طاعة لي عليكم[19].

---

19 عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر (ابن كثير)، البداية والنهاية، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٣٩، الجزء الخامس، ص: ٢٤٨. انظر أيضاً: محمد حسين هيكل، الصديق أبو بكر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١، ص: ٦٦.

وبالتالي فمفهوم السلطة في الإدارة الإسلامية يختلف عن مفهومها المتداول والمتعارف عليه في اللغة السياسية الحديثة التي تعني وجود طرفين: آمر ومأمور، سيد ومسود، فالناس في الإسلام سواسية كأسنان المشط.

كما افتتح عمر رضي الله عنه عهده بخطبة أعلن فيها التزامه بمبدأ الشورى طالبًا من المسلمين أن يكونوا عونًا له، ورقباء عليه، ومشيرين مسددين، فقال: ... ان رأيتموني على حق فأعينوني، وان رأيتموني على باطل فقوموني.

وأصبحت الشورى في عهد عمر رضي الله عنه أكثر أهمية وأوسع نطاقًا، لأن الدولة اتسعت واتسعت معها الأمور والمسائل الإدارية التي تقتضي المزيد من الشورى. أما المسائل والأحكام التي دلت عليها نصوص ثابتة وواضحة من القرآن أو السنة فلا معنى للرجوع إلى الآراء بشأنها ولا قيمة للآراء في جنب ما تقتضي به تلك النصوص.

وقد اعتمد عمر رضي الله عنه على المتقدمين من الصحابة من أولي العلم والرأي، وكان من عادته إذا أراد المشورة في أمر أن يأمر فينادى: الصلاة جامعة. وكثيرًا ما استشار الأحداث والشباب لحدة عقولهم، والنساء إذا وجد من الأمور ما يعنيهم، وفي ذلك قيل: كانت النازلة ـ الأمر الهام والخطير الذي لا يستطيع الفرد لوحده تحمل مسؤولية البت والإبرام فيه ـ إذا نزلت بأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ليس عنده فيها نص عن الله ولا عن رسوله جمع لها أصحاب رسول الله ﷺ ثم جعلها شورى بينهم[٢٠].

---

٢٠ - شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر (ابن القيم الجوزية)، اعلام الموقعين عن رب العالمين، راجعه وقدم له وعلق عليه طه عبدالرؤوف سعد، الجزء =

واعتمد عمر رضي الله عنه اعتماداً أساسياً على الشورى في اتخاذ القرارات، وكان يقول: لا خير في أمر أبرم من غير شورى.. والرأي الفرد كالخيط السحيل، والرأيان كالخيطين المبرمين، والثلاثة مرار لا يكاد ينتقض.. ومن ذلك تنظيمه للدواوين، واختيار الولاة ونصحه لهم بالاعتماد على الشورى في الإدارة.. بل ان موقفه بشأن أرض العراق ملحمة كبرى في الشورى، فقد كان رأيه عدم توزيع الأرض على الفاتحين، وحجته: لو قسمت الأرضون لم يبق لمن بعدكم شيء، فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض قد انقسمت، وورثت من الآباء وحيزت، وما يكون للذرية والأرامل.. فكان الخليفة يرى باجتهاده أن الأرض ليست من الغنائم في الآية: {واعلموا أنَّما غنمتُم من شيءٍ فأنَّ لله خمسهُ وللرسولِ ولذي القربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ إن كنتمْ آمنتم باللهِ وما أنزلنا على عبدنا ...}[21]. وقد وافق عمر رضي الله عنه على رأيه بعض كبار الصحابة مثل عليّ ابن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم، وخالفه آخرون من كبار الصحابة أيضاً منهم عبدالرحمن بن عوف والزبير بن العوام وبلال بن رباح رضي الله عنهم. حاول عمر رضي الله عنه اقناع مخالفيه برأيه فما اقتنعوا، وهنا لم يلجأ إلى سلطان السلطة، بل جمع الناس بالمدينة للنظر في الأمر، واستقر الرأي على الاحتكام إلى عشرة من الأنصار من ذوي الرأي والبلاء، وقال لهم عمر رضي الله عنه: اني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم فاني واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق، خالفني من خالفني، ووافقني من

= الأول، مكتبة الكليات الأزهرية، (لم يذكر تاريخ النشر)، ص: ٨٤.

٢١ - سورة الأنفال، الآية ٤١.

وافقني، وقد انتهى المؤتمر بالإجماع إلى أن الغنائم التي وردت في الآية يقصد بها المنقول من الأموال[22].

وعثمان رضي الله عنه كان يرى كصاحبيه وجوب لجوء الإمام والقاضي إلى الشورى عندما لا يتبين له الحكم أو يكون في شك منه، أما إذا اطمأن إلى الحكم وأيقن صحة اجتهاده أو علم مستنده من قرآن أو سنة ثابتة فلا يرى وجوب الرجوع إلى الشورى.. وكان عثمان رضي الله عنه يستشير فيما يحزبه من الأمور أو تثور حوله المشكلات من عرفوا برجاحة العقل والمعرفة بطبيعة الأمر، لا سيما في المعضلات السياسية وأمور القضاء والحكم بين الناس، ومن ذلك استشارته أمراء الأجناد عندما ثار أهل الكوفة على أميرها، وهو أمر سياسي، وجمعه أهل الشورى في أمر عبيد الله بن عمر بعد قتله الهرمزان وجفينة وهو أمر قضائي[23]، وكان إذا جلس في مجلس القضاء وجاءه الخصمان قال لأحدهما: ادع عليًا، وقال للآخر: اذهب فادع طلحة والزبير ونفرًا من أصحاب النبي ﷺ، فإذا جاؤوا قال لهما تكلما، فإذا تكلما يقبل على الصحابة، يقول: ما تقولون؟ فان قالوا ما يوافق رأيه أمضاه، وإلا نظر فيه بعد[24].

---

٢٢ - انظر للمؤلف كتاب: إدارة الأفراد، دبي، دار القلم، ١٩٩٠، ص: ٢١٠ - ٢١١.

٢٣ - أشار المهاجرون بقتل عبيدالله بن عمر، وقال جماعة من الناس: قتل عمر بالأمس وتريدون أن تلحقوا به ابنه اليوم؟ ونظر عثمان رضي الله عنه في الأمر ثم ودى القتلى من ماله الخاص. انظر في ذلك: د. البوطي، الشورى في عهد الخلفاء الراشدين، في كتاب الشورى في الإسلام، المرجع السابق، الجزء الأول، ص: ١٥٥.

٢٤ - البيهقي، السنن: ١٠/ ١١٢.

وقد كانت مدة خلافة علي كرم الله وجهه مدة قلاقل وفتن قضاها في (إدارة الأزمات) ساعياً إلى تهدئة الأوضاع وإقناع المتمردين إلى أن استشهد على يد من كانوا من أشد شيعه وأنصاره، ثم أصبحوا من ألد أعدائه. وكان يلجأ إلى من بقي من كبار الصحابة من حوله، فإذا اشتد الأمر وتعقد الخطب جمع الناس فاستشارهم، وكان يقول: لا صواب مع ترك المشورة، وفي المشورة سبع خصال حميدة: استنباط الصواب، واكتساب الرأي، والتحصن من الخطأ، والتحرز من الملامة، والنجاة من الندامة، وألفة القلوب، واتباع الأثر.

وقد انصاع مكرهاً ودرءاً للفتنة يوم صفين، يوم أشار عليه الناس بقبوله التحكيم، ثم تبين بعد ذلك أن الحق الذي كان ينبغي الركون إليه هو ما قد نصح به. مما يدل على أن الرأي الذي يراه أهل الشورى ليس صواباً بالضرورة دائماً، وأن ما ينفرد به الإمام المجتهد البصير بشؤون الحكم والسياسة من الرأي ليس بالضرورة رأياً باطلاً دائماً"[٢٥].

خصائص الشورى

ان الاعتماد على الشورى في اتخاذ القرارات جزء أصيل من منهاج التعاون في سبيل إقامة المجتمع الإنساني، وقد قرر الإسلام مبدأ الشورى، وترك للأمة تقرير الأسلوب الأمثل لتطبيقها، ولتكون صالحة لكل زمان ومكان. ولهذا فانه مع حرص الإسلام على تأكيدها لضمان المصالح، فانه جعلها غير خاضعة لأي تحديد معين في شكلها ونظامها. بمعنى أنه لم

---

٢٥ - د. البوطي، الشورى في عهد الخلفاء الراشدين،المرجع السابق، ص: ١٦٥.

يحصرها في شكل تنظيمي محدد، وإنما ترك الشكل الإداري والتنظيمي لما يرتئيه أهل الشورى في كل عصر فيتخيّروا من السبل التنفيذية ما يرونه الأصلح.

وإقامة الشورى هو انصياع لأمر الله، وجزء من التعبير السلوكي عن العبودية له، لاسيما وأن العبادة لا تنحصر في الشعائر والمناسك أو ما تسمى في الاصطلاح الفقهي بالعبادات[٢٦]، وتلك خاصية ينهض عليها نظام الحكم الإسلامي ويتميز بها عن سائر الأنظمة السياسية والاجتماعية الأخرى.

ولا مكان للشورى في أمر ثبت حكمه بنص من القرآن أو السنة، وكان ذا دلالة واضحة.. فقد قال الله تعالى: ﴿وما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولهُ أمرًا أن يكونَ لهمُ الخيرةُ منْ أمرهمْ ومن يعصِ اللهَ ورسولهُ فقدْ ضلَّ ضلالاً مبينًا﴾[٢٧].

وعندما تكلم أسامة بن زيد مع رسول الله ﷺ في شأن المرأة المخزومية التي سرقت، قال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله»، ثم قام فخطب الناس لأنه يعلم أن وراء أسامة لفيفًا من الصحابة، وبالتالي لم يكن للشورى في مثل هذا الأمر مجال مقبول.

والجدير بالذكر أن السنّة التي يمنع ثبوتها جواز الأخذ بالشورى هي السنة التبليغية التي كانت ثمرة وحي غير متلو تنزل على قلب رسول الله ﷺ بحكم مبرم، ودليل ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا

---

٢٦ - أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، دمشق، دار الفكر، ص: ١٦.

٢٧ - سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكمْ فإن تنازعتمْ في شيءٍ فردوهُ إلى اللهِ والرسولِ ان كنتمْ تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ ...﴾[28] و ﴿فلا وربكَ لا يؤمنونَ حتى يحكموكَ فيما شجرَ بينهمْ ثمَّ لا يجدوا في أنفسهمْ حرجًا مما قضيتَ ويسلموا تسليمًا﴾[29].

ولهذا فلم يكن رسول الله ﷺ يستشير صحابته في حكم تنزل به وحي من الله، وقد أدرك الصحابة ذلك فكانوا يسألونه عن أصل ما يدعوهم إليه أوحي هو، وعند ذلك يذعنون، أم رأي واجتهاد، وعندها يناقشون ويشيرون. وقد سأل الحباب بن المنذر بن الجموح رسول الله ﷺ وقد عسكر ببدر: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل هو الحرب والرأي والمكيدة»، وعندها قال الحباب: هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله.. فتحول رسول الله ﷺ إلى المكان الذي أشار عليه به الحباب[30]. ولو أخبر رسولُ الله ﷺ الحبابَ بأن الأمر وحي من الله لما أشار الحباب بشيء ولأذعن راضياً، بل انه لو أشار بشيء لما قبله رسول الله ﷺ.

ففي صلح الحديبية أملى رسول الله ﷺ كتاب الصلح بينه وبين المشركين دون أن يستشير في ذلك أحداً، وقد بدا للكثيرين أن أكثر بنود كتاب الصلح تنطوي على إجحاف بحق المسلمين بما في ذلك عمر بن

---

٢٨ - سورة النساء، الآية ٥٩.

٢٩ - سورة النساء، الآية ٦٥.

٣٠ - د. عبدالمنعم النمر، الشورى في شؤون البيت والإدارة، الشورى في الإسلام، المجمع الملكي، المرجع السابق، ص: ٦٦١.

الخطاب رضي الله عنه، الذي قال: قلت لرسول الله ﷺ: ألست نبي الله حقًا؟ قال: «بلى». قلت: ألست على حق، وعدونا على باطل؟ قال: «بلى». قلت: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى». قلت: ففيم نعطي الدنية في ديننا إذن؟. فقال له: «أني رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصري». ثم سأل عمر رضي الله عنه أبا بكر رضي الله عنه فقال له: يا ابن الخطاب انه رسول الله، ولن يعصي ربه ولن يضيعه أبداً.

في مثل هذا الموقف الخطير انصرف رسول الله ﷺ عن مشاورة أصحابه، ولو كان المجال فيه للرأي لاستشارهم، ولكنه الوحي.

أهل الشورى

لا بد من التركيز على ما تتعلق به الشورى عند الحديث عن أهل الشورى من حيث صفاتهم وعددهم، بغية التمييز بين جزئيات المصالح والأحكام وبين اختيار الخليفة، لأنه وان كان ثمة قاسم مشترك بينهما، فان وراء هذا القاسم فوارق ومميزات.. ففي جزئيات الأحكام والقضايا اهتم الخلفاء الراشدون بالشورى تأسيًا بإدارة رسول الله ﷺ.

ويروي البيهقي في سننه أن أبا بكر رضي الله عنه كان إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله، فان وجد فيه ما يقضي به قضى بينهم، وان علمه من سنة رسول الله ﷺ قضى به، وان لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنة، فان أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم واستشارهم[٣١]، وكان منهم عمر وعثمان وعلي وعبدالرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد

---

٣١ - البيهقي، السنن: ١٠/ ١١٤.

ابن ثابت رضي الله عنهم، وما كان يخلو من هؤلاء أو من بعضهم مجلس شورى، وفي الأمور المستعصية كانوا يلجأون إلى بعض المهاجرين والأنصار ممن عرف بالعلم والتقوى، وإلى الناس أحياناً توخياً للآراء والخبرات.

ولا بد من توفر صفة العلم وصفة الأمانة ـ التي تجمعها مقومات العدالة ـ أساساً إلى جانب صفات كثيرة أخرى. ولا يقصد بالعلم معناه الفقهي فحسب بل عموم ما تتوقف على معرفته مصلحة المسلمين. ولهذا فقد اكتفى عمر رضي الله عنه بمشورة رجل واحد هو حمل بن مالك عندما سأل عن من عنده علم عن النبي ﷺ في الجنين، وقد كان الأمر متعلقاً بديَّته. ولكنه في أمر الوباء، وقد خرج إلى الشام دعا المهاجرين فاستشارهم ثم الأنصار فاستشارهم وبعض الرجال من مهاجرة الفتح، ثم نادى عمر رضي الله عنه بالناس: اني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه[٣٢]، كذلك فانه لم يقطع بمسألة سواد العراق حتى استعرض في ذلك رأي جمهرة الناس وشتى فئاتهم.

أما عندما يكون الأمر متعلقاً باختيار الخليفة، فقد اصطلح علماء الشريعة الإسلامية أو أكثرهم على تسمية الفريق الذي يتولى مهمة الاختيار باسم أهل الحل والعقد أو أهل الاختيار، وهو اسم لم يطلق على أهل الشورى في الأمور المتعلقة بالقضايا والأحكام الجزئية، ويذهب بعض المفسرين إلى أنهم المقصودون بقوله تعالى: {وأولي الأمر منكم} في الآية: ﴿ ... أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولِي الأمرِ منكمْ ... ﴾[٣٣].

---

٣٢ - البخاري، صحيح البخاري: ٤/ ١٠. مسلم، صحيح مسلم: ٧/ ٢٩.

٣٣ - سورة النساء، الآية ٥٩.

والصفات المطلوبة في هذا الفريق هي صفات تتحقق في المجموع، ولا يطلب تحقيقها بالضرورة في كل فرد، كما هو الشأن في صفات أهل الشورى. وبالإضافة إلى تحليهم بالأمانة والعدالة ، فانهم يجب أن يمثلوا مجموع خبرات ومعارف الأمة ومستوياتها الاجتماعية والعلم والحكمة[34] والوجاهة والشوكة ـ العصبية ـ[35].

وقد كان التنفيذ العملي لاختيار الخليفة بعد رسول الله ﷺ أن تداول، من أطلق عليهم فيما بعد، أهل الحل والعقد، واستقر رأيهم على أبي بكر رضي الله عنه ثم بويع له مبايعة عامة.

والجدير بالذكر أن بعض الباحثين يرى أن تنصيب الإمام فرض كفاية منوط بجموع الأمة، ولما كان يتعذر اشتغالها بجميع أفرادها بفروض الكفاية، فقد نشأت فكرة الاكتفاء بفريق يقوم مقامها[36]، وثمة من يرى أن الأصل يتمثل في قوله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم...﴾، فإذا ما شاء المجتمع الإسلامي العدول عن مبدأ أهل الحل والعقد في اختيار الخليفة إلى مبدأ الانتخاب المباشر فليس في الشريعة ما يمنع من ذلك، بل على العكس فيها ما يؤيده[37].

---

٣٤ - علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (الماوردي)، الأحكام السلطانية، القاهرة، مكتبة الحلبي، ص: ٦.

٣٥ - عبدالرحمن بن محمد الحضرمي المالكي (ابن خلدون)، المقدمة، القاهرة، المطبعة الأميرية، ص: ١٠٩.

٣٦ - علي علي منصور، نظام الحكم والإدارة في الشريعة، القاهرة، مكتبة مخيمر، ص: ٢٣٢.

٣٧ - ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، دار النفائس، ١٩٨٧، ص: ٢٣٤. انظر أيضا: د. البوطي، =

حكم الشورى ومدى إلزامها

نتناول بهذا الصدد حالة الحاكم الذي تواجهه قضية هامة أو مصيرية تتعلق بإدارة شؤون الدولة، فهل الشورى واجبة وجوباً شرعياً على الحاكم المسلم قبل اتخاذ القرار، أم أنها مندوبة وليست واجبة؟.. وإذا استشار الحاكم الأمة فرأى أهل الشورى رأياً يخالف رأي الحاكم، فهل الشورى في هذه الحالة معلمة أم ملزمة؟.

١ ـ أدلة وجوب الشورى:

اعتبر بعض العلماء والفقهاء أن الشورى واجبة على الحاكم، يأثم بتركها. وبوسع الأمة عزله وتحرير نفسها من استبداده، وإلا فان الأمة تأثم لتركها واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولأن فيما روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان»[٣٨].

واتفق هذا الفريق من العلماء والفقهاء على أن الشورى واجبة على الحاكم، فقال بعضهم: بأن الحاكم الذي لا يستشير أهل العلم والدين ينبغي

= خصائص الشورى ومقوماتها، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص: ٥٤٥.

٣٨ - هذه رواية مسلم برقم ٤٩ في الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان. وفي رواية النسائي: «من رأى منكم منكراً فغيَّره بيده فقد برِئ، ومن لم يستطع أن يغيره بيده فغيره بلسانه فقد برِئ، ومن لم يستطع أن يغيره بلسانه فغيره بقلبه فقد برئ، وذلك أضعف الإيمان».

على الأمة أن تخلعه[39] .. ومنهم من قال: ... واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم في أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها[40] .. وقال بعضهم: المشاورة أصل الدين، وسنة الله في العالمين، وهو حق على عامة الخليقة من رسول الله ﷺ إلى أقل خلق بعده في درجاتهم[41] .. ومنهم من قال: فانه إذا أمر الله بها النبي ﷺ نصاً جلياً، مع أنه أكمل الخلق، فما الظن بغيره؟[42] .. وقال آخر: لا غنى لولي الأمر عن المشاورة، فان الله تعالى أمر بها نبيه ﷺ[43].

وأكد لفيف من العلماء المحدثين وجوب الشورى، فمنهم من قال: "والأمير عليه أن يسوس البلاد بمشاورة أهل الحل والعقد، أعضاء مجلس

---

٣٩ - عبدالحق بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبدالله بن ابراهيم الأنصاري والسيد عبدالعال السيد ابراهيم، الطبعة الأولى، الدوحة، ١٩٨٢، الجزء الثالث، ص: ٣٩٧.

٤٠ - محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧، الجزء الرابع، ص: ٢٥٠، والقول لابن خويز منداد المالكي.

٤١ - محمد بن علي، ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق د. علي سامي النشار، منشورات وزارة الإعلام العراقية، ١٩٧٧، الجزء الأول، ص: ٣٠٢، والقول لابن العربي القاضي المالكي.

٤٢ - المرجع السابق، ص: ٣٠٣، والقول للإمام النووي محيي الدين صاحب شرح صحيح مسلم ورياض الصالحين والأذكار والأربعين النووية..

٤٣ - ابن تيمية، السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية، المرجع السابق، ص: ١٣٥.

الشورى، وهو أمير ما دام مزوداً بثقة الأمة[44]"، و: "بل يجب عليه أن يشاور في أمر المسلمين من يكون حائزاً لثقة عامتهم، ويكون الناس على اطمئنان من اخلاصه[45]"، و: "... وخامسة قواعد الدولة الإسلامية حتمية تشاور قادة الدولة وحكامها مع المسلمين والنزول على رضاهم ورأيهم، وإمضاء نظام الحكم بالشورى[46]"، ومنهم من قال: ".. ومن هذا كانت الشورى أصلاً في إدارة الشؤون الجماعية، وكان تحري الحق أو الموافقة في المصلحة من ألزم الواجبات على صاحب الأمر[47]"، وقال آخر: "والناظر في آيات القرآن الكريم وصحاح السنة يتبين أن الحكومة الإسلامية دستورية، وأن الأمر فيها ليس خاصاً بفرد وأنما هو للأمة ممثلة في أولي الحل والعقد، لأن الله سبحانه جعل أمر المسلمين شورى بينهم..، وإذا كان المسلمون أهملوا تنظيم هذه الشورى حتى ذهبت روحها وجرؤ بعضهم أن يقول إنها مندوبة لا محتومة وأغفلوا المسؤولية حتى استقل بأمرهم ولا تهم..[48]"، ومنهم من قال:

---

٤٤ - أبو الأعلى المودودي، نظام الحياة في الإسلام، النظام السياسي، ترجمة محمد عاصم حداد، الطبعة الثانية، دمشق، دار الفكر الإسلامي، ١٩٥٨، ص: ٣٦.

٤٥ - أبو الأعلى المودودي، تدوين الدستور الإسلامي، ترجمة محمد عاصم حداد، الطبعة الثانية، ص: ٥٨.

٤٦ - أبو الأعلى المودودي، الخلافة والملك، تعريب أحمد إدريس، الطبعة الأولى، دار القلم، ١٩٧٨، ص: ٤١.

٤٧ - محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، الطبعة الرابعة، القاهرة، دار الشروق، ١٩٦٨، ص: ٤٥٨ - ٤٦٠.

٤٨ - عبدالوهاب خلاف، السياسة الشرعية، نظام الدولة في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية، القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٣٥٠هـ، ص: ٢٥ - ٢٩.

"والإسلام يرد نظام الحكم في الجماعة إلى الشورى، لتستطيع الجماعة أن تختار الحكام الصالحين للقيام بأمر الله في الجماعة ولتستطيع الجماعة أن تعزلهم كلما عجزوا عن أداء واجباتهم، أو حادوا عن الطريق القويم، كما أن نظام الشورى يحول بين الحكام وبين الاستئثار بشؤون الجماعة، إذ يجعل الجماعة رقيبة على الحكام الذين اختارتهم، وقد جاء الإسلام بنظام الشورى وطبقه المسلمون قبل أن تعرفه الدول الغربية بأحد عشر قرنًا على الأقل، وقد فرض هذا النظام بقوله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾، وبقوله: ﴿... وشاورهمْ في الأمرِ ...﴾"[49].

وقد استدل القائلون بوجوب الشورى في حق الحاكم بالكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين، فقوله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين﴾[50]، قد نزل بعد غزوة أحد، وما جرى فيها من أحداث وآلام، وكان القرار في الخروج مبنيًا على الشورى، ومع ذلك نزلت الآية تأمر رسول الله ﷺ بأن يعفو عن المؤمنين وأن يستغفر لهم ويشاورهم. وإذا كان الله قد أمر رسوله بالشورى، فالأمر في حق غيره من الحكام والسلاطين آكد وأوجب، لا سيما وأن الأمر يفيد الوجوب ما لم ترد قرينة تصرفه إلى الندب، وصيغة

---

٤٩ - عبدالقادر عودة، الإسلام وأوضاعنا القانونية، الطبعة الخامسة، القاهرة، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ١٩٧٧، ص: ١٢٢ - ١٢٣. ومثل ذلك في كتابه: المال والحكم في الإسلام، ص: ٨٧ - ٨٨. وفي كتابه: الإسلام وأوضاعنا السياسية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص: ١٩٣ - ١٩٤.

٥٠ - سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

﴿وشاورهم﴾ صيغة أمر[٥١].

وقوله تعالى: ﴿والذينَ استجابوا لربهمْ وأقاموا الصلاةَ وأمرُهمْ شورى بينهمْ ومما رزقناهمْ ينفقونَ﴾[٥٢] دلالة على أن الشورى واجبة لاقترانها بإقامة الصلاة، وقد قيل ان ما يدل على جلالة موقع الشورى ذكرها مع الايمان واقامة الصلاة، مما يدل على أننا مأمورون بها[٥٣]، فضلاً عن أن مجيء النص بصيغة الخبر يؤكد كونها فرضاً حتماً[٥٤]. وقد قال

---

٥١ - فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، القاهرة، المطبعة البهية، ١٩٣٨، الجزء التاسع، ص: ٦٧. وانظر أيضاً: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، القاهرة، دار الشعب، ١٩٦٤، الجزء الرابع، ص: ١٦٦. وأيضاً محمد بن يوسف بن علي الأندلسي الغرناطي، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، الطبعة الثانية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣، الجزء الثاني، ص: ٤٧.
وتجدر الإشارة بأن بعض من يرى أن الشورى مندوبة يعتبر أن الآية المذكورة ليست عامة في الصحابة بل خاصة بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويروي الامام البيهقي في سننه الكبرى ذلك عن ابن عباس، مع ان الآية خطاب لرسول الله ﷺ أن يعفو عن الصحابة الذين ارتكبوا المخالفات وانشغلوا بجمع الغنائم، مع أمره بأن يستغفر لهم وأن يشاورهم، فضلاً عن أن رسول الله ﷺ بعد غزوة أحد لم يكن ليقصر الشورى على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بل كان يستشير كثيراً من الصحابة سواهما. وكان ﷺ يستشير في كثير من الأمور الحربية والإدارية التي تخضع لتجارب البشر واهتماماتهم في الحياة الدنيا، وقد قال ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»، في حادثة تأبير النخل، كما أخذ برأي سلمان الفارسي بحفر الخندق في غزوة الأحزاب.

٥٢ - سورة الشورى، الآية ٣٨.

٥٣ - أبو بكر أحمد بن علي الرازي (الجصاص)، أحكام القرآن، بيروت، دار الكتاب العربي، (عن طبعة مصورة بمطبعة الأوقاف الإسلامية، ١٣٢٥هـ)، الجزء الثالث، ص: ٣٨٦.

٥٤ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص: ٣٨.

صاحب الظلال في تفسيره لهذه الآية: والتعبير يجعل أمرهم كله شورى، لصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة، والنص هو نص مكي قبل قيام الدولة الإسلامية، فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين، انه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم بعد.... ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكرًا، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها، انه طابع ذاتي للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية، وهي من ألزم صفات القيادة[55]. وذهب بعض الباحثين إلى القول: الشورى دعامة من دعائم الإيمان، وصفة من الصفات المميزة للمسلمين، سوّى الله بينها وبين الصلاة والإنفاق في قوله: ﴿والذينَ استجابوا لربهمْ وأقاموا الصلاةَ وأمرُهمْ شورى بينهمْ ومما رزقناهمْ ينفقونَ﴾[56]، فجعل للاستجابة لله نتائج بيَّن لنا أبرزها وأظهرها وهي اقامة الصلاة والشورى والانفاق.

---

٥٥ - سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة/ بيروت، دار الشروق، المجلد الخامس، ١٩٨٠، ص: ٣١٦٥.

٥٦ - سورة الشورى، الآية ٣٨.
وتجدر الإشارة إلى أن ثمة من يرى أن هذه الآية جاءت تتحدث عن صفات الأنصار، ولا شيء يدل على الوجوب في قوله سبحانه: ﴿... وأمرهم شورى بينهم ...﴾، بل يدل على الندب، وأن الأمر هنا كقوله ﷺ: «البنت تستأمر» تطييباً لقلبها لا أنه واجب.. وثمة من يقول: لو كانت الشورى واجبة لفعلها الرسول ﷺ كل مرة. انظر في ذلك: مهدي فضل الله، الشورى طبيعة الحاكمية في الإسلام، الطبعة الأولى، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٤، ص: ١٠٦..
مع أن الآية مكية من سورة مكية هي سورة الشورى، والقرآن المكي يتحدث عن الجماعة المؤمنة، وما يجب أن تتحلى به من صفات إيمانية وسلوكية، ولا يتحدث عن أهل المدينة قبل إسلامهم.. =

وإذا كانت الشورى من الإيمان فانه لا يكمل إيمان قوم يتركون الشورى، ولا يحسن إسلامهم إذا لم يقيموا الشورى اقامة صحيحة. ومادامت الشورى صفة لازمة للمسلم لا يكمل إيمانه إلا بتوافرها، فهي إذن فريضة إسلامية واجبة على الحاكمين والمحكومين، فعلى الحاكم أن يستشير في كل أمور الحكم والإدارة والسياسة والتشريع، وكل ما يتعلق بمصلحة الأفراد أو المصلحة العامة، وعلى المحكومين أن يشيروا على الحاكم بما يرونه في هذه المسائل كلها، سواء استشارهم أولم يستشرهم[٥٧].

وقوله تعالى: ﴿ولتكن منكمْ أمةٌ يدعونَ إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عنِ المنكرِ ...﴾[٥٨] تنطوي على وجوب الشورى كما ذهب إلى ذلك محمد عبده في قوله: ... ومن أعمال هذه الأمة الأخذ على أيدي الظالمين، ... والمعروف أن الحكومة الإسلامية مبنية على أصل الشورى وهذا صحيح،

= كما ان النصوص من السنة الشريفة كثيرة عن رسول الله ﷺ تنطق بصريح العبارة أنه لا يجوز للأب أن يجبر ابنته على الزواج، سواء كانت ثيباً أو بكراً. ولقد خيّر رسول الله ﷺ المرأة التي أجبرها أبوها على الزواج من ابن أخيه أن تفسخ العقد، فقالت: أجزت ما صنع والدي، ولكني أحببت أو أردت أن أعلم النساء أنه ليس للآباء من الأمر شيء. أما القول بأن الرسول ﷺ قد أمره ربه بالشورى تطييباً لنفوس أصحابه ورفع أقدارهم، ولذا فهي مندوبة قول مردود، لأنه لو كان معلوماً عندهم أنهم إذا استفرغوا مجهودهم في استنباط ما شووروا فيه وصواب الرأي فيما سئلوا عنه، ثم لم يكن ذلك معمولاً فهل في ذلك تطييب نفوسهم ورفع أقدارهم؟ انظر في ذلك: أبو بكر الرازي (الجصاص)، أحكام القرآن، المرجع السابق: ٢ / ٤١ .. علماً بأن رسول الله ﷺ ما ترك الشورى في مسألة إلا مسألة نزل فيها وحي.

٥٧ - عبدالقادر عودة، الإسلام وأوضاعنا السياسية، المرجع السابق، ص: ١٩٣.

٥٨ - سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

والآية أدل دليل عليه، ودلالتها أقوى من دلالة: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾، وأقوى من دلالة: ﴿وشاورهم في الأمر﴾، فإن أمر الرئيس بالمشاورة يقتضي وجوبه عليه، ولكن إذا لم يكن هناك ضامن يضمن امتثاله للأمر فماذا يكون إذا هو تركه؟.. وأما هذه الآية فانها تفرض أن يكون في الناس جماعة ﴿أمة﴾ يتولون الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو عام في الحكام والمحكومين، ولا معروف أعرف من العدل، ولا منكر أنكر من الظلم[59].

وفي قوله تعالى: ﴿... فاسألوا أهلَ الذكرِ إن كنتمْ لا تعلمونَ﴾[60] وجه آخر من وجوه الاستدلال على أن الشورى واجبة، إذ من المستحيل وجود حاكم عالم بأمور الدنيا كلها.

والجدير بالذكر أن ثمة من الأدلة في أحاديث الرسول ﷺ ما يؤكد وجوب الشورى ويحض عليها، ومن ذلك ما رواه البيهقي عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وشاورهم في الأمر﴾، قال رسول الله ﷺ: «أما ان الله ورسوله لغنيان عنها، ولكن جعلها الله رحمة لأمتي، فمن استشار لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غياً»[61]. وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: قلت يا رسول الله: ان نزل بنا أمر ليس فيه بيان أمر ولا نهي، فما تأمرني؟ قال ﷺ: «شاوروا فيه الفقهاء والعابدين، ولا تقضوا فيه رأي خاصة»[62]. وقوله ﷺ: «ما تشاور قوم قط إلا هدوا إلى أرشد أمرهم». وعن

---

٥٩ - محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ص: ٣٧.

٦٠ - سورة النحل، الآية ٤٣.. وسورة الأنبياء، الآية ٧.

٦١ - السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ٢/ ٩٠.

٦٢ - الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ١/ ١٧٨.

الحسن البصري قول رسول الله ﷺ: «ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم»[٦٣].

كما أنه يوجد في السنة الفعلية ما يدل على وجوب الشورى، ومن ذلك استشارة الرسول ﷺ أصحابه في غزوة بدر وفي أسراهم ـ قبل نزول حكم الأسرى في القرآن ـ، وقبوله رأي الحباب بن المنذر في الموقع، واستشارته الصحابة في غزوة الخندق، وفي الأذان، وسبي هوازن، وحصار الطائف.. وقد أشرنا في مكان سابق إلى حرص الخلفاء الراشدين على الشورى، تمسكًا بسنة رسول الله ﷺ وأسلوبه في إدارة الأمور.

٢ ـ مدى الزامية الشورى:

إذا استشار الحاكم الأمة امتثالاً لأمر الله، فرأى أهل الشورى رأيًا يخالف رأي الحاكم، فماذا يفعل؟ هل يصر على رأيه، وعندها تكون الشورى معلمة. أم يتنازل عن رأيه ويأخذ برأي أهل الشورى، وعندها تكون الشورى ملزمة.

أ ـ الشورى معلمة:

ذهب بعض العلماء والباحثين إلى أن الشورى معلمة في حق الحاكم، فلا يلزم برأي الأغلبية، وأدلتهم في ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فبما رحمةٍ منَ اللهِ لنتَ لهمْ ولوْ كنتَ فظًا غليظَ القلبِ لانفضوا منْ حولكَ فاعفُ عنهمْ واستغفرْ لهمْ وشاورهمْ في الأمرِ فإذا

---

٦٣ - شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٩، ١٧/ ١٢.

عزمتَ فتوكلْ على اللهِ إنَّ اللهَ يحبُّ المتوكلينَ﴾[٦٤]، يفيد فيما يرون إلى استقلال الرسول ﷺ بالرأي بعد الاستشارة بقوله تعالى: ﴿... فإذا عزمتَ فتوكلْ على اللهِ ...﴾، ويرون أن المعنى يفيد أن يستعرض الرسول ﷺ آراء أصحابه ثم يختار من بينها ما يراه حقًا أو صوابًا أو مصلحة، فيعزم على إنفاذه غير متقيد برأي فريق معين ولا برأي عدد محدود، لا برأي أكثرية ولا برأي أقلية، فإذا عزم توكل على الله، وأنفذ العزم على ما ارتآه[٦٥]، وفي ذلك يقول قتادة: أمر الله تعالى نبيه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويتوكل على الله لا على مشاورتهم، والعزم هو الأمر المروّى المنقح، وليس ركوب الرأي دون روية عزمًا[٦٦].

٢ - يستدلون بأن الشورى معلمة من قول رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «لو اجتمعتما - وفي لفظ: لو اتفقتما - في مشورة ما خالفتكما»[٦٧]، فيفهمون الحديث الشريف على أن رسول الله ﷺ

---

٦٤ - سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

٦٥ - انظر في ذلك:
- أحمد محمد شاكر، عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٧، الجزء الثالث، ص: ٦٤.
- د. حسن هويدي، الشورى في الإسلام، الكويت، مكتبة المنار الإسلامية، ١٩٧٥، ص: ٨ - ٩.
- الطاهر بن عاشور، التنوير والتحرير، تونس، الدار التونسية، ١٩٧٠، الجزء الرابع، ص: ١٥١.

٦٦ - القرطبي، المرجع السابق، الجزء الرابع، ص: ٢٥٢.

٦٧ - ابن كثير في تفسيره: ٢/ ١٤٣.

يأخذ برأيهما حتى لو خالفهما فيه جمهور الصحابة[٦٨]، مع انه قلما نجد رأيًا اتفقا عليه وخالفهما فيه جمهور الصحابة بحكم مكانتهما الرفيعة. كما يستدلون بأن الشورى معلمة لأن رسول الله ﷺ كان يستشير ولا يأخذ برأي الأغلبية، بل قد يترك الاستشارة أصلاً كما فعل في صلح الحديبية وقتال بني قريظة، وهذا استدلال بعيد لأن الصلح ببنوده وحي من الله، والشورى في الأمور الاجتهادية، ومع ذلك يقولون: لو أن الأمر كان بوحي لما تجرأ أحد من المسلمين أن ينازع فيه، وهو قول صحيح لو كان أحد يعلم بذلك، ولم يكونوا يعلمون قبل أن يتساءل عمر رضي الله عنه حتى أنه قد خاف على نفسه بعد أن علم أنه كان بوحي وقد ناقش فيه.. كما ثبت في الصحيح أن أمر بني قريظة لم يكن موضوعًا للشورى، بل كان أمرًا إلهيًا بلغه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد أراك قد وضعت السلاح، فإن الملائكة لم تضع السلاح، إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، فإني سائر إليهم فمزلزل بهم[٦٩].

٣ ـ ومن بعض الشواهد التي استدل بها من يرى أن الشورى معلمة وليست ملزمة للحاكم إعلان أبي بكر رضي الله عنه الحرب على المرتدين مخالفًا في ذلك الجميع أو الأكثرية، وانفاذه جيش أسامة..

---

٦٨ - يقول الألوسي في تفسيره: والمراد بقوله: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ جميع أصحابه، ورأيت بعضهم قال: المراد به أبو بكر وعمر، ولعمر الله انهما أهل لذلك، وأحق به، ولكن لا يقتصر ذلك عليهما، فقصره عليهما دعوى. انظر في ذلك: محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي، روح المعاني: ٤ / ١٠٧.

٦٩ - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المرجع السابق، الجزء السابع، ص: ٤٠٨.

والحقيقة أن أبا بكر رضي الله عنه تمكن بحجته من إقناع الجميع بما فيهم عمر رضي الله عنه، إذ الزكاة ركن من أركان الإسلام، فقد قال الله تعالى: ﴿ ... فإن تابوا وأقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ فخلُّوا سبيلهمْ ... ﴾[٧٠]، ويؤكد هذا حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»[٧١].. وبالتالي ان الأمر منصوص عليه، والشورى تكون في غير المنصوص عليه، إذ الشورى اجتهاد، ولا اجتهاد في مورد النص[٧٢].

أما عن انفاذ جيش أسامة فالأمر منصوص عليه أيضاً، فقد عقد رسول الله ﷺ لواءه، فهذا قرار نبوي. وقد قال الله تعالى: ﴿ وما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولهُ أمرًا أن يكونَ لهمُ الخيرةُ منْ أمرهمْ ... ﴾[٧٣].

٤ ـ يتصور من يرى أن الشورى معلمة أنه بذلك يبتعد عن النمط الغربي الداعي إلى الحكم بالأغلبية تطبيقًا للديمقراطية، وهي مصطلح غربي

---

٧٠ - سورة التوبة، الآية ٥.

٧١ - رواه البخاري في صحيحه.

٧٢ - د. محمد عبدالقادر أبو فارس، حكم الشورى ومدى الزامها، من كتاب الشورى في الإسلام، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص: ٧٩١ - ٧٩٤.

٧٣ - سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

وليس نظاماً إسلامياً[٧٤].

ويرد القائلون بأن الشورى ملزمة بأن عمر رضي الله عنه قد جعل ابنه عبدالله سابع الذين رشحهم للخلافة، والذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، على أن لا يرشح ابنه للخلافة وانما يكون مرجحاً عند تعادل الأصوات، وبالتالي فالأخذ برأي الأغلبية ليس منافياً للإسلام، وليس رأي الأكثرية عورة يجب نزعها عن الإسلام ونسبتها إلى

---

٧٤ - وتجدر الإشارة إلى أن الشورى نظام إلهي، وهي تربية إسلامية، وعلاقة أخلاقية مستمرة بين الراعي والرعية، تقوم على التقوى والإخلاص، أو ما يسمى بالمصطلح الإسلامي بالإحسان، وهو: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

على حين أنه في النظم الغربية تظل علاقة المحكوم بالحاكم علاقة موقوتة للتوفيق بين المصالح، وللحاكم ميزة الحكم والسلطة التي قد تطغى على حرية الفرد وإرادته السياسية، كما أن الفرد في النظم الغربية مقيد بما يحدده القانون ويجيزه الرأي العام، فهو مسيّر من خارج ذاته لا من ذاته نفسها.

والشورى جزء من النمط الإسلامي في حياة المجتمع المسلم، لأنها تكليف شرعي، وهي من عناصر التكامل بين الراعي والرعية، فهي نظام لا يفصل الدين عن الدنيا، وإنما يربط بينهما، على أن النمط الغربي نشأ عن تنظير الفلاسفة الغربيين الذين قاوموا سيطرة الكنيسة ـ التي دأبت على البحث عن مجالات سياسية لإظهار سلطتها فاتحدت مع الملوك والنبلاء لأنهم الطرف الأقوى ـ فجاء ذلك النمط كرد فعل لتمكين الفرد من حريته، ولذلك فصل بين الدين والدنيا.

ان الحكم في الإسلام ليس تمييزاً أو تشريفاً، وانما هو مسؤولية وتكليف، والحاكم الراعي غير متميز عن الرعية، فقد قاضى الشعب أمام القضاء خلفاءه وملوكه، وخضع هؤلاء لحكم القضاء وأذعنوا لتنفيذ أحكامه. وبالتالي فالشورى تنطوي على نظام رقابي أشد حزماً من النظم الغربية لأنها مدعمة بالنص الشرعي، فهي رقابة غير مداهنة أو حذرة أو وجلة، وهي رقابة معترف بها من الحاكم والمحكوم، فقد قال عمر رضي الله عنه: ان رأيتم فيّ اعوجاجا فقوموني.

وبذلك فقد سبق الإسلام المذاهب الوضعية التي لم تعرف استشارة الأمة إلا في أواخر القرن الثامن عشر، ولم تكن مشاركة الشعوب إلا عن طريق ضغط ثوري متعجل.

الغرب[٧٥]، فضلاً عن أنه لا تحرم الاستفادة مما عند الأمم إذا ثبت نفعه للمسلمين من الأمور الفنية أو الإدارية، مثل تنظيم الدواوين وغيرها، ما لم يتعارض مع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ب ـ الشورى ملزمة:

بمعنى أن يأخذ ولي الأمر برأي الأغلبية وان خالف رأيه[٧٦]، ويستدل القائلون بهذا الرأي بأدلة من الكتاب والسنة، ومن ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فبما رحمةٍ منَ اللهِ لنتَ لهمْ ولوْ كنتَ فظًا غليظَ القلبِ لانفضوا منْ حولكَ فاعفُ عنهمْ واستغفرْ لهمْ وشاورهمْ في الأمرِ فإذا عزمتَ فتوكلْ على اللهِ ...﴾[٧٧]، يفيد وجوب الشورى الكاملة التي تنتهي بنتيجتها التي تقررها الجماعة أو الأكثرية لا الأقلية أو الفرد، لأن رأي الجماعة هو الرأي الفاصل المرجح على غيره. ومعنى هذا أن وجوب الشورى يتضمن الالتزام برأي الأكثرية لأنه هو الذي يتمم الوجوب ويحققه، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ويفهم من يرى أن الشورى ملزمة أن العزم هو الأخذ برأي الأكثرية ثم الاعتماد على الله في التوفيق..

---

٧٥ - عبدالرحمن عبدالخالق، الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي، الكويت، دار القلم، ١٩٧٥، ص: ١٠٤.

٧٦ - يقول عبدالقادر عودة بهذا الصدد: فأساس الشورى أن يحكم الشعب طبقًا لرأي الأغلبية، ومعنى ذلك أن أغلبية الشعب إذا أجمعت على رأي كان رأيها قانونًا أو حكمًا تجب له الطاعة والاحترام. انظر كتابه: التشريع الجنائي الإسلامي، بيروت، دار الكتاب العربي، ص: ٣٩.

٧٧ - سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

وقد ذهب صاحب المنار في تفسيره ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله ...﴾ إلى أنه إذا عزمت بعد المشاورة في الأمر على إمضاء ما ترجحه الشورى فتوكل على الله... دم على المشاورة وواظب عليها، كما فعلت قبل الحرب في هذه الوقعة (غزوة أحد) وان أخطأوا الرأي فيها، فان الخير كل الخير في تربيتهم على المشاورة... إن على الإمام أن يأخذ برأي الأغلبية، وإن كان يخالف رأيه؛ وإن كان يظن أن رأيه هو الأصوب لما في ذلك من النفع للمسلمين، فإن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد في الأكثر، والخطر على الأمة في تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشد وأكبر[78].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ ... وأمرهم شورى بينهم ... ﴾ يوجب الشورى على وجهها الأكمل والأعم.. والأخذ بنتيجة هذه الشورى من التزام رأي المشيرين ان اجتمعوا والأخذ برأي أغلبيتهم ان اختلفوا، وعلة هذا الوجوب صيانة الأمة من احتمال خطأ الحاكم أو استبداده.

٣ ـ ان رسول الله ﷺ في حديث رواه الترمذي في سننه عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: «لو كنت مؤمِّرًا أحدًا من غير مشورة منهم لأمَّرت عليهم ابن أم عبد» (عبدالله بن مسعود).. وعن علي كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال عن العزم في قوله تعالى ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾:«مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم»[79]. وعن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ان أمتي لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم خلافًا فعليكم بالسواد الأعظم».. فقد استشار

---

٧٨ - تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، المرجع السابق: ٤/ ١٩٩ و ٤/ ٢٠٥.

٧٩ - ابن كثير، التفسير: ٢/ ١٤٣، والسيوطي، الدر المنثور: ٢/ ٩٠.

رسول الله ﷺ في غزوة بدر وأحد وحصار الطائف، وفيها أن رسول الله ﷺ قد رأى فك الحصار عن الطائف والانسحاب، ولكن الصحابة رأوا غير ذلك، وكرهوا الانسحاب، ورغبوا في الاستمرار في الحصار، فلم يستبد ﷺ برأيه، ولم يلزمهم به رغم صوابه وصدقه، فلما أصابتهم جراح قال ﷺ: «إنا قافلون غداً إن شاء الله،» فأعجبهم. فضحك رسول الله ﷺ[80].

٤ ـ كان الخلفاء الراشدون يستشيرون الأمة، بل ان البيعة لكل منهم، والخطاب الأول لكل منهم أيضاً كان تاكيداً للشورى. والأمر كان كذلك في جمع القرآن وتدوينه، وقتال المرتدين، واختيار التاريخ الهجري، ومعالجة الأمر في سواد العراق بعد الفتح حيث انتهى الرأي إلى أن أرض العراق فيء عام لجميع المسلمين[81]، وكانت الشورى في حياتهم نظاماً لاتخاذ القرارات الإدارية.

٥ ـ إن رأي الجماعة محصلة مجموعة قدرات عقلية ومؤهلات علمية وتجارب، وبالتالي فالرأي الذي ينبثق عنها أقرب إلى الصواب من رأي الفرد. كما أن الحاكم إذا استشار ولم يأخذ برأي الجماعة فانه يُفقد الشورى معناها ويفرغها من محتواها ويجعلها شكلية، وغالباً ما يؤدي اهمال رأي الأمة إلى مناهضة الإجماع، واستبداد الحاكم.

* * *

---

٨٠ - العسقلاني، المرجع السابق: ٩/ ١٠٦.

٨١ - د. محمد عبدالقادر أبو فارس، النظام السياسي في الإسلام، الطبعة الثانية، عمان/ الأردن، دار الفرقان، ١٤٠٧هـ، ص: ٨٣٥ ـ ٨٣٩.. انظر أيضاً: أبا يوسف، الخراج، المرجع السابق، ص: ٢٦ ـ ٢٩.

الفصل الرابع

إدارة الأفـراد

تمهيد – نظرة الإسلام إلى العمل – اختيار العاملين – في الأجور والحوافز – في العلاقات الإنسانية – الضوابط الأخلاقية العامة – صفات رجل الأعمال المسلم – صفات العامل – حقوق وواجبات رب العمل والعامل.

تمهيد

تعتبر إدارة الأفراد من أهم إدارات المنظمة لأنها تتولى مهام تخطيط القوى العاملة وما ينطوي عليه من تصميم الهيكل التنظيمي وتوصيف وتحليل الوظائف ووضع الفرد المناسب في المكان المناسب والاختيار والتعيين ووضع سياسات الأجور والتنمية الإدارية والعلاقات الإنسانية. وبالتالي فان واجبات هذه الإدارة تتركز على عنصر العمل.

وقد تناولنا في هذا الفصل بإيجاز موضوع إدارة الأفراد بالتركيز على عنصر العمل وقيمته في الإسلام وعوامل الاختيار الأساسية للعاملين وما يتصل بسياسات الأجور والحوافز وقواعد التعامل في إطار العلاقات الإنسانية. ثم حاولنا عرض بعض الصفات التي يتعين على رب العمل والعامل المسلم أن يتحلى بها في إطار الضوابط الأخلاقية العامة، ثم ألمحنا بإيجاز إلى حقوق وواجبات رب العمل والعامل.

نظرة الإسلام إلى العمل

اعتبر الإسلام العمل قيمة بحد ذاته ترتبط بكرامة الإنسان، وتحقق الحكمة من خلقه ووجوده، وبذلك يصل العمل إلى مستوى العبادة.

كما حضّ رسول الله ﷺ على العمل في كثير من أحاديثه الشريفة ومنها ما ورد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل»[1]. وليس هناك أبلغ ولا أروع من هذا القول للدلالة على قيمة العمل حتى آخر لحظة من لحظات الحياة وقد قامت الساعة.

وقد أكد رسول الله ﷺ الارتباط بين العمل والمحافظة على كرامة الإنسان بقوله: «لأن يأخذ أحدكم أحبُلَهُ ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»[2]، و «إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغني بها عن الناس» و «من بات كالاً من عمله بات مغفوراً له»[3].

---

١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، بيروت، دار الكتب العلمية، (د. ت)، المجلد الثالث، ص: ١٩١ . وعن أنس بلفظ آخر: «إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فليغرسها» الفسيلة: النخلة الصغيرة قبل الغرس، الكامل للجرجاني، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٤، المجلد الثالث، ص: ٢٢٩٤.

٢ - أخرجه البخاري عن الزبير بن العوام ٣/ ٢٦٥ في الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، وفي البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده. ورُوي الحديث بألفاظ متقاربة عند مسلم والنسائي والترمذي.

٣ - فتح الباري: ٤/ ٢٤٤

والعمل مصدر قيمة الإنسان ومناط مسؤوليته، قال الله تعالى: ﴿وأن ليسَ للإنسانِ إلا مَا سَعَى﴾[4]، والتفاوت فيما بين الناس مرده إلى أعمالهم إذ يقول الله تعالى: ﴿ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا وما ربُّكَ بغافلٍ عمَّا يعملونَ﴾[5].

والإنسان بعمله هو الذي يضفي على المادة قيمتها مما يجريه من استخراج للفلزات المعدنية والمواد، أو تحويل بالتصنيع والتركيب، لأن المادة لا قيمة لها بذاتها إذا لم يقترن بها عمل. ثم إن الإنسان هو الذي يضفي بعمله على المنتجات منفعة الزمان والمكان من خلال الشراء والتخزين والبيع والنقل... بعد أن تكون العمليات الصناعية قد أنجزت وأعطت السلع تامة الصنع.

والعمل هو وسيلة الكسب وإشباع الحاجات والمعاش، قال الله تعالى: ﴿ولقدْ مكناكُمْ في الأرضِ وجعلنَا لكمْ فيها معايشَ ...﴾[6]، ولهذا لا بد من السعي في طلب الرزق مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿هوَ الذي جعلَ لكمُ الأرضَ ذلولاً فامشوا في مناكبِهَا وكلُوا من رزقِهِ ...﴾[7] شريطة أن يكون ذلك السعي بطريق حلال، قال رسول الله ﷺ: «طلب الحلال واجب على كل مسلم».. وقد كرّم الإسلام الكسب فاعتبره عملاً في سبيل الله؛ فيروى أنه مر على النبي ﷺ رجل قوي يسعى في الطريق، فقال له أصحابه: يا رسول

---

٤ - سورة النجم، الآية ٣٩.

٥ - سورة الأنعام، الآية ١٣٢.

٦ - سورة الأعراف، الآية ١٠.

٧ - سورة الملك، الآية ١٥.

الله لو كان هذا في سبيل الله ـ يقصدون قوته ونشاطه ـ فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج على نفسه يعطيها فهو في سبيل الله..».

والعمل هو من الأسباب المباشرة للتقدم الاقتصادي والاجتماعي؛ فبه تتحقق القيمة المضافة، وبه يتحقق الانتاج والوفرة فيعم الرخاء ويزدهر الاقتصاد الذي يؤدي بدوره إلى القوة والمنعة.

ولهذا فقد شجع الإسلام على العمل في شتى مجالات الانتاج، ففي الزراعة يقول رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[8]، و «من نصبَ شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر كان له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل». كما شجع على الصناعة، وهي مفتاح التقدم الاقتصادي، فقال ﷺ: «خير الكسب كسب الصانع إذا نصح» وعلى التجارة، وهي التي تضفي على المنتجات منافع الزمان والمكان، وأنزل من يعمل فيها بصدق واستقامة منزلة رفيعة فقال ﷺ: «التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء»[9].

ومن تتبع آيات الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم يتبين أنه قد قرن

---

٨ - رواه البخاري ٥ / ٢ في الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، وفي الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ومسلم برقم ١٥٥٣ في المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، والترمذي برقم ١٣٨٢ في الأحكام، باب ما جاء في فضل الغرس.

٩ - أخرجه الترمذي.

الإيمان بالعمل الصالح في كثير من الآيات[١٠]، كما خصّ المؤمنين الذين يعملون الصالحات برعايته.. ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ و ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ و ﴿فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ و ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ و ﴿طوبى لهم وحُسنُ مآب﴾

---

١٠ - * في سورة البقرة: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ..﴾/ ٢٥. و ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾/ ٦٢. و ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾/ ٨٢. و ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾/ ٢٧٧. * وفي سورة آل عمران: ﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين﴾/ ٥٧. * وفي سورة النساء / ٥٧ و ١٢٢. * وفي سورة المائدة/ ٩ و ٦٩ و ٩٣. * وفي سورة الأعراف/ ٤٢. * وفي سورة يونس/ ٤ و ٩. * وفي سورة هود/ ١١ و٢٣. * وفي سورة الرعد/ ٢٩. * وفي سورة إبراهيم/ ٢٣. * وفي سورة الكهف/ ٣٠ و٨٨ و١٠٧. * وفي سورة مريم/ ٦٠ و٩٦. * وفي سورة طه/ ٧٥ و٨٢ و١١٢. * وفي سورة الأنبياء/ ٩٤. * وفي سورة الحج/ ١٤ و٢٣ و٥٠ و٥٦. * وفي سورة النور/ ٥٥. * وفي سورة الفرقان/ ٧٠ و٧١. * وفي سورة الشعراء/ ٢٢٧. * وفي سورة القصص/ ٦٧ و٨٠. * وفي سورة العنبكوت/ ٧ و٩ و٥٨. * وفي سورة الروم/ ١٥ و٤٥. * وفي سورة لقمان/ ٨. * وفي سورة السجدة/ ١٩. * وفي سورة سبأ/ ٤ و٣٧. * وفي سورة فاطر/ ٧. * وفي سورة ص/ ٢٤ و٢٨. * وفي سورة غافر/ ٤٠ و٥٨. * وفي سورة فصلت/ ٨. * وفي سورة الشورى/ ٢٢ و٢٦. * وفي سورة الجاثية/ ٢١ و٣٠. * وفي سورة محمد/ ٢ و١٢. * وفي سورة الفتح/ ٢٩. * وفي سورة التغابن/ ٩. * وفي سورة الطلاق/ ١١. * وفي سورة الانشقاق/ ٢٥. * وفي سورة البروج/ ١١. * وفي سورة التين/ ٦. * وفي سورة البينة/ ٧. * وفي سورة العصر/ ١-٣.

و ﴿لهم جنات الفردوس نزلاً﴾ و ﴿سيجعل لهم الرحمن ودّاً﴾ و ﴿يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ و ﴿لنبوئنهم من الجنة غرفًا﴾ و ﴿في روضة يحبرون﴾ و ﴿لهم جنات النعيم﴾ و ﴿لهم أجر غير ممنون﴾ و ﴿ويزيدهم من فضله﴾ و ﴿كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ و ﴿أولئك هم خير البرية﴾...

ولذلك فإنه في نطاق إدارة الأفراد يمكن القول بأن المسلم مطالب بعمل الصالحات جميعًا.. لنفسه ولمنشأته وللمجتمع بصدق وإيمان ورقابة ذاتية، وبإتقان في أداء الواجبات.

اختيار العاملين

يتطلب اختيار العاملين - وفق قواعدعلم إدارة الأعمال - التعرف على الاحتياجات، وتعيين مصادر الاختيار، ثم إجراء الاختيار على أساس من إجراءات متعارف عليها علميًا.

وفيما يتعلق بالتعرف على الاحتياجات من العاملين، فإن هذا الأمر يكون وارداً ضمن خطة القوى العاملة بالمنشأة، تلك الخطة التي تعتمد على الهيكل التنظيمي وما يحتويه من وظائف محددة التخصصات، بحيث يكون العاملون في كل تخصص معروفين بالعدد، ومحددة مؤهلاتهم وخبراتهم وكافة خصائصهم مما يرد عادة في توصيف الوظائف بالمنشأة، حيث يوضع لكل وظيفة وصف يوضح مكانة الوظيفة في الهيكل التنظيمي. مما يبين الجهاز الإداري الذي تتبعه، والأجهزة التي تشرف عليها، وواجبات شاغل الوظيفة، وسلطاته، وعلاقته مع الأجهزة الأخرى، والشروط التي يجب أن تتوافر فيه.

وبعد التعرف على الاحتياجات، فإن الخطوة التالية هي تعيين المصادر التي يلجأ إليها جهاز شئون العاملين لكي يختار المرشحين لشغل الوظائف الشاغرة بالمنشأة. وذلك إما من خلال المصادر الداخلية عن طريق الترقية أو النقل.. أو من خلال المصادر الخارجية؛ ومن ثم دراسة الطلبات وإجراء الامتحانات والمقابلات وسواها من الإجراءات التنفيذية.

إن أبلغ ما قيل في الاختيار قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ... إنَّ خيرَ من استأجرتَ القويُّ الأمينُ﴾[11] . فالولاية لها ركنان: **القوة** و **الأمانة**. وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام: ﴿ ... إنكَ اليومَ لدينَا مكينٌ أمينٌ﴾[12] ، وقال الله تعالى في صفة جبريل: ﴿إنهُ لقولُ رسولٍ كريمٍ. ذي قوةٍ عندَ ذي العرشِ مكينٍ. مطاعٍ ثمَّ أمينٍ﴾[13] .

والقوة في كل ولاية بحسبها، فثمة قوة في إدارة الحرب تختلف عنها في الإدارة السياسية أو في إدارة منظمة. ويرى ابن تيمية أن القوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام[14] . **والأمانة** ترجع إلى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمنًا قليلاً، وترك خشية الناس[15] .

---

١١ - سورة القصص، الآية ٢٦ .

١٢ - سورة يوسف، الآية ٥٤ .
مكين : ذو مكانة رفيعة وأمرٍ نافذٍ. وقيل : صاحب قدر وشرفٍ.

١٣ - سورة التكوير، الآيات ١٩ ٢١ .

١٤ - ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، المرجع السابق، ص : ٢٠ .

١٥ - قال الله تعالى : ﴿ ... فلا تخشوا الناس واخشوْن ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلاً، =

واجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: اللهم أشكو إليك جَلَدَ الفاجر، وعجز الثقة. فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها؛ فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة، قُدِّم أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما ضرراً فيها[16].

وتجدر الإشارة إلى أن جميع الأعمال تحتاج القوة والأمانة فهما من الصفات الأساسية إلا أنه إذا كان أداء العمل والنهوض بواجباته التنفيذية يحتاج القوة أولاً فيجب تقديمها عند ذلك تلبية لمتطلبات العمل كما هو الأمر في إدارة الحرب. وإن كانت الحاجة في العمل إلى الأمانة أشد قُدِّم الأمين كما هو الأمر في المسؤولية عن الأموال. أما في القضاء فيُقدَّم الأعلم الأورع[17] الأكفأ. فإذا كان أحدهما أعلم والآخر أورع، قُدِّم الأورع فيما قد يظهر حكمه ويُخاف فيه الهوى والميل مع النفس؛ أما فيما يدق حكمه ويُخاف فيه الاشتباه قُدِّم الأعلم. ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل عند حلول الشهوات».

ولا بد في بعض الحالات من الأخذ بالاعتبار الموقف الإداري ذاته، فالإدارة هي إدارة موقف. وهذا ما نلاحظه عندما أمَّر رسول الله ﷺ عمرو ابن العاص على من هم أفضل منه في غزوة ذات السلاسل استعطافًا لأقاربه عندما وجَّهه إليهم. وكان أبو ذر الغفاري من أكثر الناس أمانة وصدقًا ومع ذلك فقد قال له رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا،

= ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ سورة المائدة، الآية ٤٤.

١٦ - ابن تيمية، المرجع السابق، ص: ٢١.

١٧ - الأورع: الأتقى.

وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تأمَّرَنَّ على اثنين ولا تَوَلَّينَّ مالَ يتيم»[18]، مع أنه قد رُوي: «ما أظلَّت الخضراء، ولا أقلَّت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر»[19].

والاختيار أمانة، فيجب اختيار الأصلح للعمل. قال رسول الله ﷺ: «من وَلِيَ من أمر المسلمين شيئًا فولَّى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله». وفي رواية: «من قلَّد رجلاً عملاً على عصابة[20]، وهو يجد في تلك العصابة أرضى منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين»[21]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من وَلِيَ من أمر المسلمين شيئًا فولَّى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين.. وعليه فلا بد من اختيار الأمثل فالأمثل في كل منصب بحسبه بعد اجتهاد تام بحثًا واستقصاءً.

وعلى القائم بالاختيار أن يتجرَّد عن كل مصلحة ذاتية فيتنزه عن الهوى، وخاصة عندما يكون الاختيار لوظائف الإدارة العليا، لأنها تعنى برسم السياسات ووضع الخطط وتنطوي على واجبات تنظيمية وتوجيهية ورقابية. وقد أولى رسول الله ﷺ عملية الاختيار أهمية قصوى فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» قيل يا رسول الله: وما إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّد

---

١٨ - رواه مسلم.

١٩ - الخضراء: السماء، الغبراء: الأرض، اللهجة: اللسان: الكلام.

٢٠ - العصابة: الجماعة من الناس.

٢١ - رواه الحاكم في صحيحه، وروى بعضهم أنه من قول عمر لابن عمر روى ذلك عنه.

(أُسند) الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

وتجدر الإشارة إلى أنه قد يكون اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، وقد تغلب في الفرد إحدى الصفتين على الأخرى، لذلك يُنظر في متطلبات العمل لتكشف أيًا من الصفتين هي الأهم له والأولى من الأخرى فيه.

ومع هذا فإذا اختل ميزان الاختيار في بعض الوظائف، وإذا لم يمكن إلا ذلك بعد البحث والاستقصاء فلا تثريب على من اختار إذا تحرّى أداء الأمانة بعد الاجتهاد التام فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فاتقوا اللهَ ما استطعتمْ ...﴾[22] و ﴿لا يُكلفُ اللهُ نفساً إلا وُسْعَها ...﴾[23]. فإذا تم اختيار الأكفياء من الرؤساء صلح شأن الإدارة، كما أن الرئيس يختار الأكفأ من المعاونين.. وهكذا يُختار المنفذون القادرون على حمل عبء العمل والنهوض بتبعاته وواجباته.

في الأجور

اهتم الإسلام بأجر العامل وأحاطه بالكثير من الضمانات، كما كفل حق رب العمل في الحصول على نتائج العمل بحيث يتحقق التوازن بين الحق والواجب.

وينهى الإسلام عن تشغيل العامل قبل تعريفه بأجره، لأن الأجر من أهم الأشياء في حياته.. فهو مورده الأول وربما الأوحد. فمعيشته هو ومن

---

٢٢ - سورة التغابن، الآية ١٦.

٢٣ - سورة البقرة، الآية ٢٨٦ ، وُسْعها : طاقتها وما تقدر عليه.

يعول، بضرورياتها وكمالياتها، مرتبطة بالأجر. قال رسول الله ﷺ: «من استأجر أجيراً فليسم له أجرته»[24]، وقال أيضاً: «من استأجر أجيراً فليؤاجره بأجر معلوم إلى أجل معلوم»[25]. ذلك أن رسول الله ﷺ يعلم أن إعلام العامل بمقدار أجره ومدته فيه حافز له على العمل واطمئنان نفسي. وكذلك فالعامل لا يأخذ إذ يكلف بعمل أكثر من أجره، قال رسول الله ﷺ:من استعملناه على عمل ورزقناه رزقًا فما أخذ بعد ذلك فهو غلول»[26].

كما حدد الإسلام التكليف بالعمل ضمن حدود الطاقة لا بأقصاها بغية المحافظة على القدرة على الاستمرار، فقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هم اخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبَس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم»[27].. وهذا مبدأ عام في التعامل مع العامل أساسه الأخوة والعدل

---

٢٤ - سنن النسائي كتاب رقم ٣٥ باب ٤٤ . الشوكاني، نيل الأوطار، ج ٥ ص: ٣٢٩ . ابن حجر ، بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ص: ١١٣ .

٢٥ - ابن رشد (الجد)، المقدمات الممهدات ج ٢ ، طبعة دار الغرب، ص: ١٦٦ .

٢٦ - أخرجه أبو داود: ٢٩٤٣ في الخراج والإمارة والفيء، باب: في أرزاق العمال. وذكره القرطبي في تفسيره: ٤/ ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

٢٧ - الخول: حشمُ الرجل وأتباعه، واحدهم: خائل وهو الراعي. وفي رواية: «فليعنه عليه» أخرجه البخاري ومسلم. وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا أتى أحدكم خادمُه بطعام، فإن لم يُجْلِسه معه، فليناوله لقمة أو لقمتين، أو أكلة أو أكلتين، فإنه ولي حرّه وعلاجه» الأُكلة بضم الهمزة: اللقمة وبفتحها: المرة الواحدة من الأكل. وفي رواية الترمذي: «إذا كفى أحدَكم خادمُه طعامه: حرّه ودخانه، فليأخذه بيده، فليقعده معه، فإن أبى، فليأخذ لقمة فليطعمه إياها». انظر جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء الثامن، ص: ٤٩ ٥٢ .

والدعوة إلى المساواة مع الذات والعون إذا كان في العمل شدة أو صعوبة، فلا تكليف إلا بالمستطاع مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿لا يُكلفُ اللهُ نفساً إلا وسعها ...﴾[٢٨].

وبالإضافة لتسمية الأجر بتعيين مقداره وتحديد أجل العمل، أكد الإسلام ضرورة التعجيل في دفع الأجر فقال رسول الله ﷺ: «أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه»[٢٩]، وهذا يدرأ ما يدخل في نفس العامل من ريبة وتخوّف. كما أكد الإسلام واجب دفع الأجر لأن الأداء يدخل في مجال العقود التي أمر الله سبحانه بالوفاء بها، قال تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا أوفُوا بالعقودِ ...﴾[٣٠] و ﴿وأوفوا بعهدِ اللهِ إذا عاهدتم ...﴾[٣١] و ﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تأكلوا أموالكُم بينكم بالباطلِ ...﴾[٣٢] و ﴿إنَّ اللهَ يأمركُمْ أن تؤدوا الأماناتِ إلى أهلهَا ...﴾[٣٣] و ﴿... فإنْ أمنَ بعضُكُم بعضاً فليؤدِ الذي اؤتمنَ أمانتهُ وليتقِ اللهَ ربَّهُ ...﴾[٣٤].. وهي آيات بينات على وجوب الوفاء بشروط العقد كلها باعتباره نوعاً من العهد.. والعهد يستلزم الوفاء، لأن عدم الوفاء يدخل في نطاق أكل أموال الناس بالباطل، ويدخل أيضاً في

---

٢٨ - سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

٢٩ - الصحاح: أبواب الإجارة، ورواه ابن ماجه في سننه، ج ٢، ص: ٨١٧، الترغيب والترهيب، ج ٣، ص: ٥٨، السيوطي في الجامع الصغير، ج ١، ص: ١٧٥.

٣٠ - سورة المائدة، الآية ١.

٣١ - سورة النحل، الآية ٩١.

٣٢ - سورة النساء، الآية ٢٩.

٣٣ - سورة النساء، الآية ٥٨.

٣٤ - سورة البقرة، الآية ٢٨٣.

نطاق خيانة الأمانة. وقد قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي[٣٥] ثم غدر، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً واستوفى منه العمل ولم يوفِّه أجره»[٣٦]، وبذلك ضمن الإسلام للعامل أن يستوفي أجره الذي هو أحد الحقوق المقررة له دون أن يُظلم ودون أن تضيع ثمرات جهده وعمله.

ولم يقتصر الإسلام في موضوع الأجر على مقداره وأجله وتأكيد أدائه فحسب، بل اهتم أيضاً بالجانب الإنساني فيه، بحيث يسع الأجر متطلبات الحياة وتكاليف المعيشة. على حين شهد الغرب ظلماً اجتماعياً أصاب العامل في معيشته وفي إنسانيته.. لا من حيث عدد ساعات العمل فحسب وإنما في ظروف العمل القاسية كالعمل في المناجم حتى للأطفال، وصناعات التعدين وصناعات النسيج. وهو ظلم اجتماعي مستمر حتى الآن بسبب الاعتماد على آلية السوق في تحديد الأجر بحيث لم تتمكن التنظيمات النقابية العمالية من رفع الحيف عن العامل أمام جشع أصحاب رأس المال وحرصهم على جني الأرباح، مع أتون التضخم النقدي وارتفاع تكاليف المعيشة التي تزيد أحوال العاملين سوءاً.

أما الإسلام فقد أكد حق العامل في الحصول على متطلبات العيش الكريم، حيث قرر من حيث المبدأ أن: «لا ضرر ولا ضرار»[٣٧]، وأن المال لا ينبغي أن يكون للأغنياء وحدهم يستفردون به، قال الله تعالى: ﴿... كيْ لا

---

٣٥ - أي حلف باسمي وعاهد، أو أعطى الأمان باسمي وبما شرعته.

٣٦ - أخرجه البخاري ٤ / ٣٤٦ في البيوع، باب إثم من باع حراً.

٣٧ - أخرجه مالك في القضاء: ٣١. وأحمد في المسند: ٥ / ٣٢٧. والحاكم في المستدرك. والبيهقي في السنن. وابن ماجه في الأحكام: ٢٣٤٠ ـ ٢٣٤١. =

يكونَ دولةً بينَ الأغنيـاءِ منكمْ ...﴾[38]، ومن ثم حدد رسـول الله ﷺ مطالب الفرد بقوله: «من ولي لنا عمـلاً وليس له منزل فليتـخذ له منزلاً، أو ليست له زوجة فليتزوج، أو ليس له خادم فليتخذ له خادماً، أو ليست له دابة فليتخذ له دابة»[39]، وبالتـالي ينبغي أن يكفي الأجر تغطيـة النفقـات للعامل في مسكن يؤويه، وزوجة يسكن إليها، وخادم يقضي حاجاته، ووسيلة انتقال بين عمله ومسكنه.

وبذلك فإن تقدير الأجر لا ينطوي على جهالة مفضية إلى نزاع، لأن قدر الحاجة وأجر المثل معروفان، ويبقى التفاوت في الأجر تبعًا لطبيعة العمل وكفاءة العامل وخبرته ومهارته ومؤهله الدراسي... وما سواها من العوامل المحددة للأجر العادل.

هذا، وتجدر الإشارة أن رعاية الدولة في الإسلام، وهو ما ورد من حديث رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته ...»[40] الحديث، هذه الرعاية تشمل :

١ ـ توفير فرص العمل، والقضاء على البطالة وصولاً إلى مستوى التشغيل الكامل.

٢ ـ مراعاة أن يتناسب أجر العامل مع متطلبات المعيشة، فلا يترك ذلك

= والدارقطني، المنتقى: ج ٦، ص: ٤٠ . المسند: ج ٥، ص: ٣٢٧، فيض القدير: ج ٦، ص: ٤٣٢ . الأشباه والنظائر لابن نجيم بشرح الحموي: ج ١، ص: ١١٨ . الأشباه والنظائر للسيوطي، ص: ٨٣.

٣٨ - سورة الحشر، الآية ٧.

٣٩ - أبو داود في المسند: ج ٣، ص: ١٢١، طبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٢. وكتاب الأموال لأبي عبيدة، ص: ٣٣٨.

٤٠ - رواه البخاري ومسلم.

لقانون العرض والطلب. ولا بأس من أن يزداد الأجر في حالة التضخم النقدي بمقدار يعادل نسبة ما هبط من قيمة النقد.

٣ ـ تأمين كفاية العامل، لا سيما كثير العيال، الذي لا يكفيه أجره العادل، لأن الضمان الاجتماعي واجب على الدولة.

والجدير بالذكر أن الإسلام قد وضع حلاً يتلاءم مع العدالة فقرر فساد العقد للاضطرار وإعطاء العامل أجر المثل، قال الله تعالى: ﴿ ... ولا تبخسوا الناسَ أشياءهُمْ ... ﴾[٤١]، فإذا اضطر العامل إلى ما يسد رمقه هو وأفراد أسرته فاستغله صاحب العمل بأقل من أجر مثله فالواجب رفع البدل إلى مقداره تحقيقاً للعدالة لأن: بيع المضطر وشراؤه فاسد، ولأن: الضرر يُزال. وبذلك حمى الإسلام العامل وإن قبل أجراً دون كفايته تحت ضغوط الحاجة[٤٢]. كما أنه في حالة فساد العقد لا يسقط الأجر لفساده فللعامل في حالة الإجارة الفاسدة أجر المثل[٤٣].

---

٤١ - سورة الأعراف، الآية ٨٥.

٤٢ - محمد المبارك، تدخل الدولة الاقتصادي في الإسلام، في الاقتصاد الإسلامي، بحوث مختارة من المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي، جدة، جامعة الملك عبدالعزيز، ١٩٨٠، ص: ٢٠٠ وما بعدها.

٤٣ - يقول الكاساني: إن أجر المثل يجب في المزارعة الفاسدة وإن لم تخرج الأرض شيئاً بعد أن استعملها المزارع.. انظر في ذلك: الكاساني: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ج ٦، ص: ١٨٣. تبيين الحقائق، ج ٥، ص: ١٤٣. ابن عابدين: رد المحتار على الدر المختار، ج ٥ ص: ٥٣. وقد نصت المادة ٤٦٢ من مجلة الأحكام العدلية العثمانية على أن: فساد الإجارة ينشأ بعضه عن جهالة البدل وبعضه عن فقدان شرائط الإجارة. ففي الصورة الأولى يلزم أجر المثل بالغاً ما بلغ، وفي الصورة الثانية يلزم أجر المثل بشرط أن لا يتجاوز الأجر المسمى. =

في الحوافز

أحاطت الشريعة الإسلامية بأنواع الحوافز جميعها، وهي على نوعين: حوافز دنيا وحوافز آخرة، فضلاً عن أنها مادية ومعنوية، وإيجابية وسلبية.

وقد تضمن القرآن الكريم آيات كثيرة تحضّ على عمل الخير وترغّب فيه وتنهى عن اقتراف الشر، قال الله تعالى: ﴿فمن يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يرهُ. ومن يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً يرهُ﴾[٤٤]. وقال سبحانه: ﴿من جاءَ بالحسنة فلهُ عشرُ أمثالهَا ومن جاءَ بالسيئةِ فلا يجزى إلا مثلهَا وهمْ لا يُظلمونَ﴾[٤٥] و ﴿... إنَّا لا نضيعُ أجرَ منْ أحسنَ عملاً﴾[٤٦] و ﴿... إنَّ الذينَ يكسبونَ الإثمَ سيجزونَ بما كانوا يقترفونَ﴾[٤٧] و ﴿ذلكَ بما قدمتْ أيديكمْ وأنَّ اللهَ ليسَ بظلامٍ للعبيدِ﴾[٤٨].

= هذا، وقد أفاض الفقهاء رحمهم الله في دراسة قضايا الأجر فتناولوا بالشرح مدى حق العامل في حبس العين بعد الفراغ حتى يقبض الأجر، ولا يحتاج في هذا إلى حكم حاكم.. وعن أثر التلف الناتج عن أمر غالب لا حيلة له فيه على الأجر.. وحالات مرض العامل مرضاً يعجزه عن أداء العمل بالكلية مدة العقد.. وحالات امتناع العامل عن إتمام العمل دون عذر، وميّز بعضهم بين حالة إمكانية الانتفاع بما عمل أو تعذر ذلك.. كما تناول بعضهم ملحقات الأجر كالطعام والكسوة والسكنى... .

٤٤ - سورة الزلزلة، الآيتين ٧ و ٨.

٤٥ - سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

٤٦ - سورة الكهف، الآية ٣٠.

٤٧ - سورة الأنعام، الآية ١٢٠.

٤٨ - سورة الأنفال، الآية ٥١.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لواليه على مصر مالك بن الحارث في خطاب وجهه إليه: ولا يكونَنَّ المحسن والمسيء عندك بمنزلة سَوَاء فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة، وألزِم كلاً منهم ما ألزم نفسه. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إحدى خطبه: ... فمن يحسن نزده، ومن يسيء نعاقبه.. .

وقد استخدم رسول الله ﷺ الحوافز في مواقف كثيرة لحث الناس وإثارة حماسهم، فمن ذلك مثلاً قوله ﷺ: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له» تحفيزاً على استصلاح الأراضي وزراعتها. وكان يقطع القطائع ويعطي من الصدقات لمن يريد تأليف قلوبهم وتحفيزاً لهم على ترغيب قومهم في الإسلام، وقال في ذلك: «إني لأعطي قوماً أتألف ظلعهم (عيبهم) وجزعهم، وأركن قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى»، حيث ينطوي هذا الحديث على الحافز المادي والحافز المعنوي.

ومن الحوافز أيضاً أن الله سبحانه وتعالى قد ربط بين الإيمان والعمل كشرط يترتب عليه الثواب في كثير من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿والذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ أولئكَ أصحابُ الجنةِ هُمْ فيها خالدونَ﴾[49] و ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحاتِ أولئكَ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ﴾[50] و ﴿والذينَ آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّلَ على محمدٍ وهوَ الحقُّ من ربهمْ كفَّرَ عنهمْ سيئاتهمْ وأصلحَ بَالَهُمْ﴾[51].

---

٤٩ - سورة البقرة، الآية ٨٢.

٥٠ - سورة هود، الآية ١١.

٥١ - سورة محمد، الآية ٢.

ولا ريب أن الحافز الديني يحرك دوافع الفرد للعمل ويشحذ همته لانجازه طمعًا في مرضاة الله. وقد فرّق الله سبحانه وتعالى بين من يعمل الصالحات وبين من يقترف السيئات ويفسد في الأرض، قال الله تعالى: ﴿أمْ نجعلُ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ كالمفسدينَ في الأرضِ ...﴾[٥٢] و ﴿وما يستوي الأعمى والبصيرُ والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ولا المسيءُ قليلاً ما تتذكرونَ﴾[٥٣] و ﴿أمْ حسبَ الذينَ اجترحوا السيئاتِ أن نجعلهمْ كالذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ سواءً محياهمْ ومماتُهُمْ ...﴾[٥٤].

في العلاقات الإنسانية

تلعب العلاقات الإنسانية دوراً هامًا في الإدارة لأنها من الأدوات الرئيسية في التوجيه. وهي تعتمد على طبيعة السلوك الإداري في تقدير كل عامل وتنمية مواهبه وإمكاناته وخبراته واعتباره قيمة عليا في حد ذاته. وهو سلوك يقوم على الاحترام المتبادل بين المديرين والمنفذين وبين العاملين بما يحقق التفاهم والشعور بالانتماء إلى المنظمة، مع إعادة توجيه سلوكهم الفردي والجماعي على أساس قيم ودوافع وأنماط قيادية أفضل وظروف عمل أحسن.

ويتوقف نجاح المدير في العلاقات الإنسانية على مدى قدرته على كسب احترام مرؤوسيه، مما يتطلب منه أن يكون قدوة صالحة لهم، كما

---

٥٢ - سورة ص، الآية ٢٨.

٥٣ - سورة غافر، الآية ٥٨.

٥٤ - سورة الجاثية، الآية ٢١.

يتوقف على حرصه على إشباع حاجاتهم النفسية والاجتماعية وأسلوبه في توجيههم وتصويب أخطائهم وحسن التعامل معهم.. ومن روائع توجيه الله سبحانه وتعالى بهذا الصدد قوله: ﴿ادعُ إلى سبيلِ ربكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة وجادلهم بالتي هيَ أحسنُ ...﴾[55].

فقد دعا الإسلام إلى حسن المعاملة والتعاون، قال الله تعالى: ﴿... وتعاونُوا علـى البـرِّ والتقـوى ولا تعاونـوا علـى الإثـمِ والعدوانِ ...﴾[56] و ﴿والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضهم أولياءُ بعضٍ يأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عنِ المنكرِ ...﴾[57]، واعتبر المسلم أخًا للمسلم بكل ما تنطوي عليه هذه الأخوة من معان أو يترتب عليها من التزامات، فقال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كُرْبة فرَّج الله عنه بها كربة من كُرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[58].

كما نظم الإسلام علاقات الناس وحدد أنماط السلوك السوي، فدعا إلى التآخي والعدل والصدق والإخلاص في العمل، وإلى البر والرحمة والإحسان، وإلى الصبر والتواضع وقضاء حوائج الناس... وإلى غير ذلك

---

٥٥ - سورة النحل، الآية ١٢٥.

٥٦ - سورة المائدة، الآية ٢.

٥٧ - سورة التوبة، الآية ٧١.

٥٨ - أخرجه أبو داود عن عبدالله بن عمر برقم ٤٨٩٣ في الأدب، باب المؤاخاة، ورواه البخاري ٥ / ٧٠ في المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، ومسلم برقم ٢٥٨٠ في البر والصلة، باب تحريم الظلم، ورواه الترمذي برقم ١٤٨٦ في الحدود، باب ما جاء في الستر على المسلم. وزاد رزين: «ومن مشى مع مظلوم حتى يُثْبت له حقَّه ثبَّت الله قدميه على الصراط يوم تزِلُّ الأقدام».

من الصفات والقيم والمثل العليا بما يصلح الفرد ويصلح المجتمع... صفات ملزمة للرئيس والمرؤوس في العمل. وقد جاءت في ذلك آيات كريمة تؤكد ذلك وتدعو إليه فمنها قوله تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ادفعْ بالتي هيَ أحسنُ فإذا الذي بينكَ وبينهُ عداوةٌ كأنهُ وليٌ حميمٌ﴾[59] و ﴿خذِ العفوَ وأمرْ بالعرفِ وأعرضْ عنِ الجاهلينَ﴾[60] و ﴿يا أيها الذينَ آمنوا اتقوا اللهَ وكونوا معَ الصادقينَ﴾[61] و﴿إنَّما يفتري الكذبَ الذين لا يؤمنونَ بآياتِ الله وأولئكَ همُ الكاذبونَ﴾[62] و ﴿ليجزيَ اللهُ الصادقينَ بصدقهمْ ويعذبَ المنافقينَ إن شاءَ أو يتوبَ عليهمْ ...﴾[63] و ﴿يا أيها الذينَ آمنوا إن جاءكمْ فاسقٌ بنبإٍ فتبينُوا أن تصيبوا قومًا بجهالةٍ فتصبحُوا على ما فعلتمْ نادمينَ﴾[64] و ﴿ألمْ ترَ كيفَ ضربَ اللهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابتٌ وفرعها في السماءِ. تؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذنِ ربها ويضربُ اللهُ الأمثالَ للناسِ لعلهمْ يتذكرونَ. ومثلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثتْ من فوقِ الأرضِ ما لهَا من قرارٍ﴾[65] و ﴿ولا تقفُ ما ليسَ لكَ بهِ علمٌ إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنهُ مسئولاً﴾[66] و ﴿ولا تمشِ في الأرضِ

---

٥٩ - سورة فصلت، الآية ٣٤.

٦٠ - سورة الأعراف، الآية ١٩٩.

٦١ - سورة التوبة، الآية ١١٩.

٦٢ - سورة النحل، الآية ١٠٥.

٦٣ - سورة الأحزاب، الآية ٢٤.

٦٤ - سورة الحجرات، الآية ٦.

٦٥ - سورة إبراهيم، الآيات ٢٤ - ٢٦.

٦٦ - سورة الإسراء، الآية ٣٦.

مرحًا إنكَ لن تخرقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبالَ طولاً ﴾[67].

ومن أسس العلاقات الإنسانية في الإدارة الرحمة والرفق والكلمة الطيبة، وقد قال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»[68] و «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه»[69]، و «الكلمة الطيبة صدقة»[70]. و «لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[71].

وفي فضل قضاء حاجات الناس قال ﷺ: «لأن يمشي أحدكم مع أخيه

---

٦٧ - سورة الإسراء، الآية ٣٧.

٦٨ - أخرجه الترمذي برقم ١٩٢٣ في البر والصلة باب بيان ما جاء في رحمة الناس، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

٦٩ - رواه مسلم برقم ٢٥٩٣ في البر والصلة، باب فضل الرفق، وأبو داود برقم ٢٤٧٨ في الجهاد، باب ما جاء في الهجرة وبرقم ٤٨٠٨ في الأدب، باب في الرفق. وعن عبدالله بن مغفل قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل رفيق يحب الرفق، ويُعطي عليه ما لا يُعطي على العنف» أخرجه أبو داود برقم ٤٨٠٧، باب في الرفق. وعن جرير بن عبدالله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يُحرم من الرفق يُحرم الخير كله» أخرجه مسلم وأبو داود ولم يذكر مسلم «كله» ورواية مسلم برقم ٢٥٩٢ في البر، باب فضل الرفق، وأبو داود برقم ٤٨٠٩ في الأدب، باب الرفق.

٧٠ - ذكره رزين عن أبي هريرة، وعن حذيفة وجابر أن رسول الله ﷺ قال: «كل معروف صدقة» أخرجه البخاري ومسلم وأخرجه الترمذي عن جابر وزاد: «وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تُفرغَ من دلوك في إناء أخيك».

٧١ - أخرجه مسلم عن أبي ذر برقم ٢٦٢٦ في البر والصلة، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء. وقال أيضًا: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة» أخرجه البخاري ومسلم. البخاري ١٧ / ٢٥٤ و ٢٥٥ في التوحيد وأخرجه مسلم برقم ١٠١٦ في الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة.

في قضاء حاجته أفضل من أن يعتكف في مسجدي شهرين» و«إن لله عباداً اختصهم الله بقضاء حوائج الناس، حببهم إلى الخير وحبب الخير إليهم، إنهم الآمنون من عذاب يوم القيامة». و«من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلّته وفقره يوم القيامة»[٧٢].

وقد أثرت هذه التعاليم في المسلمين فطبعت سلوكهم وعلاقاتهم حكاماً ومحكومين، فأصبح الفرد أكثر اهتماماً بحاجة أخيه.. قال الله تعالى: ﴿... ويؤثرونَ على أنفسهمْ ولو كانَ بهمْ خصاصةٌ ...﴾[٧٣]. كما دعت إلى الاحترام المتبادل والابتعاد عن سوء المعاملة، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخرْ قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهمْ ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكنَّ خيراً منهنَّ، ولا تلمزوا أنفسكُمْ ولا تنابزوا بالألقابِ بئسَ الاسمُ الفسوقُ بعدَ الإيمانِ ...﴾[٧٤]، ويقول الله تعالى: ﴿... ولا تبخسُوا الناسَ أشياءهمْ ...﴾[٧٥]. وفي حسن الصلة والألفة يقول الرسول ﷺ: «المؤمن إلف ألوف، يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف». وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يد الله مع الجماعة»[٧٦]. وعن أنس أنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشرين سنة فما قال

---

٧٢ - عن أبي مريم الأذري.. أخرجه أبو داود.

٧٣ - سورة الحشر، الآية ٩.

٧٤ - سورة الحجرات، الآية ١١.

٧٥ - سورة هود، الآية ٨٥.

٧٦ - أخرجه الترمذي برقم ٢١٦٧ في الفتن، باب رقم ٧ وهو حديث حسن بشواهده. وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان =

لي في شيء فعلته لم فعلت، ولا في شيء لم أفعله هلا فعلت.. ولنا في رسول الله أسوة حسنة.

والعاملون في نظر الإسلام إخوة متعاونون، ينصح بعضهم بعضا، ويشد بعضهم أزر بعض، بل هم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، لا يستعلي أحد على أحد، ولا يظلم ولا يحسد أحدهم غيره ممن حباه الله برزق أو منفعة. وفي هذا يقول الرسول الكريم ﷺ: «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض فضل إلا بالتقوى».. وعلى هدي هذه المساواة يدعو الدين إلى التآخي بين العاملين وإلى التعاون بينهم وإلى إقرار مبدأ الشورى والمشاركة في العمل، والإيثار والنصح.. علاقات أساسها الدين وقوامها الإخلاص في تنفيذ تعاليمه والحرص على الاقتداء برسول الله ﷺ وقد بُعث رحمة للعاملين.

من الضوابط الأخلاقية العامة

لابد عند الحديث عن شؤون العاملين والعلاقات الإنسانية في الإدارة من الإشارة إلى الضوابط الأخلاقية العامة. وهي التي يجب أن يتصف بها كل مسلم دون النظر إلى عمله أو منصبه ولعل من أهمها ما يلي:

= يشدُّ بعضُه بعضاً» وشبَّك بين أصابعه. أخرجه البخاري ومسلم وأخرجه الترمذي إلى قوله: «بعضاً» رواه البخاري ٥ / ٧١ في المظالم باب نصر المظلوم.. وفي الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، ومسلم برقم ٢٥٨٥ في البر، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، والترمذي برقم ١٩٢٩ في البر والصلة، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم.

* تقوى الله في العمل وفي التعامل: وقد حدد القرآن الكريم معنى (التقوى)[78] بوضوح فجاء للدلالة على معان تبينها وتظهر ماهيتها، ومن ذلك:

- جاء بمعنى مجموعة من الفضائل الاعتقادية والنفسية والخلقية كما في قول الله تعالى: ﴿ألم. ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيهِ هدىً للمتقينَ. الذينَ يؤمنونَ بالغيبِ ويقيمونَ الصلاةَ ومما رزقناهمْ ينفقونَ. والذينَ يؤمنونَ بما أُنزلَ إليكَ وما أُنزلَ من قبلكَ وبالآخرةِ همْ يوقنونَ﴾[79].
- وبمعنى تعظيم شعائر الله، كما في قوله تعالى: ﴿... ومن يعظمْ شعائرَ اللهِ فإنها من تقوى القلوبِ﴾[80].
- ويمعنى العفو والتسامح، كما في قوله تعالى: ﴿... وأن تعفو أقربُ للتقوى ...﴾[81].
- وجاء بمعنى ما يقابل الإثم والفجور، قال الله تعالى: ﴿ فألهمهَا فجورهَا وتقواهَا ﴾[82].
- وجاء بمعنى العدل، كما في قول الله تعالى: ﴿... اعدلوا هوَ أقربُ للتقوى ...﴾[83].

---

٧٨ - د. مصطفى السباعي، اشتراكية الإسلام، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٠، ص: ١٩٤ـ١٩٦.

٧٩ - سورة البقرة، الآيات ١ ـ ٤.

٨٠ - سورة الحج، الآية ٣٢.

٨١ - سورة البقرة، الآية ٢٣٧.

٨٢ - سورة الشمس، الآية ٨.

٨٣ - سورة المائدة، الآية ٨.

- وجاء بمعنى الصدق والحق، قال الله تعالى: ﴿والذي جاءَ بالصدقِ وصدَّقَ بهِ أولئكَ همُ المتقونَ﴾[84].
- وجاء بمعنى الوفاء بالعهد، كما في قول الله تعالى: ﴿... فأتموا إليهمْ عهدهُمْ إلى مدتهمْ إنَّ اللهَ يحبُّ المتقينَ﴾[85].
- وجاء بمعنى عدم الطغيان والفساد في الأرض، كما في قول الله تعالى: ﴿تلكَ الدارُ الآخرةُ نجعلها للذينَ لا يريدونَ علُوًّا في الأرضِ ولا فساداً والعاقبةُ للمتقينَ﴾[86].
- وجاء بمعنى الخشية من الله وإنابة القلب، قال الله تعالى: ﴿وأُزلفتِ الجنَّةُ للمتقينَ غيرَ بعيدٍ. هذا ما توعدونَ لكلِ أوابٍ حفيظٍ. منْ خشيَ الرحمنَ بالغيبِ وجاءَ بقلبٍ منيبٍ﴾[87].
- وجاء للدلالة على أعمال البر كالاحسان والعبادة والاستغفار ومساعدة المحتاجين.. كما في قول الله تعالى: ﴿إنَّ المتقينَ في جناتٍ وعيونٍ. آخذينَ ما آتاهمْ ربهمْ إنهمْ كانوا قبلَ ذلكَ محسنينَ. كانوا قليلاً منَ الليلِ ما يهجعونَ. وبالأسحارِ همْ يستغفرونَ. وفي أموالهمْ حقٌ للسائلِ والمحرومِ﴾[88].
- وجاء بمعنى هجر الظالمين وعدم الركون إليهم، قال الله تعالى: ﴿...وإنَّ الظالمينَ بعضهمْ أولياءُ بعضٍ واللهُ وليُّ

٨٤ - سورة الزمر، الآية ٣٣.

٨٥ - سورة التوبة، الآية ٤.

٨٦ - سورة القصص، الآية ٨٣.

٨٧ - سورة ق، الآيات ٣١ ٣٣.

٨٨ - سورة الذاريات، الآيات ١٥ ـ ١٩.

المتقينَ﴾[89].

وتقضي التقوى بحفظ النفس من المآثم وفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا اتقوا اللهَ حقَّ تقاتهِ ...﴾[90] و ﴿فاتقوا اللهَ ما استطعتمْ ...﴾[91] و ﴿... ومن يتقِ اللهَ يجعل لهُ مخرجًا. ويرزقهُ منْ حيثُ لا يحتسبُ ...﴾[92].. وفي الحديث، قيل يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال ﷺ: «أتقاهم». وكان من دعائه ﷺ: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى».

* الإخلاص لله في النية والعبادة والعمل: قال الله تعالى: ﴿... فاعبد اللهَ مخلصًا له الدينَ﴾[93] و ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا اللهَ مخلصينَ لهُ الدينَ ...﴾[94].. وفي الحديث، قال رسول الله ﷺ: «طوبى للمخلصين أولئك مصابيح الهدى تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء». و«قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان وجعل قلبه سليمًا، ولسانه صادقًا، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة، وعينه ناظرة، وقد أفلح من جعل قلبه واعيًا». وقال أيضًا: إنما الأعمال بالنيات» و«وإنما يُبعث الناس على نياتهم».

---

٨٩ - سورة الجاثية، الآية ١٩.

٩٠ - سورة آل عمران، الآية ١٠٢.

٩١ - سورة التغابن، الآية ١٦.

٩٢ - سورة الطلاق، الآيتان ٢ - ٣.

٩٣ - سورة الزمر، الآية ٢.

٩٤ - سورة البينة، الآية ٥.

* الاعتصام بالله وبسنة رسوله: فالسنة النبوية قولاً وفعلاً وتقريراً هي بيان للقرآن؛ قال الله تعالى: ﴿... وأنزلنا إليكَ الذكرَ لتبينَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهمْ ....﴾[95] و ﴿واعتصموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفرقوا ...﴾[96] و ﴿وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ ...﴾[97] و ﴿ومن يعصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ويتعدَّ حدودهُ يدخلهُ ناراً خالداً فيها ولهُ عذابٌ مهينٌ﴾[98].

ولا بد في كل ذلك من طاعة الله والانقياد التام لحكمه وحكم رسوله، قال الله تعالى: ﴿إنما كانَ قولَ المؤمنينَ إذا دعوا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ ليحكمَ بينهمْ أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئكَ همُ المفلحونَ﴾[99] و ﴿وما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولهُ أمراً أن يكونَ لهمُ الخيرةُ منْ أمرهمْ ...﴾[100] و ﴿... وما آتاكمُ الرسولُ فخذوهُ وما نهاكُمْ عنهُ فانتهوا واتقوا اللهَ ...﴾[101].. ولا ريب أن الاعتصام بالله يستتبع التوكل عليه، فالمؤمن يعتمد على الله في كل عمل، قال الله تعالى: ﴿... وعلى اللهِ فليتوكلِ المؤمنونَ﴾[102] و ﴿... ومن يتوكلْ على اللهِ

---

٩٥ - سورة النحل، الآية ٤٤.

٩٦ - سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

٩٧ - سورة التغابن، الآية ١٢.

٩٨ - سورة النساء، الآية ١٤.

٩٩ - سورة النور، الآية ٥١.

١٠٠ - سورة الأحزاب، الآية ٣٦.

١٠١ - سورة الحشر، الآية ٧.

١٠٢ - سوة المجادلة، الآية ١٠.

فهوَ حسبهُ ...﴾[103] و ﴿وتوكلْ على الحيِّ الذي لا يموتُ ...﴾[104]. وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت ...». وكان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل.

والجدير بالذكر أنه يتفرع عن الالتزام بتقوى الله والإخلاص له والاعتصام به والتوكل عليه الكثير من مكارم الأخلاق كالصدق والصبر وحسن الخلق والاستقامة ومحاسبة النفس... وهذه كلها من الضوابط الأخلاقية العامة التي يجب على كل فرد أن يتحلى بها في قوله وفعله وسلوكه وتعامله.

* * *

ثمة صفات يحسن أن يتحلى بها رجل الأعمال المسلم لأنها ألزم له وأحرى فيه، وصفات من الضروري أن يتصف بها العامل، وسوف نتناول كلاً منها بإيجاز فيما يلي:

صفات رجل الأعمال :

من أهم الصفات التي يحسن برجل الأعمال المسلم أن يتحلى بها ما يلي:

* الموهبة والخبرة والميل إلى التعلم: وهي مجموعة صفات مركبة تجعل رجل الأعمال إذا توفرت فيه أكثر قدرة على ممارسة العمل الإداري وما يتطلبه من حكمة في اتخاذ القرارات ومهارة في التعامل وإدارة الاجتماعات والاتصال والقيادة... .

---

١٠٣ - سورة الطلاق، الآية ٣.

١٠٤ - سورة الفرقان، الآية ٥٨.

* العدالة: وهي من ألزم صفات الإدارة الناجحة لأنها تعني إعطاء كل ذي حق حقه. وتوفر صفة العدالة يضمن التعامل مع العاملين على أساس المساواة فينتفي التحيّز وما قد يسببه من إحساس بالظلم، كما يضمن التوازن في توزيع الأعمال والأجور والمكافآت وإسناد المناصب الإدارية.
* الحرص المناسب: وهي من الصفات اللازمة لضمان نجاح العمل الإداري. فالحرص المناسب في إدارة المال يضمن ترشيد الإنفاق، وهو في الوقت يضمن استغلال عنصر الوقت استغلالاً منتجًا، وهو في التعامل يضمن اختيار الكلمة المناسبة في إدارة الحوار مع الأفراد والعملاء فيستعمل الكلمة المناسبة في الظرف المناسب، فلا يسيء لأحد ولا يجرح مشاعر الأفراد. ولا يقصد بالحرص في الإدارة الشح وإنما الترشيد في إدارة عناصر الإنتاج من مال وعمل ووقت...
* القدوة الحسنة: وذلك في كل قول وعمل، وتتصل هذه الصفة بالأخلاق الحميدة وبالانضباط في مواعيد العمل، والالتزام بأن يترجم ما يقول إلى أفعال لأن العاملين أسمع لأفعاله من أقواله، وأن يبدأ بنفسه أولاً إلى جانب الإخلاص في العمل والاتقان فيه ولا سيما لدى ممارسة عناصر الوظيفة الإدارية من تخطيط وتنظيم وتوجيه ورقابة. وأن يكون مثاليًا في قوله وفعله قبل أن يدعو إلى المثالية، محبًا للعمل قبل أن يدعو الآخرين إليه.
* المشاركة والتوكل على الله: وهي ضرورية جدًا في اتخاذ القرارات، الذي يمثل جوهر العملية الإدارية، ولأنها تضمن سداد القرارات ورشدها، وتشعر الأفراد بمسؤولياتهم وبحاجة الإدارة إلى آرائهم. ويجب ألا

تكون المشاورة شكلية وإنما موضوعية بحيث يبتغى فيها التوصل إلى الحل الأفضل، وأن تدار بأسلوب الاقناع والاقتناع بالحجة والبيّنة والتعبير عن الحقائق بأمانة، وإبداء وجهات النظر بإخلاص. وقد قيل: من شاور الرجال شاركها في عقولها. وكان رسول الله ﷺ يشاور الناس ويحضّ على ذلك، وكذلك فعل الخلفاء الراشدون من بعده.. امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿ ... وشاورهمْ في الأمرِ ... ﴾[105] و ﴿ ... وأمرهمْ شورى بينهمْ ... ﴾[106].

كما يجب على رجل الأعمال أن يتوكل على الله في كل عمل يأتيه، فالله هو المهيمن على كل شيء وبيده الرزق. ولا يعني التوكل التواكل وترك الأمور تجري بغير ضوابط أو رقيب وإنما التدبر في الأمور والتبصر فيها واتخاذ الأسباب قدر الاستطاعة.

صفات العامل:

ثمة الكثير من الصفات التي يحسن أن تتوفر في العامل المسلم، لعل من أهمها ما يلي:

* التعاون مع الزملاء: تتضمن المنظمة أعمالاً متنوعة، وتتطلب بذل جهود في مجالات مختلفة؛ فهي كخلية النحل.. كل عضو فيها لديه عمل مخصص له حيث تتكامل الأعمال وتتضافر الجهود بفضل التعاون الذي يضمن الانسجام والتناسق. وعندها تصبح الإدارات والأقسام والشعب أجزاء متصلة ومتفاعلة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً،

---

١٠٥ - سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

١٠٦ - سورة الشورى، الآية ٣٨.

وبوساطة التعاون تسير محصلات الجهود والأنشطة في اتجاه واحد.

ويعتمد التعاون على طريقة التفكير والرغبة فيه والحرص عليه، وبذلك يتحول إلى سلوك إداري يمارس في كل حين، مما يستلزم تنمية التعاون ليرسخ في النفوس كنزعة اجتماعية، ولكي يمارس بطريقة هادفة.

* الصدق : وهو من مكارم الأخلاق التي يجب أن تتوفر في كل فرد، وهو لدى العامل يعبر عن الالتزام بالحقيقة وتحريها قولاً وفعلاً، مما ينعكس على صحة البيانات ودقتها، وعلى ما يُقدم من تقارير إدارية عن الانتاج والانتاجية والتكاليف..

* الإخلاص والأمانة: وترتبط صفة الإخلاص بالصدق وتضم معه الإيثار والتفاني في العمل، وتغليب مصلحة العمل على المصلحة الشخصية.

وتتطلب مزاولة العمل الأمانة، فالعامل مؤتمن على ما تحت يده من أموال ومواد، ومؤتمن على صحة ودقة البيانات التي يقدمها، ومؤتمن على مرؤوسيه في إسداء النصح والتوجيه بالحكمة والموعظة الحسنة، ومؤتمن على حسن التعامل معهم بعدالة، ومؤتمن على الآلات التي يعمل عليها والمواد التي يستخدمها، ومن واجبه في كل ذلك أن يؤدي الأمانة مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يأمُركُمْ أن تؤدوا الأمانات إلى أهلهَا ...﴾[107]. وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأقبل علينا رجل من أهل العالية قال: أخبرني يا محمد عن أشد شيء في هذا الدين وألينه؟. فقال: «يا أخا العالية ألين شيء

١٠٧ - سورة النساء، الآية ٥٨.

في هذا الدين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأشده يا أخا العالية الأمانة، ألا إنه لا دين لمن لا أمانة له وإن صام وصلى».

حقوق وواجبات رب العمل

لرب العمل حق الولاية على عمله فيصدر القرارات والتعليمات وعلى العاملين واجب الطاعة.

ولكن تلك الولاية والواجب مرتبطان بهدي القرآن الكريم والسنة الشريفة وفق قواعد الإدارة في الإسلام. وبالتالي لا تعمل المنظمة مثلاً بهدف تحقيق الأرباح فحسب بل لإعمار الأرض وخدمة المجتمع عن طريق إنتاج السلعة أو تقديم الخدمة بالجودة المناسبة، واستثمار المال في وجوهه المشروعة التي تحقق الخير والنماء.

وعليه فإن من أهم واجبات رب العمل ما يلي:

* الإحسان في معاملة العاملين: فيرعى الله في كل حال، ولا يستعمل ماله أو ولايته في إذلال الآخرين وتهديد أرزاقهم ومعاشهم، أو الاستعلاء عليهم، وأن يتذكر قول الله تعالى ويعمل به: ﴿ما أغنى عنيّ ماليه. هلكَ عنيّ سلطانيهْ﴾[108] و ﴿تلكَ الدارُ الآخرةُ نجعلهَا للذينَ لا يريدونَ علواً في الأرضِ ولا فساداً والعاقبةُ للمتقينَ﴾[109].

---

١٠٨ - سورة الحاقة، الآيتان ٢٨ و ٢٩.

١٠٩ - سورة القصص، الآية ٨٣.

ويقضي الإحسان بأن يوفي رب العمل للعامل أجره المعلوم ويقدّر عمله، ويوفر وسائل الوقاية والأمن الصناعي والرعاية الاجتماعية، وألا يكلف العامل إلا ما يطيق وأن يكافئه على الانتاج الإضافي بعدالة.

* القصد والاعتدال: وهو أمر مطلوب لحسن الإدارة وتصريف الأمور، مع الانضباط والرشد، والقوة بغير ضعف واللين بغير عنف.
* التفويض: وهو من عوامل نجاح الإدارة لأن رب العمل لن يتمكن من الانفراد لوحده بالإدارة، فضلاً عن أن ذلك ليس مطلوباً أصلاً، لا سيما وأن طاقة الإنسان محدودة وساعات عمله محدودة أيضاً، وكذلك امكانياته وذاكرته وقدرته على التفكير والتحمُّل.

فالتفويض في العمل الإداري يجعل التنظيم ممكناً فضلاً عن أنه وسيلة فعالة من وسائل تنمية الأفراد. ولا يعني تفويض السلطة التنصل من المسؤولية ولهذا يتأثر مدى التفويض بعدة عوامل منها: خطورة القرارات ومضاعفاتها، ومدى توفر الرقابة والمديرين الأكفياء، ودرجة الثقة بالنفس بالآخرين[110].

ولا ريب أن نجاح التفويض يتوقف على الأمانة وحسن اختيار من يفوض إليه، لأن التفويض ينطوي على تكليف واستعمال، وفي هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ: «أيما رجل استعمل رجلاً على عشرة أنفس علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين».

---

١١٠ - انظر في ذلك للمؤلف كتاب: المدخل إلى إدارة الأعمال، منشورات جامعة حلب، ١٩٨٠، ص: ١٢٥ ـ ١٢٦.

* حسن المطالبة: وهي اللين والحكمة في الطلب، لأن ممارسة الضغط على العامل لتحقيق زيادة في الانتاج قد يدفعه إلى ارتكاب الأخطاء وعدم مراعاة الجودة، فضلاً عما يسببه من توتر نفسي.

وكذلك فإن التعامل مع المدينين المعسرين يتطلب الحسنى فالله تعالى يقول: ﴿وإن كانَ ذو عسرةٍ فنظرةٌ إلى ميسرةٍ ...﴾[111].

* الاستقامة: فلا يجوز لرب العمل استغلال ماله أو تقديم الرشاوى المباشرة أو غير المباشرة لذوي السلطة كوسيلة لفرض نفوذه وسلطانه أو شروطه على العاملين فيضطرون لقبولها مذعنين. وعليه أن يستبعد المشّائين بنميم والوشاة لأنهم يحاولون التقرّب منه عن طريق الإساءة إلى الآخرين، قال الله تعالى: ﴿ ... ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضًا أيحبُّ أحدكمْ أن يأكلَ لحمَ أخيهِ ميتًا ...﴾[112]، وفي ذلك صورة لبلاغة معجزة في تصوير المغتاب كالآكل للحم الميت.

وعلى رب العمل أن يتحرى الحقيقة دائمًا فلا يكون سمّاعًا، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا إن جاءكمْ فاسقٌ بنبإٍ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالةٍ فتصبحوا على ما فعلتمْ نادمينَ﴾[113].

---

١١١ - سورة البقرة، الآية ٢٨٠.

أخرج مسلم عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يُخالط الناسَ وكان موسراً، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال: قال الله عز وجل: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه» انظر في ذلك جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٤٣٧ - ٤٤٠.

١١٢ - سورة الحجرات، الآية ١٢.

١١٣ - سورة الحجرات، الآية ٦.

* تطوير المنظمة: فالتخطيط يجب أن يقوم على أساس التخطيط للتغيير وإدخال التحسينات، ورفع مستوى الجودة وترشيد الإنفاق. يجب على رب العمل ألا يركن إلى ما يحققه من أرباح فهي لا تمثل الهدف النهائي في المنظمة، بل عليه أن يدأب على التطوير والإبداع والابتكار متطلعاً إلى المستقبل فيسعى إلى تحقيق الشكل والوضع المناسب للمنظمة في المستقبل وبما يحقق مصالح المجتمع ويعود بالخير على أفراده.

ولا يعني حسن الإدارة مجرد تسيير العمل اليومي المعتاد، وإنما بذل الجهد الواعد للبحث عن الجديد النافع.

حقوق وواجبات العامل

تعكس حقوق العامل واجبات على رب العمل، كما تمثّل واجبات رب العمل حقوق العامل.

غير أن ثمة حقوقًا وواجبات يحسن أن يعرفها العامل ليتحقق التفاهم وتتحقق المصالح دون أية صراعات أو خلاف.

ويمكن القول بإيجاز إن من أهم حقوق العامل: الحق في العمل الملائم، والحق في الأجر العادل، والحق في الراحة والرعاية الصحية والأمان الوظيفي...

أما عن واجبات العامل فمن أهمها: الانتماء للمنشأة والولاء لها، وإتقان العمل والأمانة في الأداء، والطاعة إلا أن يُؤمر بمعصية، وإسداء النصح لرب العمل وللعاملين[114] ..

---

١١٤ - لمعلومات أكثر تفصيلاً انظر في ذلك: د. محمود عساف، المنهج الإسلامي في إدارة الأعمال، القاهرة، مكتبة عين شمس، ١٩٨٧، ص: ٣٩٨ - ٤١٤.

الفصل الخامس

إدارة الإنتاج والتسويق

تمهيد - في إدارة الإنتاج - الضوابط العامة في إدارة الإنتاج - في إدارة التسويق - ترشيد الاستهلاك - التساهل والتسامح والإقالة - منهيات البيع (ما لم يُقبض أو يُملك، الثمار والزروع قبل إدراكها، الغش والنَّجَش، بيع الغرر والمضطر والحصاة، بيع الحاضر للبادي وتلقي الركبان) - الصدق أساس التعامل.

تمهيد

وضع الإسلام مبادئ عامة تتناول الإنتاج والتسويق، وترك الجوانب التفصيلية للتطبيقات العملية، شريطة ألا تخرج عن إطار تلك المبادئ، وشريطة أن تحقق مصالح المجتمع أفراداً وجماعات.

وقد تناولنا في هذا الفصل موضوع الإنتاج والتسويق في إطار تلك الضوابط العامة. ولهذا فقد جاء العرض موجزاً، وضمن وظيفة البيع والتعامل فيما يتصل بالتسويق[1]، دون الدخول في تفصيلات الوظائف

---

١ - تجدر الإشارة إلى أن علم التسويق، كأحد فروع إدارة الأعمال، ينطوي على وظائف أخرى مما تزخر به كتب التسويق مثل وظائف النقل والتخزين والتوزيع والتسعير والإعلان ودراسة السوق.. انظر في ذلك للمؤلف كتاب: التسويق وإدارة المبيعات، مدخل تحليلي كمي، الطبعة الثانية، من منشورات جامعة حلب، ١٩٧٩.

الأخرى لعلم التسويق، لاسيما وأنها ذات طبيعة فنية من ناحية، ولأنها مقيدة بضوابط الصدق في العمل والتعامل، من ناحية أخرى، وهو ما نؤثر التركيز عليه. ولهذا فقد أشرنا إلى ترشيد الاستهلاك والقواعد السلوكية في التعامل، ومنهيات البيع.

أولاً ـ في إدارة الإنتاج

أمر الإسلام المسلمين بالإنتاج، وحضّهم على العمل، وذلك بالسعي في أرجاء الأرض ليبتغوا من فضل الله.

فقد اعتبر الإسلام العمل عبادة وكسب الحلال فريضة واجبة، إذ قال رسول الله ﷺ: «طلب كسب الحلال فريضة بعد الفرائض».. كما قرن الله سبحانه وتعالى الإيمان بالعمل في كثير من آيات القرآن الكريم.

وقد وجّه رسول الله ﷺ إلى ضرورة أن يتقن الإنسان عمله، فيحرص على جودة إنتاجه، فقال ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

كما أكد الإسلام على أن يكون العمل خالصًا لله، نقيًا من الغش والخداع. فاستعمال عناصر الإنتاج في الإنتاج يجب أن يتم بالمقادير المناسبة، وبناء على معايير الجودة المطلوبة، إذ لا يجوز التلاعب بكميات مواد البناء ومواصفاتها مثلاً تقليلاً للتكلفة على حساب الأمان وجودة البناء.

ولهذا فالربح يجب ألا يكون هدفًا بحد ذاته، وألا يكون ضغط التكاليف على حساب إتقان العمل أو المساس بمستوى الجودة المطلوبة، قال رسول الله ﷺ: «من غشنا فليس منا»[٢].

---

٢ - مما رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة، وفي رواية أبي داود: «ليس منا من غش». مسلم برقم ١٠١ في الإيمان والترمذي برقم ١٣١٥ في البيوع، وأبو داود برقم ٣٤٥٢ في الإجارة.

وقد حرص الإسلام أيضاً على تنمية ثروة المجتمع كهدف وسيط لتحقيق حاجات الأفراد مع العدالة في التوزيع، كما وضع في مجال الإنتاج ضوابط تكفل تحقيق الخير للجميع، ومن ذلك ما يلي:

١ ـ الإنسان مستخلف في إدارة عناصر الإنتاج: فالأرض والعمل ورأس المال.. كلها لله، وملكية الإنسان لها هي ملكية تفويض، وهي ملكية مقيدة بالاستغلال الصالح الذي يحقق الخير والعدل للناس كافة. وللإنسان حق الانتفاع في حدود شرع الله الذي يأمر بالعدل والإحسان، والإنسان مسؤول ومحاسَب عن كل أعماله، قال الله تعالى: ﴿فمن يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يرهُ. ومن يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً يرهُ﴾[٣].

٢ ـ الكشف عن منابع الثروة والكسب الحلال: فقد سخّر الله سبحانه وتعالى خيرات الكون... أرضه وبحاره وسماءه لمنفعة الإنسان، قال الله تعالى: ﴿ألمْ تروْا أنَّ اللهَ سخّرَ لكم ما في السموات وما في الأرضِ وأسبغَ عليكمْ نعمهُ ظاهرةً وباطنةً ...﴾[٤] و ﴿اللهُ الذي سخّر لكمُ البحرَ لتجريَ الفلكُ فيهِ بأمرهِ ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرونَ. وسخّرَ لكم ما في السمواتِ وما في الأرضِ جميعاً منهُ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يتفكرونَ﴾[٥].

ولكن استغلال الخيرات واستخدام عناصر الإنتاج يجب أن يكون في المجالات التي تحقق منفعة الإنسان.. أي في المجالات الحلال وبالأساليب الأخلاقية التي دعا إليها الإسلام وحض على التمسك

---

٣ - سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و ٨.

٤ - سورة لقمان، الآية ٢٠.

٥ - سورة الجاثية، الآيتان ١٢ و ١٣.

بها.

٣ ـ واجب العمل والإنتاج: فقد شجع الإسلام على العمل والتماس الرزق، واعتبره واجبًا على كل قادر، ومنع من البطالة والسؤال. قال رسول الله ﷺ: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»[٦]، ومما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة.

أما غير القادر على العمل فقد كفل النظام المالي في الإسلام حقه في الحصول على ما يسد حاجته، حتى وإن لم يكن مسلمًا، فكفالة الحق في العمل في حالة القدرة أو في المعاش في حالة عدم القدرة تعم جميع من يعيش في كنف الدولة الإسلامية.

٤ ـ تحقيق التوازن فيما بين المصالح: فقد حرص الإسلام على إلغاء الصراعات، والحد من الشقاق بين فئة أصحاب الأعمال وفئة العمال وفئات المستهلكين، وحدد لكل فئة حقوقًا وواجبات من شأنها إلغاء الصراع بينهم. على حين أن هذا الصراع كان مستعرًا في أوربا بسبب ميل أرباب العمل إلى ضغط الأجور وتشغيل العمال أطول عدد ممكن من ساعات العمل لكي يجني أرباب العمل أكبر ربح ممكن. ولم تكن التشريعات العمالية في الغرب قادرة على إنصاف العامل إلا قليلاً بسبب نفوذ رأس المال وتأثير أرباب العمل في السياسة وفي التشريعات. على حين أن الإسلام أمر بالتعجيل بدفع أجر العامل، فقال رسول الله ﷺ: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه». ومنع بخس الناس فقال الله تعالى: ﴿ ...ولا تبخسوا الناسَ

---

٦ - أخرجه البخاري برقم ٤ / ٢٥٩ في البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده.

أشياءهُمْ ...﴾[7]، وحرّم تكليف العامل بما لا يطيق، وأكد إعطاءه الأجر العادل عملاً بقول الله تعالى: ﴿وأقيموا الوزنَ بالقسطِ ولا تخسروا الميزانَ﴾[8]، و ﴿والسماءَ رفعها ووضعَ الميزانَ﴾[9] والميزان هنا معلق بالحق وليس بثقل الأشياء بحيث تتحقق العدالة مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿ويلٌ للمطففينَ. الذينَ إذا اكتالوا على الناسِ يستوفونَ. وإذا كالوهمْ أو وزنوهمْ يخسرونَ﴾[10]، ولا يقصد التطفيف في البيع والشراء فحسب، بل في كل المعاملات حيث لا يسمح للفرد أن يتعدى على حقوق الآخرين، لأن الأمانة في التعامل هي أساس الحقوق فيه، قال الله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ يأمركمْ أن تؤدوا الأماناتِ إلى أهلهَا ...﴾[11].

٥ ـ المساواة في الفرص، والتفاوت في الأرزاق: فقد أكد الإسلام مبدأ تكافؤ الفرص بين الناس جميعًا كمظهر من مظاهر المساواة بينهم. كما أكد أن ما يحصل عليه الإنسان هو نتيجة سعيه فلا يحق له أن يقتطع لنفسه شيئًا من سعي الآخرين مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿وأن ليسَ للإنسانِ إلا ما سعى﴾[12]، ولا يجوز التعدي، قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»، ولكل إنسان الحق في أن يحصل على نتائج عمله فيجني الثروة بالطرق التي أحلها الله.

---

٧ - سورة الأعراف، الآية ٨٥.

٨ - سورة الرحمن، الآية ٩.

٩ - سورة الرحمن، الآية ٧.

١٠ - سورة المطففين، الآيات ١ - ٣.

١١ - سورة النساء، الآية ٥٨.

١٢ - سورة النجم، الآية ٣٩.

ومع ذلك فإن التفاوت في الأرزاق من حكم الله تعالى، لكي يقوم المجتمع وتتحقق المصالح، قال الله تعالى: ﴿ اللهُ يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ ... ﴾[13]، فهذا التفاوت في الأرزاق اقتضته حكمة الله البالغة؛ ولكن ليس معنى هذا حرمان أحد من وسائل العيش، فالإسلام يكفلها للجميع.

بل إن من مسؤولية الدولة كفالة إتاحة بعض الأشياء للجميع، فلا ينفرد الأفراد بملكيتها ابتغاء التحكّم بالآخرين كالماء والكلأ والنار، وما يرصد للانتفاع العام كالطرق والمرافق والحدائق...

ثانياً ـ في إدارة التسويق

أشرنا سابقًا إلى أن علم التسويق يمثل مجموعة الأنشطة الرامية إلى إيجاد المنافع الاقتصادية، وينطوي على وظائف مثل الشراء والبيع والنقل والتخزين والتسعير والإعلان ودراسة الأسواق بغية تلبية الحاجات بكفاية، وهو أحد فروع علم إدارة الأعمال حيث يمكن دراسته بمناهج متعددة من أهمها: منهج السلع، منهج المنشآت، منهج الوظائف، المنهج السلوكي[14].

وقد حرص الإسلام على وضع ضوابط عامة تكفل جني الكسب الحلال في نطاق المعاملات، لأن الكسب الحرام خبيث في نظر الإسلام سواء في ذاته أو في وسيلته، ومن ذلك ما يلي:

---

١٣ - سورة الرعد، الآية ٢٦.

١٤ - انظر في ذلك للمؤلف كتاب: التسويق وإدارة المبيعات، مدخل تحليلي كمي، المرجع السابق، ١٩٧٩، ص: ٣١ ـ ٣٣.

- ترشيد الاستهلاك :

وضع الإسلام ضوابط من شأنها أن تجعل أداء أعمال التسويق ونتائجها في صالح الفرد والمجتمع. فقد حث الإسلام على مبدأ التوسط في الاستهلاك، مما يساعد على ألا يطغى الإنفاق الاستهلاكي على الإنفاق الاستثماري، وألا يكون في الاستهلاك إسراف لقول الله تعالى: ﴿ ... ولا تسرفوا إنهُ لا يحبُّ المسرفينَ ﴾[15]. هذا بالإضافة إلى تحريم الاحتكار والاكتناز والربا وتبديد الأموال. وبالتالي فقد نهى الإسلام أن يكون تحقيق الربح الفاحش هدفًا لما في ذلك من حيف بالمستهلكين، فالمحتكر مثلاً.. هو الذي يعمد إلى شراء ما يحتاج إليه الناس فيحبسه عنهم ويريد إغلاءه عليهم. ولهذا كان لولي الأمر أن يُكره الناس على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس إليه.. فإذا كان الناس في مخمصة أجبر من حبسه على بيعه لهم بقيمة المثل[16].

- التساهل والتسامح والإقالة :

حض الإسلام على التساهل والتسامح في البيع والإقالة، روى جابر ابن عبدالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رَحِمَ الله رجلاً سَمْحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»[17]، وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ

---

١٥ - سورة الأنعام، الآية ١٤١.

١٦ - انظر في ذلك: تقي الدين أحمد بن تيمية، الحسبة في الإسلام، الكويت، مكتبة دار الأرقم، ١٩٨٣، ص: ٢٣ و ٤٩.

١٧ - أخرجه البخاري: ٥/ ٢١٠ و ٢١١ في البيوع، والترمذي رقم: ١٣٢٠،=

قال: «من أقال مسلماً أقالَهُ اللهُ عثرتَه»[18].

والأسواق مكان يسعى الشيطان فيه للإيقاع بالناس وإغوائهم، مستغلاً مواطن الضعف في الإنسان وحبه للمال والكسب، قال سلمان الفارسي: لا تكوننَّ ـ إن استطعت ـ أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها، فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته.. وقال عمر بن الخطاب: لا يبيع في سوقنا إلا من تفقَّه في الدين.

وإذا حرم الإسلام إنتاج ما يضر بالمجتمع فقد حرم أيضاً الإتجار بذلك كالخمر مثلاً، قال عبدالله بن عمرو بن العاص لرسول الله ﷺ: إني اشتريت خمراً لأيتام في حجري، فقال: «أهرقها، واكسر الدنان».. وروى أبو سعيد الخدري قال: كان عندنا خمر ليتيم، فلما نزلت المائدة (٩٠ ـــ ٩٣)[19]، سألت رسول الله ﷺ عنه وقلت: إنه ليتيم، قال: «أهرقه»[20].

= وابن الأثير في جامع الأصول برقم: ٢٤٥، المرجع السابق، الجزء الأول، ص: ٤٣٦.

١٨ - أخرجه أبو داود برقم: ٣٤٦٠ في الإجارة، باب فضل الإقالة، وأخرجه ابن ماجه برقم: ٢١٩٩ في التجارات، وابن الأثير في جامع الأصول برقم: ٢٥٠، الجزء الأول، ص: ٤٤٠، والإقالة في البيع: هي فسخه، وإعادة المبيع إلى مالكه والثمن إلى المشتري إذا كان قد ندم أحدهما أو كلاهما.

١٩ - يقصد بذلك قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة.. حتى قوله: والله يحب المحسنين﴾.

٢٠ - أخرجه الترمذي، وأهرق: أراق.

- النهي عن بيع ما لم يُقبض أو ما لم يُملَك :

من روائع أحكام الإسلام في عمليات البيع، النهي عن بيع ما لم يُقبض أو ما لم يُملَك. فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من اشترى طعاماً فلا يبعه حتى يَستوفيَه». قال: وكنا نشتري الطعام من الركبان جزافًا فنهانا رسول الله ﷺ أن نبيعه حتى ننقله من مكانه[21].. وعن ابن عمر قال: ابتعتُ زيتًا في السوق، فلما استوجبته لقيني رجل، فأعطاني به ربحًا حسنًا، فأردت أن أضرب على يده، فأخذ رجل من خلفي بذراعي، فالتفت، فإذا زيد بن ثابت، فقال لا تبعه حيث ابتعته، حتى تحوزه إلى رحلك، فإن رسول الله ﷺ نهى أن تباع السلع حتى يحوزها التجار إلى رحالهم[22].

وروى حكيم بن حزام قال: قلت يا رسول الله إن الرجل ليأتيني فيريد مني البيع وليس عندي ما يطلب أفأبيع منه ثم ابتاعه من السوق؟ قال: «لا تبعْ ما ليس عندك»[23]، وعن جابر بن عبدالله قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «إذا ابتعتَ طعاماً فلا تبعه حتى تستوفيه»[24].

---

٢١ - البخاري: ٤ / ٢٨٨ في البيوع، وأخرجه مسلم برقم: ١٥٢٦ و ١٥٢٧ في البيوع، والنسائي: ٧/ ٢٨٦، ٢٨٧ في البيوع، وعند ابن الأثير في جامع الأصول برقم ٢٧٤، المرجع السابق، الجزء الأول، ص: ٤٥٤.

٢٢ - أخرجه أبو داود برقم: ٣٤٩٩، استوجبت المبيع: إذا صار في ملكك، وحزتُ الشيء أحوزه: إذا ضممته إليك وصار في يدك.

٢٣ - رواية الترمذي برقم ١٢٣٢ في البيوع، باب كراهية بيع ما ليس عندك، وأبو داود برقم ٣٥٠٣ في الإجارة، باب الرجل يبيع ما ليس عنده، وعند ابن الأثير في جامع الأصول برقم: ٢٧٦، المرجع السابق، الجزء الأول، ص: ٤٥٧.

٢٤ - أخرجه مسلم..

وذكر أن مالك بن أنس بَلَغَهُ أن صكوكًا خرجت للناس في زمن مروان ابن الحكم من طعام الجارِ، فتبايع الناس تلك الصكوك بينهم قبل أن يستوفوها، فدخل زيد بن ثابت ورجل معه من أصحاب رسول الله ﷺ على مروان بن الحكم فقالا: أتحل بيع الربا يا مروان؟ فقال: أعوذ بالله، وما ذاك؟ قالا: هذه الصكوك، تبايعها الناس، ثم باعوها قبل أن يستوفوها، فبعث مروان الحرس يتتبعونها، ينتزعونها من أيدي الناس، ويردونها إلى أهلها[٢٥].

وذكر أيضًا أن مالك بن أنس بلغه أن رجلاً أراد أن يبتاع طعامًا من رجل إلى أجل، فجعل يريه الصُّبَرَ، ويقول له: من أيها تحب أن أبتاع لك؟ فقال المبتاع: أتبيعني ما ليس عندك؟ فأتيا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فذكرا ذلك له، فقال عبدالله بن عمر للمبتاع: لا تبتعْ منه ما ليس عنده، وقال للبائع: لا تبع ما ليس عندك[٢٦].

- النهي عن بيع الثمار والزروع قبل إدراكها وأمنها من العاهة:

فعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ نهى عن بيع الثمار حتى تزهو، فقلنا لأنس: ما زَهْوها؟ قال: تَحْمَرُّ وتَصْفَرُّ قال: أرأيت إن منع الله الثمرة، بِمَ تستحل مال أخيك؟[٢٧]، وفي رواية أخرى لمسلم والترمذي وأبي داود والنسائي أن النبي ﷺ نهى عن بيع النخل حتى يزهو، وعن السنبل حتى

---

٢٥ - أخرجه الموطأ ٢ / ٦٤١ في البيوع.

٢٦ - أخرجه الموطأ: ٢ / ٦٤٢ في البيوع - باب: العينة. والصُّبر جمع صُبْرة وهو الكومة من الطعام.

٢٧ - أخرجه البخاري ومسلم والنسائي.

يَبْيَض ويأمن العاهة، نهى البائع والمشتري، وفي أخرى لمسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تبتاعوا الثمر حتى يبدو صلاحه وتذهب عنه الآفة» قال: يبدو صلاحه: حمرته وصفرته.

ـ تحريم الغش والنَّجَش :

روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ مرَّ في السوق على صُبْرَةِ طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بَلَلاً، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: يا رسول الله أصابته السماء، قال: «أفلا جعلتَه فوقَ الطعام حتى يراه الناسُ؟!»، وقال: «من غشنا فليس منا»[28].

وعن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ عن النجش. أخرجه البخاري ومسلم والنسائي، وزاد الموطأ، قال: «والنجش أن تعطيه بسلعته أكثر من ثمنها، وليس في نفسك اشتراؤها فيقتدي بك غيرك»[29].

---

٢٨ - رواية مسلم والترمذي، وورد عند ابن الأثير في جامع الأصول برقم: ٣٢٨، المرجع السابق، الجزء الأول، ص: ٤٩٨. ويقول ابن تيمية: والغش يدخلٍ في البيوع بكتمان العيوب وتدليس السلع، مثل أن يكون ظاهر المبيع خيراً من باطنه.. ويدخل في الصناعات مثل الذين يصنعون المطعومات.. أو يصنعون الملبوسات كالنساجين.. فيجب نهيهم عن الغش والخيانة والكتمان. ومن هؤلاء الكيماوية الذين يغشون النقود والجواهر والعطر وغير ذلك.. انظر الحسبة في الإسلام، لابن تيمية، المرجع السابق، ص: ١٩ - ٢٠.

٢٩ البخاري: ٤ / ٢٩٨ في البيوع: باب النجش، وفي الحيل: باب ما يكره من التناجش، ومسلم رقم: ١٥١٦ في البيوع: باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه وتحريم النجش، والموطأ: ٢ / ٦٨٤ في البيوع: باب ما ينهى عنه من المساومة والمبايعة، والنسائي: ٧/ ٢٥٨ في البيوع: باب النجش، وأخرجه ابن ماجة رقم: ٢١٧٣ في التجارات: باب ما جاء في النهي عن النجش.

وعن عـبـدالله بن أبي أوفى قـال: الناجش آكل ربا خـائن، وهـو خـداع باطل لا يحل. ذكره البخاري تعليقاً[30].

- في النهي عن بيع الغرر والمضطر والحصاة:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: نهى عن بيع الغَرَر، وبيع الحَصَاة[31].
وعن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ، نهى عن بيع الغرر[32].

وقال شيخ من بني تميم: خطبنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أو قـال: قال لي علي: سيـأتي زمان على الناس عضـوض، يعض المـوسـر فيـه على ما في يده، ويُبايع المضطرون، ولم يؤمروا بذلك، قال الله تعالى: ﴿ولا

---

٣٠ - ٤ / ٢٩٧ في البيـوع: باب النجش ومن قال: لا يجوز ذلك البيع؛ وقـد وصله في الشـهادات: ٥ / ٢١١ فـقـال: حـدثني اسـحـاق أخبـرنا يزيد بن هارون، أخبـرنا العوام حـدثني ابراهيم أبو اسماعيل السكسكي سمع عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهـمـا يقـول: أقـام رجل سلعتـه، فحلف بالله لقـد أعطى بها مـا لم يعطها، فنزلت: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ قـال ابن أبي أوفى: الناجش: آكل ربا خـائن، وأمـا قـوله: «وهو خـداع باطل لا يحل»، فـهـو من كـلام البـخـاري تفـقـهاً، وليس من تتـمـة كـلام ابن أبي أوفى، نبـه على ذلك الحـافظ بن حجر رحمه الله.

٣١ - أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي. مسلم رقم: ١٥١٣ في البيـوع، باب بطلان بيع الحصاة والبيع الذي فيه غرر، والترمذي رقم: ١٢٣٠ في البيوع، باب ما جاء في كراهية بيع الغرر، وأبو داود رقم: ٣٣٧٦ في البيـوع، باب بيع الغرر، والنسائي: ٧ / ٢٦٢ في البيوع، باب بيع الحصاة، وأخرجه ابن ماجة في التجارات رقم: ٢١٩٤، باب النهي عن بيع الحصاة وعن بيع الغرر.

٣٢ - أخرجه الموطأ: ٢ / ٦٦٤ في البيـوع، باب بيع الغرر، وهو مرسل، لكنه بمعنى حديث أبي هريرة المتقدم. والغرر: ما له ظاهر تؤثره، وباطن تكرهه، فظاهره يغرّ المشتري وباطنه مجهول.

تَنسَوُا الفضْلَ بينكُمْ ...﴾[٣٣]، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر، وعن بيع الغرر، وعن بيع الثمرة قبل أن تدرك[٣٤].

- في النهي عن بيع الحاضر للبادي، وتلقي الركبان:

فقد روى أنس بن مالك قال: نهى رسول الله ﷺ أن يبيع حاضر لباد وإن كان أخاه لأبيه وأمه، هذه رواية البخاري ومسلم. وفي رواية أبي داود والنسائي قال: لا يبيع حاضر لباد، وإن كان أخاه وأباه. وفي أخرى لأبي داود عن أنس قال: كان يقال: لا يبيع حاضر لباد، وهي كلمة جامعة: لا يبيع له شيئًا، ولا يبتاع له شيئًا[٣٥].

وعن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: نهى رسول الله ﷺ أن يبيع حاضر لباد، أخرجه البخاري[٣٦]، وعنه أيضًا قال: نهى رسول الله ﷺ عن تلقي البيوع، هذه رواية مسلم.. وله وللبخاري قال: قال رسول الله

---

٣٣ - سورة البقرة، الآية ٢٣٧.

٣٤ - أخرجه أبو داود، والعضوض: الكلب، ومنه: ملْك عضوض: فيه عسف وظلم. بيع المضطر على وجهين: أحدهما: أن يضطر إلى العقد من طريق الإكراه، وهذا فاسد. والآخر: أن يضطر إلى البيع لدين ركبه، أو مؤونة ترهقه، فيبيع ما في يده بالوكس، وهذا سبيله من جهة المروءة والدين، أن لا يبايع على هذا الوجه، ويعان، ويُقرض، ويمهل عليه إلى الميسرة.

٣٥ - البخاري: ٤ / ٣١٢ في البيوع، باب لا يشتري حاضر لباد بالسمسرة، ومسلم رقم: ١٥٢٣ في البيوع، باب تحريم بيع الحاضر للبادي، وأبو داود في الإجارة، باب في النهي أن يبيع حاضر لباد رقم: ٣٤٤٠، والنسائي: ٧ / ٢٥٦ في البيوع، باب بيع الحاضر للبادي.

٣٦ - ٤ / ٣٢١ في البيوع، باب من كره أن يبيع حاضر لباد وبأجر.

ﷺ: «لا تَلَقُّوا السلع، حتى يهبط بها إلى السوق»، وأخرجه أبو داود بزيادة في أوله قال: لا يبع بعضكم على بيع بعض، ولا تلقوا السلع... الحديث. والسبب في نهي رسول الله ﷺ عن تلقي السلع ما قد ينطوي عليه التلقيّ من تغرير البائع لأنه لا يعرف السعر، فيشتري منه المشتري بدون القيمة.

وروى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَلَقَّوُا الركبان، ولا يبيع حاضر لباد». فقال له طاووس: ما قوله: لا يبيع حاضر لباد؟ قال: لا يكون له سمسارا[37].

وروى عبدالله بن عباس أن النبي ﷺ قال: «لا تستقبلوا السوق، ولا تُحَفّلوا، ولا يُنَفّق بعضكم لبعض»[38].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل سلف وبيع، ولا شرطان في بيع، ولا ربح ما لم يُضمن، ولا بيع

---

37 - أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي، إلا أن أبا داود ليس عنده قوله: لا تلقوا الركبان. البخاري: ٤ / ٣١١ في البيوع، باب هل يبيع حاضر لباد بغير أجر، وفي الإجارة، باب أجر السمسرة، ومسلم رقم: ١٥٢١ في البيوع، باب تحريم بيع الحاضر للبادي، وأبو داود رقم: ٣٤٣٩ في الإجارة، باب النهي أن يبيع الحاضر لباد، والنسائي: ٧ / ٢٥٧ في البيوع، باب التلقي، وأخرجه ابن ماجة رقم: ٢١٧٧ في التجارات، باب النهي أن يبيع حاضر لباد.

38 - أخرجه الترمذي، رقم: ١٢٦٨، في البيوع، باب بيع المحفلات، وإسناده حسن. وقال الترمذي: حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم، كرهوا بيع المحفلة، وهي المصراة لا يحلبها صاحبها أياماً، أو نحو ذلك ليتجمع اللبن في ضرعها، فيغتر بها المشتري، وهذا ضرب من الخديعة والغرر. ينفق بعضكم لبعض: هو كالنجش، فإن الناجش بزيادته في السلعة، يرغب السامع فيها، فيكون قوله سبباً لابتياعها، ومُنفقاً لها.

ما ليس عندك»[٣٩].

وتجدر الإشارة إلى أن تلك الضوابط التي ألمعنا إلى بعضها بإيجاز هي نوع من أنواع حماية المستهلك. بل إن نظام الحسبة في الإسلام، وهو ما استنبطه عمر بن الخطاب رضي الله عنه من جوهر النظام الإسلامي، يجعل مسؤولية الأمانة والمراقبة مسؤولية جماعية ويحمّل الدولة واجب القيام بها وذلك بتكليف الأكفياء من ذوي الأمانة حيث تصبح مراقبة الموازين[٤٠]

---

٣٩ - أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي، النسائي: ٧/٢٨٨ و٢٩٥ في البيوع، باب سلف وبيع، وباب شرطان في بيع، وباب بيع ما ليس عند البائع، والترمذي رقم: ١٢٣٤ في البيوع، باب كراهية بيع ما ليس عندك، وأبو داود رقم: ٣٤٠٥ في الإجارة، باب في الرجل يبيع ما ليس عنده، وإسناده حسن. وأخرجه ابن ماجة رقم: ٢١٨٨ في التجارات، باب النهي عن بيع ما ليس عندك. السلف والبيع: هو أن يقول: أبيعك هذا البعير مثلاً بخمسين ديناراً على أن تسلفني ألف درهم في متاع أبيعه منك. ربح ما لم يضمن: هو أن يبيعه سلعة قد اشتراها ولم يكن قبضها. فهي في ضمان البائع الأول، وليس من ضمانه. الشرطان في البيع: هو بمنزلة بيعتين في بيع، كقولك بعتك هذا الثوب نقداً بدينار، ونسيئة بدينارين. قال الخطابي: لا فرق بين شرط واحد أو شرطين أو ثلاثة في عقد البيع عند أكثر الفقهاء، وفرق بينهما أحمد عملاً بظاهر الحديث.

٤٠ - إن الله تعالى يأمر بإيفاء الكيل والميزان، فهو يقول: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ سورة الأنعام، الآية ١٥٢، ويقول: ﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ سورة الإسراء: الآية ٣٥. كما ينهى عن التلاعب بالكيل والوزن وتطفيفهما، فيقول: ﴿ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ سورة المطففين، الآيات ١ - ٦. ويحث المنهج الإسلامي ليس فقط على إيفاء الكيل والوزن بالدقة الواجبة، بل كذلك ترجيح الميزان لصالح المشتري، فقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يزن لآخر بالأجر، فقال له: «زن وأرجح».

وضبطها وسلامة التعامل من الغش والابتزاز جزءًا أساسيًا في نظام الحسبة الذي يحرص على أن يكون العمل صالحًا.

والعمل الصالح في ميدان النشاط الاقتصادي يعني إجادة المنتجات وتحسين طرق الإنتاج وخفض التكاليف مما يمكن المستهلك من الحصول على مطالبه من السلع والخدمات بثمن أقل. غير أن هذه المنافسة وإن كان الإسلام قد دعا إليها وحبذها، فإنه يدعو إلى مباشرتها في رفق، ويحيطها بسياج من الأخلاق والسلوك القويم ينأى بها عن الكيد للغير وتعمُّد إيذائه. فمحاولة المنافس إخراج منافسه من السوق بشتى الطرق ليستأثر وحده بمغانمها أمر لا يرضاه الإسلام، إذ يقول الرسول ﷺ: «لا يبع الرجل على بيع أخيه، ولا يزيدَنَّ على بيع أخيه» وفي رواية: «ولا يَسُمِ الرجل على سوم أخيه» و «ولا يبع بعضكم على بيع بعض»[41]، كما يقول عليه الصلاة والسلام: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به»، ويقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[42].

فالإسلام يدعو إلى عدم الإضرار بالآخرين في أي مجال من مجالات الحياة، فيقول النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»، وروي: «ولا إضرار»[43]، وبناء على ذلك فإنه لا ينبغي أن يبالغ البائع في السعر، ولا أن يبخس المستهلك

---

٤١ - رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي..

٤٢ - أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.. انظر جامع الأصول لابن الأثير، المرجع السابق، الجزء الأول، ص: ٢٣٩.

٤٣ - أخرجه الموطأ. وقال أيضاً «من ضارّ أضرّ الله به، ومن شاقّ شقّ الله عليه» أخرجه أبو داود برقم ٣٦٣٥ في الأقضية باب، أبواب من القضاء، ورواه الترمذي برقم ١٩٤١ في البر والصلة، باب ما جاء في الخيانة والغش، وابن ماجه برقم ٢٣٤٢ في الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره.

السعر، ولا أن يقدم البائع سلعة للمستهلك لا تحقق له المنافع التي يرجوها، ولا أن يتنافس بائعان إلى الحد الذي يدمر مصلحتهما، التي هي من مصلحة المجتمع.

والحقيقة أن بعض المنتجين في الدول الغربية يلجأون إلى سياسة الإغراق كوسيلة للسيطرة على الأسواق، أو يعمدون إلى إتلاف الإنتاج وإحراقه وحرمان الناس منه كيلا تنخفض أسعاره.. فيحرقون القمح والبن ويُريقون الحليب.. كي تظل الأسعار مرتفعة، ليجنوا الأرباح الفاحشة دون أي وازع إنساني. بل إن منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة تعلن كل عام عن أرقام محزنة تبيّن أن الملايين من الناس في آسيا وأفريقيا يعانون من الجوع والعري. وأكثر من مليار من الناس يعانون من سوء التغذية في وقت تنفق فيه المليارات على الحروب وعلى إنتاج الصواريخ العابرة للقارات.. كما تُدفع المليارات كتعويض على عدم إنتاج الأغذية، فضلاً عن حرق المحاصيل وقتل عشرات الآلاف من العجول ودفنها للمحافظة على الأسعار. وهم في الغرب يدّعون أنهم متحضرون!...

وتجدر الإشارة إلى أن الإسلام لم يتعرض للعمليات الفنية في الشراء والبيع والإعلان، ولكنه نظر إلى هذه الوظائف نظرة سلوكية، تحافظ على مصالح الأطراف المختلفة، وتنظم العلاقات بينها، وتضع لها القواعد التي تبيح التصرفات، وتحرم بعضها الآخر لما يتحقق عنه من مضرة بأحد الطرفين أو بجماعة المسلمين.

وقد حث الإسلام على الكسب الحلال عن طريق الشراء والبيع، وفي هذا يقول علي كرم الله وجهه: أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يحب أن يرى عبده يسعى في طلب الحلال»، كما روى عنه ﷺ أنه قال: «طلب

الحلال واجب على كل مسلم»، ولقد سئل النبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله أي الكسب أطيب (أي أحل وأبرك)؟ قال: «عمل المرء بيده وكل بيع مبرور» (أي ما خلا من الحرام والغش).. وقال الله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطلِ ...﴾[44]. فالكسب الحرام خبيث سواء كان محرماً في ذاته أو في وسيلته.

- الصدق في المعاملة:

حثّ الإسلام على الصدق في المعاملات بأنواعها، ومنح الصادق في التعامل منزلة رفيعة. وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء»[45]. ويقول في حديث آخر: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر...» ويُفهم من الحديث أن المقصود بالصدق هو الصدق المطلق الخالص النية سواء في تكوين المنتجات أو في مواصفاتها ومنافعها أو في سعرها.

بل إن الإسلام يحرّم بيع سلعة بها علة خافية لو علمها المشتري لانصرف عنها، ويلزم البائع بإظهار العلة وإخبار المشتري عنها.

وعندما يتوافر الصدق في المعاملات يطمئن الناس وتتكون الثقة بين البائعين والمشترين، ولا ريب أن مما يضعف هذه الثقة لجوء البائع إلى الحلف، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب»[46]،

---

٤٤ - سورة النساء، الآية ٢٩.

٤٥ - أخرجه الترمذي برقم ١٢٠٩ في البيوع، باب ما جاء في التجار..

٤٦ - هذه رواية البخاري ومسلم، وعند أبي داود: «ممحقة للبركة». المحق: النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ البقرة/ ٢٧٦. =

و «إياكم وكثرة الحلف في البيع، فإنه يُنَفِّقُ ثم يَمحَق»[47]، و «من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان»، وقال أيضًا: «إن التجار هم الفجار»، فقيل يا رسول الله أليس قد أحل الله البيع؟ قال: «نعم، ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدّثون فيكذبون». وكذلك قال عليه الصلاة والسلام: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة» فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: «وإن كان قضيبًا من أراك».. وعلى ذلك فالحلف ممقوت، والحلف الكاذب حرام مهما كانت المبررات.

والحقيقة فإن الالتزام بتعاليم الإسلام يجعل من الإنسان إنسانًا متحضرًا في سلوكه وتعاملاته. يروي الثقاة بهذا الصدد أن بعض التجار ممن تجمعهم سوق واحدة كان إذا سبق إليه مشتر فاشترى منه بضاعة ثم جاء مشتر ثان وكان جاره لم يستفتح نهاره ببيع قال له: اذهب واشتر ما يلزمك من جاري فإني قد بعت وهو لم يبع بعد.. أي سلوك اقتصادي هذا حيث تسود في معاملات الناس تلك القيم الحضارية فتجعلهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة!..[48]، وهذا تعامل بين تجار بينهم اختلاف في المصالح، فالعلاقة هي بين بائع وبائع، وكل منهما يريد البيع والربح، ولكن تعاليم الإسلام هذبت من نفوسهم فجعلت الفرد منهم يفضل أخاه على

= البخاري ٥ / ٢١٩ في البيوع. باب يمحق الله الربا ويربي الصدقات، ومسلم برقم ١٦٠٧ في المساقاة باب النهي عن الحلف في البيع، وأبو داود برقم ٣٣٣٥ في البيوع باب كراهية اليمين في البيع.

٤٧ - أخرجه مسلم والنسائي. مسلم برقم ١٦٠٧ في المساقاة، والنسائي ٧ / ٢٤٦ في البيوع باب المنفق سلعته بالحلف الكاذب.

٤٨ - انظر في ذلك للمؤلف كتاب: إدارة الأفراد، المرجع السابق، ص: ٢٣٢.

نفسه.

وثمة علاقة أخرى قائمة بين البائع والمشتري.. ومع ذلك تأتي تعاليم الإسلام لتجعل هذه العلاقة علاقة نصح ومودة لتبقى في إطار: إنما المؤمنون أخوة، وفي إطار: عامل الناس كما تحب أن يعاملوك به.. فيروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان.. ضرب قيمة كل حلة منه أربعمائة، وضرب كل حلة قيمتها مائتان، فمر إلى الصلاة، وخلّف ابن أخيه في الدكان. فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمائة فعرض عليه حلل المائتين فاستحسنها ورضيها واشتراها. فمضى بها وهي على يديه فاستقبله يونس فعرف حلته، فقال للأعرابي: بكم اشتريت؟ فقال: بأربعمائة. فقال: لا تساوي أكثر من مائتين، فارجع حتى تردها. فقال: هذه تساوي في بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها. فقال يونس: انصرف فإن النصح في الدين خير من الدنيا وما فيها. ثم ردّه إلى الدكان وردّ عليه مائتي درهم وخاصم ابن أخيه في ذلك، وقال له: أما استحييت، أما اتقيت الله!.. تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين. فقال: والله ما أخذها إلا وهو راض بها. قال: فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك.

وروي عن محمد بن المنكدر أن غلامه باع لأعرابي في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة، فلم يزل يطلب ذلك الأعرابي طول النهار حتى وجده، فقال له: إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة. فقال: يا هذا قد رضيت. فقال: وإن رضيتَ فإنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، ورد عليه خمسة.

إن جوهر هذا كله يكمن في الرقابة الذاتية التي تتجسَّد في قول يونس ابن عبيد لابن أخيه: أما استحييت.. أما اتقيت الله؟.. تلك الرقابة الذاتية

التي غـرسـهـا الإسـلام في النفس، فـجـعلت الفـرد هو الضـمـيـر وزودته بالحساسية المرهفة ليبلغ في شعوره تلك الآفاق..

* * *

الفصل السادس

إدارة الأمـــوال

تمهيد - ماهية المال - ترشيد إنفاق المال: الاعتدال، تحريم الاكتناز، واجب الإنفاق كل حسب سعته، وجوب تداول الثروات - دور الربا في استغلال الشعوب - تحريم الإسلام للربا في إدارة الأموال: آيات تحريم الربا، مما ورد عن رسول الله ﷺ من أحاديث - بين الربح والفائدة - المغزى الاقتصادي / الاجتماعي لتحريم الربا - الملكية الفردية - فريضة الزكاة - من أنماط السلوك المالي في التعامل.

تمهيد

تطرقنا في هذا الفصل إلى موضوع إدارة الأموال لأنها من عناصر الإنتاج في الإدارة.

ولعل من روائع ما قدمه الإسلام للبشرية - من جملة ما قدم من أنظمة اجتماعية وسياسية وتربوية ... - هو هذا النظام الاقتصادي/ المالي الذي يُساهم في التقدم، ويمنع استغلال الإنسان للإنسان، وتحكُّمَ الدول بالدول، ويحارب الفقر، ويكفل لجميع المجتمعات المستوى اللائق من العيش الكريم.

وقد تناولنا ماهية المال، وعوامل ترشيد إنفاقه، وتحريم اكتنازه، ووجوب تداوله وتثميره المشروع. ثم عرضنا مضار الربا ودوره في استغلال الشعوب، وحكمة تحريمه في الإسلام بالاعتماد على ما جاء في القرآن الكريم من آيات، وما ورد عن رسول الله ﷺ من أحاديث شريفة. مع الإشارة إلى الفروق بين الربح والفائدة، والمغزى الاقتصادي / الاجتماعي لتحريم الربا في الإسلام.. ثم تطرقنا إلى الملكية الفردية كوظيفة اجتماعية وضوابط التصرف والانفاق، وإلى فريضة الزكاة كفريضة وحق وركن من أركان الإسلام وكعبادة وواجب اجتماعي. وأخيراً تناولنا بعض أنماط السلوك المالي في التعامل.

ما هية المال

المال هو أحد عناصر الانتاج، وهو عصب الحياة في المنشأة الاقتصادية، مثلما هو من زينة الحياة الدنيا[1] عند الفرد والمجتمع.

وقال رسول الله ﷺ للمُجاشِعي[2]: «إن كان لك مال فلك حَسَب، وإن كان لك خُلُق فلك مروءة، وإن كان لك دِين فلك كرم». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حَسَب الرجل ماله، وكرمه دينه، ومروءته خُلُقه.

---

١ - قال الله تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا...﴾ سورة الكهف: الآية ٤٦ . فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن في المال جمالاً ونفعاً وفي البنين قوة ودفعاً، وقال عبدالرحمن بن عوف: يا حبذا المال أصون به عرضي وأتقرب به إلى ربي.

٢ - في عيون الأخبار (جـ ١ ص ٢٩٥): «لرجل من مجاشع».

وعن المال قال الجاحظ: اعلم أن تثمير المال آلة المكارم، وعَوْن على الدّين وتأليف للإخوان؛ وإن من فقد المال قلَّت الرغبة إليه والرهبة منه، ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استهان الناسُ به فاجهد جَهْدك كله في أن تكون القلوب معلَّقة منك برغبة أو رهبة في دِين أو دنيا. وقال حكيم لابنه: يا بُني، عليك بطلب المال، فلو لم يكن فيه إلا عزٌّ في قلبك وذُلٌّ في قلب عدوك لكفى. وقال ابن عباس: الدنيا العافية، والشباب الصحة، والمروءة الصبر، والكرم التقوى، والحَسَب المال.. ونظر إلى درهم بيد رجل فقال له: إنه ليس لك حتى يخرج من يدك. يريد أنه لا ينتفع به حتى يُنفقَه ويستفيد غيرَه مكانه[3] وكان سعد بن عبادة يقول: اللهم ارزقني جِداً ومَجداً، فإنه لا مجد إلا بفَعال، ولا فَعال إلا بمال. وقالت الحكماء: لا خير فيمن لا يجمع المال يصون به عرضه، ويحمي به مروءته، ويصِل به رَحِمه. وقال سفيان الثوري: المال سلاح المؤمن في هذا الزمان. وقال خالد بن صفوان لابنه: يا بُنَيّ، أوصيك باثنتين، لن تزال بخير ما تمسَّكت بهما: درهمك لمعاشك، ودينك لمعادك. وعندما سأل معاوية بن أبي سفيان صعصعة بن صُوحان عن الذهب والفضة من المال، قال صعصعة: حَجَران يصطكان، إن أقبلت عليهما نفدا وإن تركتهما لم يزيدا، وكان يرى أن أفضل المال: بُرَّة سمراء (الحنطة) في تُربة غبراء أو نعجة صفراء في روضة خضراء أو عين خَرَّارة في أرض خَوّارة[4].

والمال اختبار للبشر في حياتهم الدنيا، فهو وسيلة إلى الخير والشر، يقول الله تعالى: ﴿واعلموا إنما أموالكمْ وأولادكمْ فتنةٌ وأنَّ اللهَ عندهُ أجرٌ

---

٣ - ابن عبد ربه، المرجع السابق، الجزء الثالث، ص: ٢٨ - ٣٢.

٤ - خَوّارة: لينة سهلة.

عظيمٌ﴾[5].

وقد بين الله تعالى أن المال من متاع الدنيا، قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ للناسِ حبُّ الشهواتِ منَ النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المقنطرةِ منَ الذهبِ والفضةِ والخيلِ المسوَّمةِ والأنعامِ والحرثِ ذلكَ متاعُ الحياةِ الدنيا واللهُ عندهُ حسنُ المآبِ. قلْ أؤنبئكم بخيرٍ من ذلكمْ للذينَ اتقوا عندَ ربهمْ جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها ...﴾[6].

ويبين القرآن الكريم أن ما يقرب إلى الله هو الإيمان والعمل الصالح وليست كثرة المال دليلاً على رضى الله. قال الله تعالى: ﴿وقالوا نحنُ أكثرُ أموالاً وأولاداً وما نحنُ بمعذبينَ. قلْ إنَّ ربي يبسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ. وما أموالكُمْ ولا أولادكُمْ بالتي تقربكمْ عندنا زلفى إلا منْ آمنَ وعملَ صالحًا فأولئكَ لهمْ جزاءُ الضعفِ بما عملُوا وهمْ في الغرفاتِ آمنونَ﴾[7].

---

٥ - سورة الأنفال: الآية ٢٨.. والفتنة هنا معناها الاختبار.

٦ - سورة آل عمران: الآيتان ١٤ و ١٥. القناطير جمع قنطار وهو العُقْدَة الكبيرة من المال. المسومة: الراعية في المروج والمسارح، وقال مجاهد: المطَهَّمَة الحسان، وقيل المعلّمة من السيما وهي العلامة. والأنعام: قال ابن كيسان إذا قلت نعمٌ لم تكن إلا للإبل فإذا قلت أنعام وقعت للإبل وكل ما يرعى؛ وقال الفرّاء: هو مذكر ولا يؤنث، وقال الهروي: يذكر ويؤنث. والأنعام: المواشي من الإبل والبقر والغنم. الحرث: اسم لكل ما يُحْرَث وحرث الرجل حرثًا إذا أثار الأرض لمعنى الفلاحة. وقالوا: ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال، كل نوع من المال يتموّل به صنف من الناس؛ أمّا الذهب والفضة فيتموّل بها التجار، وأمّا الخيل المسوّمة فيتموّل بها الملوك، وأمّا الأنعام فيتموّل بها أهل البوادي، وأمّا الحرث فيتموّل بها أهل الرساتيق. فتكون فتنة كل صنف في النوع الذي يتموّل.

٧ - سورة سبأ: الآيات ٣٥ - ٣٧. =

وقد يطغى الإنسان إذا حظي بالثروة واغتنى، قال الله تعالى: ﴿كلا إنَّ الإنسانَ ليطغى. أن رآه استغنى. إنَّ إلى ربكَ الرجعى﴾[٨].

ولذا فإن الله يرزق العباد حسب مشيئته وهو أعلم بحالهم، قال الله تعالى: ﴿ولوْ بسطَ اللهُ الرزقَ لعبادهِ لبغوا في الأرضِ ولكن يُنَزِّلُ بقدرٍ ما يشاءُ إنهُ بعبادهِ خبيرٌ بصيرٌ﴾[٩].

والحصول على المال وجني الثروات قد يدفع الإنسان... والدول إلى الدخول في صراعات والتخلي عن القيم الأخلاقية، ولذا جاءت تعاليم القرآن الكريم لتخفف من شرور المال ولتحذر من الانقياد إليه والافتتان به فوصف الله تعالى المؤمنين فقال: ﴿رجالٌ لا تلهيهمْ تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكرِ اللهِ

= ويَقْدرُ أي يقتر، أي أن الله هو الذي يفاضل بين عباده في الأرزاق امتحاناً لهم، فلا يدل شيء من ذلك على ما في العواقب، فسعة الرزق في الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة. والزُّلفة: القربة.

٨ - سورة العلق: الآيات ٦ - ٨.
كلا بمعنى حقاً، والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان، أن رآه: لأن رأى نفسه استغنى أي صار ذا مال وثروة، وقيل استغنى بالعشيرة والأنصار والأعوان.

٩ - سورة الشورى، الآية ٢٧.
بسط معناها وسّع، وبسط الشيء نشره وبالصاد أيضاً. وقيل: لو جعلناهم سواء في المال لما انقاد بعضهم لبعض ولتعطلت الصنائع. البغي: الظلم. وقالوا الغنى مبطرة مأشرة ومنه قوله عليه السلام: «أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها»، وقيل: البغْي: البذخ والكبر. حديث رواه أنس عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: «.... وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر. وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى. وإني لأدبر عبادي لعلمي بقلوبهم فإني عليم خبير». ثم قال أنس: اللهم إني من عبادك المؤمنين الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرني برحمتك.

وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ يخافونَ يوماً تتقلبُ فيهِ القلوبُ والأبصارُ﴾[10] و ﴿... ورحمتُ ربكَ خيرٌ ممَّا يجمعونَ﴾[11].

ولذلك اعتبر الإسلام أن المال مال الله والناس مستخلفون فيه[12]، وملكيته هي ملكية انتفاع أو عارية تمارس بالاستهلاك والاستثمار...وعليهم إنفاقه فيما أحله الله، مع حسن الإدارة والتقوى في التصرف، كما أن للآخرين حقًا فيه، قال الله تعالى: ﴿والذينَ في أموالهمْ حقٌ معلومٌ. للسائلِ والمحرومِ﴾[13] و ﴿... وآتوهُم مِّن مالِ اللهِ الذي آتاكمْ ...﴾[14]. فكأن حيازة

---

١٠ - سورة النور، الآية ٣٧.

١١ - سورة الزخرف، الآية ٣٢.

١٢ - قال الله تعالى: ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ سورة الحديد: الآية ٧، إذن صاحب المال من الناس مستخلف فيه مثل ما هو مسؤول عنه ومحاسب على إنفاقه وأن المالك الحق هو الله، قال الله تعالى: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾ سورة البقرة: الآية ٢٨٤، و ﴿ولله ملك السموات والأرض...﴾ سورة الشورى: الآية ٤٩، و ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير﴾ سورة المائدة: الآية ١٢٠، و ﴿لله خزائن السموات والأرض﴾ سورة المنافقون: الآية ٧. ولعل أبسط مظهر لهذا الاستخلاف ان الإنسان ينفق عمره في جمع المال متكالبا يحتثه سعار لاهب، حتى إذا ما اجتمع له من متاع الدنيا جله ودقه ثم حضرته الوفاة لبى مستسلما لا يني ولا يريم وودع الدنيا عازفًا زاهدًا صفر اليدين مخلفا جماع ما احتاز واكتنز من طارف وتليد لورثته من بعده يستخلفهم فيه كما استخلف هو من قبل، ثم لا يلبثون بدورهم أن يذروه لورثتهم من بعدهم، وهكذا دواليك مجرد خلائف وأمناء على ودائع يتعاورونها متعاقبين خلفًا عن سلف، حتى يرث الله الأرض وما عليها ومن عليها مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ سورة الحديد: الآية ١٠.

١٣ - سورة المعارج، الآيتان ٢٤ - ٢٥.

١٤ - سورة النور، الآية ٣٣.

المال ظاهرها التمليك وحقيقتها التفويض الذي يستتبع المساءلة، قال الله تعالى: ﴿ فوربكَ لنسألنهمْ أجمعينَ. عمَّا كانُوا يعملونَ ﴾[15]، ورسول الله ﷺ يقول: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفق، وعن علمه ماذا عمل به».

ترشيد إنفاق المال

وضع الإسلام قيوداً على إنفاق المال تضمن ترشيده وحسن الاستفادة منه من أهمها ما يلي:

- الاعتدال في إنفاق المال: حض الإسلام على الاعتدال والتوسط في الانفاق فلا إسراف ولا تبذير أو سوء استعمال، قال الله تعالى: ﴿ ... ولا تُسرِفُوا إنهُ لا يحبُّ المسرفينَ ﴾[16] وقال أيضاً: ﴿وآتِ ذا القربى حقهُ والمسكينَ وابنَ السبيلِ ولا تبذرْ تبذيراً. إنَّ المبذرينَ كانوا إخوانَ الشياطينِ وكانَ الشيطانُ لربهِ كفوراً ﴾[17].

وقد جاء توجيه الإسلام في ترشيد إنفاق المال حكيماً حتى في وجوه الخير، قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى

---

١٥ - سورة الحجر، الآيتان ٩٢ - ٩٣.

١٦ سورة الأنعام، الآية ١٤١.

١٧ سورة الإسراء: الآيتان ٢٦ و ٢٧.
والتبذير: إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير. وقول الله تعالى: ﴿إخوان﴾ يعني أنهم في حكمهم، وهي جمع أخ من غير النسب ومنها قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ سورة الحجرات، الآية ١٠.

وابدأ بمن تعول». فالصدقة تبدأ بعد القيام بحقوق النفس والعيال فلا يتحول المنفق إلى محتاج بعد صدقته.. والغنى في هذا الحديث حصول ما تدفع به الحاجة الضرورية. وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي فقلت: إني قد بلغ بي من الوجع وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا». فقلت: بالشطر؟ فقال: «لا...» ثم قال: «الثلث والثلث كثير.. إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس. وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في فيّ امرأتك».

- تحريم اكتناز المال وحبسه عن التداول: حض الإسلام على الإنفاق ابتغاء إخراج المال إلى التداول ليتم الانتفاع به مما يساهم في الرخاء الاقتصادي. فتداول المال يؤدي إلى دورانه، وتدوير عجلة الحياة الاقتصادية في مجالات الانتاج الزراعي والصناعي...، أما اكتنازه فإنه يؤدي إلى تجميده في الخزائن وتعطيله فلا تتحقق المنفعة منه. وبالتالي فالكانز للمال قد فوّت على نفسه وعلى المجتمع منفعة وسبب ضائقة تستدعي معاقبته. قال الله تعالى: ﴿ ... والذينَ يكنزونَ الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونها في سبيلِ اللهِ فبشرهم بعذابٍ أليمٍ. يومَ يحمى عليها في نارِ جهنمَ فتكوى بها جباههمْ وجنوبهمْ وظهورهمْ هذا ما كنزتمْ لأنفسكمْ فذوقوا ما كنتمْ تكنزونَ ﴾[18]، وقد فسر النبي ﷺ هذا العذاب بقوله: «بشر الكانزين بكيّ في ظهورهم يخرج من جنوبهم، وبكيّ من قبل أقفائهم يخرج من جباههم». وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة

---

١٨ - سورة التوبة، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل به يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني شدقيه - ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك ثم تلا: ﴿ولا يحسبنَّ الذينَ يبخلونَ بما آتاهمُ اللهُ من فضلهِ هوَ خيراً لهم بلْ هوَ شرٌّ لهمْ سيطوقونَ ما بخلوا بهِ يومَ القيامةِ وللهِ ميراثُ السمواتِ والأرضِ واللهُ بما تعملونَ خبيرٌ﴾[19]».

- واجب الإنفاق كل حسب سعته: وهذا من مظاهر التكافل الاجتماعي في الإسلام الذي فرض الإنفاق على الغني والفقير كل حسب سعته. قال الله تعالى: ﴿لينفقْ ذو سعةٍ من سعتهِ ومن قدرَ عليهِ رزقهُ فلينفقْ مماً آتاهُ اللهُ لا يكلفُ اللهُ نفساً إلا ما آتاها سيجعلُ اللهُ بعدَ عسرٍ يسراً﴾[20].

فقد أوصى الإسلام بالفقراء وذوي الحاجة فحض على الإنفاق حتى لا تحزبهم فاقة أو إملاق، وجعل لهم حقًا في أموال الأغنياء، قال الله تعالى: ﴿والذينَ في أموالهمْ حقٌ معلومٌ. للسائلِ والمحرومِ﴾[21].

وقال رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة». وقال أيضًا: «أي رجل مات ضياعًا بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله».

وحتى لا يستمرئ الناس الصدقات، ويدعوهم حقهم فيها إلى الإخلاد إلى الدعة والتبطل. فقد حث الرسول ﷺ المسلمين على العمل، وتفضيل الكسب من عمل اليد على الارتزاق من الصدقات، ووضع لذلك دستوراً حميداً حيث يقول: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي»،

---

١٩ - سورة آل عمران، الآية ١٨٠.

٢٠ - سورة الطلاق، الآية ٧

٢١ - سورة المعارج، الآيتان ٢٤ و ٢٥.

وذو المرة هو القوي القادر على العمل والكسب.

- وجوب تداول الثروات: وهذا من أسس الاقتصاد الإسلامي الذي يحرم الاحتكار ويمنع الاكتناز[٢٢]، الذي يمنع من تداول الأموال ويلحق الضرر بالمصلحة العامة.

وتداول الأموال من شأنه أن يمنع من انحصارها في أيدي القلة، ويحد من تأثير وسطوة رأس المال على مقاليد الحكم والإدارة والاقتصاد، قال الله تعالى: ﴿ ... كيْ لا يكونَ دولةً بينَ الأغنياءِ منكمْ ... ﴾[٢٣]، ولهذا شجع الإسلام على الإنفاق، قال الله تعالى: ﴿ ... وما أنفقتم من شيءٍ فهوَ يخلفُهُ وهوَ خيرُ الرازقينَ ﴾[٢٤] و ﴿ قل لعباديَ الذينَ آمنوا يقيموا الصلاةَ وينفقوا مما رزقناهمْ سراً وعلانيةً ... ﴾[٢٥]، ويبين الله تعالى ثمار الإنفاق فيقول: ﴿ ... وما تنفقوا منْ خيرٍ فلأنفسكمْ وما تنفقونَ إلا ابتغاءَ وجهِ اللهِ وما تنفقوا منْ خيرٍ يوفَّ إليكمْ وأنتمْ لا

---

٢٢ - يقول الإمام الغزالي: من كنزهما ـ الذهب والفضة ـ فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما... وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ ممن كنز... وتجدر الإشارة إلى قول رسول الله ﷺ: «من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم» متفق عليه من حديث مسلمة.. والمتأمل لهذا الحديث الشريف يدرك أن رسول الله ﷺ قد علم النتائج الاقتصادية لتجميد الثروة وتعطيلها مع أنه لم يدرس في جامعة أو في كلية للاقتصاد.. ألا يدل ذلك ـ وقد أعطى لعلم الاقتصاد فكراً اقتصادياً ثاقباً وبصيرةـ على أنه رسول الله.

٢٣ - سورة الحشر، الآية ٧.

٢٤ - سورة سبأ، الآية ٣٩.

٢٥ - سورة إبراهيم، الآية ٣١.

تظلمونَ﴾[٢٦].

ولا يعتبر المال في الإسلام ملكًا، إلا إذا كان مصدره حلالاً، وجاء عن طريق مشروع، وإن لم يكن كذلك فهو حرام. فالإسلام ينظر إلى المال نظرة خاصة باعتباره مال الله ينتفع به الناس في حياتهم بما لا يخالف أحكام الشريعة الغراء، ويورثونه بعد وفاتهم.

لذلك كانت ملكية المال في الإسلام ملكية مشتركة. فليس المالك حرًا في أن يمتلك ما يشاء ولا كيف يشاء كما لا يجوز أن يملكه غيره إلا إذا أحسن استخدامه. والمال ملك مشترك يمتلكه الفرد مع من تجب عليه نفقتهم، فإن امتنع كان على الحاكم المسلم أن يمكنهم من الحصول على حقهم فيه، كما لا يجوز له أن يمنع حق الله فيه، فإن امتنع فعلى الحاكم أن يستأدي منه هذه الحقوق. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ ... وآتوهم من مالِ اللهِ الذي آتاكمْ ... ﴾[٢٧]، ويقول: ﴿ولا تُؤتُوا السفهاءَ أموالكُمُ ...﴾[٢٨].

وكل مال محرم بنظر الإسلام لا يعتبر حلالاً، إنما هو سحت، ولا يصح تقويمه، ويهدر على صاحبه، وينال عليه العقوبة، كملكية الخمر مثلاً وغيره بالنسبة للمسلم. فالمال الحرام في الإسلام هو كل مال يأتي عن طريق غير مشروع، والتحريم لا يكون إلا بنص شرعي[٢٩].

---

٢٦ - سورة البقرة، الآية ٢٧٢.

٢٧ - سورة النور، الآية ٣٣.

٢٨ - سورة النساء، الآية ٥.

٢٩ - د. محمود عساف، المنهج الإسلامي في إدارة الأعمال، القاهرة، المرجع السابق، ص: ٢٦٢ - ٢٦٥.

هذا، وقد حرم الإسلام الربا وشدد في ذلك كثيراً، ويعتبر هذا التحريم من روائع ما قدم الإسلام للفكر الإقتصادي.

دور الربا في استغلال الشعوب

إن الحجة الكبرى التي يبررون بها الربا تتمثل في (الانتظار)، أو الكف عن العمل وتركه للآخرين.

ولهذا فعندما حرم الإسلام الربا بنصوص صريحة وهدد بمحق ثمرات الربا، إنما كان يهدف إلى ردع الفرد عن أن يعيش من جهود الآخرين فيكون عالة عليهم. وبالتالي فمن حكم الإسلام في تحريم الربا هو دعوة الفرد إلى العمل والنشاط والانتاج لأنه ليس من الكرامة في شيء أن يعيش الإنسان خاملا لا يعمل، ومن ثم يسطو على نتاج عمل الآخرين.

وعليه فإن حجة (الانتظار) في تبرير الربا هي حجة تصيب الانتاج بالعقم، ويكون أكل الربا معناه استغلال جهد وعرق الآخرين.

هذه النتيجة يمكن أن نتصور أبعادها ومضاعفاتها على المجتمع، إذا زاد عدد المنتظرين (آكلي الربا) فيه عن عدد العاملين المنتجين، ويزداد الخطر جسامة إذا فرضته السياسة الدولية بقوة سلاحها وخبث أحابيلها وألاعيب منظماتها وشركاتها ومصارفها.

ولهذا حاول دعاة الربا العدول عن فكرة (الانتظار) فابتدعوا مبرراً آخر يتمثل في: التفاوت فيما بين الناس في درجة التلهف على الأخذ بنصيب من المتاع، أو التفاوت في الإقبال السريع على الاستهلاك.

ولكن لو أمعنا النظر في هذه الحجة لظهر بطلانها. إذ ما هو العمل

الذي يؤديه هذا (المرابي الصابر!...) الذي يفضل المتاع المؤجل؟.. أليس هو الانتظار أيضًا دون عمل.

وعلى هذا فالفكر الاقتصادي الغربي يدور في حلقة مفرغة، وبين وقت وآخر يخرج بألفاظ ومصطلحات جديدة لتبرير سرقته للشعوب، وتزيين تصرفاته بتقديم أشكال جديدة وأفكار وتنظيمات نجح ــ مع الأسف ــ في إدخالها في فكر الكثيرين من الاقتصاديين عندنا حتى تحولت هذه الأفكار والتنظيمات إلى مادة علمية تُدَرَّس للطلاب في الجامعات دون فضح الفكر الخبيث الذي قدمها وزيَّنها بحلة براقة خادعة[30].

والجدير بالذكر أن أنظمة الغرب قد وضعت لتيسر الحصول على موارد الشرق بأقل الأثمان أو بغير ثمن، وكانت أنظمة العملات والمصارف والفوائد... من أدوات هذه القرصنة العالمية. ودليلنا على ذلك ــ على سبيل المثال ــ أن الخديوي إسماعيل قَبِل أن يبيع نصيب مصر في أسهم القناة عام ١٨٧٥ بما يقرب من أربعة ملايين جنيه. وتقول الوثائق بأن مصر لم تقبض هذا المبلغ بل استولى عليه بعض المرابين استيفاء لما استحق لهم من فوائد. ثم إن مصر كانت محرومة أرباح هذه الأسهم حتى عام ١٨٩٤ بموجب اتفاقية أملاها دليسبس عام ١٨٦٩ في إحدى التسويات الكثيرة التي أجراها على حساب مصر. ثم جاء الإنكليز عام ١٨٧٥ فطالبوا، بعد أن استقرت الأسهم في أيديهم، بتعويض عن الحرمان من الأرباح وفرضوا فائدة مقدارها ٥٪ لمدة عشرين سنة... وبالتالي دفعت مصر الثمن الذي

---

٣٠ - تجدر الإشارة إلى أن المكتبة العربية ازدحمت بالنقل وبالترجمة في ولاء سلبي خانع ذليل حتى ليُكاد أن يُقال بأن الفكر الاقتصادي هبط بوحي على ريكاردو اليهودي أو هبط على ماركس اليهودي أيضًا.

قيل بأنها أخذته... أبناء مصر يعملون ويكدحون ويشقون القناة... وحملة الأسهم يرقبون هذا الشعب وينتظرون مرور العام ليأخذوا الفوائد جزاء (الانتظار)!... بل إنه في عام ١٨٨٠ كان قد بقي لمصر ١٥٪ من ربح القناة، فاشترى هذه الحصة بعض الدائنين بمبلغ ٨٥٠ ألفًا ذهبت لسد بعض الفوائد الربوية ولم تقبض منها مصر شيئًا.. وأقام هؤلاء الدائنون بينهم شركة أطلقوا عليها اسم: «الشركة المدنية لقبض حصة الحكومة المصرية البالغة ١٥٪»!... وكان عمل هذه الشركة: (الانتظار).. أن ترقب دورة الفلك ليمر العام وتقبض الأرباح، حتى أن جملة ما حصلته نظير انتظارها الكريم: عملها!.. يزيد على خمسين مليونًا من الجنيهات!...[٣١].

والحقيقة فإن مثل ذلك قد جرى عندما تكتل الغرب (لأكل) آسيا وأفريقيا، ونؤكد بأن الثراء والرفاهية التي يتمتع بها الغرب الآن هي نتيجة للنهب المنظم والمستمر لخيرات الدول في آسيا وأفريقيا. وهذا النهب لازال مستمراً بدليل أن معدل التبادل يتجه دائمًا إلى ما فيه مصلحة الغرب، وثمن الثروات الطبيعية ثمن بخس. فسعر برميل البترول أرخص من مياه فيشي الفرنسية وثمن أطنان من القطن أقل من ثمن بعض زجاجات العطر التي تسرف وسائل الإعلان في الترويج لها.

إن النهب المنظم لخيرات الشعوب جعل الغرب يرتع في الرفاهية، فما تنفقه الأسرة الغربية على الكلب لا يحظى به مجموعة أطفال في آسيا وأفريقيا!...

وتجدر الإشارة إلى أن الأساطيل البريطانية كانت قد شكلت منذ عدة

---

٣١ - د. عيسى عبده، الربا ودوره في استغلال موارد الشعوب، الكويت، دار البحوث العلمية، ١٩٦٩، ص: ٢٥ - ٢٨.

عقود جسراً عائماً إلى السواحل الأفريقية حيث يقدم القباطنة صناديق الخرز الملوّن والمرايا إلى زعماء القبائل هدية من صاحبة الجلالة الإمبراطورة!.. ومن ثم تبدأ عمليات نهب الذهب والقصدير والمنغنيز والنحاس والأخشاب والمطاط... لأن السكان لم يكونوا يعرفون أن هذه الخيرات هي من الطيبات، وهي جزء من رأس المال[32].

ثم أدخلوا الكثير من الدول في آسيا وأفريقيا في أتون الانقلابات والصراعات الفارغة وراء زعامات جوفاء لتعيش هذه الدول في حالة من عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي.. ومن ثم زودوها بالسلاح لتقتال به نفسها، وبالقروض الربوية سلاسل تطوق به أعناقها. وبدأوا في الغرب باختراع أنظمة الصيرفة، وإصدار النقود المعدنية والورقية والحسابية والشيكات. وكلما أعوزتهم الحيل جاؤوا بجديد مستحدث من العدول عن قاعدة الذهب والرجوع إلى قاعدة الذهب.. وأقاموا منظمات دولية للنقد وللقروض.. تلك القروض التي تعصر البلدان الفقيرة وتكبّلها بأعباء الديون الربوية.

بل إن هذه القروض التي تقدمها المصارف الغربية للدول الفقيرة ـ بحجة المساعدة وبحجة أن الدول الفقيرة لا تملك رأس المال ـ سرعان أن تُحوَّل إلى المصارف الغربية بأسماء أشخاص، وقد تراوحت نسبة التحويل

---

٣٢ - نرى أنه يتعين على الدول الاستعمارية في الغرب.. انكلترا وفرنسا وروسيا وغيرها ممن مارس الاستعمار.. أن تعيد ما سرقته من خيرات البلدان النامية على شكل تعويضات وذلك إحقاقاً للعدل الدولي والتزاماً بمبادئ الإنسانية وإلا فإن الدول الاستعمارية تظل مدينة تجاه البلدان النامية. وحتى إذا فعلت فإن ذلك سيكون تعويضاً عن الجانب المادي فقط.. ويبقى المعنوي في ذمة الغرب وفي صفحات التاريخ دليلاً على التخلف الحضاري عندهم.

بين ٣٠٪ ـ ٩٤٪ !... وهو ما أطلق عليه مصرف التسويات في بلجيكا (معدل الفساد).

ومن المؤسف أن أغلب الدول الفقيرة لا تزال سادرة في غيّها، وتتلقف جمهرة المثقفين فيها النظريات والمفاهيم الاقتصادية التي يخترعها الغرب ويعمل على إذاعتها حتى وصل الحال لدى تلك الجمهرة إلى درجة العبودية للنظريات الغربية.

ولكي نجعل الموضوع أكثر وضوحاً نقول: يُشيع الغرب بأن الدول الفقيرة تحتاج إلى رؤوس الأموال الأجنبية وإلا بقيت متخلفة. وعندما يُطلَق مصطلح رأس المال تتزاحم أمام بعض الاقتصاديين صور المصارف والأوراق النقدية والودائع... وهذا بحد ذاته خطأ كبير ومصدر للخطر في نفس الوقت. لأن الصيرفة التي بدأت في القرون الوسطى على أيدي اليهود من الصاغة قد تطورت حتى صارت ما نراه الآن من منشآت نستودعها فائض الدخل لتتاجر فيه ولتستند إليه في إيجاد نقود الائتمان. فتركزت المعاملات الربوية بحكم هذا التطور في أعمال المصارف التي أسسها اليهود.

ونؤكد أيضاً أن رأس المال ليس الإيداعات في المصارف التي تستطيع خلق أضعافها من نقود الائتمان التي يجري التعامل بها بالشيكات والقيود والحسابات دون رقيب!.. وليس رأس المال هو تلك الأوراق النقدية من دولار أو مارك أو استرليني التي يتحكم بوساطتها الغرب بالدول الفقيرة.. إنه الطيبات المخصصة بإنتاج المزيد من الثروة.. وهو الطيبات المدخرة.. هو البترول الكامن في الأرض، المعادن والفلزات ومساقط المياه.. هو الأرض وماء الفيضان والطمي الذي يكسبها خصباً والزرع

نمـاء.. هـو القطن والحـبـوب والحـاصـلات هو مـا لدينا في أمـواه البـحـار والأنهار..﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾.

وعندما يكتشف الغرب أن لدى دولة مـا ثروة مـا.. نفطية مـثلاً سرعان أن يتغلغل لتبدأ شركاته بالاستـغلال ومن ثم يفرض على الدولة ثمنًا بخسًا لنهب هذه الثروة.. يشتري القطن بثمن زهيد ليعيده سلعًا مصنوعة بأثمان مـرتفـعة، ويغرس لدى فئات من الناس عادات تحاكي أساليب الاستـهلاك والتقليد الغربي. ويعلن دائمًا أن الدول (الفقيرة) تحتاج إلى القروض.. إلى أوراقه النقدية لأنها دول فقيرة!...

لو نظرنا إلى أفريقيا مثلاً فإننا نجد أن الجهاز الاستعماري قد أعد لكل جزء من هذه القارة الغنية نظامًا نقديًا يتحكم فيه.. فهو يصنع النقود في كل بلد أفريقي وفاقًا لسياسته ويتخذها أداة لتوزيع الأرزاق!..

بل كـثـيـرًا مـا تطلق بعض الأوسـاط (العلمـيـة) أحـاديث عن العـملة الصـعبـة.. القـروض المسـتـوردة.. الكتلة الإسـتـرلينيـة.. حـتى أصـبح الأمـر مألوفًا مع أن رؤوس الأموال الأجنبية ليست خيرًا يفيض من الغرب.

والحقيقة، ليس لنا أن نشكو الفقر، ولكن علينا أن نشكو الجهل.

تحريم الإسلام للربا في إدارة الأموال

يعتبر تحريم الربا من روائع ما قدمه الإسلام إلى الفكر الاقتصادي. فمنع بذلك الظلم والاستـغلال والباطل واستـعباد الإنسـان لأخيه الإنسـان وتحكم الدول بالدول، ووضع بذلك أساسًا متينًا لصرح اقتصادي مثالي بين الأفراد وعلى مستوى المجتمع وعلى مستوى الاقتصاد العالمي، ومن ثم

واقعًا مثاليًا للسلام العالمي. فقد حرّم الإسلام الربا لأنه يعتصر الفقير فيزيده فقرًا ويركم الأموال على الغني، ويستغل حاجة المحروم، ويمتص دماء الكادحين باحتكار السلع ورفع الأثمان، ويفسد الأخلاق في المجتمع، ويساعد على الطغيان والنفوذ، فتنبت الجريمة ويستعر الشقاق، إذ يطول انتظار الفقير إلى الإنصاف[33].

آيات تحريم الربا في القرآن الكريم:

قول الله تعالى: ﴿ الذينَ يأكلونَ الرِّبَا لا يقومونَ إلا كما يقومُ الذي يتخبطُهُ الشيطانُ منَ المسِّ ذلكَ بأنهمْ قالوا إنما البيعُ مثلُ الرِّبَا وأحلَ اللهُ البيعَ وحرمَ الرِّبَا فمن جاءَهُ موعظةٌ من ربهِ فانتهى فلهُ ما سلفَ وأمرهُ إلى اللهِ ومنْ عادَ فأولئكَ أصحابُ النارِ همْ فيها خالدونَ. يمحقُ اللهُ الرِّبَا ويُرْبي الصدقاتِ واللهُ لا يحبُّ كلَّ كفَّارٍ أثيمٍ. إنَّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ وأقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ لهمْ أجرهمْ عندَ ربهمْ ولا خوفٌ عليهمْ ولا همْ يحزنونَ. يا أيها الذينَ آمنوا اتقوا اللهَ وذروا ما بقيَ منَ الرِّبَا إن كنتُم مؤمنينَ. فإن لمْ تفعلوا فأذنوا بحربٍ منَ اللهِ ورسولهِ وإن تُبتُمْ فلكمْ رؤوسُ أموالكمْ لا تَظلمونَ ولا تُظلَمونَ ﴾[34].

نتبين من هذه الآيات الكريمة مسائل تضمنت أحكام الربا، وعقود المبايعات، والوعيد لمن استحل الربا وأصر على فعله، وقد أفاض المفسرون – رحمهم الله وأجزل ثوابهم – في شرحها وبيان دلالاتها

---

٣٣ – د.عيسى عبده، وضع الربا في البناء الإقتصادي، الكويت، دار البحوث العلمية، ١٩٧٣، ص: ٨٧ – ٨٩.

٣٤ – سورة البقرة، الآيات ٢٧٥ – ٢٧٩.

وأحكامها، ومن ذلك:

- قول الله تعالى: ﴿الذين يأكلون الربا﴾ يأكلون: يأخذون، فعبر عن الأخذ بالأكل. والربا في اللغة الزيادة مطلقًا؛ يقال: ربا الشيء يربو إذا زاد. والربا الذي عليه عُرف الشرع شيئان: تحريم النَّسَاء والتفاضل في العقود وفي المطعومات. وغالبه ما كانت العرب تفعله، من قولها للغريم: أتقضي أم تُرْبي؟ فكان الغريم يزيد في عدد المال ويصبر الطالب عليه وهذا كله محرَّم باتفاق الأمة.

وتجدر الإشارة إلى أن الربا الذي كان معروفًا في الجاهلية والذي نزلت هذه الآيات وغيرها لإبطاله ابتداء كانت له صورتان: ربا النسيئة وربا الفضل.

* فأما ربا النسيئة فقد قال عنه قتادة: إن ربا أهل الجاهلية يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى، فإذا حل الأجل، ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخَّر عنه. وقال مجاهد: كانوا في الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين، فيقول: لك كذا وكذا تؤخّر عني، فيؤخر عنه. وقال أبوبكر الجصاص: كان ربا الجاهلية قرضًا مؤجلاً بزيادة مشروطة فكانت الزيادة بدلاً من الأجل فأبطله الله تعالى. وقال الإمام الرازي: إن ربا النسيئة هو الذي كان مشهورًا في الجاهلية لأن الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره إلى أجل، على أن يأخذ منه كل شهر قدرًا معينًا، ورأس المال باق بحاله. فإذا حل طالبه برأس ماله، فإن تعذر عليه الأداء زاده في الحق والأجل.
* أما ربا الفضل فهو أن يبيع الرجل الشيء بالشيء من نوعه مع زيادة كبيع الذهب بالذهب والقمح بالقمح... روى الأئمة واللفظ لمسلم عن

أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسول الله ﷺ: «الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبُرّ بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل يداً بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى الآخذ والمعطي فيه سواء». وعن أبي سعيد الخدري أيضاً قال: جاء بلال إلى النبي ﷺ بتمر برني فقال له النبي ﷺ: «من أين هذا؟» قال: كان عندنا تمر رديء فبعت منه صاعين بصاع. فقال رسول الله ﷺ: «أوَّه!.. عين الربا، عين الربا، لا تفعل؛ ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيع آخر ثم اشتر به». وبالتالي فلأن تماثل النوعين في الجنس يخلق شبهة أن هناك عملية ربوية وصفه النبي ﷺ بالربا ونهى عنه وأمر ببيع الصنف المراد استبداله بالنقد ثم شراء الصنف المطلوب بالنقد أيضاً إبعاداً لشبح الربا من العملية تماماً[35].

- قول الله تعالى: ﴿لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطهُ الشيطان من المس﴾، قال المفسرون: من قبورهم.. يُبعث كالمجنون عقوبة له وتمقيتاً عند جميع أهل المحشر. و﴿يتخبطه﴾، جعل الله هذه العلامة لأكَلَة الربا، وذلك أنه أرباه في بطونهم فأثقلهم، فهم إذا خرجوا من قبورهم يقومون ويسقطون. و﴿يأكلون﴾ إنما خصّ الأكل بالذكر لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال؛ ولأنه دال على الجشع وهو أشد الحرص.. وما كان أي تهديد معنوي ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة.. صورة الممسوس المصروع.
- قول الله تعالى: ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ أي إنما

---

35 - سيد قطب، تفسير آيات الربا، القاهرة/بيروت، دار الشروق، لم يذكر تاريخ النشر، ص: ٢٢ - ٢٤.

الزيادة عند حلول الأجل آخراً كمثل أصل الثمن في أوّل العقد. وذلك أن العرب كانت لا تعرف ربا إلا ذلك، فإذا حل الدين قالت للغريم: إما أن تَقضي وإما أن تُرْبي، أي تزيد في الدين. وقد أوضح الله تعالى أن الأجل إذا حلّ ولم يكن عنده ما يؤدّي أُنْظِر إلى المَيْسرة[36].

- قول الله تعالى: ﴿يمحق الله الربا﴾ يعني في الدنيا أي يذهب بركته وإن كان كثيراً. وعن ابن عباس قال: لا يُقبل منه صدقة ولا حجاً ولا جهاداً ولا صلة. والمَحْقُ: النقص والذهاب ومنه مُحاق القمر وهو انتقاصه. ﴿ويربي الصدقات﴾ أي ينميها في الدنيا بالبركة ويكثر ثوابها بالتضعيف في الآخرة.
- قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ ظاهره أنه أبطل من الربا ما لم يكن مقبوضاً وإن كان معقوداً قبل نزول آية التحريم، ولا يتعقب بالفسخ ما كان مقبوضاً، وقيل إن الآية نزلت بسبب ثقيف. والنص يعلق إيمان الذين آمنوا على ترك ما بقي من الربا إذ لا إيمان بغير طاعة لما أمر الله به.
- قول الله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ هذا وعيد إن لم يَذَروا الربا، والحرب داعية القتل. وعن ابن عباس أنه يقال يوم القيامة لآكل الربا: خُذْ سلاحك للحرب، وقال أيضاً: مَنْ كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه. وقال ابن خُوَيْز مَنْدَاد: ولو أن أهل بلد اصطلحوا على الربا استحلالاً كانوا مرتدين، والحكم فيهم كالحكم في أهل الردة، وإن

---

٣٦ - قال الله تعالى: ﴿وإن كان ذو عُسرة فنظرة إلى ميسرة...﴾ سورة البقرة: الآية ٢٨٠.

لم يكن ذلك منهم استحلالاً جاز للإمام محاربتهم.

- قول الله تعالى: ﴿وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم﴾ تأكيد لإبطال ما لم يُقبض منه وأخذ رأس المال الذي لا ربا فيه.. فالربا هو من أكل أموال الناس بالباطل، وهو من الظلم.

مما ورد عن رسول الله ﷺ بشأن الربا :

- روى مسلم عن جابر قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: «هم سواء».
- وروى الإمام أحمد وابن ماجه والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قُلّ».
- وروى الإمام أحمد وابن ماجة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيتُ ليلة أُسري بي على قومٍ بطُونهم كالبيوت، فيها الحيات، تُرى من خارج بطونهم، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا».
- روى ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «قَرْضُ مرّتين يعدل صدقة مرة»[37].
- روى أبو داود عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعِينةِ وأخذتم أذنابَ البقر ورَضيتم بالزَّرع وتركتم الجهادَ سلّط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم». في إسناده أبو عبدالرحمن الخراساني. ليس بمشهور. وفسر أبو عبيد الهروي العِينة فقال: هي أن يبيع من رجل سِلعةً بثمن معلوم إلى أجلٍ مسمّى، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به. قال: فإن اشترى بحضرة

---

٣٧ - أخرجه البزّار، وقالوا: حرم الله الربا ليتقارض الناس.

طالب العِينة سلعة من آخر بثمن معلوم وقبضها ثم باعها من طالب العينة بثمن أكثر مما اشتراه إلى إجل مسمى، ثم باعها المشتري من البائع الأوّل بالنقد بأقل من الثمن فهذه أيضاً عِينة، وهي أهون من الأولى، وهو جائز عند بعضهم. وسميت عينةً لحضور النقد لصاحب العينة، وذلك أن العَيْن هو المال الحاضر والمشتري إنما يشتريها ليبيعها بعين حاضر يصل إليه من فوره.

قال علماؤنا: فَمنْ باع سلعةً بثمن إلى أجل ثم ابتاعها بثمن من جنس الثمن الذي باعها به، فلا يخلو أن يشتريها منه بنقد، أو إلى أجل دون الأجل الذي باعها إليه، أو إلى أبعد منه، بمثل الثمن أو بأقل منه أو بأكثر؛ فهذه ثلاث مسائل: وأما الأولى والثانية فإن كان بمثل الثمن أو أكثر جاز، ولا يجوز بأقل على مقتضى حديث عائشة؛ لأنه أعطى ستمائة ليأخذ ثمانمائة والسلعة لغو، وهذا هو الربا بعينه. وأما الثالثة إلى أبعد من الأجل، فإن كان اشتراها وحدها أو زيادة فيجوز بمثل الثمن أو أقل منه، ولا يجوز بأكثر ؛ فإن اشترى بعضها فلا يجوز على كل حال لا بمثل الثمن ولا بأقل ولا بأكثر. ومسائل هذا الباب حصرها علماؤنا في سبع وعشرين مسألة.

- وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات.... وفيها: وأكل الربا» وقال أيضاً: «يأتي على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا ومن لم يأكل الربا أصابه غُبَاره».
- روى أبو داود عن سليمان بن عمرو عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في حجة الوداع: «ألا إن كل ربًا من ربا الجاهلية موضوع لكم رؤوس أموالكم ولا تَظلمون ولا تُظلمون».

بين الربح والفائدة

تختلف آثار الربح عن آثار الفائدة الربوية، ومن ذلك ما يلي[38]:

- أن عنصر المخاطرة هو الذي يفرق بين الربح والفائدة. فالمخاطرة هي قوام نشاط الأعمال الذي أباحه الإسلام، بينما الفائدة هي شيء ثابت ومضمون ولا تتعرض للتقلبات كما هو الحال في الربح. وعلى ذلك فإن آخذ الفائدة يعيش على كدح الآخرين، وفي هذا ظلم اجتماعي.
- عندما يدر رأس المال المستثمر في التجارة ربحاً فإنه يأتي نتيجة المبادأة والكفاءة، ولا ينطبق ذلك على حالة الفائدة، لأن الدائن يحصل لنفسه على قدر معين من النقود لدينه بغض النظر عن الكسب أو الخسارة التي يتعرض لها المدين أو المستثمر.
- إنه في اللحظة التي يتم فيها استبدال سلعة ما مقابل ثمنها، فإن التعامل التجاري ينتهي عند هذا الحد، ومن ثم لا يعطي المشتري أي شيء للبائع بعد ذلك. ولكن في حالة التعامل بالفائدة، فإن الدائن لا يكف عن طلب الفائدة ما دام أصل الدين لم يرد إليه، ولذا فإن هناك حدوداً للربح الذي يتوقعه المرء من نشاط الأعمال في حين لا توجد أي حدود للفائدة التي يحصل عليها الدائن.
- إذا كان نشاط الأعمال منتجاً ويحصل أصحابه منه على ربح نتيجة لعملهم ومهارتهم، فإن ذلك يعمل على تحقيق النمو الاقتصادي، وما يترتب عليه من عمالة ترتزق وأشباع لحاجات الناس عن طريق السلع المنتجة أو المتجر فيها. في حين أن الفائدة التي يحصل عليها الدائن

---

٣٨ - د. عساف، المرجع السابق، ص: ٢٨٩ - ٢٩٠.

لا تفيد إلا نفسه، ولا تعود على المجتمع بشيء.

- تؤدي الفائدة إلى تنمية القطاع الاحتكاري الذي ينعم بوضع أفضل يسمح له بتحميل الزيادة في تكلفة القروض أو الائتمان على المستهلكين في شكل زيادة في أسعار المنتجات بسبب ارتفاع تكاليف الانتاج والتسويق.
- تضر الفائدة بالمشروعات طويلة الأجل، لأن فترة استرداد القروض تجعل المشروعات طويلة الأجل عديمة الجاذبية.
- المقترض بالفائدة يلتزم بسداد نسبة من القرض معلومة المقدار علاوة على أصل القرض نفسه، وينبغي له أن يستثمر ذلك القرض بما يحقق له عائداً أكبر من نسبة الفائدة التي يلتزم بها تجاه المقرض. وهذا أمر عسير على منشآت الأعمال، بل يستحيل حدوثه في بعض الأحوال. فلو أن منشأة أعمال اقترضت بفائدة قدرها ١٥٪ مثلاً، فإنه يجب عليها أن تحقق من تشغيل هذا القرض عائداً صافياً لا يقل عن ٣٠٪. وهذا أمر يفوق طاقة كثير من منشآت الأعمال، إلا إذا حملت المستهلكين بقيمة الفائدة المستحقة عليها، فترفع الأسعار بتلك النسبة أو أكثر، وفي هذا غبن لمجتمع الاستهلاك. ومن هذا يتبين أن الاقتراض بفائدة يضر بصالح رجال الأعمال والمستهلكين على السواء.
- الربح الناجم عن نشاط الأعمال يسهم في البناء والإنتاج... عن طريق التعاون بين أصحاب رأس المال، ويؤدي إلى تبادل الآراء والتفاهم، وتبادل المنافع عن طريق السلع والخدمات، بينما توجد الفائدة في الإنسان نزعة البخل والأنانية وعدم التعاطف.

وعلى ذلك فإنه من وجهتي النظر الأخلاقية والاقتصادية، تضر الفائدة

بصالح الإنسانية كما تعوق النمو الاقتصادي الطبيعي. أما الربح الناجم عن نشاط الأعمال فإنه يسهم في تحقيق الرواج والازدهار للمجتمع شريطة ألا يكون ربحًا فاحشًا بل معقولاً، وألا ينطوي على استغلال لحاجات الناس.

المغزى الاقتصادي / الاجتماعي لتحريم الربا في الإسلام:

وضع الإسلام نظامًا اقتصاديًا يقوم على التكافل والتعاون ويمنع الصراعات بين الناس، وهو جزء من النظام الإسلامي المتكامل.

فالصدقة نزول عن المال بلا عوض، أما الربا فإنه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه، ولهذا لم يبلغ من تفظيع أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا، ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد من أمر الربا.

فالنظام الإسلامي والنظام الربوي لا يلتقيان في تصور، ولا يتفقان في أساس، ولا يتوافقان في نتيجة.. إن كلاً منهما يقوم على تصور للحياة والأهداف يناقض الآخر تمام المناقضة.

فالإسلام يُقيم نظامه الاقتصادي على أساس أن الله هو خالق هذا الكون، وأن الله سبحانه ـ وهو مالك كل موجود بما أنه هو موجده ـ قد استخلف الإنسان في هذه الأرض ومكّنه مما أدخر له فيها من أرزاق وأقوات وقوى وطاقات دون أن يترك هذا الملك العريض فوضى يصنع الإنسان فيه ما يشاء وكيف شاء بل وضع له ضوابط وأمره بالالتزام بها.

من ذلك أن يقوم التكافل بين المؤمنين فمن وهبه الله منهم سعة أفاض من سعته على مَن قدر عليه رزقه، مع تكليف الجميع بالعمل فلا يكون الفرد القادر على العمل كَلاً على آخر، وجعل الزكاة فريضة في المال محددة،

والصدقة تطوعاً غير محدد.

واشترط النظام الاقتصادي في الإسلام الالتزام بجانب القصد والاعتدال فلا إسراف، وكذلك الالتزام بالتنمية فحرّم الاكتناز، وأن تكون أساليب التنمية بحيث لا ينشأ عنها أذى للآخرين أو تعطيل جريان الأرزاق. واهتم بأن يكون دوران المال في الأيدي على أوسع نطاق كي لا يكون دولة بين الأغنياء. وكتب الطهارة في النية والعمل، والنظافة في الوسيلة والغاية، فلا استثمار في المحرمات، أو في إنتاج ما يضر المجتمع.

أما النظام الربوي فإنه يقوم على تصور مختلف، فالفرد فيه حر في وسائل حصوله على المال، وفي طرق تنميته، وغير مقيد بمصلحة الآخرين، كما هو حر في التمتع به.. وبشكل يصبح جني المال هدفاً.. ومع امتلاك المال يمتلك النفوذ.. ويصبح النظام الاقتصادي وبنيته مسخرة لمصالح المرابين، وترجع الحصيلة الحقيقية لجهد البشرية كلها وكد الآدميين إليهم في صورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم فيها جهداً. ومن ثم يستخدمون نفوذهم في إنشاء أوضاع وأفكار ومشروعات تمكنهم من زيادة الاستغلال مع تسخير وسائل الإعلام والكتب، وربما الجامعات، لإنشاء عقلية عامة بين جماهير الناس، الذين يأكل المرابون لحومهم وعظامهم ويشربون عرقهم ودماءهم للإيحاء إليهم بأن الربا هو النظام الطبيعي المعقول، وأنه سبب تقدم الغرب!...

وقد تنبّه إلى هذه الحقيقة بعض علماء الاقتصاد في الغرب ومنهم الألماني الدكتور شاخت ـ مدير بنك الرايخ ـ حيث قال: (إنه بعملية رياضية غير متناهية يتضح أن جميع المال في الأرض صائر إلى عدد قليل جداً من المرابين. ذلك أن الدائن المرابي يربح دائماً في كل عملية، بينما المدين

معرض للربح والخسارة. ومن ثم فإن المال كله في النهاية لا بد ـ بالحساب الرياضي ـ أن يصير إلى الذي يربح دائماً!.. وأن هذه النظرية في طريقها للتحقق الكامل، فإن معظم مال الأرض الآن يملكه ـ ملكاً حقيقياً ـ بضعة ألوف. أما جميع الملاك وأصحاب المصانع الذين يستدينون من المصارف، والعمال، وغيرهم، فهم ليسوا سوى أجراء يعملون لحساب أصحاب المال، ويجني ثمرة كدهم أولئك الألوف).

وفضلاً عن ذلك فإن من أحابيل المرابين، ومعظمهم من اليهود، التلاعب بأسعار الفائدة للحصول على أكبر (فائدة). فيمسكون المال حيناً ليزاد اضطرار الزراعة والصناعة إليه فيرتفع السعر إلى الحد الذي يجد الزراع والصناع أنه لا فائدة لهم من استخدام المال نظراً لارتفاع تكلفته.. عندئذ ينكمش حجم الأنشطة والفعاليات الإنتاجية ويتعطل العمل وتقل القدرة على الشراء، وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد يعمد المرابون إلى خفض سعر الفائدة اضطراراً لتشجيع الاقتراض ولتعود دورة الحياة الإنتاجية لتدور في فلك مصالحهم.. وليدور العاملون فيها كالسائمة.

بل إن المستهلكين هم الذين يدفعون إلى المرابين بشكل غير مباشر ما يرضي جشعهم، لأن أصحاب الأعمال يحمّلون المستهلكين تكاليف القروض فيزيدونها في أسعار البيع. والديون التي تقترضها الحكومات تحمل الناس بفوائدها على شكل زيادات في الضرائب لسداد عبء الدين الذي قد يتجاوز بسبب الفائدة المركبة مبلغ القرض الأصلي أضعافاً مضاعفة، حتى وصل الحال إلى حد أن الناتج القومي السنوي لبعض الدول لا يكفي لسداد فائدة القروض الدولية. وتشهد الأحداث التاريخية أن الاستعمار في كثير من وقائعه ودوافعه كان نهاية الديون، ثم تكون الحروب

بسبب الاستعمار.

إن عيوب النظام الربوي قد يصعب استقصاؤها، فذلك يستدعي الكثير من الشرح، وحسبنا أن نعرض بعض الملاحظات ـ فضلاً عما سبق أن قدمناه ـ فيما يلي:

- لا إسلام مع قيام نظام ربوي في مكان.
- إن النظام الربوي بلاء على الإنسانية لا في إيمانها وأخلاقها فحسب، بل في صميم الحياة الاقتصادية والعملية على الرغم من الطلاء والزيف الذي يحاول بعضهم تغليفه به على أنه نظام يساعد على النمو.
- النظام الاقتصادي والأخلاقي في الإسلام مترابطان بعرى لا تنفصم، والمسلم مرتبط بهذا النظام وملتزم بعهد الاستخلاف وشرطه ومحاسب عليه.. ولا يمكن أن يقوم نظام اقتصادي ناجح بمعزل عن الأخلاق.
- إن الربا يفسد ضمير الفرد وخلقه ويشوه شعوره تجاه أخيه في الجماعة.. فيستخدم المال في المجال الذي يدر الربح كي يسدد الفائدة دون اهتمام بمدى أخلاقية مجال النشاط ومنفعته للمجتمع.. فالمال المستدان بالربا لا يهتم بإنشاء أنفع المشروعات للناس بل أكثرها ربحاً.
- إن الإسلام نظام متكامل.. وقد أقام الله هذا النظام على أساس الاستغناء عن الحاجة إلى النظام الربوي. وفي نفس الوقت لا يدعو الإسلام إلى إلغاء المؤسسات والأجهزة اللازمة للنمو الإقتصادي، ولكنه يطهرها من لوثة الربا.
- إن ثمة استحالة اعتقادية في أن يحرم الله أمراً لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه. وهناك استحالة أخرى وهي أن يكون ثمة نظام خبيث ويكون في الوقت نفسه حتمياً لقيام الحياة وتقدمها. فالله سبحانه

وتعالى خالق الخلق ومالك الملك ورب البشر.. وبالتالي فثمة استحالة في تصور المسلم أن يكون فيما حرمه الله شيء لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه، أو أن يكون ثمة شيء خبيث هو حتمي لقيام الحياة ورقيها.

ولهذا فجميع تبريرات النظام الربوي ناشئة عن ضعف الإيمان، وعن ضعف التفكير الذي انخدع بسراب النمو الاقتصادي، والوهم الذي اجتهد اليهود في بثه حول الربا وسخّروا له من يدعي العلم من الأفراد وأجهزة الإعلام والمنظمات ذات النفوذ حتى أصبحت الأموال تصب في خزائنهم ومصارفهم ومنظماتهم المرئية وغير المرئية.

وإذا جاء الإسلام لتحرير الإنسان من الظلم ومن العبودية للأشخاص والأوثان، فقد أتى بنظم للاقتصاد والاجتماع والثقافة لتأكيد هذا التحرر الإنساني، وأتاح من التطبيقات والوسائل والأساليب ما يكفل هذا التحرير ويحقق إنسانية الإنسان[٣٩].

الملكية الفرديـــة

قرر الإسلام حق الملكية الفردية للمال بوسائل التملك المشروعة، ووضع الحدود الصارمة لصيانة هذا الحق من السرقة والغصب، ووجّه لكف النفوس عن التطلع إلى ما ليس لها.

وعندما قرر الإسلام حق الملكية الفردية وصيانته تحقيقًا للعدالة بين الجهد والجزاء، ومسايرة للفطرة، وللميول الأصيلة في النفس البشرية فإنه بذلك قد فتح السبيل أمام الفرد ليبذل أقصى طاقته، فضمن إقباله على العمل والإنتاج لا كارهًا أو يائسًا أو مسخرًا بل بدافع يلبي أشواق الفرد

٣٩ سيد قطب، تفسير آيات الربا، المرجع السابق، ص: ٨ ـ ٢٠.

ويرضي ميوله، مما يفيد الجماعة لأن العدالة يجب ألا تكون على حساب الفرد... فهي للفرد كما هي للجماعة.

والجدير بالذكر أنه ما من أحد يجزم بأن الوقوف في وجه الفطرة الإنسانية ينطوي على خير للفرد أو المجتمع.

فالنظريات الخيالية افترضت أن من الممكن القضاء على الحوافز الطبيعية لدى الإنسان خلال جيل أو عدة أجيال بوساطة التشريعات والنظم فأساءت الظن بفطرة الإنسان.

أما الإسلام قد اعترف بأن الإنسان مفطور على حب الحيازة والضن بما يملك، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾[40] و ﴿... وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ...﴾[41]. ولهذا فإن الإسلام لم يجد من ضير من مجاراة الميول الفطرية لدى الإنسان بل نجح في توجيهها لكي يبذل الفرد أقصى طاقاته فيحقق لنفسه وللمجتمع الخير والمنفعة.

وإذ قرر الإسلام حق الملكية الفردية فإنه قرر أيضاً حق التصرف الحلال في المال بالبيع والإجارة والرهن والهبة والوصية مما تزخر به كتب الأصول بياناً للأحكام والعلل والكيفية والأساليب.. .

وبذلك فإنه لم يدع حق الملكية الفردية مطلقاً بلا قيود أو ضوابط. وهنا تبرز روعة الإسلام في إدارة المال في اعتبار المالك وكيلاً في المال عن الجماعة، وحيازته للمال هي وظيفة اجتماعية أكثر منها امتلاكاً، وأن المال في عمومه هو حق للجماعة... والجماعة مستخلفة فيه عن الله مالك الملك

---

٤٠ - سورة الإسراء، الآية ١٠٠، قتوراً: شديد البخل.

٤١ - سورة النساء، الآية ١٢٨، أي جُبلت على البخل والحرص.

ورب البشر. ولهذا فإن حق التصرف والانتفاع مشروط بالصلاحية والرشد وإحسان القيام بتلك الوظيفة فإذا لم يحققها المالك حُجب حق التصرف قال الله تعالى: ﴿ولا تُؤتوا السفهاءَ أموالكُمُ التي جعلَ اللهُ لكمْ قياماً وارزقوهمْ فيها واكسوهمْ ...﴾[٤٢].

كما وضع الإسلام لإنفاق المال ضوابط، فنهى عن الإسراف في الإنفاق والترف لما يحدثه من آثار في النفس وفي الضمير وما يسببه من جمود في المشاعر. ففي قول الله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء ولكن متّعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً﴾[٤٣]، دليل على أن المتاع المترف ينسي الذكر ويؤدي إلى الجدب، وقول الله تعالى: ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ تصوير رائع الدلالة، فالأرض البور مجدبة لا تنتج ولا تثمر، وكذلك حياتهم جدبة صلدة لا تنبض بالحياة. فلا جرم أن يكون الترف وبطر المعيشة سبباً للهلاك على مدى التاريخ، قال الله تعالى: ﴿وكم أهلكنا من قرية بَطِرَت معيشتها ...﴾[٤٤]، وأن يكون الترف سبب العذاب في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وأصحابُ الشمالِ ما أصحابُ الشمالِ. في سمومٍ وحميمٍ. وظلٍ من

---

٤٢ - سورة النساء، الآية ٥.

السفهاء: سيئي التصرف.. الجهال بموضع النفقة وقيمة الأموال، انظر: محمد حسن الحمصي، قرآن كريم: تفسير وبيان مع أسباب النزول للسيوطي، دمشق، دار الرشيد، ص: ٧٧.

٤٣ - سورة الفرقان، الآيتان ١٧ و ١٨.

٤٤ - سورة القصص، الآية ٥٨.

يحموم. لا باردٍ ولا كريمٍ. إنهمْ كانوا قبلَ ذلكَ مترفينَ ...﴾[45].

والهلاك والدمار لا يصيب المترف وحده بل يصيب الجماعة، قال الله تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نُّهلكَ قريةً أمرنَا مترفيهَا ففسقُوا فيهَا فحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدميرًا﴾[46].

وتجدر الإشارة إلى أن الإسلام إذ يمنع الترف في الإنفاق واستعمال المال في غير وجوهه المشروعة فإنه لا يدعو إلى الشظف حين لا تدعو إليه الظروف وأحوال الجماعة. فلم يحرم الطيبات التي أحلت، ولم يمنع من أخذ الزينة، فقد روى أبو الأحوص الجشمي عن أبيه قال: رآني النبي ﷺ وعليَّ أطمار فقال: «هل لك من مال؟». قلت: نعم، قال: «من أي المال؟». قلت: من كلّ قد آتاني الله، من الشاء والإبل، قال: «إذا آتاك الله مالاً فلير أثر نعمته وكرامته عليك».

وعليه فالمال الذي في أيدي البشر هو مال الله وهم فيه خلفاء لا أصلاء، قال الله تعالى: ﴿آمنوا باللهِ ورسولهِ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفينَ

---

٤٥ - سورة الواقعة، الآيات ٤١ - ٤٥.

٤٦ - سورة الإسراء، الآية ١٦. الإرادة هنا ربما لا تفيد الجبرية بالمعنى الذي يفهمه العامة إنما المقصود جبرية الأسباب والمسببات أو المقدمات والنتائج، بمعنى أن الجماعة هي المسؤولة لأنها تركت المترفين يفسدون.. ولأن الترف لا بد أن يؤدي إلى المنكر بحكم وجوده في الجماعة إذ سرعان أن يسري الداء إلى سائر مرافق الحياة بعد أن توفر الفائض في الطاقات: طاقة الشباب، وطاقة الوقت، وطاقة المال، وحيث يجد الأفراد: الشباب والفراغ والجدة سبيلاً إلى الانحراف ليفرّخ الوباء في جسم الجماعة ويعرضها للهلاك في النهاية. انظر في ذلك: سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، المرجع السابق، ص: ١٢٨ - ١٢٩.

فيهِ فالذينَ آمنوا منكمْ وأنفقوا لهمْ أجرٌ كبيرٌ﴾[٤٧]، كما أن ما يعطيه الذين فُضّلوا في الرزق للذين ملكت أيمانهم إنما هو حقهم الأصيل في المال وهم فيه سواء، وكلاهما كالآخر فيه، وحق هؤلاء فيما يأخذون كحق هؤلاء فيما يعطون.. والمال مال الله لا ملكهم الأصيل، قال الله تعالى: ﴿واللهُ فضَّلَ بعضكمْ على بعضٍ في الرزقِ فما الذينَ فُضّلوا برادّي رزقهمْ على ما ملكتْ أيمانُهُمْ فهمْ فيهِ سواءٌ أفبنعمةِ اللهِ يجحدونَ﴾[٤٨].

وفضلاً عن ذلك، فقد كره الإسلام حبس المال في أيدي فئة خاصة من الناس يُتداول بينهم فلا يجده الآخرون، قال الله تعالى: ﴿... كيْ لا يكونَ دُولَةً بينَ الأغنياءِ منكمْ ...﴾[٤٩]، لأن حبس المال تعطيل لوظيفته، والجماعة في حاجة إلى تداول أموالها العامة لتنمي الحياة في شتى مظاهرها، وتضمن الإنتاج في أوسع ميادينه، وتهيئ للعاملين وسائل العمل. كما قرر الإسلام حق الإرث والتوريث تمشياً مع الفطرة والعدالة ومصلحة الجماعة وكوسيلة لتوزيع الثروة للحد من سيطرة رأس المال، كما حدد وسائل التملك الفردي، وطرق تنمية الملكية في الحدود المشروعة فليس للفرد أن يغش أو يحتكر فيكلف الناس عنتًا ويحملهم مشقة ويضارهم في حياتهم وضرورياتهم، أو يتعامل بالربا ... بل حصر طرق تنمية الملكية في المجالات النافعة للمجتمع وبالوسائل النظيفة.

فتنمية الملكية إذا كانت واجبة كيلا تتعطل فيحرم المجتمع من ثمار

---

٤٧ - سورة الحديد، الآية ٧.

٤٨ - سورة النحل، الآية ٧١، انظر في ذلك: سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، المرجع السابق، ص: ١٠٦

٤٩ - سورة الحشر، الآية ٧.

التنمية فقد حرم الإسلام الغش في التعامل، قال رسول الله ﷺ: «من غشنا فليس منا» ... و«البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما». وبالتالي إذا كان ثمة عيب فيتوجب على البائع بيانه، وإلا فهو غاش، ولا عذر له في أن يتصدق بربحه. فقد روى عبدالله بن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يكسب عبد مالاً حراماً فيتصدق منه فيقبل منه، ولا ينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار. إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث». وقال ﷺ أيضاً: «لا يدخل الجنة لحم نبت من السُّحْت، وكل لحم نبت من السحت كانت النار أولى به».

وكما حرم الإسلام الغش في التعامل لتنمية المال حرم الاحتكار أيضاً لأن: «الجالب مرزوق والمحتكر ملعون» و«من احتكر فهو خاطئ»، بالنظر لما ينطوي عليه الاحتكار من استغلال لحاجات الناس والتحكم في أقواتهم، والتلاعب بحرية الصناعة والتجارة لفرض السعر المرتفع حتى وإن أدى ذلك إلى إتلاف المواد والبضاعات.

ويبلغ الإسلام في منع الاحتكار حد استبعاد المحتكر من الدين.. «من احتكر طعاماً أربعين يوماً فقد برئ من الله وبرئ الله منه»، لأنه باحتكاره يلحق الضرر بالناس ليحصل على كسب حرام.

وبما أن المال وديعة في يد صاحبه موظف فيه لخير الجماعة فليس له أن يستغل هذه الوظيفة فيبتز الناس، ويتحيَّن ظروف حاجتهم ليستغل ضعفهم فيأخذ أكثر مما أعطى، ولهذا حرم الإسلام الربا وقدس العمل تأكيداً لطهارة الفرد وتنقية ضميرة، وحتى تشيع المودة والألفة بين أفراد

المجتمع، وكيلا تتضخم الثروات لدى فئة قليلة ويقع المحتاجون أسرى الحاجة وتحت وطأة الضرورات سواء أكان ذلك للانتاج أو للاستهلاك. فإن اقترض المقترض وأعسر ﴿وإن كانَ ذُو عسرةٍ فنظرةٌ إلى ميسرةٍ ...﴾[50]، وهذا يفيد الأمر لا الندب لأنها شرط وجواب. وعلى المدين أن يجتهد في سداد دينه وإبراء ذمته كي تتهيأ أسباب الثقة في المعاملات.. فقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله». وقال ﷺ أيضاً: «مطل الغني ظلم». ورُوي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أرأيت إن قُتلت في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر يكفّر الله عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فلما أدبر ناداه فقال: «نعم إلا الدَّيْن». وهذا لأن الدين يتعلق بحق الآخرين لا حق الله وحده مادام قادراً على أدائه. أما العاجز أو الغارم فله في الزكاة نصيب.

فريضة الزكاة

جعل الله الزكاة فريضة في المال وحقاً لمستحقيها لا تفضلاً من مخرجيها. فهي حق المال وركن من أركان الإسلام، وهي عبادة وواجب اجتماعي، وهي أدخل شيء في سياسة إدارة المال في الإسلام.

فهي طهارة للضمير والنفس والقلب من فطرة الشح وطهارة ونماء للمال بأداء حقه، وحق الجماعة في عنق الفرد، كوقاية اجتماعية، وضمانة للعاجز الذي يبذل الجهد ولا يجد، أو يجد ما دون كفايته. والامتناع عن أداء الزكاة شرك بالله وكفر بالآخرة، قال الله تعالى: ﴿ ... وويل للمشركين.

---

٥٠ - سورة البقرة، الآية ٢٨٠.

الذينَ لا يؤتونَ الزكـاةَ وهُم بالآخـرةِ هـمْ كـافـرونَ﴾[51]، وأداء الزكـاة طريق الرحـمـة من الله، قال الله تعـالى: ﴿وأقـيمـوا الصـلاةَ وآتوا الزكـاةَ وأطيعـوا الرسولَ لعلكمْ ترحمونَ﴾[52].

قال الله تعالى: ﴿إنَّما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ والعاملينَ عليها والمؤلفةِ قلوبهمْ وفي الرقابِ والغارمينَ وفي سبيلِ اللهِ وابنِ السبيلِ فريضةً منَ اللهِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾[53]، وبذلك حدد الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة مصارف الزكاة. ويمكن بهذا الصدد الإشارة إلى ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿للفقراء﴾ ما يفيد أن اللام لام التمليك كما ذهب إلى ذلك الشافعي. و ﴿إنما﴾ تقتضي الحصر في وقوف الصدقات على الثمانية أصناف بدليل حديث زياد بن الحارث الصُّدَّائي قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الصدقات. فقال له رسول الله ﷺ: «إن الله لم يرض في الصدقات بحكم نبي ولا غيره حتى جزَّأها ثمانية أجزاء فإن كنت من أهل تلك الأجزاء أعطيتك»[54]، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿إنَّما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ﴾ قال: في أيها وضعتَ أجزأ عنك.

٢ ـ اختلف علماء اللغة وأهل الفقه في الفرق بين الفقير والمسكين. وقال بعضهم إن الفقير أحسن حالاً من المسكين فعنده بعض ما يكفيه ويقيمه، والمسكين الذي لا شيء له. وقال آخرون بالعكس فجعلوا

---

٥١ - سورة فصلت، الآيتان ٦ ٧.

٥٢ - سورة النور، الآية ٥٦.

٥٣ - سورة التوبة، الآية ٦٠.

٥٤ - رواه أبو داود والدارقطني واللفظ للدارقطني.

المسكين أحسن حالاً من الفقير واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أمَّا السفينةُ فكانتْ لمساكينَ يعملونَ في البحرِ ...﴾[٥٥] وعضدوا رأيهم بما روي عن رسول الله ﷺ أنه تعوّذ من الفقر. ورُوي عنه أنه قال: «اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا».. وقالوا: لو كان المسكين أسوأ حالاً من الفقير لتناقض الخبران، إذ يستحيل أن يتعوّذ من الفقر ثم يسأل ما هو أسوأ حالاً منه[٥٦]. وقال الشافعي: الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما في المعنى وإن افترقا في الاسم وبه قال أبو يوسف وابن القاسم[٥٧].

وتجدر الإشارة إلى أن فائدة الخلاف في الفقراء والمساكين تظهر فيمن أوصى بثلث ماله لفلان وللفقراء والمساكين. فمن قال هما صنف واحد قال: يكون لفلان نصف الثلث وللفقراء والمساكين نصف الثلث الثاني، ومن قال هما صنفان يقسم الثلث بينهم أثلاثًا.

واختلف العلماء رحمهم الله في حد الفقر الذي يجوز معه الأخذ. روى الدارقطني عن عبدالله بن مسعود قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من سأل الناس وهو غني جاء يوم القيامة وفي وجهه كدوح وخدوش»

---

٥٥ - سورة الكهف، الآية ٧٩.

٥٦ - الفقير في كلام العرب المفقور الذي نُزعت فقرُه من ظهره من شدة الفقر فلا حال أشد من هذه.

٥٧ - ثمة من قال: يقال هذه دار فلان إذا كان ساكنها وإن كانت لغيره.. فقوله تعالى: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين ...﴾ يحتمل أن تكون مستأجرة لهم. وهناك من يفهم دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا»، رواه أنس، بمعنى التواضع لله فلا كبر ولا بطر ولا تكبّر ولا أشر. وقال عكرمة: إن الفقراء فقراء المسلمين والمساكين فقراء أهل الكتاب.

فقيل: يا رسول الله وما غناؤه؟ قال: «أربعون درهمًا». وقال الشافعي وأبو ثَوْر: من كان قويًا على الكسب والتحرّف مع قوة البدن وحسن التصرف حتى يغنيه ذلك عن الناس فالصدقة عليه حرام واحتج بحديث النبي ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرّة سَوِيّ»[٥٨]. وروى أبو داود عن عبيد الله بن عدي بن الخيار قال: أخبرني رجلان أنهما أتيا النبي ﷺ في حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسألاه منها، فرفع فينا النظر وخفضه فرآنا جلْدَين فقال: «إن شئتما أعطيتكما ولا حظَّ فيها لغني ولا لقوي مكتسب».

وقال بعض أهل العلم: لكل واحد أن يأخذ من الصدقة فيما لا بد له منه. وقال قوم: من عنده عشاء ليلة فهو غني، وروي عن عليّ. واحتجوا بحديث عليّ عن النبي ﷺ أنه قال: «من سأل مسألة عن ظَهر غِنىً استكثر بها من رضف[٥٩] جهنم» قالوا: يا رسول الله، وما ظهر الغنى؟ قال: «عشاء ليلة» أخرجه الدار قطني وقال: في إسناده عمرو ابن خالد وهو متروك. وأخرجه أبو داود عن سهل بن الحنظلية عن النبي ﷺ وفيه: «من سأل وعنده ما يُغنيه فإنما يستكثر من النار». وقال النفيلي في موضع آخر: «من جمر جهنم». فقالوا: يا رسول الله وما يغنيه؟.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما شاهد ذميًا يسأل: ما أُنصِفتَ إذن، وأمر له بقوته وما يصلحه ثم قال: هذا من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين ...﴾ وهم زَمْنَى

---

٥٨ - رواه عبدالله بن عمر وأخرجه أبو داود والترمذي والدارقطني.

٥٩ - الرضف: الحجارة المحماة على النار.

أهل الكتاب.

واختلف العلماء في نقل الزكاة عن موضعها. فأجاز بعضهم نقلها إذا نزلت الحاجة فالمسلم أخو المسلم لا يُسلمه ولا يَظْلمه. وقال بعضهم لا تنقل ولكنه صوّب نقل بعضها لضرورة. وهناك من رأى أن سهم الفقراء والمساكين يقسم في الموضع وسائر السهام تُنقل باجتهاد الإمام.

وقد نُقلت الزكاة من اليمن إلى المدينة وتولى النبي ﷺ قسمتها. فقول الله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء ...﴾ لم يفصّل بين فقير بلد وفقير آخر.

٣ - قول الله تعالى: ﴿والعاملين عليها﴾ يعني السُّعاة والجباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة بالتوكيل على ذلك. قال مجاهد والشافعي: هو الثمن، وقال ابن عمر ومالك: يُعطوْن قدر عملهم من الأجرة، وهناك من قال: يُعطوْن من بيت المال.

٤ - قول الله تعالى: ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ وهم قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يُظهر الإسلام يتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم. وقيل: هم صنف من الكفار أو قوم من عظماء المشركين لهم أتباع يُعطون ليتألفوا أتباعهم.. وفي صحيح مسلم من حديث أنس قال رسول الله ﷺ: «فإني أُعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم...». ولما أعز الله الإسلام وأهله وقطع دابر الكافرين اجتمعت الصحابة أجمعين في خلافة أبي بكر رضي الله عنه - أو في خلافة عمر رضي الله عنه - على سقوط سهمهم.

٥ - قول الله تعالى: ﴿وفي الرقاب﴾ أي في فكّ الرقاب، إذ يمكن لصاحب

الزكاة الشراء والعتق، ويجوز للإمام أن يشتري رقاباً من مال الصدقة يعتقها عن المسلمين.

وقد ورد حديث ينصّ على جواز عتق الرقبة وإعانة المكاتب معًا، أخرجه الدارقطني عن البراء قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار. قال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعتق النسمة وفك الرقبة». فقال: يا رسول الله، أوليستا واحداً؟ قال: «لا، عِتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفكّ الرقبة أن تعين في ثمنها».

وهناك من ذهب إلى جواز فك الأسارى من الصدقة لأنه إذا كان فكّ المسلم عن الرق جائزاً من الصدقة وعبادة فأحرى أن يكون ذلك في فكّ المسلم عن رق الكافر.

٦ - قول الله تعالى: ﴿والغارمين﴾، وهم الذين ركبهم الدين ولا وفاء عندهم به فيعطون من الصدقة إلا من ادّان في سفاهة فلا يُعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب.

ويعطى منها من له مال وعليه دين محيط به ما يقضي به دينه، فإن لم يكن له مال وعليه دين فهو فقير وغارم فيُعْطى بالوصفين. روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه. فقال رسول الله ﷺ: «تصدقوا عليه». فتصدّق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه. فقال رسول الله ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك».

ويجوز للمتحمل في صلاح وبِرٍّ أن يُعطى من الصدقة ما يؤدّي ما تحمّل به إذا وجب عليه وإن كان غنياً، إذا كان ذلك يُجْحف بماله

كالغريم. وهو قول الشافعي وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم. واحتج من ذهب هذا المذهب بحديث قبيصة بن مخارق قال: تحملت حمالة[60] فأتيت النبي ﷺ أسأله فيها فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» ـ ثم قال ـ: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ـ أو قال: سدادا من عيش ـ، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحِجَا من قومه[61] لقد أصابت فلانًا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ـ أو قال: سدادا من عيش ـ، فما سواهنّ من المسألة يا قبيصة سُحْتًا[62] يأكلها صاحبها سُحْتًا». فقوله: «ثم يُمسك» دليل على أنه غنيّ؛ لأن الفقير ليس عليه أن يمسك. والله أعلم..

وروى عنه عليه السلام أنه قال: «إن المسألة لا تحلّ إلا لأحد ثلاثةٍ ذوي فقر مُدْقِعٍ[63] أو لذي غُرْم مُفظِعٍ[64] أو لذي دم

---

٦٠ - الحمالة (بالفتح): ما يتحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة؛ مثل أن تقع حرب بين فريقين تسفك فيها الدماء، فيدخل رجل يتحمل ديات القتلى ليصلح ذات البين. والتحمل: أن يحملها عنهم على نفسه. (عن النهاية لابن الأثير).

٦١ - أي حتى يقوموا على رؤوس الأشهاد قائلين: إن فلانًا أصابته فاقه.

٦٢ - كذا رواية مسلم؛ أي اعتقده سحتًا، أو يؤكل سحتًا، وفي غير مسلم بالرفع.

٦٣ - المدقع: الشديد، يفضي بصاحبه إلى الدقعاء، وهي التراب. وقيل: هو سوء احتمال الفقر.

٦٤ - المفظع: الشديد الشنيع.

مُوجِعٍ[٦٥]».

واختلفوا، هل يُقضى منها دينُ الميت أم لا؟ فقال أبو حنيفة: لا يؤدَّى من الصدقة دين ميتٍ. وهو قول ابن المواز. قال أبو حنيفة: ولا يعطى منها مَن عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله تعالى، وإنما الغارم مَن عليه دين يُسجن فيه. وقال علماؤنا وغيرهم: يُقضى منها دين الميت لأنه من الغارمين؛ قال ﷺ: «أنا أوْلى بكل مؤمن من نفسه مَن ترك مالاً فلأهله، ومن ترك دَيْنًا أو ضياعًا[٦٦] فإليّ وعليّ».

٧ - قول الله تعالى: ﴿وفي سبيل الله﴾ وهم الغزاة وموضع الرباط، يُعطون ما ينفقون في غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء. وقال ابن عمر: الحجاج والعُمّار. وقال محمد بن عبدالحكم: ويعطى من الصدقة في الكُراع والسلاح وما يحتاج إليه من آلات الحرب وكف العدو عن الحَوْزة.

٨ - قول الله تعالى: ﴿وابن السبيل﴾، السبيل: الطريق وهو الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره وماله فإنه يُعطى منها وإن كان غنيًا في بلده.

روى مسلم عن جرير [عن أبيه][٦٧] قال: كنا عند النبي ﷺ في

---

٦٥ - هو أن يتحمل دية فيسعى فيها حتى يؤديها إلى أولياء المقتول؛ فإن لم يؤدّها قتل المتحمل عنه فيوجعه قتله.

٦٦ - الضياع (بالفتح): العيال وأصله مصدر ضاع يضيع ضياعًا، فسمى العيال بالمصدر.

٦٧ - زيادة عن صحيح مسلم.

صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار[68] أو العباء متقلدي السيوف. عامتهم من مضر بل كلهم من مضر، فتمعَّر[69] وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذّن وأقام فصلى، ثم خطب فقال: «﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم ـ الآية إلى قوله ـ رقيبا﴾ والآية التي في سورة الحشر: ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره ـ حتى قال ـ ولو بشق تمرة». قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرّة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كَوْمَين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة[70]. فقال رسول الله ﷺ: «من سنّ في الإسلام سُنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن يُنقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سُنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». فاكتفى ﷺ بظاهر حالهم وحثّ على الصدقة، ولم يطلب منهم بينة، ولا استقصى هل عندهم مال أم لا.

يتبين أن الزكاة تستغرق أوجه الحاجة الاجتماعية في الحياة فهي حق مفروض بأمر الله، ومقدر في المال بحساب معلوم. وبجانبها الصدقة وهي موكولة لضمير الفرد وتقواه بلا حساب.. وإذ يقرر الإسلام حق هذه

---

٦٨ - اجتاب القميص: لبسه. والنمار (بكسر النون): كل شملة مخططة من مآزر الأعراب؛ كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض.

٦٩ - تمعّر: تغير.

٧٠ - أي فضة مموهة بذهب في إشراقه.

الطوائف في الزكاة فإن ذلك يأتي بعد أن تستنفد وسائلها الخاصة في الارتزاق لأن اليد العليا خير من اليد السفلى. وعليه فالزكاة وقاية اجتماعية وضمانة للعاجز الذي يبذل فلا يجد أو يجد مجرد الكفاف. وبذلك جمع الإسلام بين الحرص على أن يعمل الإنسان فلا يرتكن على الإعانة الاجتماعية فيتبطل والحرص على إعانة المحتاج وتيسير الحياة الكريمة له.

وتجدر الإشارة إلى أن نصاب الزكاة هو من القلة بحيث يشترك جمهور الشعب في الإسهام بنفقات التكافل الاجتماعي، ولم تُحصر بالأغنياء ذوي الثروات الكبيرة. ولذلك فوائد عظيمة منها: تكثير حصيلة الزكاة، وتوفير الإحساس بالمسؤولية والمساهمة لدى جميع الأفراد[٧١].

وإذا كانت الزكاة تقدر بحساب معلوم فقد ترك الإسلام المجال رحباً في إنفاق المال تحقيقاً للترابط الإنساني وللشعور الشخصي بالواجب والإحساس النفسي بالرحمة فجعل هذا الإحساس إنسانياً خالصاً، قال الله تعالى: ﴿لا ينهاكُمُ اللهُ عنِ الذينَ لمْ يقاتلوكُمْ في الدينِ ولمْ يخرجوكُم من

---

٧١ - الجدير بالذكر أن فرض الزكاة كان في آخر العهد المكي أي حوالي ٦٢٠ م، وبذلك بدأ تنفيذ نظام الزكاة والتكافل الاجتماعي. أما في الغرب فكانت ألمانيا أول دولة بدأت تعنى بتنظيم الضمان الاجتماعي وأصدرت قانوناً بذلك عام ١٨٨٣ أي بعد قيام الدولة الإسلامية بنحو ١٢٦٠ سنة، وقد اقتصر هذا القانون على الأضرار التي تصيب عمال الصناعة، ثم تبعه بعد ذلك قوانين أخرى... وكل هذه القوانين الغربية تشترط على العامل أن يدفع من دخله الأسبوعي أو الشهري مبلغاً معيناً ليصبح مستفيداً من التكافل.

إن تلك القوانين الغربية وقد جاءت متأخرة كثيراً.. إنما جاءت تحت ضغط التطور الصناعي وانتشار السخط في أوساط العمال. وكأنها جاءت كردة فعل وللتخفيف من المعاناة مخافة الانفجار بينما لم يكن في المجتمع الإسلامي، وقد سبقها قبل قرون وقرون، عوامل اقتصادية أو واقع صناعي ظالم، بل وجدت في الإسلام كدين للدولة، ولأن القرآن كتاب الله ومحمد رسول الله ﷺ.

دياركمْ أن تبروهُمْ وتقسطوا إليهمْ ...﴾[72]، ويقول رسول الله ﷺ: «لن تؤمنوا حتى ترحموا»، قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم، قال: «إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة عامة الناس».

ويبشر الله المخبتين الذين ينفقون، قال الله تعالى: «﴿ ... وبشّرِ المخبتينَ. الذينَ إذا ذكِرَ اللهُ وجلتْ قلوبهمْ والصابرينَ على ما أصابهمْ والمقيمي الصلاةِ وممَّا رزقناهمْ ينفقونَ﴾[73]، وأكد سبحانه وتعالى هذا الإنفاق في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، فمن الصور المؤثرة في الوجدان قوله تعالى: ﴿إنَّما يؤمنُ بآياتنا الذينَ إذا ذكّروا بها خرُّوا سجَّداً وسبحوا بحمدِ ربهمْ وهمْ لا يستكبرونَ. تتجافى جنُوبُهُمْ عنِ المضاجعِ يدْعونَ ربهمْ خوفًا وطمعًا وممَّا رزقناهمْ ينفقونَ. فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفيَ لهم من قرةِ أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملونَ﴾[74]. كما يصور الإيثار في نفوس الأنصار الذين استقبلوا إخوانهم المهاجرين في قوله تعالى: ﴿والذينَ تبوأوا الدارَ والإيمانَ من قبلهمْ يحبونَ منْ هاجرَ إليهمْ ولا يجدونَ في صدورهمْ حاجةً ممَّا أوتُوا ويؤثرونَ على أنفسهمْ ولو كانَ بهمْ خصاصةٌ ومن يوقَ شُحَّ نفسهِ فأولئكَ هُمُ المفلحونَ﴾[75]. ويعطي الله سبحانه صورة للإنسانية العليا في تقديم العون وسد الحاجة في قوله تعالى: ﴿ويطعمونَ الطعامَ على حبهِ مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا. إنما نطعمكمْ لوجهِ اللهِ لا نريدُ

---

٧٢ - سورة الممتحنة، الآية ٨.

٧٣ - سورة الحج، الآيتين ٣٤ ، ٣٥.

٧٤ - سورة السجدة، الآيات ١٥ ١٧.

٧٥ - سورة الحشر، الآية ٩.

منكمْ جزاءً ولا شكورا ﴾[٧٦]. واعتبر الله سبحانه الصدقة قرضًا مضمون الوفاء، كما في قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يُقرضُ اللهَ قرضًا حسنًا فيضاعفَهُ لهُ ولهُ أجرٌ كريمٌ﴾[٧٧]. و: ﴿إنَّ المصدقينَ والمصدقاتِ وأقرضُوا اللهَ قرضًا حسنًا يضاعفُ لهمْ ولهمْ أجرٌ كريمٌ﴾[٧٨]. فالانفاق في سبيل الله تجارة مجزية، كما في قوله تعالى: ﴿إنَّ الذينَ يتلونَ كتابَ اللهِ وأقاموا الصلاةَ وأنفقوا ممَّا رزقناهمْ سرًا وعلانيةً يرجونَ تجارةً لن تبورَ. ليوفيهمْ أجورهمْ ويزيدهُم من فضلهِ إنَّهُ غفورٌ شكورٌ﴾[٧٩]. والانفاق في سبيل الله وابتغاء مرضاته لا يمثل خسارة للمال بل هو كسب للمنفق لأنه يقدم لنفسه، قال الله تعالى: ﴿... وما تنفقُوا منْ خيرٍ فلأنفسكمْ وما تنفقونَ إلا ابتغاءَ وجهِ اللهِ وما تنفقوا منْ خيرٍ يوفَّ إليكمْ وأنتمْ لا تظلمونَ﴾[٨٠]، فجزاء المنفقين في الآخرة الجنة، قال الله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكمْ وجنَّةٍ عرضُهَا السمواتُ والأرضُ أعدتْ للمتقينَ. الذينَ ينفقونَ في السراءِ والضراءِ والكاظمينَ الغيظَ والعافينَ عن الناسِ واللهُ يحبُّ المحسنينَ﴾[٨١].

والصدقة تطهير للنفس والمال، فمن اقترف ذنبًا واعترف بذنبه وأناب إلى الله ينفق في الخير تطهيرًا وتزكية، قال الله تعالى: ﴿وآخرونَ اعترفوا

---

٧٦ - سورة الإنسان، الآيتين ٨ ، ٩.

٧٧ - سورة الحديد، الآية ١١.

٧٨ - سورة الحديد، الآية ١٨.

٧٩ - سورة فاطر، الآيتين ٢٩ ، ٣٠.

٨٠ - سورة البقرة، الآية ٢٧٢.

٨١ - سورة آل عمران، الآيتين، ١٣٣ ، ١٣٤.

بذنوبهمْ خلطوا عملاً صالحًا وآخرَ سيئًا عسى اللهُ أن يتوبَ عليهمْ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ. خذْ منْ أموالهمْ صدقةً تطهرهمْ وتزكيهم بها ...﴾[82].

ويحض الله سبحانه على البذل قبل فوات الأوان، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لعباديَ الذينَ آمنوا يقيموا الصلاةَ وينفقوا ممَّا رزقناهُمْ سراً وعلانيةً من قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيهِ ولا خلالٌ﴾[83]، و﴿وأنفقوا من مَّا رزقناكُم من قبلِ أن يأتيَ أحدكُمُ الموتُ فيقولَ ربِّ لولا أخرتني إلى أجلٍ قريبٍ فأصدَّقَ وأكن مّنَ الصالحينَ. ولن يؤخرَ اللهُ نفسًا إذا جاءَ أجلُهَا﴾[84].

وإلى جانب الحض على الإنفاق في وجوه الخير ثمة تحذير من الشح وبيان بأن الأموال والأولاد فتنة واختبار فلا يدفع الحرص عليهم إلى عدم الإنفاق، قال الله تعالى: ﴿إنما أموالكمْ وأولادكمْ فتنةٌ واللهُ عندهُ أجرٌ عظيمٌ. فاتقوا اللهَ ما استطعتمْ واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكُمْ ومن يوقَ شُحَّ نفسهِ فأولئكَ همُ المفلحونَ﴾[85].

وقد أعطى رسول الله ﷺ مفهوم الصدقة مضمونًا واسع الدلالة فأوجبها على كل مسلم حتى ولو لم يجد فقال ﷺ: «على كل مسلم صدقة»، قالوا: يا نبي الله فمن لم يجد؟. قال: «يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق»، قالوا: فإن لم يجد؟. قال: «يعين ذا الحاجة الملهوف». قالوا: فإن لم يجد؟. قال: «فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة». وهكذا يستوي الناس جميعًا في البذل، كل بقدر ما يملك، وكل بقدر ما يستطيع.

---

٨٢ - سورة التوبة، الآيتين ١٠٢ ، ١٠٣.

٨٣ - سورة إبراهيم، الآية ٣١.

٨٤ - سورة المنافقون، الآيتين: ١٠ ، ١١.

٨٥ - سورة التغابن، الآيات ١٥ - ١٦.

وأبواب الإنفاق تدور مع الحاجة ومواضعها فالأقربون أولى بالمعروف وسواهم موصولون بهم في معرض الحض على البر باعتباره عاطفة إنسانية. فلم يترك الإسلام أحداً في المجتمع إلا وشمله بهذا البر وجعل البر موصولاً بالإيمان، قال الله تعالى: ﴿واعبدوا اللهَ ولا تشركوا بهِ شيئًا وبالوالدينِ إحسانًا وبذي القربىَ واليتامَى والمساكينِ والجارِ ذي القربى والجارِ الجُنُبِ والصاحبِ بالجَنبِ وابنِ السبيلِ وما ملكتْ أيمانكمْ إنَّ اللهَ لا يحبُّ من كانَ مختالاً فخوراً. الذينَ يبخلونَ ويأمرونَ الناسَ بالبخلِ ويكتمونَ ما آتاهُمُ اللهُ من فضلهِ وأعتدنا للكافرينَ عذابًا مهينًا﴾[٨٦]، و ﴿يسألونك ماذا ينفقونَ قلْ ما أنفقتم منْ خيرٍ فللوالدينِ والأقربينَ واليتامىَ والمساكينِ وابنِ السبيلِ وما تفعلوا منْ خيرٍ فإنَّ اللهَ بهِ عليمٌ﴾[٨٧]

وهكذا يرتبط في الإسلام البر بالإيمان، ويمتد ليشمل الناس جميعًا بدءًا بالوالدين والأقربين واليتامى والمساكين والجار والصاحب وابن السبيل... حتى الذين صدرت عنهم إساءة كما حصل مع مسطح قريب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأية إساءة وهي إفك صراح، ومع ذلك نهى الإسلام عن حرمانهم وأوجب صلتهم وحض على العفو والصفح في قوله تعالى: ﴿ولا يأتلِ أولو الفضلِ منكمْ والسعةِ أن يؤتوا أولي القربى والمساكينَ والمهاجرينَ في سبيلِ اللهِ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبونَ أن يغفرَ اللهُ لكمْ ...﴾[٨٨].

فبلغ في البر آفاقًا إنسانية رفيعة، تترفع عن أنماط السلوك المقابل مهما بلغ الإيذاء، إذ جعل البر أصل التعامل وأساسه بين أفراد المجتمع، فهو

---

٨٦ - سورة النساء، الآيتين ٣٦، ٣٧.

٨٧ - سورة البقرة، الآية ٢١٥.

٨٨ - سورة النور، الآية ٢٢.

ليس ردًا على صنيع حسن وإنما هو واجب مطلوب الالتزام به حتى تجاه المسيئين.

وحدد الإسلام لممارسة البر في إنفاق المال آدابًا تسمو بالبر إلى تلك الآفاق، وتنقيه من الشعور بالاستعلاء والتفضل كيلا يجرح أحاسيس المحتاجين، حيث أثنى رسول الله ﷺ على الرجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وهو تصوير بديع لكتمان البر واحتسابه فشمال المرء ويمينه بعض من بعضه. وقال الله تعالى: ﴿الذينَ ينفقونَ أموالهمْ في سبيلِ اللهِ ثم لا يُتبعونَ ما أنفقوا منًا ولا أذىً لهمْ أجرهمْ عندَ ربهمْ ولا خوفٌ عليهمْ ولا همْ يحزنونَ. قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىً واللهُ غنيٌّ حليمٌ. يا أيها الذينَ آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى كالذي يُنفقُ مالهُ رئاءَ الناسِ ...﴾[89]، و ﴿لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا ممَّا تحبونَ ...﴾[90]، وبذلك يصل بالإنسان إلى غاية البذل وأكرم العطاء ليجود بأحب المال إليه، فيربي الفرد تربية ترفعه على نفسه وتجعله يتسامى عن الميل إلى الحرص بحجة الضرورة في إيثار بالغ ولو كان به خصاصة.

من أنماط السلوك المالي في التعامل

غرس الإسلام في نفس الفرد قيمًا انعكست في المعاملات في مجال الإجارات والتجارات، وفي الكثير من العلاقات بين الأفراد فقامت على مكارم الأخلاق في الأمانة والنصح والإيثار.. .

قال الشاطبي: وتجدهم في الإجارات والتجارات لا يأخذون إلا بأقل ما

---

٨٩ - سورة البقرة، الآيات ٢٦٢ - ٢٦٤.

٩٠ - سورة آل عمران، الآية ٩٢.

يكون من الربح أو الأجر.. وبالغوا في النصيحة فوق ما يلزمهم لأنهم كانوا وكلاء للناس لا لأنفسهم.. بل كانوا يرون المحاباة لأنفسهم، وإن جازت، كالغش لغيرهم[٩١].. كانوا في الاكتساب ماهرين ودائبين ومتابعين لأنواع الاكتسابات لكن لا ليدخروا لأنفسهم ولا ليحتجنوا (أي يحتجزوا) أموالهم، بل لينفقوها في سبيل الخيرات ومكارم الأخلاق وما ندب الشرع إليه وما حسنته العوائد الشرعية فكانوا في أموالهم الولاة على بيوت الأموال.

وعندما كان رسول الله ﷺ يعظ النساء بعد صلاة العيد يحثهن على الصدقة، يبسط بلال ثوبه فيلقين إليه بما يتحلين به من خواتيم وغيرها[٩٢].

وعن ابن عمر قال: لقد أتى علينا زمان، أو قال: حين وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم[٩٣]. وعن أبي هريرة أن الأنصار قالت للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين ما نملكه من النخل. قال: «لا»، فقالوا لإخوانهم المهاجرين: تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا[٩٤].

وأخرج البخاري عن محمد بن زياد قال: أدركت السلف وإنهم ليكونون في المنزل الواحد بأهاليهم فربما نزل على بعضهم الضيف وقدر أحدهم على النار، فيأخذ صاحب الضيف لضيفه، فيفقد القدرَ صاحبُها فيقول: من أخذ القدر؟. فيقول صاحب الضيف: نحن أخذناها لضيفنا، فيقول صاحب القدر:

---

٩١ - الشاطبي، الموافقات، بتحقيق دراز، القاهرة، المكتبة التجارية، ٢ / ١٨٨ و ٢ / ١٩٥.

٩٢ - فيما رواه البخاري ومسلم.

٩٣ - مما رواه البخاري في الأدب المفرد.

٩٤ - مما رواه البخاري في صحيحه.

بارك الله لكم فيها. قال ابن زياد: والخبز إذا خبزوا مثل ذلك[95].

وتروي معظم كتب السنة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أنفق ماله كله في سبيل الدعوة وشراء الأرقاء الذي أسلموا من أسيادهم المشركين بمكة وأعتقهم، وجاء رسول الله ﷺ بكل ما يملك لتجهيز الجيش في غزوة مؤتة. وعندما أصبح خليفة نزل إلى السوق ليتاجر كما يتاجر الناس إلى أن فرض له المسلمون عطاءً ليتفرغ لشؤون الدولة، ولما توفي لم يترك مالاً ولا متاعًا ولا ديناراً.

وقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه نصف ماله لتجهيز جيش العسرة في غزوة تبوك. وحين أصبح خليفة فُتحت له كنوز كسرى وقيصر، ولكنه كما قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين، عففت فعفت رعيتك، ولما توفي لم يجدوا في بيته ديناراً..

وبلغ من سخاء عثمان بن عفان رضي الله عنه في تجهيز جيش العسرة أن رفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء يقول: «اللهم أرض عن عثمان فإني عنه راض». وفي عام المجاعة تصدق بالقافلة وما تحمل من الشام بعد حوار لطيف مع التجار، وقد وفدوا إليه ليشتروها، ذكّرهم فيه بأن الله يعطي ربحًا على الواحد عشرة إلى سبعمائة ضعف.

ومع أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لم يكن من أصحاب الأموال إلا أنه كان كثير الإنفاق، وربما بات وزوجته السيدة فاطمة الزهراء طاويين بعد أن تصدق بقوته وقوت عياله على مسكين أو يتيم أو أسير، ويقال إن الآية الكريمة ﴿ويطعمونَ الطعامَ على حبهِ مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا﴾[96] قد

---

٩٥ - البخاري، الأدب المفرد، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٧٥هـ، ص: ١٢٩.

٩٦ - سورة الإنسان، الآية ٨.

نزلت فيه وأهله.

وهذا أبو طلحة الأنصاري يسمع قول الله تعالى: ﴿لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقُوا مما تحبونَ ...﴾[97] فيتصدق ببئر بيرحاء وهي أحب أمواله إليه.

ويسمع أبو الدحداح قول الله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ...﴾ فيأتي إلى رسول الله ﷺ قائلا: امدد يا رسول الله يدك ويشهده أنه تصدق ببستانه الذي لا يملك غيره، ويذهب إلى زوجته وعياله فيخرجهم من البستان قائلا لزوجته: أقرضته ربي عز وجل فتقول: ربح بيعك يا أبا الدحداح.

ويكى الذين لم يجدوا ما ينفقون في جيش العسرة ولم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه.

وعندما جاء الفقراء إلى رسول الله ﷺ قائلين: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: «أوَ ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟ إن لكم بكل تسبيحة صدقة وبكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة .. إلخ»[98]. والمتأمل لذلك يجد أن هذه المظاهر لم تكن للمطالبة أو رفع مظلمة وإنما للإعراب عن آلامهم في تخلفهم عن الأغنياء في ميادين الإنفاق.

وتصدق الإمام أبو حنيفة بقيمة الصفقة كلها تورعًا أن يدخل عليه قيمة ثوب معيب فيها بعد أن باعها شريكه لتاجر غريب وقد فاته أن يطلعه على ذلك الثوب.

---

٩٧ - سورة آل عمران، الآية ٩٢.

٩٨ - رواه مسلم وابن ماجة.

وكان الإمام الليث بن سعد يتصدق بغلّته كلها، حتى قالوا إنه لم تجب عليه زكاة قط. واشترى مرة داراً بيعت بالمزاد وعندما ذهب ليتسلمها وجد فيها أيتاماً وأطفالاً صغاراً سألوه بالله أن يترك لهم الدار ففعل وأجرى عليهم ما يصلحهم كل يوم.

ولما خرج الإمام عبدالله بن المبارك حاجاً مع نفر من أصحابه شاهد امرأة حملت طائراً ميتاً ملقى على مزبلة وأسرعت به إلى دارها فسألها عن أمرها وأخذها الميتة فأخبرته أنها وأخاها فقيران لا يجدان شيئاً ولا يعلم بهما أحد. فأمر عبدالله برد الأحمال وترك لنفسه وجماعته مؤونة العودة إلى مرو، وأعطاها ما يحمل من مال وعتاد قائلاً: هذا أفضل من حجنا هذا العام.. ورجع فلم يحج.

كان الإمام البخاري صاحب الصحيح يتكسب من التجارة، فأتاه من ساومه على صفقة من الثياب بثلاثة عشر ألفاً فلم يقبل البخاري. فلما ذهب المشتري ندم البخاري ونوى أن لو رجع المشتري لباعه بالثمن الذي عرض. أتاه في اليوم الثاني وعرض خمسة عشر ألفاً، فأبى البخاري أن يقبض أكثر من ثلاثة عشر ألفاً، وعندما عجب المشتري وتساءل أجابه البخاري: نويت بالأمس أن أبيعك إذا عدت، وإني أخجل من الله أن أعود عن عزم عزمت عليه.

قال محمد بن إسحاق لما مات علي بن الحسين وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين. وكان ناس يعيشون بالمدينة لا يدرون من يعطيهم فلما مات عرفوا أنه علي بن الحسين إذ كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به. ومن أقواله: صدقة الليل تطفئ غضب الرب، وتنير القلب والقبر، وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة.

وكثير من التجار من كان يبيع أنواع الطعام والأقوات للمحتاجين من الناس بالنسيئة دون أن يسجل أسماءهم في دفتر الديون، ويقول: خذ ما تريد، فإن يسر لك فاقض وإلا فأنت في حل منه وسعة.

وقد أتيح للسلطان صلاح الدين الأيوبي من المجد والظفر ما لم يتح إلاّ لنفر قليل من القادة، فأقام المؤسسات الخيرية والمدارس والمستشفيات والمساجد ولم يسجل منها واحداً باسمه.. ولما مات لم يترك قصوراً ولا رياشاً ولا درهماً.

وإذا كانت الزكاة من أركان الإسلام، فقد كان التكافل العائلي من مظاهر التماسك الأسري والتعاون فينفق الابن على والديه، ويساعد أخاه ويربي أخواته وينفق عليهن ويزوجهن، وهو يرى أن هذا هو حقهم وهو عليه واجب.

هذا إلى جانب الوصايا والنذور والأوقاف، الذرية والخيرية، كأبواب مشروعة في إنفاق المال.

وقد بلغ المسلمون في مجالات الأوقاف شأوا بعيداً لجهات من الخير مما يكاد يكون فريداً في التاريخ، فإلى جانب الانفاق على المساجد والمدارس والمكتبات العامة والمستشفيات ونزل المسافرين والتكايا والسقايات واللقطاء والأيتام والمقعدين والعجزة والمساجين والأشجار المثمرة لإطعام المارة... وجدت أنواع من الأوقاف لا نعلم لها مثيلاً في بقاع الأرض.. ومن ذلك:

* وقف الطب النفسي، ومثاله من مدينة طرابلس في لبنان، وفيه يتم توظيف شخصين يمران كل يوم على المرضى في المستشفيات، عملهما أن يتحدثا بصوت خافت يسمعه المريض يوهمانه أنهما يتكلمان فيما

بينهما بصوت عادي. يقول الأول أرى اليوم هذا المريض أحسن حالاً منه بالأمس، فيؤيده الثاني ويدعي أن وجهه أكثر إشراقًا..

وكان في مستشفى السلطان قلاوون ممثلون يعدون أدوارًا يجتهدون فيها لإضحاك المرضى الذين تؤرقهم آلامهم فلا ينامون الليل.

* وقف الزبادي، وكان في دمشق حيث يخصص مكان يجلس فيه قيم الوقف ليعطي الطفل أو الخادم أنموذجًا مماثلاً للوعاء الذي كسر.
* وقف التزويج، لمن عجز من الشباب والبنات أو عجز ذووه عن القيام بنفقات الزواج.
* وقف نقطة الحليب، وهو ما أوقفه السلطان صلاح الدين الأيوبي لإمداد الأمهات بالحليب. وكان يوجد في أحد أبواب قلعة دمشق ميزاب يسيل منه الحليب وآخر يسيل منه الماء المحلى بالسكر.
* وقف إيواء الحيوان وتطبيبه، ومكانه إلى عهد قريب في سوق ساروجة بدمشق، إلى جانب وقف المرج الأخضر (يقوم عليه الملعب البلدي بدمشق حاليًا) للحيوانات العاجزة والخيول الهرمة ترعى فيه حتى تلاقي حتفها.

* * *

هذا غيض من فيض مما حفل به المجتمع الإسلامي من أنماط السلوك ذات الأثر المالي، وعليه فإن:

* الكون كله لله، قال الله تعالى: ﴿لله ملكُ السموات والأرضِ ...﴾[٩٩]،

---

٩٩ - سورة الشورى، الآية ٤٩.

و ﴿لله ما في السموات وما في الأرض ...﴾[100]، وهذا يؤدي إلى:

- نفي الغرور عن الإنسان المالك.
- الالتزام بقوانين الشريعة في استخدام ما يملك.

* الكون مسخر للإنسان، قال الله تعالى: ﴿وسخَّرَ لكم ما في السموات ...﴾[101] و ﴿... سخَّرَ لكم ما في الأرض ...﴾[102]، وهذا يؤدي إلى:
  - أن يجتهد الإنسان في الانتفاع بالموارد.
  - أن يتساوى الناس في طلب الرزق والاستفادة من الخيرات.

* المال وسيلة للخير لا غاية بذاتها، فقد أطلق القرآن الكريم على المال اسم الخير في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عليكمْ إذا حضرَ أحدكمُ الموتُ إن تركَ خيراً الوصيةُ للوالدينِ والأقربينَ بالمعروفِ ...﴾[103]، وبالتالي فإطلاق الخير على المال ينطوي على تنبيه في الحصول عليه من طريق الخير، واستعماله في طريق الخير أيضاً، و«نعم المال الصالح للرجل الصالح»[104].

* الفقر مرض اجتماعي، ولكنه ليس قدراً مقدوراً لا حيلة في دفعه، ولهذا لا بد من السعي في طلب الرزق، وبالتالي فالفقر لا يكون إلا:
  - بسبب الكسل والخمول، وهذا لا يقره الإسلام.

---

١٠٠ - سورة البقرة، الآية ٢٨٤.

١٠١ - سورة الجاثية، الآية ١٣.

١٠٢ - سورة الحج، الآية ٦٥.

١٠٣ - سورة البقرة، الآية ١٨٠.

١٠٤ - رواه البخاري في الأدب المفرد: ٨٤.

- بسبب العجز عن العمل، وهذا ما وضع الإسلام له الحلول فيما أوجبه على الدولة، وفيما وضعه من قوانين التكافل الاجتماعي ولا سيما الزكاة[105].

* طرائق التملك، إما :
  - بالهبة والوصية والإرث، مما لا سعي للإنسان فيه.
  - بالسعي والاكتساب في المجالات الحلال والمشروعة.
* التملك وظيفة اجتماعية، والمال لله وهو وسيلة للخير فلا يستعمل إلا في الخير، والإنسان مؤتمن عليه، والمجتمع مسؤول، ولهذا أوجب الإسلام الحجر على السفيه وإقامة القيِّم عليه لترشيد قرارات استعمال المال.

---

١٠٥ - تجدر الإشارة إلى أن الإسلام قد وضع عدة أنواع للتكافل ومنها على سبيل المثال :

* التكافل العلمي، فلا يضن العالم بعلمه على الناس ولا يكتم ما يعلم، قال رسول الله ﷺ : «من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة» رواه أبو داود والترمذي والحاكم وغيرهم بألفاظ متقاربة.
* التكافل الأدبي، وهو تعاون الفرد مع الآخرين في سراء الحياة وضرائها، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه.
* التكافل السياسي، ويؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ : «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم» رواه أبو داود وغيره..
  ولكل فرد حقه السياسي، وحقه في المراقبة والنصح، وانتقاد الانحراف والفساد.. ويدخل ذلك في قول رسول الله ﷺ : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ....» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
* التكافل الدفاعي، ويعني مسؤولية كل مسلم في الدولة أن ينفر إذا هُددت. ويقرر الفقهاء أن لو أسر فرد في أقصى المغرب وجب على آخر رجل بالمشرق أن يهب مع إخوانه لاستنقاذه.. هذا إلى جانب التكافل الجنائي والأخلاقي والاقتصادي.. مما تزخر به كتب الأصول.

* الملكية المشروعة مصونة ولكن يكره تكدس الثروات في أيد قليلة في المجتمع. ولهذا جاءت حكمة الإسلام في الإرث فلم يحصره في طبقة معينة أو قليلة من أقرباء الميت بل أشرك عدداً كبيراً من أقربائه في التركة. مما سمح بتفتيت الثروات مهما كانت كبيرة وتقسيمها إلى ملكيات صغيرة فقيّد بذلك سيطرة رأس المال. ومن لا أقارب له يرثونه انتقلت ملكية المال إلى الدولة فكانت من موارد بيت المال.

* * *

الفصل السابع

إدارة القضـــاء

تمهيد – ماهية القضاء – إدارة القضاء في عهد رسول الله ﷺ – إدارة القضاء في عهد الخلفاء الراشدين – شروط الصلاحية للقضاء – من أصول القضاء – الامتناع عن تولّي القضاء – قراءة في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري في القضاء.

تمهيد

القضاء من أركان الدولة، والعدل فيه أساس المُلك. به تُحفظ الحقوق ويُنتصف المظلوم؛ إذ لا حق ولا عدل في أمة لا قضاء فيها.

وقد تناولنا في هذا الفصل موضوع إدارة القضاء، فأشرنا إلى ماهيته وإلى إدارته في عهد رسول الله ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم. ثم تناولنا أهم شروط الصلاحية لتولّيه، وألمعنا إلى بعض أصول القضاء. كما تعرضنا لظاهرة الامتناع عن توليه. وأخيراً عرضنا قراءة لرسالة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري في القضاء.

ماهيَّة القضاء

القضاء في اللغة العربية مصدر جمعها أقضية، وفعلها قضى يقضي قضاء. ورجل قَضِيٌّ: سريع القضاء، واستقضى: صار قاضياً. وقد يعني الأمر والحكم، قال الله تعالى: ﴿وقَضَى ربُّك ألا تعبدوا إلا إياهُ وبالوالدينِ إحساناً ...﴾[1]، وقد تُطلق على الفراغ من الشيء، كما في قوله تعالى: ﴿... قُضي الأمرُ ...﴾[2]، وعلى الأداء والإنهاء، كما في قوله تعالى: ﴿فإذا قُضيت الصلاةُ فانتشروا في الأرضِ ...﴾[3]، و ﴿فإذا قضيتُم مناسككمْ ...﴾[4] وعلى الفعل كما في قوله تعالى: ﴿... فاقضِ ما أنتَ قاضٍ ...﴾[5]، وعلى الإرادة كما في قوله تعالى: ﴿... فإذا قضى أمراً فإنما يقولُ لهُ كنْ فيكونُ﴾[6]، وقد تُطلق على الموت، قال الله تعالى: ﴿ونادَوْا يا مالكُ ليقضِ علينا ربُّكَ ...﴾[7]، و ﴿منَ المؤمنينَ رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليهِ فمنهم من قضى نحبهُ ...﴾[8].

---

١ - سورة الإسراء، الآية ٢٣.

٢ - سورة يوسف، الآية ٤١.

٣ - سورة الجمعة، الآية ١٠.

٤ - سورة البقرة، الآية ٢٠٠.

٥ - سورة طه، الآية ٧٢.

٦ - سورة غافر، الآية ٦٨.

٧ - سورة الزخرف، الآية ٧٧.

٨ - سورة الأحزاب، الآية ٢٣.

ومن معان القضاء في اصطلاح الفقهاء: أنه الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعًا للنزاع، بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة. أو: إنه فصل الخصومة بين خصمين فأكثر بحكم الله تعالى[٩]. أو: هو إمضاء الشيء وإحكامه، أو: إلزام من له الإلزام بحكم الشرع. ومن الفقهاء من عرّفه بأنه: تبيين الحكم الشرعي والإلزام به وفصل الخصومات. ومن رأى أنه: الإخبار عن حكم شرعي على سبيل الإلزام[١٠].

ويلاحظ أن هذه التعاريف تحصر القضاء في القضاء العادي الذي يفصل النزاع والخصومات بين الأطراف بعد رفع الدعوى دون أن تشمل قضاء المظالم وقضاء الحسبة اللذين يهدفان إلى حفظ الحقوق العامة ولو لم توجد خصومة. ولهذا قد يكون من الأفضل القول: إن القضاء هو سلطة الفصل بين المتخاصمين، وحماية الحقوق العامة بالأحكام الشرعية. أو أنه قول ملزم يصدر عن ولاية عامة[١١].

وتجدر الإشارة إلى أنه بما أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، وقل من الناس من يُنصف من نفسه، فقد كان لابد من وجود القضاء كركن من أركان الدولة، لتحقيق العدل وحفظ الحقوق واستتباب الأمن والمحافظة على الأنفس والأموال ورفع الظلم وإيصال الحقوق إلى أصحابها، وإقامة الحدود

---

٩ - محمد الشربيني الخطيب، مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي، ١٩٦٨، ٤ / ٣٧١.

١٠ - يُنسب هذا المعنى لابن رشد. ويرى بعض العلماء أن حكم القاضي مظهر للحق وليس مثبتًا له، أي ليس منشئًا له. فهو إخبار وليس إنشاء، والإلزام هو الذي يميز القضاء عن الفتوى.

١١ - انظر في ذلك: د. محمد الزحيلي، تاريخ القضاء في الإسلام، دمشق، دار الفكر، وبيروت، دار الفكر المعاصر، ١٩٩٥، ص: ١٣.

والأحكام، والأخذ على يد الجناة، إذ لا حقّ ولا عدل في أمة لا قضاء فيها. فالعدل أساس الملك ورقي المجتمع، وتقدم الأمة. ولهذا كان مما قاله أبوبكر الصديق رضي الله عنه في أول خطبة له بعد أن بويع بالخلافة: «... الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يُقَدِّس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه» وفي لفظ: «كيف تقدس أمة لا يؤخذ لضعيفهم حقه من شديدهم»[١٢].

وتدل النصوص الشرعية على فضل القضاء، فقد جعل رسول الله ﷺ فيه أجراً حتى مع الخطأ في الاجتهاد. فعن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر»[١٣].

والقضاء من أعمال الطاعات إذا أخلص القاضي وقصد به وجه الله. لأن فيه أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، ونصرة للمظلوم، وأداء للحقوق، وإصلاحاً بين الناس. ولهذا فقد تولاه رسول الله ﷺ، والأنبياء قبله، وبعث القضاة إلى الآفاق[١٤]، فبعث عتاب بن أسيد إلى مكة، ومعاذ بن جبل وعلي

---

١٢ – رواه ابن ماجة وابن حيان وابن خزيمة والبيهقي والطبراني في الكبير والأوسط. وفي رواية: «لا قُدّست أمة لا يُعطى الضعيف فيها حقه غير متعتع» انظر: مجمع الزوائد ٤ / ١٩٧، سنن ابن ماجه ٢ / ٢١٠، الفتح الكبير ١ / ٣٥١.

١٣ – رواه البخاري ومسلم وأبو داود. وفي رواية عن أبي هريرة: «... فله أجر واحد» أخرجه الترمذي والنسائي. وقد أجمع العلماء أن أجر الحاكم إذا كان عالماً مجتهداً، أما الجاهل فهو آثم بجميع أحكامه، وكلها مردودة – عند بعض العلماء – حتى وإن وافق حكمه الصواب، لأن الاصابة اتفاقية.

١٤ – لم يكن للعرب قبل الإسلام حكومة أو إدارة منظمة تتولى القضاء. فكانوا =

ابن أبي طالب كرم الله وجهه إلى اليمن، وفوّض إليهما ولاية القضاء. وقضى الخليفة أبوبكر رضي الله عنه بين الناس في المدينة وولاة الأمصار في الأقاليم. ولما اتسعت الدولة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكثرت مهام الولاة فَصلَ القضاء عن عمل الوالي في الولايات الكبيرة، ودوَّن الدواوين ورتَّب أرزاق القضاة.

ومما يبيِّن خطورة القضاء قول رسول الله ﷺ فيما رواه أبو هريرة عنه: «من ولي القضاء فقد ذُبح بغير سكين»[15]. وقوله ﷺ: «القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق وقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار»[16]. وذكر رزين رواية قال: «فأما الذي في الجنة: فهو رجل قضى بكتاب الله وسنة نبيه، لا يألو عن الحق، وأما اللذان في النار: فرجل قضى بجور، وآخر افترى على القضاء فقضى بغير علم». وفي رواية ذكرها رزين عن نافع: أن ابن عمر قال لعثمان بن عفان رضي الله عنهما: «يا أمير المؤمنين، لا أقضي بين رجلين، قال: فإن أباك كان يقضي، فقال: إن أبي لو أشكل عليه شيء سأل رسول الله ﷺ، ولو أشكل على رسول الله ﷺ شيء سأل جبريل عليه السلام، وإني لا أجد مَن أسأله،

= يعتمدون على التحكيم في الفصل بين الخصومات بالاعتماد على العرف والتقاليد دون أن يكون عندهم قانون مدون. ولا ريب أن الفرق شاسع بين القضاء والتحكيم. فالقاضي ليس له الحق في أن يرفض النظر في الخصومات، وله أن يصدر على المدعى عليه حكماً غيابياً إذا لم يحضر، وقضاء القاضي ملزم لكلا الطرفين. على حين أنه لا عبرة للتحكيم إلا إذا رضي الخصمان كلاهما به.

١٥ – رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة ...

١٦ – أخرجه أبو داود برقم ٣٥٧٣ في الأقضية.

وسمعت رسول الله ﷺ يقول: مَن عاذ بالله فقد عاذ بعظيم، وسمعته يقول: من عاذ بالله فأعيذوه، وإني أعوذ بالله أن تجعلني قاضيًا، فأعفاه، وقال: لا تُخبر أحدًا».

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من ابتغى القضاء وسأل فيه شفعاء، وُكِل إلى نفسه، ومن أُكره عليه، أنزل الله عليه ملكًا يسدده»[17]. وعن ابن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله مع القاضي ما لم يَجُرْ، فإذا جار: تخلّى عنه، ولزمه الشيطان»[18]. وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَن طلب قضاء المسلمين حتى يناله، ثم غلب عدلُه جَوْرَه، فله الجنة، ومن غلب جَورُه عدلَه، فله النار»[19].

ولهذا فقد حكى العلماء أن أبا حنيفة اجتنب القضاء، وامتنع الشافعي لما استدعاه الخليفة المأمون للقضاء[20].

وقد بين العلماء أن القضاء وإن كان من فروض الكفايات، فإذا وُجد من يقوم به سقط الوجوب عن الباقين، فإنه قد يتحوّل إلى فرض عيني، كما لو وُجد فرد تتوفر فيه شروط القضاء ولا يوجد غيره تتوفر فيه هذه الشروط. واعتبر العلماء أن نصب القاضي إنما يتم لإقامة الفرض، وهو الحكم بين

---

١٧ – رواه الترمذي وأبو داود بألفاظ متقاربة.

١٨ – أخرجه الترمذي برقم ١٣٣٠ في الأحكام، باب ما جاء في الإمام العادل.

١٩ – أخرجه أبو داود برقم ٣٥٧٥ في الأقضية، باب في القاضي يخطئ.

٢٠ – يُقال إن أعلم الناس بالقضاء أشدهم له كراهية. انظر المغني لابن قدامة، بيروت، دار الكتاب العربي، ٩ / ٣٤، وسبل السلام لمحمد بن إسماعيل الصنعاني (١١٨٢هـ)، الطبعة الرابعة، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٠، ٤/ ١١٧.

الناس بما أنزل الله فيكون فرضاً[21].

إدارة القضاء في عهد رسول الله ﷺ

رسول الله ﷺ هو القاضي الأول في الدولة الإسلامية امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿... فاحكُم بينهم بما أنزلَ اللهُ ...﴾[22]، وقوله تعالى: ﴿إنَّا أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ لتحكُمَ بينَ الناسِ بما أراكَ اللهُ﴾[23]، وقوله تعالى: ﴿فلا وربكَ لا يؤمنونَ حتى يحكموكَ فيما شجرَ بينهمْ ثمَّ لا يجدُوا في أنفسهمْ حرجًا مما قضيتَ ويسلمُوا تسليماً﴾[24].

وقد أورد رسول الله ﷺ نصاً في الوثيقة التي كتبها بين المسلمين وغيرهم بعد الهجرة حيث جاء فيها: كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ[25].

وهكذا فقد تولى رسول الله ﷺ القضاء بنفسه حيثما حلّ، وبعث القضاة إلى الولايات وأناط بالولاة القيام بأعمال القضاء في بعضها.

---

٢١ – ميّز العلماء بين خمسة أحكام في طلب القضاء فيكون: واجبًا أو مستحبًا أو حرامًا أو مكروهًا أو مباحًا.. انظر في ذلك: نهاية المحتاج للرملي، ٨/ ٢٣٦.

٢٢ – سورة المائدة، الآية ٤٨.

٢٣ – سورة النساء، الآية ١٠٥.

٢٤ – سورة النساء، الآية ٦٥.

٢٥ – السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام، الطبعة الثالثة، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٥، ١/ ٥٠٤، فقه السيرة للبوطي، ص: ٢١٥، د. الزحيلي، تاريخ القضاء في الإسلام، المرجع السابق، ص: ٤٢.

فقد رُوي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضياً، فقلت: يا رسول الله، ترسلني وأنا حديث السن، ولا علم لي في القضاء؟ فقال: «إن الله سيهدي قلبك، ويثبت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضي حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء». قال: فمازلت قاضياً، أو ما شككت في قضاء بعد[٢٦].

وروى معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟» قال: أقضي بكتاب الله، قال: «فإن لم يكن في كتاب الله؟» قال: فبسنة رسول الله، قال: «فإن لم يكن في سنة رسول الله؟» قال: أجتهد رأيي، ولا آلو، (أي لا أقصر)، فضرب رسول الله ﷺ على صدر معاذ، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي الله ورسوله»[٢٧].

ومن روائع توجيه رسول الله ﷺ أنه كان يدرِّب بعض أصحابه على أعمال القضاء.. يأمرهم أن يحكموا بين يديه في المنازعات والخصومات، من ذلك ما رواه عبدالله بن عمرو أن رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ فقال لعمرو: «اقض بينهما»، فقال أقضي بينهما وأنت حاضر يا رسول

---

٢٦ - رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه وأحمد والبيهقي، سنن أبي داود ٢ / ٢٧٠، ٢٧٣، مسند أحمد ١ / ٩٠، ٩٦، ١١١، ١٤٩، سنن ابن ماجه ٢ / ٧٧٤، جامع الأصول ١٠ / ٥٤٩، جامع الترمذي ٤ / ٥٦١، المستدرك ٤ / ٨٨، ٩٣.

٢٧ - رواه أبو داود والترمذي والدارمي وأحمد، أحمد ٥ / ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٢، سنن الدارمي ١ / ٦٠، سنن البيهقي ١٠ / ١١٤، جامع الأصول ١٠ / ٥٥١، جامع الترمذي ٤ / ٥٥٧، أخبار القضاة لمحمد بن خلف بن حيان (وكيع)، طبعة عالم الكتب ببيروت، (د. ت)، ١ / ٩٨.

الله؟ قال: «نعم، على أنك إن أصبت فلك عشرة أجور، وإن اجتهدت فأخطأت فلك أجر»[28]. كما كان رسول الله ﷺ يوصي من يبعثه قاضياً بكليات القضاء وأسسه في الحكم ومن ذلك كتابه إلى العلاء بن الحضرمي عندما أرسله والياً على البحرين وقاضياً فيها.. ومما جاء في هذا الكتاب: «... اتقوا الله أيها المسلمون ما استطعتم، فإني بعثت عليكم العلاء بن الحضرمي، وأمرته أن يتقي الله وحده لا شريك له، وأن يُلين لكم الجناح، ويحسن فيكم السيرة بالحق، ويحكم بينكم وبين من لقي من الناس بما أنزل الله عزل وجل في كتابه من العدل، وأمرتكم بطاعته إذا فعل ذلك، وقسم بقسط، واستُرحِم فرحم، فاسمعوا له، وأطيعوا، وأحسنوا مؤازرته ومعاونته ...».

وفي تعيين رسول الله ﷺ للقضاة كان يشافههم إن كانوا حاضرين، ويبين لهم أمور القضاء ويرشدهم إلى الطريق القويم فيه، ويدعو لهم. أما إذا كان المعيَّن غائباً فيكتب له كتاباً يرشده فيه إلى أهم أسس القضاء.

وكانت مصادر القضاء في عهد رسول الله ﷺ: القرآن الكريم[29]، والسُنَّة، والاجتهاد فيما لم يرد فيه نص وذلك بإعمال العقل في القياس على ما ورد في القرآن والسُنَّة.

كما أرشد رسول الله ﷺ إلى آداب القضاء في المساواة بين

---

٢٨ - رواه الحاكم في المستدرك ٤ / ٨٨، ورواه أحمد في المسند ٤ / ٢٠٥، ٢ / ١٨٧.

٢٩ - مثل حالة المرأة التي ظاهر منها زوجها، فأمرها رسول الله ﷺ بانتظار الوحي. فنزلت آيات الظهار.

الخصوم، والجلوس بين يدي القاضي، وأن يبدأ المدعي بالكلام؛ وإلى كيفية سماع الدعوى والبيِّنات، وعدم الحكم في حالة الغضب، وإلى الشورى قبل إصدار الأحكام.. ومن توجيهه ﷺ ما رُوي عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا ابتُلي أحدكم بالقضاء فلا يجلس أحدُ الخصمين مجلساً لا يجلسه صاحبُه، وإذا ابتلي أحدكم بقضاء فليتق الله في مجلسه وفي لحظه وفي إشارته»[٣٠].

وكان تنفيذ الأحكام فورياً دون مماطلة ولا تسويف، بهدف إيصال الحقوق إلى أصحابها[٣١].

وفي عهد رسول الله ﷺ وُجدت النواة الأولى لقضاء المظالم، وهو استيفاء الحقوق من الولاة والحكام وأصحاب النفوذ، ومنعهم من ظلم الرعية، ووُجد كذلك قضاء الحسبة، وهو الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله. وقد بدأ رسول الله ﷺ بنفسه فقال: «من أخذتُ له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ومن جلدتُ له ظهراً فهذا ظهري فليقتص منه». ولما مر رسول الله ﷺ في غزوة بدر على الصفوف يسوّيها طعن سوادَ بن غَزية وقال له: استو ياسواد، فقال: يا رسول الله، أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال:

٣٠- رواه الدار قطني والطبراني والبيهقي عن أم سلمة بألفاظ متقاربة فروي: «من ابتلي بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم في لحظه وإشارته ومقعده»، وفي روايه قال: «في إشارته ولحظه وكلامه» وروى البيهقي بإسناد آخر: «من ابتلي بالقضاء بين الناس فلا يرفعن صوته على أحد الخصمين ما لا يرفع على الآخر» أو «... ولا يرفع صوته على أحد الخصمين أكثر من الآخر». انظر أخبار القضاة لمحمد بن خلف بن حيان (وكيع)، المرجع السابق، ١ / ٣١.

٣١- د. محمد الزحيلي، المرجع السابق، ص: ٥١ - ٥٧.

استقد، فاعتنقه فقبَّلَ بطنه...[٣٢].

كما مارس رسول الله ﷺ قضاء المظالم والحسبة بنفسه فطاف في الأسواق يتفقد أحوال الناس ويراقب التعامل ويمنع الغش ويوجّه الناس إلى الخير والإحسان.

إدارة القضاء في عهد الخلفاء الراشدين

أصبح القضاء في عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم امتداداً لعهد رسول الله ﷺ في تطبيق الأحكام والالتزام بدين الله وشرعه. ومع اتساع الدولة الإسلامية برزت الحاجة للبدء في وضع التنظيمات القضائية، مع التقيد بالتنظيم الإداري للقضاء في العهد النبوي، بغية مواجهة الظروف الجديدة.

واعتبر القضاء فرض عين على الخليفة لأنه أحد أهم الواجبات في تطبيق الشرع وإقامة أمور الدين والدنيا. فكان الناس يسألون أبابكر رضي الله عنه في بعض الأحكام، ثم فوّض أعمال القضاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ليتفرغ إلى شؤون الدولة والسياسة العامة ومحاربة المرتدين، وفي ذلك قيل: لما استُخلف أبوبكر استعمل عمرَ على القضاء، وأبا عبيدة على بيت المال، فمكث عمر سنة لا يتقدم إليه أحد[٣٣]. وكذلك فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة، وأعطى صلاحيات كاملة للقضاة

---

٣٢ – السيرة النبوية لابن القسّام ١ / ٦٢٦، ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص: ٥٥.

٣٣ – أخبار القضاة لوكيع، المرجع السابق، ١ / ١٠٤.

في الولايات، وحرص على متابعتهم وتقصّي سيَرهم. ثم ولى أبا الدرداء قاضياً في المدينة وأرسل شريح إلى الكوفة. وكان فقهاء الصحابة يفتون والناس ترجع إليهم في بيان الأحكام وفضّ الخلاف. واستمر ذلك في عهد عثمان وعلي رضي الله عنهما. فتم تعيين الولاة في الأمصار أمراء وقضاة، ثم أصبحت الحاجة ماسة لتعيين قضاة متفرغين، وكثيراً ما فُوِّض الولاة في الاختيار. من ذلك ما كتبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى معاذ بن جبل وأبي عبيدة رضي الله عنهما حين بعثهما إلى الشام قائلاً: انظروا رجالاً من صالحي مَنْ قبلكم فاستعملوهم على القضاء. وكتب إلى أبي موسى: لا تَستَقْضين إلا ذا مال وذا حسب، فإن ذا المال لا يرغب في أموال الناس، وإن ذا الحسب لا يخشى العواقب بين الناس[٣٤]. ومما قاله أيضًا: من استعمل فاجراً وهو يعلم أنه فاجر، فهو فاجر مثله. و: لا يستعمل الفاجرَ إلا الفاجرُ. وما من أمير أمَّر أميراً أو استقضى قاضياً محاباة إلا كان عليه نصف ما اكتسب من الإثم. وكتب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى عامله الأشتر: ... ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة... وتوخَّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام...

وعندما حصل بعض خلاف أو تنازع على السلطة بحكم الواقع بين الولاة والقضاة نتيجة فصل السلطة القضائية عن الولاية لتصبح سلطة مستقلة أكد عمر بن الخطاب رضي الله عنه استقلال القضاة وعدم خضوعهم للولاة. ومع ذلك فإن هذا الاستقلال لم يكن في ذلك الحين كاملاً أو عاماً، إلا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد قرر المبدأ فيه، ووضع

---

٣٤ – المرجع السابق، ١ / ٧٦ و ٧٧.

نقطة الارتكاز له، ليصبح كذلك في العهد الأموي والعباسي.

وعلى هدي رسول الله ﷺ سار الخلفاء الراشدون في ممارسة قضاء المظالم لمحاسبة الولاة والقادة وذوي النفوذ إذا صدر من أحدهم ظلم أو اعتداء أو تجاوز؛ وكذلك في ممارسة قضاء الحسبة.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن رسول الله ﷺ قد وضع الغرسة الأولى لقضاء المظالم وقضاء الحسبة؛ ثم نمت تلك الغرسة وترعرعت في عهد الخلفاء الراشدين.

فأبوبكر الصديق رضي الله عنه قال في أول خطبة له بعد تولي الخلافة: ... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. وتابع أعمال الولاة في الأمصار، والقادة في الفتوح، وحرص على معرفة أحوال الرعية ليقيم المعروف وينهى عن المنكر؛ وتصدى للردة بعزم لا يلين.

ولما بويع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال خطبته الأولى يشرح فيها منهاجه في الحكم والإدارة متأسياً بنهج رسول الله ﷺ وصاحبه، وكان مما قاله: فاتقوا الله عباد الله، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة... ليس فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف من القوي حتى آخذ الحق منه[35]، فحاسب عماله، وتابع أعمال الولاة واقتص منهم، واستمع إلى شكاوى الناس، وعسّ في الليل، ورد المظالم إلى أهلها، ومنع إساءة استعمال السلطة، وأنصف المظلومين، وباشر قضاء الحسبة ومراقبة الأسواق والأسعار ومنع الغش... ووجّه اللوم والتعزير إلى الوالي الأب عمرو بن

٣٥ - نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢/ ٩.

العاص في حادثة ابنه مع القبطي، واقتص للقبطي... ومما قاله في خطبة: أيها الناس، إني والله، ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنتكم، ويقضوا بينكم بالحق، ويحكموا بينكم بالعدل، فمن فُعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ، فوالذي نفس عمر بيده، لأقصنّه منه[36]. وقال أيضاً: أيّما عامل من عمالي ظلم أحداً، ثم بلغتني مظلمته فلم أغيرها فأنا الذي ظلمته. وقد حكم بالقصاص على جبلة بن الأيهم، وهو ملك، انصافاً للفزاري... وعيّن محمد بن سلمة قاضياً بينه وبين عماله، وبين الولاة والرعية كمفتش عام.

وكان إذا أخطأ مع إنسان سلمه الدرة التي في يده قائلاً: اقتص مني ...

وسار عثمان بن عفان رضي الله عنه على نهج رسول الله ﷺ والشيخين، وكتب إلى أمراء الأجناد: قد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملأ منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل، فيغير الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم.

ومما قاله أيضاً: ... ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم، فتعطوهم ما لهم، وتأخذون بما عليهم، ثم تعتنوا بالذمة، فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم. ومما كتبه إلى عماله: ... فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق، والأمانة الأمانة قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها، فتكونوا شركاء مَن بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن

---

٣٦ - د. عطية مشرفة، القضاء في الإسلام، مصر، شركة الشرق الأوسط، ١٩٦٦، ص: ١٠١.

الله خصم لمن ظلمهم... كما ذكّرهم بالحسبة فقال: أن ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، ولا يذل المؤمن نفسه، فإني مع الضعيف على القوي مادام مظلومًا، إن شاء الله.

واختار علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الولاة والقضاة وأمدهم بالتوجيه والنصح. من ذلك رسالته إلى الأشتر النخعي واليه على مصر، وهي من التوجيهات التي انطوت على الكثير من عناصر الحكمة والتوجيه الإداري لا من حيث الشمول فحسب، وإنما من حيث العمق والبصيرة أيضًا. ولا عجب أن يصدر ذلك منه فقد كان أقضى الصحابة وأكثرهم خبرة مع ورع وتقوى وزهد[٣٧]. فقد مارس القضاء في عهد رسول الله ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين، وفي فترة خلافته، ومارس قضاء المظالم وقضاء الحسبة[٣٨]. وعيَّن كعب بن مالك مفتشًا ومراقبًا على الولاة، ومما كتبه له: ... واخرج في طائفة من أصحابك حتى تمر بأرض كورة السواد، فتسأل عن عمالي، وتنظر في سيرتهم... .

وتجدر الإشارة إلى أنه قد وردت نصوص عديدة في كتب القضاء تبين أن مصادره في عهد الخلفاء الراشدين هي: الكتاب والسنة، والاجتهاد والإجماع والقياس والسوابق القضائية، إلى جانب الشورى كنظام يظلل

---

٣٧ - فزع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في قضية نسب مع ثلة من الصحابة يستشيرونه فيها فوجدوه في حائط له وهو يقرأ: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ يرددها ويبكي. د. محمد الزحيلي، المرجع السابق، ص: ١٥٥. انظر أيضًا: د. أحمد عبدالمنعم البهي، تاريخ القضاء في الإسلام، القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٦٥، ص: ١٩٥ عن كنز العمال ٥/٤٩٥ - ٤٩٧.

٣٨ - أخبار القضاة لوكيع، المرجع السابق، ٢/١٩٦.

جميع أمور المسلمين.. ونقتطف بعض مؤيدات ذلك:

كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله، فإن وجد ما يقضي بينهم قضى، وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله في ذلك الأمر سنة قضى به، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين، وقال أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله قضى في ذلك بقضاء، فربما اجتمع إليه النفر كلهم يذكر من رسول الله ﷺ فيه قضاء، فيقول أبوبكر: الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا، فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله ﷺ جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به[39].

وعن شريح قال: قال لي عمر: اقض بما استبان لك من كتاب الله، فإن لم تعلم كل كتاب الله فاقض بما استبان لك من قضاء رسول الله ﷺ، فإن لم تعلم كل أقضية رسول الله ﷺ فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين، فإن لم تعلم كلَّ ما قضى به أئمة المهتدين، فاجتهد رأيك، واستشر أهل العلم والصلاح. وكذلك فعل عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما[40].

ويروى أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز كتب إلى عَدِي بن أرطأة: أما بعد، فإن رأس القضاء اتباع ما في كتاب الله، ثم القضاء بسنة رسول الله ﷺ، ثم حكم الأئمة الهداة، ثم استشارة ذوي الرأي والعلم، وألا تؤثر أحداً

---

٣٩ - سنن الدارمي ١ / ٥٨، أعلام الموقعين ١ / ٦٥، د. البهي، تاريخ القضاء في الإسلام، المرجع السابق، ص: ١٠٢.

٤٠ - أعلام الموقعين ١ / ٢٢٤، د. جبر محمود الفضيلات، القضاء في صدر الإسلام، الجزائر، شركة الشهاب، ١٩٨٧، ص: ١٩٤.

على أحد، وأن تحكم بين الناس وأنت تعلم ما تحكم به، ولا تَقِس، فإن القايس في الحكم بغير العلم كالأعمى الذي يعشو في الطريق، ولا يُبصر؛ فإن أصاب الطريق أصاب بغير علم، وإن أخطأه فقد نزل بمنزلة ذاك حين أتى بما لا علم له فهلك، وأهلك مَن معه. فما أتاك من أمر تحكم فيه بين الناس لا علم لك به فسل عنه مَن تعلم، فإن السائل عما لا يعلم أحدُ العالمين. ومما قاله الخليفة عمر بن عبدالعزيز في خصال القاضي: إن القاضي يحتاج إلى أن يكون فيه أربع خصال، فإن أخطأته واحدة كانت وَصْمًا: أن يكون وَرِعًا، وأن يكون عالمًا، وأن يكون فَهِمًا، وأن يكون سَؤولاً عما لا يعلم[41].

وتجدر الإشارة إلى أن القضاء في العهد الأموي والعباسي قد حافظ، من حيث معالمه الأساسية وجوهره التنظيمي ووسائله وأهدافه، على ما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين لاسيما في الحرص على إقامة الحق والعدل[42]، والتمسك بالنزاهة والموضوعية، مع مراعاة ما يتطلبه التطور في شؤون الحياة وتوسع الدولة من الناحية التنظيمية.

---

٤١ - أخبار القضاة لوكيع، ١ / ٧٧ و ٧٨.

٤٢ - عين الخليفة أبو جعفر المنصور سوّار بن عبدالله قاضياً بالبصرة، ثم كتب له: انظر الأرض التي تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر فادفعها إلى القائد، فكتب سوّار: إن البينة قد قامت عندي أنها للتاجر، فلست أخرجها من يده إلا ببينة...، والله الذي لا إله إلا هو لا أخرجتها من يد التاجر إلا بحق، فلما جاء الكتاب قال المنصور: ملأتها والله عدلاً، وصار قضاتي تردني إلى الحق.. انظر: تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (٩١١هـ)، الطبعة الرابعة، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٦٩، ص: ٢٦٥.

شروط الصلاحية للقضاء

وضع العلماء الشروط التي يتعين توفرها فيمن يتولى القضاء. وبيّنوا أنه لا يجوز لرئيس الدولة، أو لمن له حق تولية القضاة، أن يولي فرداً إلا بعد أن يتحقق من توفر تلك الشروط فيه وعلى أن يجتهد في ذلك فلا يحابي أحداً. وجاءت تلك الشروط على النحو التالي:

(١) الإسلام، وهو شرط أجمع عليه العلماء، لا سيما وأن القضاء ولاية عامة، لقول الله تعالى: ﴿ ... ولن يجعلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنينَ سبيلاً ﴾[٤٣]. أما بالنسبة لغير المسلمين فقد أجاز فقهاء الحنفية تولية غير المسلم للقضاء بين أهل ديانته. وهذا يعكس تسامح الإسلام مع أهل الذمة. ولذلك ولّى عمرو بن العاص القضاء قضاة من الأقباط ليحكموا بين أهل ديانتهم وأقره على ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٤٤].

(٢) البلوغ، فلا يصح تولية الصبي لأنه ناقص الأهلية، حتى لو كان مميزاً واشتهر بالفطنة والذكاء، ولأن القضاء يحتاج إلى كمال الرأي، ولأن المصلحة لا تتحقق بتوليته.

(٣) العقل، وقد أفاض العلماء في هذا الجانب فمنهم من اكتفى بتوفر شرط العقل الغريزي الذي هو مناط التكليف، أي العقل التكليفي. ومنهم من زاد إلى العقل الاكتسابي حيث قال الماوردي: ولا يكتفى فيه

---

٤٣ – سورة النساء، الآية ١٤١. ومع أن الآية الكريمة خبر فإنها نهي في المعنى.

٤٤ – يرى جمهور العلماء بأنه لا يصح تولية القضاء غير المسلم ولو كان سيقضي بين غير المسلمين.. ومن أدلتهم في ذلك أن الفاسق ممنوع من تولي القضاء مع أنه أحسن حالاً من الكافر.. ولهذا يأتي المنع من باب أولى.

بالعقل الذي يتعلق به التكليف من علمه بالمدركات الضرورية حتى يكون صحيح التمييز جيد الفطنة، بعيداً عن السهو والغفلة، يتوصل بذكائه إلى إيضاح ما أشكل وفصل ما أعضل"[45].

(٤) الحريـــة، وهي من الشروط التي أجمع عليها أغلب العلماء، لأن العبد مشغول بحقوق سيده فلا يتفرغ لمصالح الأمة.

(٥) الذكــورة، هذا الشرط هو محل خلاف بين العلماء رحمهم الله. فثمة ثلاثة آراء:

الأول: وهو رأي جمهور العلماء - وفيهم المالكية والشافعية والحنابلة وزفر من الحنفية - يقولون بعدم جواز تولية المرأة القضاء ويأثم الحاكم إذا ولاها، كما تأثم المرأة إن رضيت، وقضاؤها لا ينفذ حتى ولو حكمت في القضايا التي تصح شهادتها فيها كالأموال والولادة والرضاع.. لأن الذكورة عند الجمهور شرط للجواز وللصحة.

الثاني: وهو رأي الحنفية - غير زفر -، أنه لا يجوز تولية المرأة القضاء، لكن لو وُليت وحكمت من بعض القضايا فإنه - مع إثم من ولاها - لا ينفذ قضاؤها إلا في الأمور التي تصح فيها شهادتها، وهي ما عدا مسائل الحدود والقصاص. فالذكورة وفق هذا الرأي هي شرط جواز لا شرط صحة[46].

---

٤٥ — أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (٤٥٠هـ) ، الأحكام السلطانية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٦٦ ، ص : ٧٢ .

٤٦ — يرى بعض العلماء أن الأحناف أجازوا أن تتولى المرأة القضاء فيما تصح فيه شهادتها .

الثالث: أجاز تولية المرأة القضاء، وأنه ينفذ قضاؤها في كل ما تصح فيه شهادتها، ولكن أصحاب هذا الرأي مختلفون في الأمور التي تصح شهادة المرأة فيها، فمنهم من يرى صحتها في كل شيء، ومنهم من يرى أن شهادتها لا تصح إلا في قضايا الأموال وما لا يطلع عليه الرجال غالبًا.

وقد استند الجمهور في رأيه، عدم جواز تولية المرأة القضاء، إلى قول الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ...﴾[47]. وإلى حديث رسول الله ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»[48]. وكذلك إلى الإجماع في مسألة قضاء المرأة[49]، وإلى القياس فقاسوا القضاء على رياسة الدولة فكل منهما ولاية

---

٤٧ - سورة النساء، الآية ٣٤. ويلاحظ أن الآية الكريمة تتعلق بقوامة رب الأسرة أي في الولاية الأسرية.

٤٨ - رواه الترمذي، وكلمة أمرهم من صيغ العموم تشمل جميع أمور الأمة فيكون شاملاً للقضاء، وسائر الولايات الأخرى.. ومع أن سبب ورود الحديث هو بمناسبة تولية بنت كسرى منصب رئيس الدولة وهي ولاية عظمى فإن المرجح في علم أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٤٩ - ناقش بعض العلماء موضوع دعوى الإجماع في هذه المسألة، على حين أشار بعضهم إلى أن السيدة عائشة رضي الله عنها قد تولت قيادة جيش عندما خرجت ومعها طلحة والزبير...، وقيادة الجيش أخطر من القضاء... ونميل إلى القول بأنه لم ينقل أحد من المؤرخين أن عائشة ومن معها نازعوا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الخلافة، فهي خرجت بتأثير جماعة يتزعمهم طلحة والزبير رضي الله عنهما كي يوفّقوا بين الناس ويزيلوا ما بينهم من أسباب الخلاف بما في ذلك أمر قتلة عثمان رضي الله عنه، وكاد الصلح أن يتم إلا أن الأمور تطورت إلى غير ما يرجون بفعل دعاة الفتنة. =

عامة. بل إن القضاء وهو أكبر من حال الإمامة في الصلاة، إذ لا يجوز للمرأة أن تكون إمامة للرجال فيها مع جواز إمامة الفاسق، فكان منعها من القضاء الذي لا يصح من الفاسق من باب أولى. هذا فضلاً عن صفات الأنوثة وغلبة العاطفة وحملها هموم الصغار ليلاً ونهاراً. بالإضافة إلى أنه ما ثبت توليها هذا المنصب في عهد رسول الله ﷺ أو في عهد الخلفاء الراشدين أو من جاء بعدهم.

أما دليل رأي الحنفية فيقوم على أن القضاء يشارك الشهادة في باب الولاية، والمرأة يصح لها أن تشهد في غير الحدود والقصاص فيصح إذن أن تكون قاضية في غير الحدود والقصاص[50].

وقد أُجيب عن هذا الاستدلال بأن الولاية في الشهادة تغاير الولاية في القضاء، فكلاهما ولاية إلا أن الولاية في القضاء عامة شاملة على حين أنها في الشهادة خاصة قاصرة.

واستدل من قال بجواز تولية المرأة القضاء بأن الأصل هو أن كل من تكون عنده مقدرة الفصل في قضايا الناس يكون حكمه جائزاً، وهذه قاعدة كلية وبما أن الإجماع قد خصص هذا الأصل العام - عدم جواز تولية

= على أن خروج السيدة عائشة رضي الله عنها كان اجتهاداً منها. فقد روى الطبراني عن أبي يزيد المديني، قال: قال عمار بن ياسر لعائشة لما فرغوا من الجمل: ما أبعد هذا السير من العهد الذي عهد إليكن - يشير إلى قول الله تعالى: ﴿وقرن في بيوتكن ...﴾ سورة الأحزاب / ٣٣ - فقالت: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قالت: والله إنك - ما علمتُ - لقوال بالحق، قال: الحمد لله الذي قضى لي على لسانك. انظر: د. محمد رأفت عثمان، النظام القضائي في الفقه الإسلامي، الكويت، مكتبة الفلاح، ١٩٨٩، ص: ٨٧ - ٩٧ وفتح الباري لابن حجر، المجلد ١٦ ص: ١٦٦ وما بعدها.

٥٠ - فتح القدير، للكمال بن الهمام، طبعة دار الفكر، ص: ٢٩٨.

المرأة رئاسة الدولة لوجود الحديث عن رسول الله ﷺ بشأن تولية ابنة كسرى - فيكون ما خصصه الإجماع هو المستثنى من هذا الأصل العام، وبالتالي يبقى ما عداه على الحكم الأصل.. وبذلك استدلوا على أنه يصح للمرأة أن تتولى القضاء، ولا تعد الأنوثة مانعًا لأنها لا تؤثر في فهمها للحجج وفصلها للخصومات فضلاً عن أنه يجوز للمرأة أن تكون مفتية، فيقاس القضاء على الافتاء[١٥].

وقد ردَّ بعض العلماء بأن المرأة غير قادرة على أن تفصل بين الخصومات على الصورة الكاملة ولأنها تنساق وراء العاطفة وتتعرض للأمور الطبيعية التي تخص النساء. فضلاً عن أن القضاء ولاية والفتيا ليس كذلك، إذ لا إلزام فيها بخلاف القضاء فهو حكم ملزم[٢٥]، وأضافوا بأن الشرع قد أعطى المرأة حق الولاية على بيت زوجها وإدارته[٣٥].

(٦) العدالة، لا يقصد العلماء بالعدالة في هذا الموضع عدالة الأحكام وإنما الاستعداد الذاتي الذي يمنع الفرد من ارتكاب ما نهى عنه الشرع وكذلك ما لم ينه عنه ولكنه لا يليق بأمثاله بحسب عرف الناس في

---

٥١ - بداية المجتهد لابن رشد ص: ٥٦٤ ٥٦٥ وتبصرة الحكام لابن فرحون بهامش فتح العلي السالك، ص: ٢٤، انظر أيضاً: د. محمد رأفت عثمان، المرجع السابق، ص: ١٠٣.

٥٢ - أجاب بعض العلماء بأن الفتوى قد تكون ملزمة، وذلك حين لا يكون إلا واحد يصلح للإفتاء.

٥٣ - اعتبر بعض العلماء أن ولاية المرأة على بيت زوجها هي ولاية خاصة ولا يصح القياس بين ولاية خاصة وأخرى عامة. وتجدر الإشارة إلى أن ما قدمناه من آراء العلماء وأدلتهم، وهو نذر يسير مما قدموه في هذا الجانب، ليدل على حرية الفكر في الإسلام.

الزمان والمكان.

فمن العلماء من قال: العدل من يجتنب الكبائر وأدى الفرائض وغلبت حسناته سيئاته[54]، ومن قال: اجتناب الكبائر والإصرار على الصغائر والمباح الذي يخل بالمروءة[55]، وقال السيوطي: ملكة في النفس تمنع من اقتراف كبيرة أو صغيرة دالة على الخسّة أو مباح يخل بالمروءة[56].

وفي تعريف الكبيرة، يصعب أن نجد تعريفاً عند العلماء سالماً من الاعتراض. فمن قال: هي ما يوجب الحد[57]، وقيل: ما فيه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة. أو: كل ما كان شنيعاً بين المسلمين وفيه هتك حرمة الدين[58].

أما عن صفة المروءة فقد قصد العلماء أن يكون الإنسان نائياً بنفسه عن كل ما يمس كرامته وكرامة الفئة التي ينتمي إليها، ويخدش مكانته في

---

٥٤ - وردت الكبائر بالجمع، ويجب ألا يفهم من هذا أنه إذا ارتكب كبيرة واحدة كان عدلاً.

٥٥ يصرح العلماء بأن الإصرار على الصغيرة هو في حكم الكبيرة من حيث قدحه في العدالة، ويرى بعضهم بأن المراد بالإصرار: التكرار. وروى عن جمع من العلماء أنه ليس في الذنوب صغيرة لأنهم كرهوا أن يسموا معصية الله صغيرة إجلالاً لذاته سبحانه وتعالى.

٥٦ - الأشباه والنظائر للسيوطي، ص: ٣٨٤.

٥٧ - ثمة جرائم من الكبائر لا حدّ فيها كأكل أموال اليتامى وشهادة الزور ...

٥٨ رد المحتار (حاشية ابن عابدين) على الدر المختار للحصكفي (١٠٨٨هـ) على تنوير الأبصار للتمرتاشي (١٠٠٤هـ)، محمد أمين الشهير بابن عابدين (١٢٥٢هـ)، الطبعة الثانية، القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٦، ص: ٤٧٣.

المجتمع، فلا يرتكب فعلاً يحطُّ من قدره حتى ولو كان غير محرم في الشرع أو مكروهاً، لكنه غير لائق به في عرف المجتمع[59].. ولهذا فقد عرَّف بعض العلماء المروءة على أنها: توقّي الأدناس عرفاً. أو هي اجتناب الأمور الدنيئة المزرية. ومن قال إنها: كمال النفس بصونها عما يوجب ذمها عرفاً، ولو مباحاً في ظاهر الحال[60].

(٧) الاجتهاد، وهو بذل الفقيه وسعه في استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية. وهو إما اجتهاد مطلق، يتضمن القدرة على استنباط الحكم في جميع أبواب الشرع. أو اجتهاد مذهب، يتضمن التمكّن من معرفة الأحكام، أو اجتهاد فتوى الذي يعني التمكّن من الترجيح.

ويتطلب الاجتهاد المطلق أن يعرف المرء خاص القرآن والسنة وعامهما ومطلقهما ومقيدهما ومجملهما ومبينهما، والناسخ والمنسوخ، والنص والظاهر والمحكم؛ ومن السنة: المتواتر والآحاد، والحديث المتصل والمرسل والمنقطع والمعضل... والصحيح والحسن وحال الرواة... وأن يكون عارفاً بلسان العرب لغةً ونحواً وصرفاً وبلاغةً، وأقوال العلماء، والقياس وشروطه وأنواعه وطرق استخراج العلل والاستنباط[61]..

وبالنظر لندرة توفر جميع تلك الصفات في الفرد الواحد، فقد يكون من

---

٥٩ - د. عثمان، المرجع السابق، ص: ١١١.

٦٠ - حاشية الشرقاوي على شرح التحرير للأنصاري، المجلد الأول، طبعة ١٩٢٨، ص: ٥٠٥ - ٥٠٦. والمغني لابن قدامة المقدسي، عبدالله بن أحمد، القاهرة، مكتبة القاهرة، ١٩٦٩، ٩/١٦٨ - ١٦٩.

٦١ - يتبين أن من النادر توفر جميع هذه الصفات في فرد واحد.. وقد قال بعض العلماء: من يجيب في كل مسألة فهو غير عاقل، وإذا ترك العالم كلمة (لا أدري) أصيبت مقاتله.

المناسب تولية الأفضل من العلماء، ولا بأس من أن يشاور العلماء الآخرين فيما يُعضل من الأمور[62].

(٨) الكفاءة وسلامة الحواس كالسمع والبصر والنطق، إلى جانب أن يكون حليمًا عفيفًا، وقورًا.. .

من أصول القضاء في الإسلام

وضع الإسلام الكثير من القواعد لتنظيم القضاء، تتناول نظام الفصل في الدعوى ووسائل الإثبات، كما حدد أصول القضاء. وقد أفاض العلماء بآرائهم واجتهاداتهم، وفصّلوا أمور التقاضي إحقاقًا للحقوق والعدالة[63].

وسوف نتناول فيما يلي بإيجاز أصول القضاء في الإسلام:

(١) العدل بين الخصمين:

والمقصود هنا ليس العدل في الحكم، فهو القضاء كله أصلاً وغاية،

---

٦٢ - يرى بعضهم بأنه طالما أن الغرض من القضاء هو الفصل في الخصومات وإيصال الحقوق إلى مستحقيها فإذا تمكن القاضي من تحقيق ذلك بعلم غيره جاز قضاؤه. وثمة من لا يرى هذا الرأي على اعتبار أن الغرض من نصب القاضي ليس القضاء على أي وجه وإنما القضاء على وجه الكمال. وهذا لا يتحقق إلا إذا توفرت في القاضي صفة الاجتهاد.

٦٣ - ومن ذلك على سبيل المثال أن القاضي لا ينعزل بموت رئيس الدولة أو انعزاله، لأن ذلك قد يؤدي إلى تعطيل المصالح. فضلاً عن أن القاضي لا يعمل بولاية رئيس الدولة وفي حقه بل بولاية المسلمين وفي حقوقهم. ورئيس الدولة بمنزلة النائب عنهم فيولي القضاة نيابة عن المسلمين، وولايتهم بعد موت الرئيس باقية، فيبقى القاضي في منصبه، انظر د. عثمان، المرجع السابق، ص: ١٤٢ - ١٤٣.

وإنما العدل في التعامل مع الخصمين، وهو أمر على قدر كبير من الأهمية في تأكيد عامل النزاهة والموضوعية والمساواة. فعن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما قال: قضى رسول الله ﷺ: «أن الخصمين يقعدان بين يدَي الحكم»[٦٤].

فعلى القاضي العدل بين الخصمين في كل شيء بدءاً بدخول الخصمين عليه وإقباله عليهما، وفي الخطاب واللحظ واللفظ والإنصات وفي القيام والجلوس والكلام.. بل وحتى في النظر إليهما.

(٢) البيِّنة على المدعي واليمين على من أنكر :

يرى بعض العلماء، كابن تيمية وابن القيم، أنه يراد بالبينة الحجة والدليل، ولا يراد بها الشهود وحدهم. على حين يرى جمهور العلماء أن البينة مرادفة للشهود[٦٥]، فإذا أُطلقت لا تنصرف إلا إلى الشهادة، ولكنهم لا

---

٦٤ - أخرجه أبو داود برقم ٣٥٨٨ في الأقضية، باب كيف يجلس الخصمان بين يدي القاضي.

٦٥ - روى خزيمة بن ثابت أن رسول الله ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه إلى منزله ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع رسول الله ﷺ المشي، وأبطأ الأعرابي بالفرس، فطفق رجال يعترضون الأعرابي، يساومونه بالفرس، لا يشعرون أن رسول الله ﷺ ابتاعه، فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس وإلا بعته، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي، فقال: «أوليس قد ابتعته منك؟» قال الأعرابي: لا، والله ما بعتكه، فقال رسول الله ﷺ: «بلى قد ابتعته منك»، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً. فقال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «بم تشهد؟» قال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة شهادة رجلين» أخرجه أبو داود والنسائي. (تجدر الإشارة إلى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان لا يثبت آية في المصحف حتى =

يقصدون أن وسائل الإثبات منحصرة في الشهادة بل توجد وسائل أخرى للإثبات كالإقرار وعلم القاضي.. ولكنهم يسمون هذه الوسائل بأسمائها.

وإذا صحت الدعوى بتوفر الشروط تعين على القاضي أن يسأل المدعى عليه، فإذا أقر حكم عليه بإقراره، وإذا أنكر سأل المدعي البيّنة، فإن أقامها حكم القاضي على خصمه (المدعى عليه) وإذا لم يقم البيّنة قام القاضي بتحليف المدعى عليه إن طلب المدعي تحليفه لأنه حق له فلا يستوفيه بدون إذنه[66].

= يشهد عليها رجلان. فلما كان الأمر بالآية الكريمة: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ سورة التوبة / ١٢٨ جاء بها خزيمة بن ثابت فأثبتها عمر رضي الله عنه بشهادته وحده). انظر في ذلك الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، المرجع السابق، المجلد الثامن، ص: ٣٠٣.. وزاد رزين، فقال الأعرابي: «أهذا رسول الله؟ فقال له أبو هريرة: كفى بك جهلاً أن لا تعرف نبيك، صدق الله: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ سورة التوبة / ٩٧. فاعترف الأعرابي بالبيع».

وعن زيد بن خالد أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها» أخرجه مسلم والموطأ والترمذي وأبو داود. وزاد أبو داود قال: «أو يخبر بشهادته» قال أبو داود: شك أحد رواته أيهما قال، وقال مالك: «هو الذي يخبر بالشهادة التي لا يعلم بها الذي هي له، فيأتي بها الإمام، فيقضي له بها» رواه مسلم برقم ١٧١٩ في الأقضية، باب بيان خير الشهود، والموطأ ٢ / ٧٢٠ في الأقضية، باب ما جاء في الشهادات، وأبو داود برقم ٣٥٩٦ في الأقضية، باب في الشهادات، والترمذي برقم ٢٢٩٦ في الأحكام، باب ما جاء في الشهداء أيهم خير.

٦٦ - يرى بعض العلماء أن اليمين لا تتوجه إلا على الشخص الذي بينه وبين المدعي خلطة، وقصدوا التعامل والمداينة..، لئلا يبتذل السفهاءُ أهلَ الفضل لا سيما وأن الإقدام على اليمين يصعب على كثير من الناس لمروءتهم وورعهم، ومنهم =

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال في خطبته: «البينة على المدَّعي، واليمين على المدَّعى عليه»[٦٧]. وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ قال: «لو يُعطى الناسُ بدعاويهم لادَّعى قوم دماء رجال وأموالهم، ولكن اليمين على المدَّعَى عليه»[٦٨].

وقال العلماء إن نية القاضي المستحلِف للخصم هي التي تعتبر .... قال رسول الله ﷺ: «اليمين على نية المستحلِف»[٦٩]، لأنه لو كانت نية الحالف هي المعتبرة لأدى ذلك إلى بطلان فائدة الأيمان وضاعت الحقوق. ولو أقام المدعي البينة بعد حلف المدعى عليه سُمعت وقضى القاضي بها لقول رسول الله ﷺ: «البيِّنة العادلة أحق من اليمين الفاجرة»[٧٠].

(٣) حكم القاضي لا يحرم حلالاً ولا يحل حراماً:

وقد بيَّن رسول الله ﷺ هذا الأمر بجلاء في قوله: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض .....» الحديث[٧١].

= من يرى أنه إذا نكل المدعى عليه فإن اليمين تُرد على المدعي، فإن حلف قضى القاضي له، وإن نكل صرفهما القاضي.

٦٧ - أخرجه الترمذي برقم ١٣٤١ في الأحكام، باب ما جاء في أن البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه.

٦٨ - أخرجه مسلم.

٦٩ - رواه مسلم.

٧٠ - رواه البخاري.

٧١ - ألحن بحجته: أي أفطن لها، واللحَن بفتح الحاء: الفطنة، واللحْن بإسكان الحاء: الخطأ في القول.

(٤) لا يقضي القاضي وهو غضبان:

لأن الغضب يؤثر في توازن الإنسان بسبب الانفعال، فلا يكون حكمه سديداً غالباً. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا يقضيَنَّ حكم بين اثنين وهو غضبان»[٧٢].

وقد استنتج العلماء من هذا الحديث أن التوجيه النبوي يشمل الحالات التي تؤثر في القاضي فتمنعه من إصدار الحكم العادل، أو تشغله عن استيفاء النظر كالجوع والعطش والألم الشديد. وهذا يدخل في باب استنباط معنى دل عليه النص، فلا يكون الحكم إلا في حالة استقامة الفكر.

(٥) لا يقبل القاضي هدية:

الرشوة محرمة لأنها من قبيل أكل أموال الناس بالباطل، قال رسول الله ﷺ: «لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم»[٧٣]. وفي رواية عن ثوبان قال: لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي والرائش الذي يمشي بينهما[٧٤] وقال أيضاً: «هدايا العمال غلول»[٧٥]..

ولهذا فقد كان رأي العلماء بشأن الهدية بأن الأَوْلى سد بابها لاسيما إذا كان للمهدي خصومة في الحال، وحتى إذا كان بينهما قرابة أو صداقة. أما إذا لم يكن للمهدي خصومة، وأهدى قدر عادته فقد أجاز العلماء

---

٧٢ - أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

٧٣ - أخرجه الترمذي عن أبي هريرة وعبدالله بن عمر برقم ١٣٣٦ في الأحكام، باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم، وهو حديث صحيح. وأخرجه أبو داود عن ابن عمر وحده برقم ٣٥٨٠ في الأقضية، باب كراهية الرشوة، ورواه أيضاً ابن ماجه.

٧٤ - انظر: أخبار القضاة لوكيع ١ / ٤٩.

٧٥ - وفي رواية: «سحت». رواه أحمد.

قبولها[76].

(٦) لا يقضي القاضي لنفسه ولمن لا تقبل شهادته له:

للعلماء في ذلك أقوال، وأغلبها يفيد تنزيه القاضي عن مظنة الميل إلى الحكم لنفسه أو لذويه.

(٧) جواز الطعن في الأحكام:

فالعدل المطلق من أهداف القضاء في الإسلام، ويقتضي هذا أن يبحث القاضي عن الحق، فأينما وجده قضى به. ولهذا فإن نقض الحكم أو طلب نقضه حق لكل من يعلم به، بل واجب عليه، سواء في ذلك: القاضي الذي أصدره، أو أحد أطراف الخصومة، بل لأي إنسان آخر حتى ولو لم يكن له صلة بالقضية، وذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الامتناع عن تولي القضاء

كان الخلفاء والولاة يختارون أعلم الناس بالقضاء وأكثرهم فقهاً فيقصدون الأئمة الكبار والعلماء المشهورين لتولّيه تنفيذاً لتوجيه رسول الله ﷺ وحرصاً على إقامة العدل وحفظ الحقوق. واستجاب كثير من هؤلاء فتولى منصب القضاء طمعاً في الثواب ومساهمة في تحمل مسؤولية شأن عظيم من شؤون الدولة.

ومع ذلك فقد امتنع بعض العلماء عن تولّي القضاء، وشكل ذلك ظاهرة

---

٧٦ - رُوي عن الحسن أنه قال: إذا دخلت الهدية من باب خرجت الأمانة من الرَّوْزنة (الكوة). انظر أخبار القضاة لوكيع، ١/ ٥٦.

ذات أبعاد تتصل بعدة عوامل... سياسية واجتماعية وسلوكية وروحية، بالإضافة إلى الزهد في الدنيا والعزوف عن المناصب والانشغال بالعلم والتفرغ للبحث والاجتهاد إلى جانب الرقابة الذاتية والشعور بالخشية من الله والمساءلة يوم لا ينفع مال ولا بنون.. ويوم لا تملك نفس لنفس شيئًا.

فقد أدرك هؤلاء العلماء خطر القضاء فرهبوا جانبه وتخوفوا من توليه، واعتبره بعضهم محنة وابتلاء فخشي أن يكون من قضاة الجور فيكون في النار. وكتب القضاء والتراجم تفيض بالأمثلة مما لم تعرفه الأمم الأخرى، من ذلك:

- امتنع عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي عندما طُلب للقضاء وقال لرجل جاءه يساره: إن لي إليك حاجة، قال: ما هي؟ قال: تضع أصبعك في الجمر، فقال: سبحان الله، قال: تبخل عليّ بأصبع من أصابعك في دار الدنيا، وتسألني جثماني كله في نار جهنم؟[77].
- رُوي أن عمر بن عبدالعزيز وجّه رجلاً إلى البصرة فأمره بالمسألة عن إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجَوشني ويفتشهما عن أنفسهما ليولي أولاهما بذلك. فجمع بينهما؛ فقال إياس للرجل: سل عني وعنه فقيهي المصر، الحسن وابن سيرين، فمن أشارا عليك بتوليته وليته؛ وكان القاسم يجالسهما، وكان إياس لا يفعل، فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به، فقال للرجل: أيها الرجل ليس بك حاجة إلى أن تسأل عني وعنه، اسمع ما أقول لك، وأَحلِف عليه: والله الذي لا إله إلا هو ما أنا بصاحب ما تُريدني عليه، ولإياس أعلم به وأقوى عليه، فإن كنتُ عندك صادقًا فما ينبغي أن تتركه وتوليني، وإن كنت عندك كاذبًا فما ينبغي أن

---

٧٧ - أخبار القضاة، ٢/ ٤٠٢، ٤٠٦.

تولي كَذّاباً. فوقف الرجل ودخله شك وهمّ بتولية إياس فقال: إنك وقفته بين الجنة والنار فخاف على نفسه ففداها بيمين حانثة، يتوب منها ويستغفر ربه وينجو بها من هول ما أردته عليه؛ فقال الرجل: أما إذا فطنت لهذا فأنت أفهم منه، وعزم على توليته[78]. وعندما ولّى عدي إياساً قضاء البصرة أبى وقال: بُكَير المُزّي خير مني فأمر بكيراً بذلك فقال: إياس خير مني؛ قالوا: إنه قد قال: إنك خير منه؛ فقال: لو لم تعلموا من فضله إلا تفضيله إياي عليه كان ينبغي لكم أن تعلموا أنه أفضل مني.

- قال المسيب بن رافع عندما دعاه عمر بن هبيرة لتولي القضاء: ما يسرني أني وَليت القضاء، وأن سَوَاري مسجدكم هذا لي ذهب[79].
- رفض مكحول – فقيه أهل الشام في عصره – تولي القضاء وقال: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن ألي القضاء.
- دُعي حيوة بن شريح لتولي القضاء فامتنع، فدعي له بالسيف والنّطع، فلما رأى ذلك أخرج مفتاحاً كان معه وقال: هذا مفتاح بيتي، ولقد اشتقت إلى معادي (الجنة).. فلما رأوا عزمه تركوه.
- رفض أبو حنيفة النعمان القضاء، وهو على ما هو عليه من علم وفقه.
- جلس عبدالرحمن الأوزاعي فقيه أهل الشام مجلس القضاء بعد أن ولاه يزيد بن الوليد، ثم استعفى.
- ومما رُوي أنه جيء بعبدالله بن إدريس، وحفص بن غياث، ووكيع بن الجراح إلى الخليفة هارون الرشيد ليوليهم القضاء. فأما ابن إدريس

---

٧٨ – ذكر في العقد الفريد أن المحاورة كانت بين عدي بن أرطأة من ناحية وبين إياس والقاسم من ناحية أخرى. انظر أخبار القضاة ١ / ٣١٢ و ٣١٣.

٧٩ – المرجع السابق، ١ / ٢٤.

فقال: السلام عليكم، وطرح نفسه كأنه مفلوج، فقال هارون الرشيد: خذوا بيد الشيخ.. لا فضل في هذا[80]. وأما وكيع فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أبصرت بها منذ سنة، ووضع إصبعه على عينه، وعني إصبعه، فأعفاه هارون، وأما حفص فقال: لولا غلبة الدين والعيال ما وليت. فتولى القضاء لكسب الرزق لعياله، وكان من خيرة القضاة وثقات الرواة في الحديث، وكان قاضي الكوفة ثم ولي القضاء ببغداد[81].

- أرسل روح بن حاتم إلى عبدالله بن فروخ الفارسي فقيه القيروان ليوليه القضاء بناء على طلب الخليفة هارون الرشيد، فامتنع. فأمر أن يُصعد به على سقف الجامع، فقيل له: تقبل؟ فقال: لا، فأخذ ليطرح، فلما رأى العزم قال: قبلت، فأُجلس في الجامع ومعه حرس، فتقدم إليه خصمان، فنظر إليهما وبكى طويلاً، ثم رفع رأسه، وحلّفهما بالله إعفاءه من الدعوى، فرحماه، وقاما عنه. ولما أعلم الحرس روح بن حاتم قال: اذهبوا إليه، فقولوا له يشير علينا بمن نُولّي.. أو ما قبل، فقال: إن يكن فعبد الله ابن غانم فإني رأيته شابًا له صبابة بمسائل القضاء[82].
- حمل الزهدُ والصلاح عبدالله بن وهب المصري، صاحب الإمام مالك، على رفض القضاء بعد أن عرضه عليه الخليفة، وتغيّب، ولزم بيته.

---

٨٠ - يقصد أن مرضه وضعفه يمنعانه من تحمّل أعباء القضاء.

٨١ - روى الخطيب في تاريخه عن أبي بكر بن أبي شيبة قال: سمعت حفص بن غياث يقول: ما وليت القضاء حتى حلّت لي الميتة. انظر: أخبار القضاة لمحمد بن خلف بن حيان (وكيع)، المرجع السابق، الجزء الأول، طبعة عالم الكتب، بيروت، ص: ٢٧.

٨٢ - أبو الحسن النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، (لم يذكر تاريخ النشر)، ص: ١٥ ، ٢٥.

وعبد الملك بن عبد العزيز، المعروف بابن الماجشون، الفقيه المالكي وتلميذ الإمام مالك، كتب إليه الخليفة المأمون بالقضاء، فامتنع.

- طلب الخليفة المأمون موسى بن سليمان الجوزجاني الحنفي للقضاء فأبى وقال للخليفة: احفظ حقوق الله في القضاء، ولا تولِ على أمانتك مثلي، فإني غير مأمون الغضب، ولا أرضى لنفسي أن أحكم في عباده. قال المأمون: صدقت وقد أعفيناك، فدعا له بخير.
- عيَّن الخليفة أبوجعفر المنصور سفيان الثوري على قضاء الكوفة فأبى، وخرج ليسكن مكة والمدينة. ثم طلبه الخليفة المهدي، فتوارى حتى ظفر به، وقال له: تفر منا ههنا، وههنا، وتظن أنا لو أردنا بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، ثم قال المهدي: اكتبوا بعهده على قضاء الكوفة، على أن لا يعترض عليه في حكم. فكتب عهده، ودفعه إليه، فأخذه سفيان وخرج، ثم رمى به في نهر دجلة، وهرب، فطلب في كل بلد فلم يوجد، وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً.
- طُلب أحمد بن عمر بن سُرَيْج، الفقيه المجتهد وشيخ الشافعية في عصره، للقضاء فامتنع، وسَمَّر بابه ولم يقبل، ووقف عليه الجنود بضعة عشر يومًا فامتنع، فقال الوزير علي بن عيسى: ما أردنا بالشيخ إلا خيرًا، أردنا أن نعلم الدنيا أن في مملكتنا من يُطلب للقضاء، وهو لا يقبل.

هذا غيض من فيض في تاريخ القضاء في الدولة الإسلامية، ومثلهم كثير.. كالخوارزمي، والأوزاعي والجصاص وغيرهم... وكل هذا يدل على أنهم اعتبروا القضاء مسؤولية جليلة وليست منصبًا وظيفيًا[٨٣].. ولم يكن

٨٣ - رُوي عن الفُضيل بن عياض قوله: إذا وُلي الرجل القضاء فليجعل للقضاء يومًا =

امتناعهم تهربًا من تحمُّل المسؤولية، ولكن إدراكًا بأن بين الأمور مشتبهات قد يطغى بعضها على بعض.. ومما يروى أن عمران بن حُصين قضى على رجل بقضية، فاستقبله خارج المقصورة، فقال: (والله) لقد قضيتَ عليَّ بالجور ولم تألُ عن الحق، قال: (الله)؛ فرجع إلى زياد فاستعفاه وقال: ما أنا بالذي أقضي بين اثنين بعد يومي هذا[84]. وربما وجد بعض العلماء أن تولّيه القضاء لم يصبح فرض عين بل فرض كفاية في زمن كثر فيه العلماء. إلى جانب أن من امتنع عنه كان يؤْثر التفرغ للعلم والبحث.. أو ربما وجد في نفسه، والمرء أدرى بنفسه، ضعفًا فيغضب مثلاً أو ينسى...

= وللبكاء يومًا. وقيل إنه جيء بخالد بن عمران إلى أبي جعفر المنصور ليوليه القضاء فامتنع عليه؛ فتهدده وأسمعه وقال: أنت عاصٍ، فقال له خالد: إن الله يقول: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبَيْنَ أن يحملْنَها وأشفقْن منها ... ﴾ فلم يُسَمّهن عصاة حيث أبين حمل الأمانة، وقال: ﴿ وحَملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولا ﴾، فقال: اخرج فلا ترى مني خيرًا.

٨٤ أخبار القضاة لوكيع، ١/ ٢٩١.

قــراءة فــي رسالــة عمــر بــن الخطـــاب

– رضي الله عنه – إلى أبي موسى الأشعري

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتابًا توجيهيًا في القضاء[85] إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قائلا له: "أما بعد، فان القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آس الناس في مـجلسك وفي وجـهك وقـضـائك، حـتى لا يطمع شريف في حيـفك، ولا ييـأس ضـعيف من عدلك، البيّنة على المدعي، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحًا أحل حـرامًا أو حـرم حـلالاً، ومن ادعى حقًا غائبًا أو بيّنة فاضرب له أمدًا ينتـهي إليه، فـان بيّنه أعطيته بحـقه وان أعـجزه ذلك استحلت عليه القضـيـة، فـان ذلك هو أبلغ في العذر وأجلى للعماء، ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فـيه لرشدك أن تراجع فـيه الحق، فـان الحق قـديم لا يبطله شيء، ومـراجـعـة الحق خير من التمادي في الباطل، والمسلمون عدول بعضهم على بعض، إلا مـجربًا عليه شهادة زور، أو مجلودًا في حد، أو ظنينًا في ولاء أو قرابة، فان الله تعـالى تولى من العـبـاد السـرائر، وسـتـر عليـهم الحـدود إلا بالبـينات والأيمان، ثم الفـهم الفـهم فـيمـا أدلى إليك ممـا ورد عليك ممـا ليس في قرآن ولا سنة، ثم قـايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال، ثم اعـمـد فـيمـا ترى إلى أحبها إلى الله وأشبـهـها بالحق، واياك والغـضب والقلق والضـجـر، والتأذي بالناس والتنكر عند الخصومة (أو الخصوم)، فان القضاء في مواطن الحق

---

٨٥ – (ابن القـيم) ، اعلام الموقعين ، المرجع السابق ، الجزء الأول ،ص : ٨٥ ـ ٨٦ .
انظر أيضاً : الرياض النضرة للمـحب الطبـري ، المـرجع السـابق ، ص : ٣٩٧ ـ ٣٩٨ .

مما يوجب الله به الأجر، ويحسن به الذكر، فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس في نفسه شانه الله، فان الله تعالى لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً. فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام عليك ورحمة الله".

إن المتأمل لهذا الكتاب والمتمعن فيه يجد أساسًا مكينًا وتوجيهًا حكيمًا لأصول القضاء والحكم، ولعل من بعض ذلك ما يلي:

قوله : "القضاء فريضة محكمة، وسنة متّبعة ..."

نقول: يريد به أن ما يحكم به الحاكم اما أن يكون فرضًا محكمًا غير منسوخ أو أحكامًا سنها رسول الله ﷺ. مصداقًا لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾[86]. فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأعاد الفعل اعلامًا بأن طاعة الرسول تجب استقلالا، ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالا بل حذف الفعل وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر بخلاف ما جاء به فلا سمع له ولا طاعة، وقوله تعالى: ﴿... فإن تنازعتُمْ في شيءٍ ...﴾ نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون دِقّه وجِله، جَلِيه وخَفِيه.. ﴿فردوه إلى الله والرسول ...﴾ أي إلى القرآن الكريم وسنته ﷺ. بل ان الله قد أقسم بنفسه على نفي الايمان عن العباد حتى يحكّموا الرسول فيما شجر بينهم ولم يكتف في ايمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحرج

---

٨٦ - سورة النساء، الآية ٥٩.

والضيق عن قضائه وحكمه فقال تعالى: ﴿فلا وربكَ لا يؤمنونَ حتى يحكموكَ فيما شجرَ بينهمْ ثمَّ لا يجدُوا في أنفسهمْ حرجًا مما قضيتَ ويسلمُوا تسليمًا﴾[٨٧].

قوله : "فافهم إذا أدلي إليك ..."

نقول: إنه لا حكم إلا بعد الفهم الصحيح، وحسن القصد للتمييز بين الحق والباطل، وللفهم هنا وجهان أحدهما فهم الواقع واستنباط حقيقة ما وقع، والآخر فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله فيه أو حكم رسوله. وقد يعتمد الحاكم في فهم الواقع على بعض القرائن والعلامات[٨٨].

ويرتبط الفهم الصحيح في العمل الإداري بإدراك الفرد للأشخاص وللأشياء والمعاني والمواقف. وهذا الإدراك قد يكون ناقصًا أو مشوهًا لأنه ليس نقلاً حقيقيًا. إذ ربما لا يرى الفرد كل ما يقع في دائرة نظره فيتجاهل بعضها، اما لأنه لا يرغب في رؤيتها أو لأنها ليست هامة في رأيه. وبالتالي فالادراك ليس نقلا تامًا وحقيقيًا لما يراه الإنسان بل قد يكون اختياريًا وناقصًا تبعًا لخصائص الشيء موضوع الإدراك وخصائص الفرد وحالته النفسية ومجاله الإدراكي وميوله أو اهتماماته وحاجاته حيث قد يعمد إلى اختيار بعض الأجزاء لتكوين صورة جديدة[٨٩]. ولهذا ربط ابن القيم بين الفهم

---

٨٧ - سورة النساء، الآية ٦٥.

٨٨ - لعل من ذلك أن النبي سليمان عليه السلام قد استدل على عين الأم بقوله: "ائتوني بالسكين حتى أشق الولد بينكما". عندما حكم بين امرأتين ادعت كل منهما أنها الأم، فحكم لمن آثرت حياة الولد ولم يلتفت إلى إقرارها للأخرى به.

٨٩ انظر في ذلك للمؤلف كتاب: ادارة الأفراد، دبي، دار القلم، ١٩٩٠، ص: ٢٢٠.

الصحيح وحسن القصد[90] الذي يقطع مادته اتباع الهوى وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق وترك التقوى.

وقوله: "أدلي إليك ..." أي ما يصل إليك من الكلام من شرح أو تفسير أو تعليل أو تبرير.

قوله : "فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . . ."

نقول: وهذا تحريض على تنفيذ الحق، لأن التنفيذ في العمل الإداري هو ترجمة عملية للقرارات، لا سيما وأن الأفراد أسمع للأفعال منهم للأقوال. وفي ذلك إشارة إلى عنصر القوة إذ لا فائدة من قرارات لا تنفذ بل تظل حبراً على ورق.

وقد أشرنا سابقًا إلى أن للولاية ركنين أساسيين أحدهما القوة والآخر الأمانة كما قال تعالى: ﴿ ... إنَّ خيرَ مَنِ استأجرتَ القويُّ الأمينُ ﴾[91]، وكما قال صاحب مصر ليوسف عليه السلام: ﴿ ... إنَّكَ اليومَ لدينَا مكينٌ أمينٌ ﴾[92]، وفي قوله تعالى: ﴿ إنَّهُ لقولُ رسولٍ كريمٍ. ذي قوةٍ عندَ ذي العرشِ مكينٍ. مطاعٍ ثَمَّ أمينٍ ﴾[93]. وبالتالي فالقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام. كما ترجع إلى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمنًا قليلاً، وترك

---

٩٠ - ابن القيم، الجزء الأول، المرجع السابق، ص: ٨٧.

٩١ - سورة القصص، الآية ٢٦.

٩٢ - سورة يوسف، الآية ٥٤.

٩٣ - سورة التكوير، الآيات: ١٩ - ٢١.

خشية الناس[٩٤]، كما قال تعالى: ﴿... فلا تَخْشَوُا الناسَ واخشونِ ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلاً ومن لَّمْ يحكُم بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هُمُ الكافرونَ﴾[٩٥].

ولعل من بعض الشواهد ما روي أن امرأة من أهل الكوفة شكت الأمير موسى بن عيسى - عم الخليفة المهدي - بحجة أنه اغتصب بستانها. فأرسل إليه شريك بن عبدالله بن الحارث قاضي الكوفة آنذاك يأمره بالحضور معها. فأرسل الأمير صاحب الشرطة ليبلغ القاضي نفي ادعائها وبأنه لن يحضر معها.. فأمر القاضي بحبسه. فأرسل إليه الأمير حاجبه فأمر القاضي بحبس الحاجب، وعندئذ أرسل الأمير عددًا من وجهاء الكوفة، فأمر القاضي بحبسهم جميعًا. فقام الأمير على الفور بإطلاق سراحهم. وعندئذ ترك شريك بن عبدالله الكوفة إلى بغداد طالبًا إعفاءه من القضاء، ولكن الأمير لحق به في الطريق وناشده العودة ولم يقبل شريك إلا عندما أعاد أعوانه إلى السجن والجلوس مع المرأة، فامتثل لذلك. ولما تحقق من ظلامة المرأة حكم عليه وأطلق المسجونين. وعندما انتهت الدعوى سلم على الأمير وأجلسه بجانبه، وقال: ما عملناه كان حق الشرع وواجبه، وما نعمله الآن معك هو حق الأدب[٩٦].

---

٩٤ - ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، قدم له محمد المبارك، بيروت، طبعة دار الكتب العربية، ١٩٦٦، ص: ١٥ ـ ١٦.

٩٥ - سورة المائدة، الآية ٤٤.

٩٦ - أخبار القضاة، طبعة عالم الكتب، الجزء الثالث، ص: ١٧٠ ـ ١٧١.

وعندما اختصم إلى القاضي أبي يوسف رجل من الخليفة العباسي الهادي في خلاف على بستان، أقسم شهود الخليفة لصالحه، فيطلب أبو يوسف من الخليفة أن يحلف على أن شهوده صادقون، فلما رفض رد البستان إلى الرجل.

وكذلك فانه قد حلَّف الرشيدَ في قضية رأى أن يحلفه فيها، وعندما شهد عنده الفضل بن الربيع ردّ شهادته. وحين عاتبه الخليفة متسائلاً عن رد الشهادة أجابه أبو يوسف: سمعته يقول: أنا عبدك، فان كان صادقًا فلا شهادة للعبد ـ لأنه تبع لمولاه ـ وان كان كاذبًا انه لكذلك.

فالمؤدي للأمانة مع مخالفة هواه يثبته الله فيحفظه في أهله وماله بعده. وفي ذلك ما روي أن مسلمة بن عبدالملك دخل على عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه في مرضه الذي قبض فيه فقال: "انك قد أفغرت وُلْدَك من هذا المال، وتركتهم عالة لا مال لهم، وأنهم لا بد لهم مما يصلحهم فأوص بهم إليّ وإلى نظرائي من أهل بيتك نكْفِك مؤونتهم". فقال عمر: أجلسوني. فأجلس. فقال: يا مَسلم بن عبدالملك، أما ما ذكرت أني قد أفغرت أفواه ولدي من هذا المال فتركتهم عالة لا مال لهم، فلم أمنعهم حقًا هو لهم، ولست مُعطيهم حق غيرهم، وأما ما سألت من الوصاة بهم إليك وإلى نظرائك من أهل بيتي فان وصيي فيهم ووليي الله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولى الصالحين.. يا مسلمة بن عبدالملك انما بنو عمر أحد رجلين اما رجل اتقى الله فسيرزقه حتى يقبضه إليه واما رجل غدر وفجر فو الله لا يكون عمر أول من قواه على معصية الله، أدع لي بَنِيّ. فدَعَوْهم ـ وهم يومئذ اثنا عشر رجلاً ـ فجعل يصعد بصره فيهم، ويصوبه حتى أغرورقت عيناه، ثم قال: "هذا يزعم أني تركتكم عالة لا مال لكم، بل تركتكم من الله بخير، انكم

لا تمرون بامرئ مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب، يا بني اني ميلت رأيي في الدنيا بين أن تفتقروا في الدينا وبين أن أدخل الجنة، أو تستغنوا في الدنيا وبين أن أدخل النار. فكان أن تفتقروا في الدنيا إلى آخر يوم من الدنيا أحب إليّ من دخول النار طرفة عين. قوموا عصمكم الله ورزقكم"[97].

ويذكر ابن تيمية أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه قال في ذلك: "يا بَنِيّ والله ما منعتكم حقًا هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: اما صالح فالله يتولى الصالحين، واما غير صالح فلا أترك له ما يستعين به على معصية الله"[98].

وقد دلت سنة رسول الله ﷺ على أن الولاية أمانة في قوله لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه: «إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها» رواه مسلم..

كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا ضُيّعت الأمانة انتظر الساعة». قيل: يا رسول الله وما اضاعتها؟. قال ﷺ: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[99].

---

٩٧ - أبو حاتم السجستاني (سهل بن عثمان)، المعمرون والوصايا، تحقيق عبدالمنعم عامر، القاهرة، دار احياء الكتب العربية، ١٩٦١، ص: ١٦٤ - ١٦٥.

٩٨ - ابن تيمية، المرجع السابق، ص: ١٢.

٩٩ - المرجع السابق، ص: ١٢ - ١٣.

قوله : "آس الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ..."

نقول: لأن تخصيص أحد الخصمين باقبال أو بشاشة أو مجلس أو نظر يطمعه أن يكون الحكم له فيقوى قلبه وجنانه، على حين ييأس الآخر من العدل فيضعف قلبه وتنكسر حجته، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من ابتلي بالقضاء بين الناس فليعدل بينهم في لحظه واشارته ومقعده».. والعدل أساس القضاء كما قال تعالى: ﴿إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ ...﴾[100].. وفي الحديث القدسي: «يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»، وقوله تعالى: ﴿... ولا يجرمنَّكُمْ شنآنُ قومٍ على ألا تعدلُوا اعدلُوا هوَ أقربُ للتقوى ...﴾[101].

قوله : " البينة على المدعي واليمين على من أنكر ..."

نقول: البينة في كتاب الله ورسوله وكلام الصحابة اسم لكل ما يبين الحق[102]، والحكم يستند على الحجة التي ترجح الحق إذا لم يعارضها مثلها، ويتطلب العلم بما وقع، وهذا مداره الصدق، والحكم بما يجب، وهذا مداره العدل.

---

١٠٠ - سورة النحل، الآية ٩٠.

١٠١ - سورة المائدة، الآية ٨.

١٠٢ - من بعض ما جاء في القرآن الكريم: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ سورة الحديد، الآية ٢٥. و ﴿... فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون. بالبينات...﴾ سورة النحل الآية رقم ٤٣ و ٤٤. و ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ سورة البينة الآية رقم ٤. و ﴿أفمن كان على بينة من ربه ..﴾ سورة هود الآية ١٧.. هذا كثير في كتاب الله.

قوله : "والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالاً ..."

نقول: روى الترمذي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرم حلالاً أو أحل حرامًا، والمسلمون على شروطهم إلا شرطًا حرم حلالاً أو أحل حرامًا».. وقد ندب الله إلى الصلح في الدماء بقوله: ﴿وإن طائفتانِ منَ المؤمنينَ اقتتلوا فأصلحُوا بينهما ...﴾[103]. كما ندب إلى الصلح بين الزوجين عند التنازع بقوله: ﴿وإنِ امرأةٌ خافتْ من بعلهَا نشوزًا أو إعراضًا فلا جناحَ عليهمَا أن يُصلحَا بينهما صلْحًا والصلْحُ خيرٌ ...﴾[104].

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ردوا الخصوم حتى يصطلحوا، فان فصل القضاء يحدث بين القوم الضغائن. وقال أيضًا: ردوا الخصوم إذا كانت بينهم قرابة، فان فصل القضاء يورث بينهم الشنآن. والصلح بين الطرفين يجب أن يقوم على العدل وإلا كان صلحًا جائرًا، لأنه انطوى على اغماض وحيف على الضعيف.

قوله : "ومن ادعى حقًا غائبًا أو بينة فاضرب له أمدًا ينتهي إليه..."

نقول: وذلك لاتمام العدل إذا كانت حجة أو بينة المدعي غائبة، فإذا سأل أمدًا أعطيه أما إذا ظهر تسويفه ومدافعته فالفصل بالحكم أوجب.

---

١٠٣ - سورة الحجرات، الآية ٩.

١٠٤ - سورة النساء، الآية ١٢٨.

قوله : "ولا يمنعك قضاء قضيت به اليوم فراجعت فيه رأيك وهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق ، فان الحق قديم ولا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . . ."

نقول: إن المعنى أن الحق أولى بالإيثار لأنه قديم سابق على الباطل، فإذا سبق الاجتهادُ الأول الاجتهادَ الثاني، والثاني هو الحق فيكون أسبق من الأول، لأن الثاني قديم ولا يبطل بوقوع الأول على خلافه.

قوله : "والمسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجرباً عليه شهادة زور ، أو مجلوداً في حد ، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة . . ."

نقول: في هذا بيان لمن قام به مانع للشهادة، كشاهد الزور، أو من جلد في حد، أو متهم بأن يجر إلى نفسه نفعاً، أو الشاهد القريب لقريبه.

وقد ذكر عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة، ولا زان ولا زانية، ولا ذي غِمْرٍ على أخيه»[105].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة، ولا مجلودٍ حداً ولا ذي غمر على أخيه، ولا مجرَّب شهادة، ولا القانع لأهل البيت، ولا ظنين في ولاء ولا قرابة»[106].

---

١٠٥ أراد بالخيانة : الخيانة في الدين والمال والأمانات ، فإن من ضيع شيئاً من أوامر الله ، أو ركب شيئاً مما نهاه الله عنه فلا يكون عدلاً . ذو غِمْر : الحقد . أخرجه أبو داود برقم ٣٦٠٠ و ٣٦٠١ في الأقضية ، باب من ترد شهادته ، ورواه ابن ماجه برقم ٢٣٦٦ في الأحكام ، باب من لا تجوز شهادته .

١٠٦ القانع : التابع ، السائل : المستطعم ، وقيل : هو المنقطع إلى القوم يخدمهم وذلك مثل الأجير والوكيل . . . لأن التابع لأهل البيت ينتفع بما يصير إليهم . =

وقد اختلف الفقهاء في شهادة الأقارب، فمثلاً لم يقبل بعضهم بشهادة الأب لابنه، فلو شهد له بمال يكون قد شهد لنفسه، إذ فهموا قول رسول الله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك» على أن الولد جزء، فلا تقبل شهادة الرجل في جزئه. وبعضهم أجازها لأن قول الله تعالى: ﴿ ... وأشهدوا ذَوَيْ عدلٍ منكمْ ... ﴾[107] و ﴿ ... واستشهدوا شهيدينِ من رجالكمْ فإن لمْ يكونا رجلينِ فرجلٌ وامرأتانِ ممَّن ترضونَ منَ الشهداءِ ... ﴾[108]، لم يستثن أبًا ولا ولدًا ولا أخًا ولا قرابة. وقد قبل القاضي شريح شهادة لصالح امرأة من أبيها وزوجها ورد على اعتراض الخصم قائلاً: فمن يشهد للمرأة إلا أبوها وزوجها؟.. وبذلك فان الشهادة لا ترد بالولاء أو القرابة، وإنما ترد بتهمتها. وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "تجوز شهادة الوالد لولده، والولد لوالده، والأخ لأخيه إذا كانوا عدولاً، لم يقل الله حين قال: ﴿ ... ممن ترضون من الشهداء﴾ إلا والدًا وولدًا وأخًا". وبهذا الصدد يقول الزهري: إن السلف من المسلمين لم يتهموا، ثم دَخِل الناس[109] بعد ذلك مما حمل الولاة على اتهامهم في آخر الزمان[110].

أما شهادة الزور فهي من الكبائر، فقد ورد في الصحيحين عن رسول

= أخرجه الترمذي برقم ٢٢٩٩ في الشهادات، باب ما جاء فيمن لا تجوز شهادته.

١٠٧ - سورة الطلاق، الآية ٢.

١٠٨ - سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

١٠٩ - دَخِل: ظهر فيهم المكر والخديعة والفساد.

١١٠ - لمعلومات أكثر تفصيلاً يمكن الرجوع إلى كتب الفقه ففيها الكثير من الآراء والفكر النافع.

الله ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الشرك بالله، ثم عقوق الوالدين» وكان متكئًا فجلس، ثم قال: «ألا وقول الزور، ألا وقول الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. وعن أيمن بن خريم [الأسدي] أن النبي ﷺ قام خطيبًا، فقال: أيها الناس، عَدَلت شهادة الزور إشراكًا بالله، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿... فاجتنبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثانِ واجتنبُوا قولَ الزورَ﴾[111] وفي الصحيحين أيضًا: «آية المنافق ثلاث: «إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان».

أما رد شهادة المجلود في حد القذف فهو تطبيق لقوله تعالى: ﴿والذينَ يرمونَ المحصنات ثمَّ لمْ يأتوا بأربعةِ شهداءَ فاجلدوهمْ ثمانينَ جلدةً ولا تقبلوا لهمْ شهادةً أبدًا وأولئك همُ الفاسقونَ. إلا الذينَ تابوا من بعدِ ذلكَ وأصلحُوا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾[112]، لأنه محكوم عليه بالفسق.. وذهب القاضي شريح إلى أنه لا تجوز شهادته أبدًا، وتوبته فيما بينه وبين ربه، وبذلك جعل الاستثناء من الفسق خاصة دون الشهادة، ورأى آخرون أن الاستثناء انتظم كل ما كان قبله، فإذا قبل الله تعالى توبته أفلا يقبل العباد شهادته[113].

---

١١١ - سورة الحج، الآية ٣٠.

أخرجه الترمذي، وأبو داود عن خريم بن فاتك. الترمذي برقم ٢٣٠٠ و ٢٣٠١ في الشهادات، باب ما جاء في شهادة الزور، وأبو داود برقم ٣٥٩٩ في الأقضية، باب في شهادة الزور، ورواه ابن ماجه برقم ٢٣٧٢ في الأحكام، باب شهادة الزور.

١١٢ - سورة النور، الآيتان ٤ و ٥.

١١٣ - لمعلومات أكثر تفصيلاً راجع كتاب ابن القيم، المرجع السابق، ص: ١٢٢ - ١٣٠.

قوله : "فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر ، وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان . ."

نقول: الحدود هي المحارم التي نهى الله عن قربانها، وقد يراد بالحد الذنب أو العقوبة، أما البينات فهي الأدلة والشواهد، ولم يجعل الله أحكام الدنيا على السرائر بل على الظواهر، أما أحكام الآخرة فعلى السرائر، والظواهر تبع لها. ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "من أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً وأحببناه له، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه".

قوله : "ثم الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة ، ثم قايس الأمور عند ذلك ، واعرف الأمثال ، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق. . ."

نقول: لقد اشتمل القرآن الكريم على بضعة وأربعين مثلاً عن تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم، ومدار الاستدلال اما على التسوية بين المتماثلين أو على الفرق بين المختلفين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أفلمْ يسيروا في الأرضِ فينظروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذينَ من قبلهمْ دمَّرَ اللهُ عليهمْ وللكافرينَ أمثالُهَا ﴾[114] ، فأخبر أن حكم الشيء حكم مثله، كما نفى الله سبحانه عن حكمه وحكمته التسوية بين المختلفين في الحكم في قوله: ﴿ أفنجعلُ المسلمينَ كالمجرمينَ. ما لكمْ كيفَ تحكمونَ ﴾[115] . .

---

١١٤ - سورة محمد، الآية ١٠.

١١٥ - سورة القلم، الآيتين ٣٥ و ٣٦.

والأقيسة في الاستدلال ثلاثة: قياس علة، وقياس دلالة، وقياس شبه.. وقد وردت كلها في القرآن الكريم.

فقياس العلة كما في قوله تعالى: ﴿ألَمْ يَرَوا كَمْ أهلكنا من قبلهم من قرنٍ مكناهمْ في الأرضِ ما لمْ نمكن لكمْ وأرسلنا السماءَ عليهم مدراراً وجعلنا الأنهارَ تجري من تحتهمْ فأهلكناهمْ بذنوبهمْ وأنشأنا من بعدهمْ قرنًا آخرينَ﴾[116]، فبين سبحانه أن ذلك كان لمعنى القياس وهو الذنوب فهم الأصل ونحن الفرع، والذنوب العلة الجامعة، والحكم الهلاك، وهذا محض قياس العلة.

وأما قياس الدلالة فهو الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلة وملزومها[117]، ومنه قوله تعالى: ﴿ومن آياتهِ أنَّكَ ترى الأرضَ خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ وربتْ إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنَّهُ على كل شيءٍ قديرٌ﴾[118]، فجعل سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، فدل بذلك على خمسة مطالب: وجود الصانع، وأنه يحيي الموتى، وعموم قدرته على كل شيء، إتيان الساعة، إنه يخرج الموتى من القبور كما أخرج النبات من الأرض.

أما قياس الشبه فلم يحكه الله سبحانه إلا عن المبطلين، كقياس المشركين الربا على البيع بمجرد الشبه الصوري، ومنه قوله تعالى إخباراً عن الكفار أنهم قالوا: ﴿... ما نراكَ إلا بشراً مثلَنَا

---

116 سورة الأنعام، الآية ٦.

117 ابن القيم، المرجع السابق، ص: ١٣٨.

118 سورة فصلت، الآية ٣٩.

... ﴾[119]، فاعتبروا صورة مجرد الآدمية وشبه المجانسة فيها، واستدلوا على أن حكم أحد الشبهين حكم الآخر.

ولم يقتصر توجيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على مجرد أن يقايس الحاكم الأمور بل يجب أن يعرف الأمثال أيضًا، والأمثال لا يعقلها إلا العالمون، فهي تشبيه شيء بشيء في حكمه أو تقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مثلُهُمْ كمثلِ الذي استوقدَ نارًا فلما أضاءتْ ما حولهُ ذهبَ اللهُ بنورهِمْ وتركهمْ في ظلماتٍ لا يبصرونَ. صم بكمٌ عميٌ فهمْ لا يرجعونَ. أو كصيبٍ منَ السماءِ فيهِ ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلونَ أصابعهمْ في آذانهمِ ... ﴾[120]، فضرب للمنافقين مثلاً ناريًا ومثلاً مائيًا.

وقوله تعالى: ﴿مثلُ الذينَ اتخذوا من دونِ اللهِ أولياءَ كمثلِ العنكبوتِ اتخذتْ بيتًا وإنَّ أوهنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوتِ لو كانوا يعلمونَ﴾[121]، فبين سبحانه أنهم ضعفاء، وأن أولياءهم أضعف منهم..

ومن الأمثال أيضًا قوله تعالى: ﴿والذينَ كفروا أعمالُهُمْ كسرابٍ بقيعةٍ يحسبهُ الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءَهُ لمْ يجدهُ شيئًا ووجدَ اللهَ عندهُ فوفاهُ حسابَهُ واللهُ سريعُ الحسابِ. أو كظلماتٍ في بحرٍ لُجِّيٍّ يغشاهُ موجٌ من فوقهِ موجٌ من فوقهِ سحابٌ ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ إذا أخرجَ يدهُ لمْ يكدْ يراها

---

١١٩ - سورة هود، الآية ٢٧.

١٢٠ - سورة البقرة، الآيات: ١٧ - ١٩.

والمتأمل يدرك قوله سبحانه: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل: بنارهم. وكذلك قوله سبحانه: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾ ولم يقل: أناملهم...

١٢١ - سورة العنكبوت، الآية ٤١.

ومن لمْ يجعلِ اللهُ لهُ نوراً فما لهُ من نورٍ﴾[122]، فضرب سبحانه للكافرين مثلين من أعمالهم: السراب الذي يحسبه الظمآن ماءً وهو أحوج ما يكون إليه وعندما يأتيه لا يجده. والظلمات المتراكمة التي هم فيها فحالهم كحال من كان في بحر لا ساحل له وقد غشيه موج ومن فوق ذلك الموج موج ومن فوقه سحاب، فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب. وهذان المثلان: السراب الذي حسبه ماءً، والظلمات المضادة للنور، نظير المثلين المائي والناري.

وفي قوله تعالى: ﴿فما لهمْ عنِ التذكرةِ معرضينَ. كأنَّهمْ حُمُرٌ مستنفرَةٌ. فرَّتَ من قَسْوَرةٍ﴾[123]، تشبيه إعراضهم ونفورهم بحمر وحشية رأت الأسد ففرت منه واستنفر بعضها بعضاً، لأن في الاستفعال من الطلب قدراً زائداً على الفعل المجرد.

ومن الأمثال أيضاً قوله تعالى: ﴿يا أيها النَّاسُ ضُرِبَ مثلٌ فاستمعوا لهُ إنَّ الذينَ تدعونَ من دونِ الله لن يخلقُوا ذباباً ولو اجتمعوا لهُ وإن يسلُبْهُمُ الذبابُ شيئًا لا يستنقذوهُ منْهُ ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ. ما قدَرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ إنَّ اللهَ لقويٌ عزيزٌ﴾[124]، فالآلهة التي يعبدها المشركون عاجزة عن خلق الذباب، وهو من أضعف المخلوقات، حتى ولو انضم بعضها إلى بعض، ولا تقدر على الانتصار من الذباب إذا سلب شيئًا منها، فالعابد والمعبود ضعيف، وهو عاجز متعلق بعاجز.

---

١٢٢ - سورة النور، الآيتين ٣٩ و ٤٠.

١٢٣ سورة المدثر، الآيات ٤٩ ٥١.

١٢٤ سورج الحج، الآية ٧٣.

قوله : "إياك والغضب والقلق والضجر والتأذي بالناس، والتنكر عند الخصومة، فإن القضاء في مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ويحسن به الذخر"

نقـول: ينطوي هذا القـول على التـحـذير من الغـضب لأنه يحـول بين الحاكم وبين كمال معرفته بالحق. وقد سبق أن قدمنا حديث رسول الله ﷺ: «لا يقـضيَنَّ حكم بين اثنين وهو غـضبـان» ." فـالغـضب يشـوش عليـه قلبـه وذهنه ويمنعه من كمال الفهم، ويحول بينه وبين استيفاء النظر. كما ينطوي على التحريض على تنفيذ الحق واحتساب ثوابه في موضع التأذي.

قوله : "فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله . ."

نقول: لأن رأس التقوى والإحسان خلوص النية لله في إقامة الحق ولو على نفسـه. فـقـد خطب عمـر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا وعليـه ثوبان، فقال: أيها الناس ألا تسمعون؟ فقال سلمان: لا نسمع. قال عمر رضي الله عنه: ولم يا أبا عبدالله؟ قال: إنك قسمت علينا ثوبًا ثوبًا، وعليك ثوبان! فقال: لا تعجل. يا عبدالله! يا عبدالله! ـ فلم يجبه أحد ـ فقال: يا عبدالله بن عمر. فقال: لبيك يا أمير المؤمنين. فقال: نشدتك الله الثوب الذي ائتزرت به أهو ثوبك؟ قال: نعم، اللهم نعم. فقال سلمان: أما الآن فقل نسمع.. وبذلك أكد الإسلام حق الرعية في محاسبة الراعي، وفرض على الراعي أن يبين، وإلا فالرعية في حل من سماعه.. كما أوضح الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن من أظهـر للناس أمـرًا وهو في البـاطن بخـلافـه عـامله الله بنقـيض قصده، بل ان أساس النفاق وأصله هو التزين للناس بما ليس في الباطن.

قوله : "فإن الله لا يقبل من العباد إلا ما كان له خالصاً . ."

نقول: لأن الله سبحانه يحب ما أمر به وما عمل لوجهه..

وقوله: "فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته" فعاجل الرزق أو الجزاء في الدنيا ليس جزاء توفية، وما عند الله من النعم والأجر أكبر كما في قوله تعالى: ﴿والذينَ هاجروا في اللهِ من بعد ما ظلموا لنبوئنهمْ في الدنيا حسنةً ولأجرُ الآخرةِ أكبرُ لوْ كانُوا يعلمونَ﴾[125] .

* * *

١٢٥ - سورة النحل، الآية ٤١ .

الفصل الثامن

إدارة الحكم

تمـهـيـد - الإسـلام والحكم - في أهداف الدولة - أسس قـيـام الدولة: الأسس الاعتقادية والأهداف العامة، الأسس التنظيمية للحكم - في وظائف الدولة الإسلامية - في الحقوق الأساسية - في خصائص الدولة الإسلامية.

تمهيـد

تناولنا في هذا الفصل موضوع إدارة الحكم في الإسلام بالاعتماد على المبادئ والأصول من الكتاب والسنة دون النظر إلى ما إذا كانت هذه المبادئ تتماشى مع نظم الحكم الأخرى أو تختلف معها، ودون أن نهتم بالملابسات التاريخية التي أثيرت أو نشأت في ظروف مختلفة أو في بعض العهود المتأخرة نسبياً فاختلطت بتلك المبادئ والأصول.

ولابد من الإشارة إلى ضرورة التمييز بين مبادئ الحكم كما جاءت في الكتاب والسنة وبين التطبيقات والممارسات التي ظهر فيها ضعف الرأي أو خروج عن تلك المبادئ في بعض العهود التاريخية بتأثير الفرقة وغلبة التسلط. حيث تبقى تلك المبادئ والأصول المستنبطة من الكتاب والسنة نقية في أصالتها، صافية في جوهرها.

وقد تطرقنا إلى الإسلام والحكم فبيّنا أن الدولة جزء من تعاليم الإسلام. وأن من أهدافها إقامة الحكم وإقامة العدل وتحرير الإنسان. ثم تطرقنا إلى أسس قيام الدولة فأشرنا إلى الأسس الاعتقادية والأسس التنظيمية للحكم. ثم تناولنا وظائف الدولة الإسلامية والحقوق الأساسية فيها، وتحدثنا أخيراً عن خصائص الدولة الإسلامية.

الإسلام والحكم

إن المتمعن فيما ورد في الكتاب والسنة والمتأمل لما جرى من ممارسات تطبيقية منذ بداية الدعوة تتأكد لديه حقيقة أن الحكم من الإسلام، والإسلام يستلزم إقامة دولة. لأن ما تضمنه القرآن الكريم من أحكام لا يمكن تصور تنفيذها دون وجود حكم ودولة لاسيما من حيث الأحكام والتوجيهات الدستورية والدولية والمالية والجنائية والاجتماعية..

وفي أقوال الرسول الكريم ﷺ ما يدل صراحة على أن الدولة جزء من تعاليم الإسلام. فقد أكد تنظيم الجماعة والقضاء والإمام العادل والانتماء إلى دولة إسلامية برباط عقد وبيعة، وطاعة المحكومين فيما لا معصية فيه لله سبحانه.

لعل من بعض ذلك قول رسول الله ﷺ: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمّروا عليهم أحدهم» رواه الإمام أحمد في مسنده. وفي رواية: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم أحدهم» رواه أبو داود. وأقوال رسول الله ﷺ في الإمام العادل كحديث: سبعة يظلهم الله في ظله.. منهم إمام عادل، وحديث: ثلاثة لا تُرد دعوتهم، منهم الإمام

العادل.. وقوله ﷺ عن البيعة: «من مات وليس في عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية»[1].

وقد أقام رسول الله ﷺ الدولة وعقد الألوية وجمع الزكاة وعقد العهود وأرسل الوفود. وهي أعمال كلها من أعمال السلطة والحكم.

وعندما انتقل رسول الله ﷺ إلى ربه أسرع كبار الصحابة إلى اختيار أمير للمسلمين لإدراكهم أهمية رئاسة الدولة والاضطلاع بأعباء الحكم.

وهكذا أجمع المسلمون منذ عهد رسول الله ﷺ، وقد فهموا الإسلام عنه وعن القرآن الذي نزل بلغتهم، وعاشوا التطبيقات العملية لأحكامه، كما أجمع المسلمون جيلاً بعد جيل منذ عصر الصحابة على أن الحكم من الإسلام وعلى أن الإسلام يستلزم إقامة دولة[2].

في أهداف الدولة

بعد أن بينا أن الحكم من الإسلام، وأن الإسلام يستلزم إقامة دولة، نبين أن من أهداف الدولة في الإسلام ما يلي:

١ ـ إقامة الحكم بين الناس، وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تتعلق بالحكم بوجه عام وبالعدل فيه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أنزلنا إليكَ الكتابَ

---

١ ـ رواه مسلم.

٢ ـ محمد المبارك، نظام الإسلام، الحكم والدولة، الطبعة الرابعة، بيروت، دار الفكر، ١٩٨١، ص: ٥ - ١٨.

بالحقِّ لتحكُمَ بينَ الناس بما أراكَ اللهُ ...﴾[3] و ﴿إنَّما كانَ قولَ المؤمنينَ إذا دعوا إلى اللهِ ورسولِه ليحكمَ بينهمْ أن يقولوا سمعنا وأطعنا ...﴾[4] و ﴿فلا وربكَ لا يؤمنونَ حتى يحكموكَ فيما شجرَ بينهمْ ثمَّ لا يجدُوا في أنفسهمْ حرجًا مما قضيتَ ويسلمُوا تسليمًا﴾[5].

٢ ـ إقامة العدل والنظر في المظالم، وقد وردت عن العدل آيات كثيرة في القرآن الكريم باعتباره من أركان إقامة الدولة ومن أهدافها في الإسلام كذلك. قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا كونوا قوّامين للهِ شهداءَ بالقسطِ ولا يجرمنَّكُمْ شنآنُ قومٍ على ألا تعدلوا أعدلوا هوَ أقربُ للتقْوَى واتقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعملونَ﴾[6]. و ﴿يا أيها الذينَ آمنوا كونوا قوامينَ بالقسطِ شهداءَ للهِ ولو على أنفسكُمْ أو الوالدينِ والأقربينَ إن يكنْ غنيًا أو فقيرًا فاللهُ أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلوُ أو تعرضوا فإنَّ اللهَ كانَ بما تعملونَ خبيرًا﴾[7]. و ﴿وممنْ خلقنا أمَّةٌ يهدونَ بالحقِّ وبهِ يعدلونَ﴾[8]. و

---

٣ ـ سورة النساء، الآية ١٠٥.

٤ ـ سورة النور، الآية ٥١.

٥ ـ سورة النساء، الآية ٦٥.
وشَجَر معناه اختلف واختلط، ومنه الشجر لاختلاف أغصانه.. ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا﴾ أي ضيقًا وشكًا، ومنه قيل للشجر الملتف: حَرَج وحَرَجَة وجمعها حِراج.

٦ ـ سورة المائدة، الآية ٨.

٧ ـ سورة النساء، الآية ١٣٥.

٨ ـ سورة الأعراف، الآية ١٨١.

﴿ ... وإذا قلتمْ فاعدلوا ولو كانَ ذا قُربى ... ﴾[9]. و ﴿ إنَّ اللهَ يأمركمْ أن تؤدوا الأمانات إلى أهلهَا وإذا حكمتُم بينَ الناسِ أن تحكمُوا بالعدلِ ... ﴾[10]. و ﴿ إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القربى وينهى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ والبغي يعظُكُمْ لعلكمْ تذكرونَ ﴾[11].

وقد نعى الله على الظلم والظالمين وأوعد هؤلاء بأشد العقوبات فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ولا تحسبنَّ اللهَ غافلاً عمَّا يعملُ الظالمونَ إنَّما يؤخرهُمْ ليومٍ تشخصُ فيهِ الأبصارُ﴾[12].

وهناك العدل في المعاملة، وفي القضاء، وفي الأموال، وفي الحقوق. والأصل في العدل لغةً: التسوية في المعاملة. ولهذا فإن دعوة الإسلام إلى العدل هي في الوقت نفسه دعوة إلى المساواة... ولهذا جاء في كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري إذ ولاه القضاء قوله: آس الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك... ورُوي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».. فهذا هو العدل المطلق والمساواة أمام القانون الذي جاء به الإسلام.

---

٩ - سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

١٠ - سورة النساء، الآية ٥٨.

١١ - سورة النحل، الآية ٩٠.

١٢ - سورة إبراهيم، الآية ٤٢.

وتكلم المفكرون الإسلاميون أيضًا عن العدل بالمعنى الاقتصادي وأثره على الناحيتين الاجتماعية والسياسة. ومن ذلك ما عقده ابن خلدون في مقدمته إذ عرض فصلاً عنوانه: فصل في أن الظلم مُؤذِنٌ بخراب العمران. ومن أقواله في ذلك: ... فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة.. ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران... وأشار إلى أن السخرة من أكبر أنواع الظلم.. ثم قال: وأعظم من ذلك في الظلم وفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس: بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان...

أما النظر في المظالم فهو نوع من القضاء العالي ابتكره الإسلام فيتولاه الخليفة نفسه[13] أو كبار القضاة. ويهدف إلى محاكمة كبار أصحاب النفوذ في المجتمع كالولاة وموظفي الدولة إذا اعتدوا على الناس[14]. فقد قال الماوردي بصدد اختصاص نظر المظالم: القسم الأول: النظر في تعدّي الولاة على الرعية وأخذهم بالعسف في السيرة. فيكون لسيرة الولاة متصفحًا، فيكفّهم إن عسفوا، ويستبدل بهم إن لم يُنصفوا. والقسم الثاني، جور العمال فيما يجبونه من الأموال، فيرجَع فيه إلى القوانين العادلة في دواوين الأئمة... . والقسم الثالث، كتَّاب الدواوين... ثم عقّب قائلاً: وهذه الأقسام الثلاثة لا يحتاج والي المظالم في تصفحها إلى متظلم.

---

١٣ - وقد باشرها الخلفاء الأولون بأنفسهم إلى أيام المهتدي من بني العباس.

١٤ - وهذا يشبه بعض اختصاصات مجلس الدولة الآن أو المحاكم العليا أو التي تشكل للنظر في الشكاوى المتعلقة بأعمال رجال الإدارة.

٣ ـ حماية الضعفاء وكفاية المحتاجين، وهذا من أهداف إقامة الدولة في الإسلام. بل إن من أغراض الجهاد في الإسلام تحرير الإنسانية كلها من أنواع العبودية لغير الله ورفع الظلم عن البشر عامة، وتحرير الإنسان من الاضطهاد، والمحافظة على حقه في الحياة الكريمة، وتوفير فرص العمل للقادرين، ومتطلبات العيش للعاجزين والمحتاجين سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين.

أسس قيام الدولة

هناك أسس اعتقادية، وأخرى تنظيمية أو تشريعية لقيام الدولة في الإسلام، نعرضها بإيجاز فيما يلي:

أ ـ الأسس الاعتقادية والأهداف العامة

تجعل الأسس الاعتقادية لقيام الدولة في الإسلام من النشاط السياسي للمسلم رسالة وأمانة يؤديها حق الأداء، راعياً أم رعية، حاكماً أم محكوماً. ولعل من أهم هذه الأسس ما يلي:

(١) إن جميع البشر على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومنازلهم الاجتماعية هم عباد لله، ولا تفاوت بينهم في الكرامة الإنسانية. كما أن ما يملكونه أيضاً هم مستخلفون فيه، فالملك لله وحده.

وبالتالي فالراعي والرعية والحاكم والمحكوم متساوون في نظر الشريعة، فلا امتياز لبعضهم على بعض، وكل منهم مسؤول عن عمله فلا حصانة لأحد تحميه أمام الحقوق، أو تعفيه من المساءلة.

(٢) العلاقة بين الحاكم والمحكوم ليست علاقة طاعة مطلقة بل مقيدة

بحدود الشريعة. وهي تخضع للرقابة والمحاسبة بناء على أحكام الشريعة، وعليه فلا امتيازات أو طبقية في الإسلام، وكل فرد في المجتمع مسؤول عن رعيته.

(٣) الحاكم منفذ للشريعة وليس مشرعًا، وإذا كان ثمة أمور للاجتهاد مما لا نص فيه من القرآن أو السنة فلا يمكن للحاكم أن ينفرد بالاجتهاد لوحده أو يستبد برأيه، بل الحق في ذلك لذوي الاختصاص من أهل العلم- وهو ليس قاصراً على فئة دون أخرى - فإذا تعددت الآراء الاجتهادية فصلت الشورى فيما بينهم.

(٤) البشر كلهم مستخلفون من الله في الأرض لتنفيذ شريعته، والإسلام المنزل على محمد رسول الله ﷺ ناسخ الشرائع كلها. والصلة بين البشر في الإسلام هي صلة أخوة في الأصل، وصلة وحدة في الانتساب إلى عبودية الله، وهي بين المسلمين كذلك صلة أخوة في العقيدة.

(٥) الإنسان مخلوق كرّمه الله، ومنحه الحقوق، والتي منها حق الحياة والإرادة، وحرّم عليه انتهاكها. فلا يحق حتى للفرد نفسه أن يضع حداً لحياته بالانتحار مثلاً، أو أن يهدر حريته. ولا يجوز التعذيب أو التمثيل أو الشتم... وكل ما يمس كرامة الإنسان. أما العقوبات فهي جزاء وفاق في مقابل أعمال يقترفها من يهدد نظام المجتمع وأمنه وسلامة حقوق الناس فيه.

ب ـ الأسس التنظيمية للحكم

لم يفرض الإسلام شكلاً معينًا من أشكال الحكم، ولم يحدد تفاصيل وجزئيات، ولكنه فعل ما هو أفضل فقدم الأسس والقواعد والمبادئ العامة وترك التطبيقات العملية للاجتهاد حسب اختلاف الظروف والأحوال.

تلك الأسس منها ما يقوم عليها بناء الدولة ونظام الحكم، ومنها ما هو قواعد يجب مراعاتها من الحاكم والمحكومين. ولعل من أهم تلك الأسس والمبادئ والقواعد ما يلي:

(١) تعيين الحاكم والبيعة، وهذا يقوم على قاعدتين:

* شروط موضوعية، وصفات مؤهلة من أهمها ما يتمثَّل في:

- العلم أو الاجتهاد، وقد يُقصد بذلك العلم بالشريعة الإسلامية وأحكامها ومصادر تلك الأحكام. وأن يعرف، من حيث الاجتهاد، من القرآن والسنة ما يتعلق بالأحكام. وخاصه وعامه، ومجمله وبيّنه، وناسخه ومنسوخه، ومتواتر السنة وغيره، والمتصل والمرسل، وحال الرواة قوة وضعفًا، ولسان العرب لغةً ونحواً، وأقوال العلماء من الصحابة فمن بعدهم، اجتماعًا واختلافًا، والقياس بأنواعه. وقد شرح الماوردي معنى الاجتهاد وهو يتكلم عن شروط القضاء على أنه يشترط في الإمام ما يشترط في القاضي وزيادة[15].

ويحسن أن يضاف العلم بما طرأ على الحياة من تطور من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والقانونية...

- الثقافة السياسية والحربية والإدارية، وقد عبر الماوردي عن ذلك بالرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح[16].

- الكفاية النفسية والجسمية، وهي صفات مركبة ترتبط بمؤهلات الشخصية المتوازنة داخليًا وخارجيًا.

- العدالة أو الأخلاق الفاضلة، وهي كلمة تعادل عند الفقهاء كلمة التقوى

---

١٥ الماوردي، المرجع السابق، ص: ٦٣.

١٦ المرجع السابق، ص: ٥.

والورع. وعدَّها الماوردي[17] الشرط الأول ومن قوله في ذلك: العدالة أن يكون صادق اللهجة، ظاهر الأمانة، عفيفًا عن المحارم، متوقِّيًا المآثم، بعيدًا عن الريب، مأمونًا في الرضا والغضب.

- أن يكون من أهل الولاية الكاملة، وهو وصف يتضمن عدة شروط هي أن يكون: **مسلما**، لأن نظام الدولة الإسلام، **حرًا**، لأن غير الحر ناقص عن ولاية نفسه مما يمنع من انعقاد ولايته على غيره، **ذكرًا** **بالغًا**، لأن غير البالغ لا يتعلق بقوله على نفسه حكم فكان أولى ألا يتعلق به على غيره، **عاقلاً**، وقد أضاف الماوردي الذكاء والفطنة حيث لا يكتفى بالعقل الذي يتعلق بالتكليف وإنما أن يتوصل بذكائه إلى إيضاح ما أشكل وفصل ما أعضل.

* اختياره من أهل الحل والعقد[18] ومن ثم بيعة جمهور المسلمين له ورضاهم به وقبولهم بخلافته واجتماع جمهرتهم عليه حيث تعبر البيعة

---

١٧ المرجع السابق، ص: ٦٢.

١٨ - أطلق عليهم (أهل الاختيار) و (أهل الاجتهاد).. ومن الشروط التي يجب أن تتوفر فيهم: شرط أخلاقي يتمثل في العدالة وما تنطوي عليه من عوامل الثقة والأمانة والصدق، وشرط العلم، وشرط الرأي والتدبير والخبرة.
ولا يقدح، كما ذهب إلى ذلك ابن تيمية، في اتفاق أهل الحل والعقد أن يخالف بعضهم في الرأي عند الاختيار. وللخليفة أن يرشح من يليه في الخلافة ولكنها لا تنعقد للمعهود إليه بنفس العهد وإنما تنعقد بعهد المسلمين، كما قال في ذلك أبو يعلى، انظر في ذلك الأحكام السلطانية لأبي يعلى، ص: ٩.
وذهب أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة ـ على ما رواه الماوردي في الأحكام السلطانية ـ أن أقل عدد تنعقد به الإمامة خمسة يجتمعون على عقدها أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة واستدلوا ببيعة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ثم تابعهم الناس فيها. وقال بعضهم إن أقل عدد يمكن أن تعقد به أربعون قياسا =

عن مشاركة جمهور الأمة واختيار رأس الجهاز الذي يتولى أمرها.

والبيعة عقد وميثاق بين طرفين، فالحاكم يبايع على الحكم بالكتاب والسنة والنصح للمسلمين، والجمهور يبايع على الطاعة المعلقة على شرط التزام الحاكم بالكتاب والسنة.

وعلى هذا فقد أحدث الإسلام تغييراً جذرياً في نظم الحكم يعتبر تغييراً لمجرى التاريخ السياسي تمثّل في: تعيين الحاكم من قبل جمهور الأمة، وهو مذهب أهل السنة، بناء على صفات في شخصه تؤهله للحكم، وإقرار منه بالالتزام بشرع الله ورسوله، وبتحقيق أهداف الدولة الإسلامية ومقاصدها[19]، وهو قيد ملزم للحاكم بحيث تتوقف طاعة الرعية له على التزامه به وتمسكه بتطبيقه؛ والفيصل في ذلك في حالة الاختلاف بين

= على ما تصح به صلاة الجماعة. وقال بعض آخر من علماء الكوفة إنها تنعقد بثلاثة يتولاها أحدهم برضا الاثنين ليكونوا حاكماً وشاهدين كما يصح عقد الزواج بولي وشاهدين. وذهب أهل السنة إلى أن تحديد عدد معين فيه تعسف ولا يوجد دليل يلزم التقيد بعدد دون غيره. ومادام لم يرد نص على الإجماع فعقدها يصح إذا عقده رجل واحد ـ إذا وضعت الأمة ثقتها فيه ورضيت أن يكون معبراً عن رأيها ـ مع الشخص الذي اختير أن يبايع له.

ولا ريب أن الاختيار في نهاية الأمر إنما هو اختيار الأمة. لمعلومات أكثر تفصيلاً أنظر كتاب د. محمد ضياء الريس، النظريات السياسية الإسلامية، الطبعة الثالثة، القاهرة، مطبعة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠، ص: ١٨٠ - ١٩٠.

هذا، وتجدر الإشارة إلى أنه يجب الحذر من التورط في اعتبار أن النظم الديمقراطية والانتخابات النيابية والاستفتاءات هي بعينها الشورى الإسلامية.

١٩ يقول الماوردي: حراسة الدين وسياسة الدنيا. وفي ذلك يعرِّف ابن خلدون الخلافة بقوله: خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به. وبالتالي فالخليفة أو الإمام أو رئيس الدولة يقوم بجميع وظائف الدولة مستعيناً بمن يعينهم من وزراء وعمال وقضاة... بغية حفظ الأمن الداخلي والدفاع عن =

الفريقين: الحاكم والمحكوم، كتاب الله وسنة رسوله، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكمْ فإن تنازعتمْ في شيءٍ فردوهُ إلى اللهِ والرسولِ إن كنتمْ تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ ...﴾[20].

(٢) الشورى، وهي قاعدة أساسية من أصول الحكم في الإسلام تلغي استبداد الحاكم برأيه، وتحدُّ من التصرف الفردي.

وتتعلق الشورى كما أشرنا إلى ذلك سابقًا، فيما لم يرد فيه نص في كتاب الله وسنة رسوله، فترتبط بالتشريع الاجتهادي من أهل الاختصاص والخبرة فيما أجازته الشريعة. وقد أقر الإسلام مبدأ الشورى وترك للناس تحديد الطريقة والأسلوب توسعة عليهم ومراعاة لاختلاف الظروف والأحوال.

وعليه، فطبيعة نظام الحكم الذي يقره الإسلام أن يكون نظامًا شوريًا. قال الله تعالى: ﴿فبمَا رحمةٍ منَ اللهِ لنتَ لهمْ ولو كنتَ فظًا غليظَ القلبِ لانفضوا منْ حولكَ فاعفُ عنهمْ واستغفرْ لهمْ وشاورهمْ في الأمرِ ...﴾[21]. وقد نزلت عقب ما ابتلى به المسلمون يوم أحد. ومع أن ما وقع في ذلك اليوم قد أبان أن رأي من أشار على رسول الله ﷺ بالخروج لم يكن صوابًا فإن الله سبحانه وتعالى أمر بالعفو عنهم والاستغفار لهم

= الدولة وحماية الدين ودعوته . . . وإقامة العدل ومنع الظلم وكفاية المحتاجين وجباية ما يسمح به الشرع من الأموال وحفظها وانفاقها لتحقيق المقاصد . . . .

٢٠ سورة النساء، الآية ٥٩ .

٢١ سورة آل عمران، الآية ١٥٩ .

ومشاورتهم أيضًا تأكيدًا لأهمية مبدأ الشورى. ومما يؤكد أهمية الشورى أنها جاءت بين الصلاة والزكاة في قوله تعالى: ﴿والذينَ استجابوا لربهمْ وأقاموا الصلاةَ وأمرُهُمْ شورى بينهمْ ومما رزقناهمْ ينفقونَ﴾[22]، والآية نزلت كما يرى بعض المفسرين في سبب خاص وهو الثناء على مسلك الأنصار في اتباعهم سنة الشورى. وبالتالي فالحكم الذي يستنبط منها عام يشمل سائر الأمة. وعن الحسن رضي الله عنه: قد علم الله أنه ما به إليهم حاجة ولكنه أراد أن يستن به من بعده.

(٣) المسؤولية، وهي من قواعد الحكم في الإسلام. فليس الحكم في الإسلام استعلاءً ولا امتيازًا وإنما أمانة ومسؤولية.

وتصرفات الحاكم المتعلقة بأموره الخاصة هو فيها كسائر الناس فلا حصانة خاصة له بشأنها، ويمكن أن يكون مدعيًا ومدعى عليه ويتحمل نتائج أعماله[23].

أما تصرفات الحاكم فيما يتعلق بالحكم والولاية فإنه مسؤول عنها أمام الله الذي أوجب عليه إنصاف المظلوم وحماية الضعفاء والدفاع عن الحوزة، ومسؤول أيضًا أمام الأمة التي بايعته على الطاعة مقابل تعهده بإقامة العدل.

---

٢٢ سورة الشورى، الآية ٣٨.

٢٣ ادعى علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وهو خليفة على يهودي أخذ درعه، فحكم شريح القاضي لليهودي، لفقدان البيّنة! ...

وعليه فتصرفات الحاكم الشخصية والسياسية خاضعة للمساءلة، وهو وإن كان واحداً من الناس فإنه أثقلهم حملاً[٢٤].

أما إذا قام الحاكم بحقوق الأمة فقد أدى حق الله تعالى فيما لهم وعليهم، ووجب له عليهم حقان: الطاعة والنصرة، ما لم يتغير حاله[٢٥]، والخروج على مثل هذا الحاكم يعتبر بغياً[٢٦].

والتطبيق العملي للمسؤولية يتمثل في عدة مبادئ في مجال الحكم والسلطة منصوص عليها في الكتاب والسنة. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتضمن ما يوجهه أفراد الشعب للحكام من مطالب انطلاقاً مما حدده الشرع ونص عليه أو ما كان فيه مصلحة، فكلمة حق عند سلطان جائر هي أفضل الجهاد، وفي الحديث: «إذا رأى الناس الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب». ومن تلك المبادئ أيضاً ما أطلق عليه النصيحة، وذلك بإسداء النصح للحكام من البطانة الصالحة. فمن الأحاديث قوله عليه الصلاة والسلام، وهو من جوامع الكلم: «الدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»[٢٧].

---

٢٤ من خطاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري... «إنما أنت أمرؤ منهم وقد جعلك الله أثقلهم حملاً ...».

٢٥ الماوردي، الأحكام السلطانية، المرجع السابق، ص: ١٦.

٢٦ البغي وهو الخروج على الإمام الحق بدون حق.. وأحكام البغي والبغاة مدونة في كتب الفقه.

٢٧ رواه البخاري ومسلم.

وعليه فتدخل أفراد الشعب في عمل الحكام، بما في ذلك عمل رئيس الدولة، وإبداء الرأي بحرية في مجال الحكم والسياسة كان أمراً مألوفاً وعادياً ومنصوصاً عليه في الكتاب والسنة. وكذلك معترفاً به ومطلوباً من الحكام أنفسهم في كثير من العهود الإسلامية الزاهرة.

ولهذا فمسؤولية الحاكم في الإسلام مسؤولية مزدوجة: فهو مسؤول أمام الأمة، ومسؤول أمام الله.

وأساس مسؤولية الحاكم أمام الأمة يقوم على أنها هي التي منحته حق الحكم وأمدته بالسلطة فأصبح وكيلاً عنها، ولهذا فللأمة الحق في أن تسأله، وهي الجهة التي لها حق انشاء العقد وحق فسخه. ولها أن تسأله عن عمله وتراقبه باستمرار:

- بما هي ملزمة به من وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- بما هو واجب لها من حق الشورى.
- بما هي عليه لكونها الطرف الأول في العقد فهي قوامة عليه ولها حق التقويم أو العزل حين توجد الأسباب.

أما مسؤولية الحاكم أمام الله فهي مقررة بآيات وأحاديث كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تخونوا اللهَ والرسولَ وتخونوا أماناتكُمْ وأنتمْ تعلمونَ﴾[28]. وقوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ يأمركمْ أن تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلهَا وإذا حكمتُم بينَ الناسِ أن تحكموا بالعدْلِ ...﴾[29].

ومن أحاديث رسول الله ﷺ قوله: «ما من وال يلي رعية من المسلمين

---

٢٨ - سورة الأنفال، الآية ٢٧.

٢٩ - سورة النساء، الآية ٥٨.

فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة»[30]. و«ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة». وجاء في صحيح مسلم قوله عليه السلام لأبي ذر حينما سأله الإمارة: «إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها».

(٤) استقلال ملكية الأمة عن ملكية الحاكم، فأموال الزكاة والخراج وضرائب الجزية والمكوس والتركات التي لا وارث لها وغيرها من أنواع الدخل العام هي ملكية عامة لا يحق للحاكم التصرف بها إلا بموجب قواعد شرعية مقررة.

(٥) العدل والمساواة، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ... ﴾ وهو واجب حتى في حق الأعداء، قال الله تعالى: ﴿ ... ولا يجرمنَّكُمْ شنآنُ قومٍ على ألا تعدلُوا اعدلوا هوَ أقربُ للتقْوَى ... ﴾[31].

كما أن المساواة من أصول الإسلام المنبثقة عن العقيدة، فقد كرّم الله بني آدم وخاطبهم بلفظ واحد هو «يا أيها الناس .. يا بني آدم»[32] .. وكلهم لآدم، وآدم من تراب. فهم سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

والناس أمام الحق سواء، وحقوقهم الشخصية والمدنية متساوية، فلا تمييز في الإسلام بين الأجناس والألوان. أما التفاضل بين الناس، بعد إقرار مبدأ المساواة بينهم في الحقوق، فيكون بقدر تفاوتهم في العمل

---

٣٠ - رواه البخاري.

٣١ - سورة المائدة، الآية ٨.

٣٢ - ورد هذا الخطاب في سورة الأعراف، الآيات ٢٦ و ٢٧ و ٣١ و ٣٥، وفي سورة يس الآية رقم ٦٠.

والجهد والانتاج والعلم والخبرة والقيم الأخلاقية والتقوى.

* * *

من هذا العرض الوجيز يتبين أن ثمة فروقًا بين مبادئ الحكم وبين نظام الحكم وشكله الذي يتضمن التنظيمات التفصيلية التي يتكوّن منها بناؤه كله. وقد كان من حكمة الإسلام أن قدّم مبادئ أساسية وقواعد عامة في ميدان الحكم والحقوق الدستورية كالشورى وتقويم الحاكم ومسؤوليته تجاه الأمة ولم يلزمنا بشكل معين بل ترك الجزئيات فجعل المجال رحبًا للاختيار من بين الأساليب المناسبة والتفصيلات الموافقة للأحوال وتغيرات الظروف، مما يجعل النظام السياسي مرنًا في حدود المبادئ. فالإسلام إذ يلزم المسلمين بالشورى فإنه لم يبيِّن تفصيلاً كيف تتم؟ ومن هم أهل الشورى؟ وكيف يعينون؟... وهذا ما يتيح للمسلمين مراعاة الأحوال زمانًا ومكانًا.

في وظائف الدولة الإسلامية

من بعض وظائف الدولة في الإسلام ما يلي:

١) وظيفة توفير الأمن والدفاع، وقد أشار القاضي أبو يعلى فيما يتصل بالأمن إلى: حماية البيضة والذب عن الحوزة ليتصرف الناس في المعايش وينتشروا في الأسفار آمنين. وقال عن الدفاع: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظفر الأعداء بغرة

ينتهكون بها محرمًا أو يسفكون فيها دمًا لمسلم أو معاهد[٣٣].

٢) وظيفة القضاء وإقامة العدل، سواء ما تعلق بالجانب المدني وما يتصل به، أو بالجانب الجزائي، لانصاف المظلوم والأخذ على يد الظالم، وإقامة الحدود.

٣) الوظيفة الاقتصادية والمالية، وما يتعلق بهما من الوسائل التي بها يتحقق العمران وتتوفر أسباب المعيشة للناس[٣٤]، وتنظيم الفعاليات والأنشطة بما يضمن تحقيق الكفاية وعدالة الأسعار والأجور كي تكثر الثروة وينمو الانتاج لأن الإسلام دين إنشاء وتعمير يهتم بشؤون الدنيا والمعاش كما يهتم بشؤون الآخرة والمعاد.

٤) التكافل الاجتماعي، وهو من الفروض العامة التي أوجبها الشارع فسبق بذلك نظم وشرائع العصر الحديث وسعى لأن يجد كل فرد، مسلمًا أو غير مسلم، قدر كفايته[٣٥] من غذاء وكساء ودواء... حتى الخدمة لمن لا يستغنى عنها كالعاجز والمقعد.

وفرض الكفاية هو فرض على الدولة توجبه على الأغنياء، يُنفق على كل المسلمين والذميين، فهو شيء فوق الزكاة وأعم منها في جهة صرفه، ويؤخذ من بيت المال فإن لم يوجد فُرض على القادرين، أما الزكاة فإنها فرض عين واجبة على الفرد، ومصرف أموالها محدد.

---

٣٣ - الأحكام السلطانية لأبى يعلى، ص: ١١.

٣٤ - يوجد في كتب الفقه الإسلامي باب يُسمى «باب إحياء الموات» وهو ليس إلا «باب استصلاح الأراضي» بالتعبير الحديث.

٣٥ - قدر الكفاية هو ما يحقق مستوى كريمًا من المعيشة.

٥) الوظيفة العقيدية وحماية الدعوة، وهي تنبع من العقيدة الإسلامية ومكارم الأخلاق. ولهذا فقد حرص الإسلام على تحرير العقول وتزكية النفوس وتكريم الإنسان فأنكر الوثنية والعبودية لغير الله.

ولا ريب أن إقامة العدل وحماية الكرامة الإنسانية وتحرير بني الإنسان من الاستعباد يتطلب الجهاد بحيث يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا.

ولهذا فقد فرض الجهاد للدفاع عن دين الدولة. إذ بالجهاد يُصان الاستقلال، وتحفظ الكرامة وتؤمّن الحرية لأنه السبيل إلى مجاهدة الظلم وفك الأغلال عن الإنسانية، وإزالة الحواجز التي تمنعها من السير في طريق الرقي. وهو فرض كفاية عند جمهرة المسلمين إلا إذا غُزيت أرض الإسلام فحينئذ يصبح فرض عين[٣٦].

٦) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أصل جامع يتوقف عليه صلاح أمر الدين والدنيا. فهو يدعو كل فرد، بل يوجب عليه، أن يكون قوّامًا على تنفيذ الحق، شاعرًا بالمسؤولية عن الأعمال العامة، داعيًا إلى الفضيلة، ناهيًا عن الانحراف والمظالم، عاملاً في سبيل الإصلاح.

وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ولتكُن منكمْ أمةٌ يدعونَ إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عنِ المنكرِ وأولئكَ همُ المفلحونَ﴾[٣٧]. و ﴿الذينَ إن مكناهمْ في الأرضِ أقاموا الصلاةَ وآتوا

---

٣٦ - بين ابن تيمية أنه يمنع من قتل النساء والصبيان والرهبان والشيوخ والعميان والزمنى ونحوهم... وأوضح أن القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله... فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه. انظر في ذلك: السياسة الشرعية لابن تيمية، المرجع السابق، ص: ٥٩.

٣٧ - سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

الزكاةَ وأمروا بالمعروفِ ونهوا عنِ المنكرِ ولله عاقبةُ الأمورِ﴾[38] .. ومن أحاديث رسول الله ﷺ قوله: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه».

ولهذا فقد وُجد في الإسلام نظام الحسبة كنظام معاون للقضاء، يسهر على تنفيذ القوانين فيما يتعلق بالمصالح والآداب العامة وحماية الجمهور من الغش والاستغلال ومساعدة أهل الخير في وجوه البر وحسم أسباب الشر. وقد تكلم عنها ابن خلدون في مقدمته قائلاً: أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلاً له، فيتعيَّن فرضه عليه، ويتخذ الأعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات، ويعذر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة.

٧) وظيفة الخدمات العامة، ويدخل في ذلك نشر العلم والتعليم وعمارة دور الثقافة والمكتبات، والمستشفيات ودور العجزة، وشق الترع ومد الأقنية وإقراض المزارعين وكفاية العاجزين... وسائر أسباب التقدم الانساني والحضاري.

في الحقوق الأساسية

ثمة حقوق أساسية يتمتع فيها كل إنسان بنظر الإسلام من أهمها ما يلي:

١ ـ حق الحياة، فإزهاق الروح جريمة كبرى في نظر التشريع الإسلامي.

---

٣٨ سورة الحج، الآية ٤١.

وحتى في ظروف الحرب فإنه لا يجوز الاعتداء على المدنيين كالشيوخ والأطفال والنساء ورجال الدين... ولا الحيوانات إلا لمأكلة إذا دعت الضرورة، ولا قطع الأشجار في أرض الأعداء التزاماً بوصية رسول الله ﷺ.

وإلى جانب حق الحياة هناك حق العيش الكريم لكل الساكنين في دار الإسلام مسلمين أم غير مسلمين حيث يتولى بيت المال إمداد المحتاجين وتوفير متطلبات معيشتهم من طعام وكساء ومسكن...

٢ ـ حق الحرية، ويمكن تقسيم هذا الحق إلى حقوق فرعية مثل:

ـ الحرية الشخصية، في الإقامة والتنقل واختيار ممارسة العمل المشروع، ويتصل بذلك الشعور بالاستقلال وحرمة المسكن فلا يدخل عليه أحد إلا بإذنه...

ـ الحرية الاقتصادية، من بيع وشراء وتصنيع وإجارة وشراكة... شريطة التقيد بأحكام الإسلام في المعاملات الهادفة إلى منع الاستغلال والغش والربا والاحتكار...

ـ حرية العقيدة، فالإسلام لا يُكره الناس على الإيمان به والدخول فيه. بل إنه يدعو إلى التسامح والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

ـ حرية الرأي والتفكير، لا سيما في الكون وسننه والإنسان والطبيعة والعلوم البحتة.. وكذلك العلوم الإنسانية والاجتماعية وكل ما يفيد البشرية ويحقق النمو والارتقاء. وهذا هو المبدأ الذي يعرف في كتب الفقه والأصول باسم الاجتهاد. وقد اعترف به مصدراً من مصادر القانون الإسلامي. وهو مبدأ انفرد بتقريره الإسلام فلم يسبق إليه،

ولم يلحق فيه أيضاً إلا بعد مضي عهود طويلة تجاوزت الألف عام. وقد ضمن الإسلام بذلك حق الفرد في التفكير المستقل والأخذ بالنتائج التي يهديه إليها بحثه غير ملتفت إلا لصوت ضميره[٣٩].

ــ حرية النقد والتوجيه، وهو أمر مطلوب حتى للحكام وذوي السلطة في معرض الإصلاح، وذلك ضمن الأصول الكريمة للنقد دون تجريح أو اتهام بالباطل بل بمقاييس الإسلام ومصلحة المسلمين، قال الله تعالى: ﴿ولتكُن منكمْ أمةٌ يدعونَ إلى الخير ويأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عنِ المنكرِ وأولئكَ همُ المفلحونَ﴾[٤٠]. وقال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال:«لله ولرسوله ولعامة المسلمين وأئمتهم»[٤١]. وقوله: «إذا رأى الناس الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب».

وفي هذا تزخر كتب التراجم بالكثير مما كان يتعلق بنصح الحكام ومحاسبتهم والاستفسار عما يفعلون.. حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نسمعها منكم.

ولعل من بعض الأمثلة الدالة على ذلك ما أورده الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) حيث قال: «حكي أن أبا بكرة دخل على معاوية فقال: اتق الله يا معاوية، واعلم أنك في كل يوم يخرج عنك وفي كل ليلة تأتي عليك، لا تزداد من الدنيا إلا بُعداً، ومن الآخرة إلا قرباً...

---

٣٩ د. الريس، المرجع السابق، ص: ١٨.

٤٠ سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

٤١ رواه البخاري ومسلم.

وحُكي أن سليمان بن عبدالملك قدم المدينة وهو يريد مكة فأرسل إلى أبي حازم فدعاه، فلما دخل عليه قال له سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم خربتم آخرتكم، وعمرتم دنياكم، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب... ومازال يعظه حتى بكى... ويقول الإمام الغزالي، بعد أن يسرد أمثلة أخرى، معقباً: فهكذا كانوا يدخلون على السلاطين إذا أُلزموا، وكانوا يغررون بأرواحهم للانتقام لله من ظلمهم[42].

في خصائص الدولة الإسلامية

هناك خصائص تميز الدولة الإسلامية عما عداها من الدول الأخرى، ومن أهم هذه الخصائص ما يلي:

١) الدولة الإسلامية دولة عقيدة، وهي عقيدة تتمثل في الإسلام، ونابعة أساساً من الكتاب والسنة، وينبثق منها نظم في الأخلاق والمعاملات والعلاقات الاجتماعية.. وعليه فالانتماء إلى الدولة الإسلامية يمثله الانتماء إلى العقيدة، وبالتالي فهي دولة عالمية في إطارها، ولكنها ليست دينية أو مدنية بالمعنى الغربي. فالدولة الدينية لدى الغرب حكمها رجال الدين، وادعوا بأنهم يمثلون الإرادة الإلهية، فقاموا بتنصيب الملك كرئيس للدولة، وانفردوا بفهم نصوص الشريعة وتفسيرها، واستأثروا بالقضاء وتمتعوا بامتيازات خاصة.

---

٤٢ انظر في ذلك كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، المجلد الثاني، المطبعة الأزهرية، ١٣١٦هـ، ص: ١١٦ ١١٨.

أما في الدولة الإسلامية فليس ثمة طبقة من رجال الدين ولا امتيازات، والبيعة تتم بالمبايعة من الناس على الالتزام بالكتاب والسنة بعد اقتراح أهل الحل والعقد. كما أن فهم النصوص الدينية والشريعة أمر مشترك بين كل من يشتغل بالعلم ويختص بفرع من فروعه، وللناس جميعهم حق المناقشة بالحجة والدليل.

ولهذا فالدولة الإسلامية إذا كانت دولة عقيدة فإنها لا توصف بكونها دينية أو مدنية بل هي نظام متميز قائم بذاته.

٢) الدولة الإسلامية دولة حضارة وقيم أخلاقية وإنسانية، لأنه إذا كان من أهداف الدولة الإسلامية تحرير الإنسان وإقامة العدل بين الناس امتثالاً لأمر الله فإن جميع التصرفات الإنسانية ومقاصدها وأهدافها تنبثق عن هذه العقيدة بما في ذلك الأهداف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. فليس الهدف من الاقتصاد مثلاً جني الأرباح أو الانتاج دون النظر إلى مشروعية الوسائل وأخلاقية الأساليب، لأن القيم الأخلاقية في الدولة الإسلامية هي التي تهيمن على الفعاليات الاقتصادية.

وبذلك تنشأ في الدولة الإسلامية حضارة من نوع خاص تقوم على المثل العليا والفضائل والقيم الإيمانية والشعور بالمسؤولية أمام الله في كل عمل.

٣) الدولة الإسلامية ثابتة الأسس متطورة الأشكال، فالمبادئ والأسس العامة في أصول الحكم والإدارة والشورى... تعتبر ثابتة. أما التطبيقات العملية والتفصيلات والتنظيمات فإنها قد تخضع للاجتهاد والرأي، وبالتالي فهي متبدلة ومتحولة وخاضعة لظروف كل زمن

ومجتمع تبعًا لأحواله الاجتماعية والفكرية. وهذا من شأنه أن يحقق المرونة وصلاحية التطبيق في كل وقت، وهذا أمر بدهي طالما أن الحياة الإنسانية مبنية على ثوابت ومتحولات بحكم الواقع والضرورة.

ولا أدل على ذلك من أنه بعد وفاة رسول الله ﷺ وجد المسلمون أنهم ورثوا دولة، أي نظامًا سياسيًا، وأُقر لكل فرد منهم بحق التفكير والبحث في شؤون هذه الدولة، ولم تُفرض عليهم قيود تمنعهم من استعمال هذا الحق والبلوغ به إلى غايته. فرسول الله ﷺ لم يعين من يخلفه، ولم يبين الطريقة التي ينتقل بها الاستخلاف. وفي ذلك حكمة تشريعية كبيرة مقصودة من عدم التحديد كيلا تتقيد الجماعة بقوانين جامدة، مما جعل القوانين الإسلامية مرنة، حتى تعطي مرونتها الفرصة للعقل للتفكير، وللجماعة أن تشكل نظامها وأوضاعها بحسب المصالح المتجددة. بل إن ترك هذا الأمر بدون تحديد هو في ذاته اعتراف بالرأي العام للجماعة أو بما يطلق عليه (إرادة الأمة).

* * *

الفصل التاسع

من مآثر الفكر الإداري في الإسلام

تمهيد - الوثائق (الكتب) الإدارية: كتاب الخليفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى واليه على مصر - كتاب الحسن البصري إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز - كتاب طاهر بن الحسين إلى ابنه عبدالله والي مصر في عهد الخليفة المأمون - كتاب يعقوب بن إبراهيم / القاضي أبو يوسف إلى الخليفة هارون الرشيد.

تمهيد

بالعودة إلى الوثائق الإدارية يمكننا أن نتبين سمو الفكر الإداري في الإسلام، وهي وثائق كثيرة تزخر بها كتب السيرة وكتب التاريخ والتراث.

والوثائق ليست أخبارًا أو أحداثًا أو سلوكًا إداريًا صدر عن حاكم مسلم في موقف ما وإنما هي مستندات تضمنت مبادئ توجيهية وقيمًا استمدت مضامينها من توجيهات القرآن الكريم، وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن سنة رسول الله ﷺ الذي بُعث رحمة للعالمين، وبالتالي فإن هذه الوثائق تمثل نظامًا للسلوك الإداري ولوائح للتصرف، كما تعكس التزام الحاكم والمحكوم والراعي والرعية في تصريف الأعمال وإدارة المصالح.

وقد وقع الاختيار على أربع وثائق إدارية من بين العديد من الوثائق كوسيلة للتدليل على سمو الفكر الإداري في الإسلام، وهي نذر يسير وغيض من فيض يبين بجلاء ووضوح أصالة هذا الفكر وسموه وعمقه. وهذه الوثائق هي عيِّنة من الوثائق الإدارية في عهد الخلفاء الراشدين ثم الأمويين والعباسيين.

هذا، وقد اجتهدنا أن نحلل بإيجاز كلاً من هذه الوثائق أو الكتب لبيان ما انطوى عليه كل منها من توجيه يبرز أصالة الفكر الإداري في الإسلام، ويبيّن اتجاهه الحضاري والإنساني.

* * *

(١) كتاب الخليفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى مالك بن الحارث عندما ولاه مصر*:

(بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أمر به عبدالله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه، حين ولاه مصر، جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها.

أمره بتقوى الله، وإيثار طاعته، واتباع ما أمر به في كتابه، من فرائضه وسننه، التي لا يُسعد أحد إلا باتباعها ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه، فإنه جل اسمه، قد تكفَّل بنصر من نصره، وإعزاز من أعزه.

وأمره أن يكسرَ من نفسه عند الشهوات، ويزعَها عند الجمحات، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رَحِم الله.

ثم اعلم يا مالك، أني قد وجهتك إلى بلاد قد جَرَتْ عليها دول قبلك من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقوله فيهم، وإنما يُستدل على الصالحين بما يُجري الله على ألسن عباده، فليكن أحبَّ الذخائر إليك ذخيرةَ العمل الصالح، فاملكْ هواك وَشُحَّ بنفسك عما لا يَحِلُّ لك فإن الشح بالنفس الإنصافُ منها فيما أحببتَ أو كرهتَ.

وأشعرْ قلبك الرحمة للرعية، والمحبةَ لهم، واللطفَ بهم، ولا تكونَنَّ عليهم سبعًا ضاريًا تغتنمُ أكلهم فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين وإما

* ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية، ١٩٦٧، الجزء ١٧، ص: ٣٠ - ١١٨.

نظيـر لك في الخَلْقِ، يَفْرُطُ منهم الزَّلَلُ وتَعْرض لهم العلل، ويُؤتى على أيديهم في العَمْدِ والخطأ فـأَعْطِهِم من عـفـوك وصـفـحك، مـثلَ الذي تُحِبُّ أن يُعطيك الله من عفـوه وصـفـحـه، فإنك فوقـهم، ووالي الأمر عليك فـوقَكَ، والله فوقَ من ولاك، وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم.

ولا تنصبِنَّ نفسك لحـرب الله فـإنه لا يَدَيْ لك بنقـمـتـه، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته.

ولا تندمنَّ على عفـو، ولا تبجَّحَنَّ بعقوبة، ولا تُسرعنَّ إلى بادرة وجدت منها مندوحة.

لا تقـولنّ: إنـي مُؤَمَّرٌ آمـرُ فـأُطاعُ فـإن ذلك إدغـال في القلب، ومنكهـة للدين وتقرُّبٌ من الغِيَرِ.

وإذا أحـدث لك مـا أنت فـيـه من سلطان أُبَّهـة أو مَخْيِلَةً فـانظر إلى عظم ملك الله فـوقك، وقدرته منك على مـا لا تقدر عليه من نفسك، فـإن ذلك يطامنُ إليك من طِماحِك ويَكُفُّ عنك من غَرْبِك، ويفيء إليك بما عَزَبَ عنك من عقلك.

إياك ومسـامـاة الله في عظمتـه والتشبه به في جبروته، فإن الله يُذِلُّ كل جبار، ويُهين كل مختال.

أَنصفِ الله وأنصف الناسَ من نفسك، ومن خـاصة أهلك، ومَنْ لك هوى فيه من رعيتك، فإنك إلا تفعل تَظْلِمْ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمَهُ دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته وكان لله حربًا حتى ينزِعَ أو يتوب.

وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمتـه، من إقامةٍ على ظلمٍ، فإن الله يسمع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد.

وليكنْ أحبَّ الأمـور إليك أوسطُهـا في الحق، وأعـمـُّهـا في العـدل، وأجمعُها لرضـا الرعية، فإن سُخْطَ العامة يُجحِف برضا الخاصة، وإن سُخط

الخاصة يُغتفرُ مع رضا العامة.

وليس أحدٌ من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء وأقلَّ معونةً له في البلاء، وأكرهَ للإنصاف، وأسْألَ بالإلحاف، وأقل شكرًا عند الإعطاء، وأبطأ عذرًا عند المنع، وأضعف صبرًا عند ملمات الدهر من أهل الخاصة، وإنما عمودُ الدين وَجِمَاعُ المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكُنْ صِغْوُك لهم، وَمَيْلُكَ معهم.

وليكن أبعدَ رعيتك منك، وأشنأهم عندك، أطلبُهم لمعايب الناس فإن في الناس عيوبًا الوالي أحق من سترها، فلا تكشِفَنَّ عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك، فاسترِ العورة ما استطعت يسترِ الله منك ما تحب ستره من رعيتك.

أطلق عن الناس عقدة كل حِقْد، واقطع عنك سبب كل وِتْر، وتغابَ عن كل ما لا يَضِحُ لك، ولا تعجلن إلى تصديق ساعٍ، فإن الساعي غاش، وإن تشبه بالناصحين.

ولا تُدْخِلَنَّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر، ولا جبانًا يضعفك عن الأمور، ولا حريصًا يزين لك الشره بالجور فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى، يجمعها سوء الظن بالله.

إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرًا، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بِطانة فإنهم أعوان الأثمة، وإخوان الظَّلَمة، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذِهم، وليس عليه مثل آصارِهم وأوزارهم وآثامهم، ممن لم يعاون ظالمًا على ظلمه ولا آثمًا على إثمه، أولئك أخف عليك مؤونة، وأحسن لك معونة وأحنى عليك عطفًا، وأقل لغيرك إلفًا.

فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك، ثم ليكن آثرهم عندك أقْوَلَهم

بِمُرِّ الحق لك، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه، واقعًا ذلك من هواك حيث وقع.

والصَقْ بأهل الورع والصدق، ثم رُضْهُمْ على ألا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزَّهْوَ وتدني من العزة.

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سَواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريبًا لأهل الإساءة على الإساءة وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه.

واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن والٍ برعيته من إحسانه إليهم، وتخفيفه المؤونات عليهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قِبَلَهم، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك، فإن حسن الظن يقطع عنك نصبًا طويلاً، وإن أحق مَنْ حَسُنَ ظنك به لَمَنْ حسن بلاؤك عنده، وإن أحق من ساء ظنك به لَمَن ساء بلاؤك عنده.

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الأُلفة وصلحت عليها الرعية.

ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها، والوزر عليك بما نقضت منها.

وأكْثِرْ مدارسة العلماء، ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك.

واعلم أن الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها جنود الله، ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى

من ذوي الحاجة والمسكنة وكلٌّ قد سمى الله له سهمه، ووضع على حده وفريضته في كتابه، أو سنة نبيه ﷺ عهداً منه عندنا محفوظًا.

فالجنود بإذن الله حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمن، وليس تقوم الرعية إلا بهم، ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوَوْنَ به على جهاد عدوهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم، ويكون من وراء حاجتهم. ثم لا قِوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب، لما يُحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها. ولا قوام لهم جميعًا إلا بالتجار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم.

ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رِفْدُهُم ومعونتهم، وفي الله لكل سَعة، ولكلٍّ على الوالي حق بقدر ما يُصلحه.

وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله تعالى من ذلك إلا بالاهتمام. والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحق، والصبر عليه فيما خفَّ عليه أو ثَقُلَ.

فولِّ من جندك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك، وأطهرهم جيبًا وأفضلهم حِلمًا، ممن يُبطئ عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء، وممن لا يُثيره العنف، ولا يقعد به الضعف.

ثم الصَقْ بذوي المُروءات والأحساب وأهل البيوت الصالحة والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة، والسخاء والسماحة، فإنهم جماع من الكرم وشعب من العُرْف.

ثم تفقَّدْ من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به ولا تحقرن لطفًا تعاهدتهم به وإن قلّ، فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك، وحسن الظن بك.

ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها فإن لليسير من لطفك موضعًا ينتفعون به، والجسيم موقعًا لا يستغنون عنه. وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته، وأفْضَلَ عليهم من جِدَته، بما يسعهم ويسع من وراءهم من خُلُوف أهليهم، حتى يكون همهم همًا واحدًا في جهاد العدو، فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك.

ولا تَصِحُّ نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دُوَلِهِمْ، وترك استبطاء انقطاع مدتهم.

فَافْسَحْ في آمالهم، وواصل في حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإن كثرة الذكر لحسن فَعالِهم تهز الشجاع، وتحرض الناكل إن شاء الله.

ثم اعرِفْ لكل امرئ منهم ما أبلى، ولا تَضُمَّنَّ بلاء امرئ إلى غيره ولا تقصرن به دون غاية بلائه.

ولا يَدْعُونَّك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيرًا، ولا ضَعَةُ امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيمًا. واردُدْ إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور، فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المُفَرِّقة.

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك، ممن لا تضيق به الأمور ولا تَمْحَكُهُ الخصوم ولا يتمادى في الزَّلَّة، ولا يَحْصَرُ في الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تُشْرِفُ نفسه على طمع ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأَوْقَفَهُمْ في الشبهات وآخَذَهُمْ بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراء، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل.

ثم أكْثِرْ تعاهد قضائه، وأَفْسِحْ له في البذل ما يُزِيح علته، وتقل معه حاجته إلى الناس، وأَعْطِهِ من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك، فانظر في ذلك نظراً بليغاً، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار ويُعْمَلُ فيه الهوى وتُطْلَبُ به الدنيا.

ثم انظر في أمور عمالك، فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأَثَرَةً، فإنهما جماع من شُعَبِ الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقَدَمِ في الإسلام المتقدمة، فإنهم أكرم أخلاقاً، وأصح أعراضاً، وأقل في المطامع إشرافاً، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً.

ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثَلَموا أمانتك. ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأمورهم حَدْوَةٌ لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية. وَتَحَفَّظْ من الأعوان، فإنْ أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبارُ عيونك، اكتفيتَ بذلك شاهداً، فبسطت عليه العقوبة في بدنه، وأخذته بما أصاب من عمله ثم نصبته بمقام المذلة، ووسمته بالخيانة، وقلدته عار التهمة.

وتفقد أمر الخراج بما يُصلِح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحًا لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله.

وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يُدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد، وأهلك العباد، ولم يستقم أمرُهُ إلا قليلا. فإن شكَوْا ثِقلا أو علِةً أو انقطاع شِرب أو بالّة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش، خففتَ عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم.

ولا يثقلن عليك في شيء خففتَ به المؤونة عنهم، فإنه ذُخْرٌ يعودون به عليك في عِمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استجلابك حُسْنَ ثنائهم، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قُوَّتِهم بما ذَخَرْتَ عندهم من إجماعك لهم، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورِفقك بهم، فربما حدث من الأمور ما إذا عَوَّلتَ فيه عليهم من بعدُ احتملوه طيبة أنفسهم به، فإن العمران محتمل ما حملته، وإنما يُؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يُعْوِزُ أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعِبَر.

ثم انظر في حال كُتَّابك فول على أمورك خيرهم، واخْصُصْ رسائلك التي تُدْخِلُ فيها مكايدك وأسرارك بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك في خلاف لك بحضرة ملأ. ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك، وإصدار جواباتها على الصواب عنك، وفيما يأخذ لك ويُعطي منك، ولا يُضعِف عقداً اعتقده لك، ولا يَعْجِزُ عن إطلاق ما عُقِدَ عليك، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور، فإن الجاهل بقدر

نفسه يكون بقدر غيره أجهل.

ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن حديثهم، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء ولكن اختبرهم بما وُلُّوا للصالحين قبلك، فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثرًا، وأعرفهم بالأمانة وجهًا، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وُلِّيت أمره.

واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسًا منهم لا يَقْهَرُهُ كبيرها، ولا يتشتت عليه كثيرُها، ومهما كان في كُتَّابك من عيب فتغابيت عنه أُلزمته.

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيرًا، المقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه فإنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق، وجُلاَّبها من المباعد والمطارح، في برك وبحرك، وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها فإنهم سلم لا تُخاف بائقته وصلح لا تُخشى غائلته.

وتفقد أمورهم بحضرتك، وفي حواشي بلادك، واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقًا فاحشًا، وشحًا قبيحًا، واحتكارًا للمنافع، وتحكُّمًا في البياعات، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة، فامنع من الاحتكار، فإن رسول الله ﷺ منع منه، وليكن البيع بيعًا سمحًا بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع، فمن قارف حُكْرَة بعد نهيك إياه فنكِّل به وعاقبه في غير إسراف.

ثم اللهَ اللهَ في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزَّمنى فإن في هذه الطبقة قانعًا ومعترًا.

واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسمًا من بيت

مالك، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكلٌّ قد استُرعِيتَ حقه.

ولا يشغلنك عنهم بَطَر فإنك لا تُعذر بتضييعك التافه لإحكامك الكثير المهم، فلا تُشْخِصْ همك عنهم ولا تصعِّر خدك لهم. وتفقد أمور مَن لا يصل إليك منهم، ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال، ففرِّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم.

ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الأنصاف من غيرهم، وكل فأعذِرْ إلى الله تأدية حقه إليه.

وتعهد أهل اليتم، وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل، والحق كله ثقيل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبَّروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم.

واجعل لذوي الحاجات فيك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً، فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتُقْعِد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشُرطِكَ، حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول في غير موطن: «لن تُقَدَّسَ أمةٌ لا يُؤخَذُ للضعيف فيها حقه من القوي غير مُتَتَعْتِع».

ثم احتمل الخُرْقَ منهم والعِي، ونحِّ عنهم الضيق والأنف يبسطِ الله عليك بذلك أكناف رحمته، ويوجب لك ثواب طاعته. وأعطِ مما أعطيت هنيئاً، وامنع في إجمال وإعذار.

ثم أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها، منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كُتَّابُك، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك بما تحرج به صدور أعوانك. وأمضِ لكل يوم عمله، فان لكل يوم ما فيه.

واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت، وأجزل تلك الأقسام، وإن كانت كلها لله، إذا صلحت فيها النية، وسلمت منها الرعية. وليكن في خاصة ما تخلص به لله دينك إقامة فرائضه التي هي له خاصة، فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك ووف ما تقربت به إلى الله من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص، بالغًا من بدنك ما بلغ. وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفرًا ولا مضيعًا فإن في الناس من به العلة، وقد سألت رسول الله ﷺ حين وجهني إلى اليمن: كيف أصلي بهم؟ فقال: «صلِّ بهم كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيمًا».

وأما بعد.. فلا تُطَوِّلَنَّ احتجابك عن رعيتك، فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغُرُ عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسن، ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل، وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور. وليست على الحق سمات تُعرف بها ضروب الصدق من الكذب، وإنما أنت أحد رجلين: إما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق، ففيم احتجابك من واجب حق تُعطيه، أو فعل كريم تُسديه، أو مبتلى بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بَذْلِكَ مع أن أكثر حاجات الناس إليك ممن لا مؤونة فيه عليك، من شكاة مظلمة أو طلب إنصاف في معاملة.

ثم إن للوالي خاصة وبِطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة إنصاف في معاملة، فاحسِمْ مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال، ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وخاصتك قطيعة، ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم، فيكون مهنأ

ذلك لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة.

وألزِم الحق من لَزِمَهُ من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محتسباً، واقعًا ذلك من قرابتك وخواصك حيث وقع، وابتغ عاقبة ما يَثْقُلُ عليك منه، فإن مغبة ذلك محمودة.

وإن ظنت الرعية بك حَيْفًا فأصْحِر لهم بعذرك، واعدل عنك ظنونهم بإصحارك، فإن في ذلك إعذاراً تبلُغُ به حاجتك من تقويمهم على الحق.

ولا تدفعن صلحًا دعاك إليه عدوك ولله فيه رضى، فإن في الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمنًا لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل. فخذ بالحزم، واتهم في ذلك حسن الظن.

وإن عقدتَ بينك وبين عدوك عقدة، أو ألبسته منك ذمة، فحط عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة.

واجعل نفسك جُنَّةً دون ما أعطيتَ، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعًا مع تَفَرُّق أهوائهم، وتشتت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود؛ وقد لَزِمَ ذلك المشركون فما بينهم دون المسلمين، لما استوبلوا من عواقب الغدر.

فلا تغدرن بذمتك، لا تخيسن بعهدك، ولا تختلن عدوك، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي، وقد جعل الله عهده وذمته أمنًا أفضاه بين العباد برحمته، وحريمًا يسكنون إلى منعته، ويستفيضون إلى جواره فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه.

ولا تعقِد عقداً تَـجُوَّزُ فيه العلَلَ، ولا تعولن على لَحْنِ القول بعد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهدُ الله إلى طلب انفساخه بغير

الحق، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته، خير من غدر تخاف تَبِعَتَه، وأن تُحيط بك من الله طلبةٌ فلا تَسْتَقْبِلُ فيها دنياك ولا آخرتك.

إياك والدماءَ وسفكها بغير حِلِّها، فإنه ليس شيء أدعى لنقمة، ولا أعظم لتبعة، ولا أحرى بزوال نعمة، وانقطاع مدة، من سفك الدماء بغير حقها. والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه، بل يُزيله وينقله.

ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العَمْدِ لأن فيه قَوَدَ البدن، وإن ابتليت بخطأ وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بالعقوبة، فإن في الوكزة فما فوقها مقتلة، فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم.

وإياك والإعجاب بنفسك، والثقة بما يعجبك منها، وحب الإطراء؛ فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه، ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين.

وإياك والمنَّ على رعيتك بإحسانك، أو التزيد فيما كان من فعلك، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخُلفك، فإن المن يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخُلف يوجب المقت عند الله والناس، قال الله تعالى ﴿كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾.

وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها، أو التساقط فيها عند إمكانها، أو اللجاجة فيها إذا تنكرتْ أو الوهن عنها إذا استوضحت. فضع كل أمر موضعه، وأوقع كل عمل موقعه.

وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة، والتغابي عما تُعنى به مما قد وضح للعيون، فإنه مأخوذ منك لغيرك، وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور، ويُنتصف منك للمظلوم.

أملك حميَّة أنفك، وسَوْرَة حدك، وسطوة يدك، وغَرْبَ لسانك، واحترس من كل ذلك بكف البادرة، وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك، فتملك الاختيار.

ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تُكْثِرَ همومَك بذكر المعاد إلى ربك.

والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة، أو سنة فاضلة، أو أثر عن نبينا ﷺ أو فريضة في كتاب الله، فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا، واستوثقت به من الحجة لنفسي عليك، لكيلا تكون لك علة عند تَسَرُّع نفسك إلى هواها.

وأنا أسأل الله بسَعة رحمته، وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة، أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه، مع حسن الثناء في العباد، وجميل الأثر في البلاد، وتمام النعمة، وتضعيف الكرامة، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، إنا إلى الله راغبون.. والسلام على رسول الله ﷺ وآله الطيبين الطاهرين.

* * *

ينطوي هذا الكتاب على معان كثيرة وعميقة في الفكر الإداري في الإسلام. وهي معان موجهة للسلوك الإداري السوي. ولعل من بعضها ما يلي:

قوله: الأمر بتقوى الله، وإيثار طاعته، واتباع ما أمر به في كتابه، من فرائضه وسننه...

نقول: إن الذي يمارس العمل الإداري يجب أن يكون تقيًا، وأن تملأ قلبه الخشية من الله كي يحسن صنعًا ويخالق الناس بخلق حسن. وقد قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[٢]. وعن أبي هريرة قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله وحسن الخُلُق».. وقال أبو ذر: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم – ثم تلا: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾.. وقال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس»[٣].

قوله: لا يُسعد أحد إلا باتباعها ولايشقى إلا مع جحودها وإضاعتها..

نقول: إن السعادة تتحقق باتباع ما فرض الله، والشقاء مع الجحود، فقد فرض الله الفرائض لتنقية النفس الإنسانية وتطهيرها وجعل أفعال الإنسان خالصة لله. وحضّ على مكارم الأخلاق والعمل الصالح.

ولهذا فالإداري الملتزم بالفرائض لا يصدر عنه إلا ما هو خير ونافع لنفسه وزملائه وللمنظمة التي يعمل فيها.

وتبدأ الفرائض بالصلاة، ومما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته، فإن كان أكملها وإلا قال

---

٢ رواه الإمام أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي.

٣ رواه الترمذي وقال حديث حسن.

الله عـز وجل: انظروا لعـبدي مـن تطوّع، فـإن وُجـد له تطوّع قـال: أكـملوا به الفريضة».. ومما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن الصلاة: ... ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع. وقال الله تعالى: ﴿ فـخلفَ من بعدهمْ خلفٌ أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهواتِ فسوفَ يلقونَ غيًا ﴾[4].

قوله: وأن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه، فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره، وإعزاز من أعزه.

نقول: إن الله تعالى قال: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا إن تنصروا اللهَ ينصرْكُمْ ويثبتْ أقدامكمْ﴾[5]، بمعنى إن تنصروا دين اللهَ ينصركم على الكفار، وقالوا: إن تنصروا عباده، وتقوموا بحفظ حدوده، ورعاية عهوده، واجتناب نهيه.. وقال تعالى: ﴿ ... ولينصُرنَّ اللهُ من ينصرهُ ... ﴾[6] أي من ينصر دينه ونبيه. وقال أيضًا: ﴿ فلما أحسَّ عيسى منْهُمُ الكفرَ قالَ منْ أنصاري إلى اللهِ قالَ الحواريونَ نحنُ أنصارُ اللهِ آمنَّا باللهِ واشهدْ بأنَّا مسلمونَ ﴾[7]. وقال رسول الله ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلُفُ من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء

---

٤ سورة مريم: الآية ٥٩. غيًا: شرًا أو ضلالاً أو خيبة، وقال ابن عباس: هو واد في جهنم.

٥ سورة محمد، الآية ٧.

٦ سورة الحج، الآية ٤٠.

٧ سورة آل عمران، الآية ٥٢. أي أنصار نبيه ودينه.

ذلك من الإيمان حبة خردل»[8]. ونصر الله باليد: الجهاد بالسيف، وبالقلب: الاعتقاد للحق، وباللسان: قول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قوله: أن يكسر من نفسه عند الشهوات، ويزعها عند الجمحات[9]، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رَحِمَ الله.

نقول: إن الله تعالى قال: ﴿... إنَّ النَّفسَ لأمَّارةٌ بالسوءِ إلا ما رَحِمَ ربي ...﴾[10] أي مشتهية له. وما بمعنى مَن، أي إلا من رحم ربي فعصمه.

وفي الخبر عن النبي ﷺ قال: «ما تقولون في صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شر غاية، وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية»، قالوا: يا رسول الله، هذا شر صاحب في الأرض. قال: «فو الذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم».

والجدير بالذكر أنه من متابعة النصوص القرآنية يتبين أن النفس قد أطلقت في القرآن على شيء هو في داخل كيان الإنسان، دون النظر إلى الهيكل الجسدي الذي هو وعاء لها.

ومع الإطلاق القرآني لكلمة (نفس) تتوضح جملة من خصائصها وآثارها في السلوك.

فالنفوس البشرية كلها خلقت من نفس واحدة.. قال الله تعالى: ﴿يا أيها النَّاسُ اتقوا ربكُمُ الذي خلقكُم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجها وبثَّ

---

٨ رواه مسلم.

٩ الجمحات: منازعة النفس إلى شهواتها ومآربها، وتنزعها بكفّها.

١٠ سورة يوسف، الآية ٥٣.

منهما رجالاً كثيراً ونساءً ...﴾[11]. والنفس هي التي تذوق الموت، قال الله تعالى: ﴿كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ...﴾[12]. وموت النفس لا يكون إلا بإذن الله، قال الله تعالى: ﴿وما كانَ لنفسٍ أن تموتَ إلا بإذنِ اللهِ كتاباً مؤجلاً ...﴾[13]. وأجل كل نفس مقرر بقضاء الله وقدره، قال الله تعالى: ﴿ولن يؤخِّرَ اللهُ نفساً إذا جاءَ أجلُهَا واللهُ خبيرٌ بما تعملونَ﴾[14]. وقتل الحي هو قتل لنفسه، قال الله تعالى: ﴿... ولا تقتلُوا النفسَ التي حرَّمَ اللهُ إلا بالحقِّ ...﴾[15].

وللنفس هوى قد يميل بها، قال الله تعالى: ﴿... إن يتبعونَ إلا الظنَّ وما تهوى الأنفسُ ولقدْ جاءَهُم من ربهمُ الهدى﴾[16]. ولها شهوات، قال الله تعالى: ﴿... ولكمْ فيها ما تشتهي أنفسكمْ ولكمْ فيها ما تدَّعُونَ﴾[17].

---

١١ - سورة النساء، الآية ١. وقال أيضاً: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ...﴾ سورة الأعراف/ ١٨٩. و: ﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ...﴾ سورة الزمر/ ٣٩. و: ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ سورة الأنعام/ ٦.

١٢ - سورة العنكبوت، الآية ٥٧. و: ﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ سورة الأنبياء/ ٢١. و: ﴿كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ...﴾ سورة آل عمران/ ١٨٥.

١٣ - سورة آل عمران، الآية ١٤٥.

١٤ - سورة المنافقون، الآية ١١.

١٥ - سورة الأنعام، الآية ١٥١.

١٦ - سورة النجم، الآية ٢٣.

١٧ - سورة فصلت، الآية ٣١، وقال أيضاً: ﴿وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ سورة الأنبياء/ ١٠٢، و: ﴿فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ...﴾ سورة الزخرف/ ٧١.

وقد تتصف النفس البشرية بصفات الخير وأضدادها كالصبر على سبيل الاحتمال كما خاطب الله رسوله محمداً ﷺ في قوله: ﴿واصبرْ نفسكَ معَ الذينَ يدْعونَ ربهم بالغداةِ والعشيِّ يريدونَ وجْهَهُ ...﴾[18]، وغلبة الشح كما في قوله تعالى: ﴿... ومن يوقَ شُحَّ نفسهِ فأولئكَ همُ المفلحونَ﴾[19]، والحسد والخوف والكبر كما في قوله تعالى: ﴿وقالَ الذينَ لا يرجونَ لقاءنا لولا أُنزلَ علينا الملائكةُ أو نرى ربنا لقدِ استكبروا في أنفسهمْ وعَتَوْ عتوًا كبيرًا﴾[20]، والإحساس بالضيق والحرج كما في قوله تعالى: ﴿فلا وربكَ لا يؤمنونَ حتى يحكموكَ فيما شجرَ بينهمْ ثمَّ لا يجدوا في أنفسهمْ حرجًا ممَّا قضيتَ ويسلموا تسليمًا﴾[21].

والنفس الإنسانية بصيرة بما تعمل وقادرة على التمييز بين طريق الفجور وطريق التقوى كما في قوله تعالى: ﴿ونفسٍ وما سوّاها. فألهمها فجورها وتقواها. قدْ أفلحَ من زكاها. وقدْ خابَ من دسّاها﴾[22]، وقوله تعالى: ﴿بلِ الإنسانُ على نفسهِ بصيرةٌ. ولو ألقى معاذيرهُ﴾[23].

---

١٨ سورة الكهف، الآية ٢٨.

١٩ سورة التغابن، الآية ١٦، وقوله تعالى: ﴿وأحضرت الأنفس الشح ...﴾ سورة النساء/ ١٢٨.

٢٠ سورة الفرقان، الآية ٢١.

٢١ سورة النساء، الآية ٦٥، وقوله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ...﴾ سورة التوبة/ ١١٨.

٢٢ سورة الشمس، الآيات ٧ ١٠.

٢٣ سورة القيامة، الآيتان ١٤ و ١٥، وقوله تعالى: ﴿وإذا القبور بعثرت. علمت =

والنفس قادرة على إخفاء المطالب والمشاعر كما في قول الله تعالى عن المنافقين في غزوة أحد: ﴿ ... يخفونَ في أنفسهم مَّا لا يبْدون لكَ ... ﴾[24]، وهي مكلفة ومسؤولة مسؤولية شخصية ضمن حدود الاستطاعة كما في قوله تعالى: ﴿ ... لا تُكَلَّفُ نفسٌ إلا وسْعَهَا ... ﴾[25]، و ﴿ لا يُكلفُ اللهُ نفساً إلا وُسْعها لها ما كسبتْ وعليها ما اكتسبتْ ... ﴾[26]، وهذا التكليف يستتبع المسؤولية، ويستتبع الجزاء كما في قوله تعالى: ﴿ ليجزي اللهُ كلَّ نفسٍ ما كسبتْ إنَّ اللهَ سريعُ الحساب ﴾[27]، و ﴿ اليوم تُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبتْ لا ظلمَ اليومَ ... ﴾[28]، وقول الله تعالى: ﴿ ومن يكسبْ إثمًا فإنما يكسبُهُ على نفسهِ ... ﴾[29]، وهي مسؤولية شخصية، فلا تجزي نفس

= نفس ما قدمت وأخرت ﴾ سورة الانفطار/ ٤ ‍‍‍‍‍‍ ٥ ، و ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ سورة التكوير/ ١٤.

٢٤ - سورة آل عمران، الآية ١٥٤، وخطاب الله للمؤمنين: ﴿ لله ما في السموات والأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ... ﴾ سورة البقرة/ ٢٨٤، و ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ... ﴾ سورة البقرة/ ٢٣٥، وفي عرض قصة يوسف عليه السلام ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ... ﴾ سورة يوسف/ ٧٧.

٢٥ - سورة البقرة، الآية ٢٣٣.

٢٦ سورة البقرة، الآية ٢٨٦، وقوله تعالى: ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ... ﴾ سورة الأنعام/ ١٥٢، وسورة الأعراف/ ٤٢، وقوله تعالى: ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ... ﴾ سورة الطلاق/ ٧.

٢٧ - سورة إبراهيم، الآية ٥١.

٢٨ - سورة غافر، الآية ١٧.

٢٩ - سورة النساء، الآية ١١١.

عن نفس شيئًا كما في قوله تعالى: ﴿واتقوا يومًا لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئًا ولا يُقبلُ منها شفاعةٌ ولا يؤخذُ منها عدلٌ ولا هم ينصرونَ﴾[30]، وقوله تعالى: ﴿يومَ لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئًا والأمرُ يومئذٍ للهِ﴾[31]، وقوله تعالى: ﴿واتقوا يومًا ترجعونَ فيهِ إلى اللهِ ثمَّ توفى كلُّ نفسٍ ما كسبتْ وهمْ لا يظلمونَ﴾[32].

والنفس العاقلة هي التي تحسب حساب المستقبل، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا اتقوا اللهَ ولتنظرْ نفسٌ ما قدمتْ لغدٍ واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعملونَ﴾[33]، وسوف تجد كل نفس ما عملت، قال الله تعالى: ﴿يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ منْ خيرٍ محضرًا وما عملتْ من سوءٍ تودُّ لو أنَّ بينها وبينهُ أمدًا بعيدًا ...﴾[34]، وحيث تُعطى حق الدفاع تحقيقًا للعدل الرباني كما في قول الله تعالى: ﴿يومَ تأتي كلُّ نفسٍ تجادلُ عن نفسها وتوفى كلُّ نفسٍ مّا عملتْ وهمْ لا يظلمونَ﴾[35]، وهي قادرة على تقويم أعمالها ومحاسبة نفسها لأنها بصيرة بما عملت، كما في قوله تعالى: ﴿وكلَّ إنسانٍ ألزمناهُ طائرهُ في عنقهِ ونخرجُ لهُ يومَ القيامةِ كتابًا يلقاهُ منشورًا . اقرأ

---

٣٠ - سورة البقرة، الآية ٤٨.

٣١ - سورة الانفطار، الآية ١٩.

٣٢ - سورة البقرة، الآية ٢٨١، وقوله تعالى: ﴿ ... ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ... ﴾ سورة الأنعام/ ١٦٤.

٣٣ - سورة الحشر، الآية ١٨.

٣٤ - سورة آل عمران، الآية ٣٠.

٣٥ - سورة النحل، الآية ١١١.

كتابكَ كفى بنفسكَ اليومَ عليكَ حسيباً ﴾[36].

وقد تكون النفس لوّامة توجه اللوم الداخلي، قال الله تعالى: ﴿لا أُقسمُ بيومِ القيامةِ. ولا أُقسمُ بالنفسِ اللوامةِ ﴾[37]، وقد تكون مطمئنة توجّه النصح لفعل الصالحات وتأمر بالخير وتنهى عن الشر، قال الله تعالى: ﴿يا أيتها النفسُ المطمئنّةُ. ارجعي إلى ربكِ راضيةً مرضيةً ﴾[38].

فإذا كانت منابع الخير والشر لدى الإنسان موجودة في زوايا نفسه، وإذا كان سلوكه نتيجة لحركات النفس واتجاهاتها، فإن من المنطقي ألا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وهذا ما بيّنه الله تعالى بقوله: ﴿... إنَّ اللهَ لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهِمْ ...﴾[39]، وفي قوله تعالى: ﴿ذلكَ بأنَّ اللهَ لمْ يكُ مغيراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهمْ وأنَّ اللهَ سميعٌ عليمٌ ﴾[40].

قوله: أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرَتْ عليها دول قبلك من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنما يُستدل على الصالحين بما

---

٣٦ - سورة الإسراء، الآيتان ١٣ و ١٤. طائره: قال ابن عباس: عمله وما قُدّر عليه من خير أو شر. قال الزجاج: ذكر العنق عبارة عن اللزوم كلزوم القلادة للعنق. وقال مقاتل والكلبي: خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به.

٣٧ - سورة القيامة، الآيتان ١ و ٢.

٣٨ - سورة الفجر، الآيتان ٢٧ و ٢٨.

٣٩ - سورة الرعد، الآية ١١.

٤٠ - سورة الأنفال، الآية ٥٣.

يُجري الله على ألسن عباده.

نقول: ينطوي هذا القول على توجيه حكيم للاعتبار بما كان يفعله الولاة السابقون من خير أو شر، وحضّ على أن يضع الوالي نفسه موضعهم فيما يفعل، لأن الناس تقوِّم الأفعال، والله سبحانه وتعالى يقومها ويحاسب عليها، قال تعالى: ﴿ووُضعَ الكتابُ فترى المجرمينَ مشفقينَ ممَّا فيهِ ويقولونَ يا ويلتنا مالِ هذَا الكتابِ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلمُ ربُّكَ أحدًا﴾[41].

ولعلّ من روائع ما قيل في إدارة الحكم: العدل أساس الملك، وقال الله تعالى: ﴿... وإذا حكمتُم بينَ الناسِ أن تحكموا بالعدلِ ...﴾[42]. وهذا خطاب للولاة والأمراء والحكام، ويدخل في ذلك بالمعنى جميع الخلق. ويروى أنه كتب إلى عمر بن عبدالعزيز بعض عماله يستأذنه في تحصين مدينته، فكتب إليه: حصِّنها بالعدل، ونقِّ طرقها من الظلم.

قوله: وأشعرْ قلبك الرحمة للرعية، والمحبّةَ لهم، واللطفَ بهم، ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم. فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخَلْقِ، يَفْرُطُ منهم الزَّلَلُ وتَعْرِض لهم العلل، ويُؤتى على أيديهم في العَمْدِ والخطأ فأعْطِهِم من عفوك وصفحك..

نقول: عندما نتأمل العبارة: **أشعر قلبك الرحمة..**؛ يمكننا أن نربط

---

٤١ سورة الكهف، الآية ٤٩، والكتاب: كتب الأعمال في أيدي العباد أو وضْع الحساب.

٤٢ سورة النساء، الآية ٥٨.

ذلك بأن الوالي أو الحاكم مسؤول عن الرعية، وبالتالي فأساس هذه المسؤولية في الإدارة الإسلامية هو الرحمة وليس الاستعلاء والتحكّم.. الرحمة القائمة على مسؤولية التوجيه والتربية.

ولو تأملنا بعض آيات القرآن الكريم بهذا الصدد نجد الكثير من المعاني السامية المتصلة بالرحمة. قال الله تعالى: ﴿قل لمن ما في السموات والأرضِ قل للهِ كتبَ على نفسهِ الرحمةَ ...﴾[43] أي وعد بها فضلاً منه وكرمًا .. وذكر النفس هنا عبارة عن وجوده وتأكيد وعده وارتفاع الوسائط دونه، فضلاً عن أن الرحمة من صفات الله، قال تعالى: ﴿وربُّكَ الغفورُ ذو الرحمةِ لو يؤاخذهُم بما كسبوا لعجَّلَ لهمُ العذابَ ...﴾[44]، وقوله تعالى: ﴿... كتبَ ربُّكُمْ على نفسهِ الرحمةَ ...﴾[45] أي أوجب ذلك بخبره الصدق ووعده الحق. وقول الله تعالى: ﴿محمدٌ رسولُ اللهِ والذينَ معهُ أشداءُ على الكفارِ رحماءُ بينهمْ ...﴾[46] أي يرحم بعضهم بعضًا، وقيل: متعاطفون متوادّون. وكذلك قوله تعالى: ﴿ثمَّ كانَ منَ الذينَ آمنوا وتواصوا بالصبرِ وتواصوا بالمرحمةِ﴾[47].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» أي تسبقه وتزيد

---

٤٣ - سورة الأنعام، الآية ١٢.

٤٤ - سورة الكهف، الآية ٥٨.

٤٥ سورة الأنعام، الآية ٥٤.

٤٦ سورة الفتح، الآية ٢٩.

٤٧ سورة البلد، الآية ١٧. تواصوا: أي أوصى بعضهم بعضًا. بالمرحمة: بالرحمة على الخلق، فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين.

عليه[48]. فإذا كتب الله، وهو القاهر فوق عباده، على نفسه الرحمة، ووصف المؤمنين مع رسوله ﷺ بأنهم رحماء بينهم، يرحم بعضهم بعضا.. ألا يجدر بمن يمارس الحكم والإدارة أن يتخلق بالرحمة إذ يرعى الرعية وهو مسؤول عن رعيته[49].

وقد حثّ رسول الله ﷺ في أحاديثه الشريفة على الرحمة. فعن عبدالله ابن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الله، ارحموا مَن في الأرض يرحمكم من في السماء، الرَّحِمُ شِجْنَةٌ من الرحمن،

---

٤٨ وعند البخاري: «غلبتْ غضبي»، وعند مسلم: «لما خلق الله الخلق».

٤٩ وصف الله تعالى نفسه بأنه: ﴿الرحمن الرحيم﴾ بعد ﴿رب العالمين﴾ لأنه لما كان في اتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمنه من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة والرغبة إليه. و ﴿الرحمن﴾ مشتق من الرحمة مبني على المبالغة، ومعناه ذو الرحمة الذي لا نظير له فيها فلذلك لا يُثنى ولا يُجمع كما يُثنى ﴿الرحيم﴾ ويُجمع.. وقال الجمهور: ﴿الرحمن﴾ خاص الاسم عام الفعل. و ﴿الرحيم﴾ عام الاسم خاص الفعل.. وقال أبو علي الفارسي: ﴿الرحمن﴾ اسم عام في جميع أنواع الرحمة، يختص به الله. و ﴿الرحيم﴾ إنما هو في جهة المؤمنين. وقال العزرميّ: ﴿الرحمن﴾ بجميع خلقه في الأمطار ونعم الحواس والنّعم العامة. و ﴿الرحيم﴾ بالمؤمنين في الهداية لهم واللطف بهم. وأكثر العلماء على أن ﴿الرحمن﴾ مختص بالله عز وجل، لا يجوز أن يُسمى به غيره.. والجدير بالذكر أن من عظيم رحمة الله تعالى أنه جعل أدنى ثواب الحسنة عشر أمثالها، وأعلى جزاء السيئة مثلها، وأن من تقرّب إلى الله مقداراً تقرب الله إليه أضعافه. وعن عبدالله بن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك: فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة» متفق عليه. انظر رياض الصالحين للنووي، المرجع السابق، ص: ٧.

فمن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله»[50].

وعن جرير بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرحمُ الله من لا يرحم الناس»، وفي رواية: «من لا يرحم الناسَ لا يرحمْه الله»[51]. وعن أبي هريرة قال: قبَّلَ رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلتُ منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «مَن لا يرحمْ لا يُرحمْ»[52]..

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جُزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تُصيبَه»[53].

بل إن توجيه رسول الله ﷺ بالرحمة قد شمل رحمة الحيوانات أيضًا. وهذا ما أشرنا إليه سابقًا فيما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثلُ الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفَّه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رَقِيَ، فسقى الكلب، فشكرَ اللهُ له، فغفر له»، قالوا: يا

---

٥٠ - أخرجه الترمذي، وأخرج منه أبو داود إلى قوله: «من في السماء» والشجنة - بضم الشين وكسرها القرابة المشتبكة كاشتباك العروق.

٥١ - أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

٥٢ - أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وزاد رزين: «أوَ أملكُ إن كان الله نزع منكم الرحمة؟!».

٥٣ - رواه البخاري ومسلم.

رسول الله إن لنا في البهائم أجراً؟. فقال: «في كل كبد رطبة أجر»[٥٤].

وعن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هرة: ربطتها، فلم تُطعمها ولم تدعْها تأكل من خَشاش الأرض». وفي رواية: «عُذبت امرأةٌ في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض»[٥٥].

وتتضمن العبارة السابقة توجيهاً إدارياً آخر يتمثل في التجاوز عن الأخطاء.. «يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ.. فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ...».

وقد حضّ الله سبحانه على العفو والصفح فقال: ﴿ولا يأتلِ أولو الفضلِ منكمْ والسعةِ أن يؤتوا أولي القربى والمساكينَ والمهاجرينَ في سبيلِ اللهِ وليعفُوا وليصفحُوا ألا تحبونَ أن يغفرَ اللهُ لكمْ واللهُ غفورٌ

---

٥٤ وفي رواية: «إن امرأة بغيّاً رأت كلباً في يوم حار يُطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت مُوقها، فغُفر لها». أدلع لسانه: إذا أخرجه من العطش، وكذلك دلعه. الموق: الخف.

٥٥ أخرجه البخاري ومسلم. خشاش الأرض: هوامها وما فيها من الحشرات. وعن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمرَةً معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تُعرِّشُ فلما جاء رسول الله ﷺ قال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها. ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال: من أحرق هذه؟ قلنا نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يُعذّب بعذاب النار إلا رب النار». أخرجه أبو داود. الحُمَر: ضرب من الطير من قدْ العصفور وواحدها حُمَرةٌ. يُعرِّش: يرفرف، وذلك أن يرخي جناحيه ويدنو من الأرض ليسقط ولا يسقط. ومن رواه يفرش - بالفاء - فهو مأخوذ من فرش الجناح وبسْطه.

رحيمٌ﴾. [٥٦]. ففي قوله تعالى: ﴿ألا تحبونَ أن يغفرَ اللهُ لكمْ﴾ تمثيل وحجة؛ أي كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم، ولهذا قال أبو بكر الصديق: والله إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مِسْطح بن أثاثة النفقة التي كان ينفق عليه وقال: لا أنزعها منه أبداً.

وتجدر الإشارة إلى أن من الرفق العفو والصفح، وقد حثّ رسول الله ﷺ على الرفق فقال أبو الدرداء إن النبي ﷺ قال: «من أُعطيَ حظَّهُ من الرفق فقد أُعطيَ حظَّه من الخير، ومن حُرِم حظَّه من الرفق فقد حُرِم حظه من الخير» [٥٧]. وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه». وعن عبدالله بن عمر قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كم أعفو عن الخادم؟. فصمت عنه رسول الله ﷺ. ثم قال: يا رسول الله كم أعفو عن الخادم؟. فقال: «اعْفُ عنه كل يوم سبعين مرة» [٥٨].

---

٥٦ - سورة النور، الآية ٢٢. ولا يأتل: لا يحلف من الألِيّة وهي اليمين، ومنه قوله تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم﴾، وقالوا معناه يُقصِّر، من قولك ألَوْت في كذا إذا قصرت فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿لا يألونكم خبالاً﴾ سورة آل عمران/ ١١٨. وثمة توجيه آخر في العفو والصفح في قوله تعالى: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾ سورة البقرة/ ١٠٩. ﴿فاعفوا﴾ والأصل اعْفُووا حُذفت الضمة لثقلها ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين. والعفو: ترك المؤاخذة بالذنب. والصفح: إزالة أثره من النفس.

٥٧ - أخرجه الترمذي.

٥٨ - أخرجه الترمذي.

قوله: وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أُبَّهةً أو مَخْيَلَةً فانظر إلى عِظَم ملك الله فوقك، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك.. أنصفِ الله وأنصف الناس[59] من نفسك، ومن خاصة أهلك..

نقول: هذا توجيه للحاكم بأن يخفض جناحه لرعيته وألا يتكبر عليهم.. وهو من توجيهات الإدارة في الإسلام. قال الله تعالى: ﴿لا جرمَ أنَّ اللهَ يعلمُ ما يسرونَ وما يعلنونَ إنهُ لا يحبُّ المستكبرينَ﴾[60]. وقال الله تعالى ﴿سأصرفُ عنْ آياتِيَ الذينَ يتكبرونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ ...﴾[61]. وقال الله تعالى: ﴿... إنَّ اللهَ لا يحبُّ من كانَ مختالاً فخوراً﴾[62]. وقال الله

---

٥٩ أنصف الله: أي قُم له بما فرض عليك، وقال المهدي للربيع بن أبي الجهم وهو والي فارس: يا ربيع، آثر الحق، والزم القصد، وابسط العدل، وارفق بالرعية، واعلم أن أعدل الناس من أنصف من نفسه، وأظلمهم من ظلم الناس لغيره.

٦٠ - سورة النحل، الآية ٢٣. لا جرم: كلمة تحقيق ولا تكون إلا جواباً. وروى سفيان ابن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد قال: مرَّ عليّ بن الحسين وهو راكب على مساكين يأكلون كسراً لهم فسلّم عليهم فدعوه إلى طعامهم فنزل وجلس معهم وتلا هذه الآية: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ سورة القصص/ ٨٣. فلما فرغ قال: قد أجبتكم فأجيبوني، فقاموا معه إلى منزله فأطعمهم وسقاهم وأعطاهم. الدار الآخرة: الجنة. و ﴿نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ...﴾ أي رفعة وتكبراً على الإيمان والمؤمنين.

٦١ - سورة الأعراف، الآية ١٤٦. قال قتادة: سأمنعهم فهم كتابي، وقاله سفيان بن عُيينة. وقيل: سأصرفهم عن الإيمان بها. وقيل: سأصرفهم عن نفعها؛ وذلك مجازاة لهم على تكبرهم.

٦٢ سورة النساء، الآية ٣٦. والمختال ذو الخُيَلاء أي الكبر، والفخور: الذي يعدد مناقبه كبْراً. وقالوا: مختالاً: متكبراً معجباً بنفسه، يظن أن له مزية ليست عند غيره. فخوراً: كثير التطاول والتعاظم بالمناقب.

تعالى: ﴿ولا تمشِ في الأرضِ مرحًا إنكَ لن تخرقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبالَ طولاً . كلُّ ذلكَ كانَ سَيِّئُهُ عندَ ربكَ مكروهًا﴾[٦٣] . وقال الله تعالى: ﴿ولا تصعّرْ خدكَ للناسِ ولا تمشِ في الأرضِ مرحًا إنَّ اللهَ لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ﴾[٦٤] . وقال الله تعالى: ﴿ادخلوا أبوابَ جهنمَ خالدينَ فيها فبئسَ مثوى المتكبرينَ﴾[٦٥] . وقال أيضًا: ﴿... فاليومَ تجزونَ عذابَ الهونِ بما كنتمْ تستكبرونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ وبما كنتمْ تفسقونَ﴾[٦٦] . وقال أيضًا: ﴿لكيلا تأسَوْا على ما فاتكمْ ولا تفرحوا بما آتاكمْ واللهُ لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ﴾[٦٧] .

وفي توجيهات رسول الله ﷺ الكثير من وصايا الابتعاد عن الكِبْر، وهذا من روائع الأصول في العلاقات الإنسانية في الإدارة. قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه حبة من خردل من كبر». وفي رواية فقال رجل:

٦٣ - سورة الإسراء، الآيتان ٣٧ و ٣٨ . وهذا نهيٌ عن الخيلاء وأمر بالتواضع . والمرح: شدة الفرح . وقيل: التكبر في المشي . وقيل: تجاوز الإنسان قدره . وقال قتادة: هو الخيلاء في المشي . وقيل: هو البطر والأشر .

٦٤ - سورة لقمان، الآية ١٨ . بمعنى لا تُمِل خدك للناس كبراً عليهم وإعجاباً واحتقاراً لهم . وقيل: هو أن تلوي شدقك إذا ذُكر الرجل عندك كأنك تحتقره . فالمعنى: أقبل عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً؛ وإذا حدثك أصغرهم فاصغ إليه حتى يكمل حديثه . وكذلك كان النبي ﷺ يفعل، و ﴿لا تمشِ في الأرض مرحا﴾ أي متبختراً متكبراً، مصدر في موضع الحال .

٦٥ - سورة غافر، الآية ٧٦ .

٦٦ سورة الأحقاف، الآية ٢٠ . أي تستعلون على أهلها بغير استحقاق . والهون: الخزي والفضيحة . قال مجاهد: الهون: الهوان .

٦٧ سورة الحديد، الآية ٢٣ . وقيل: المختال الذي ينظر إلى نفسه بعين الافتخار، والفخور الذي ينظر إلى الناس بعين الاحتقار وكلاهما شرك خفي .

إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس»[٦٨]. وقال رسول الله ﷺ: «إن المتكبرين يُحشرون أمثال الذَّر يوم القيامة يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم». وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ... وعجبت للمتكبر الذي كان بالأمس نطفة، ويكون غدًا جيفة... ، وعجبت لمن نسيَ الموت وهو يرى من يموت.

وقال العلماء: كل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكبر فإنه فسق يلزمه الإعلان، وهو أصل العصيان كله. وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال: بلغني أن أول معصية كانت الحسد والكبر، حَسَد إبليسُ آدمَ، وشحَّ آدم في أكله من الشجرة.

قوله: أحبُّ الأمور إليك أوسطُها في الحق، وأعمُّها في العدل، وأجمعُها لرضا الرعية ... وإن سُخط الخاصة يُغتفر مع رضا العامة.

نقول: في هذا توجيه وتحذير، توجيه إلى أن أحب الأمور أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية. وتحذير للوالي من أن يكون صفوه للخاصة منهم. وقد قال الله تعالى: ﴿وكذلكَ جعلناكمْ أمةً وسطًا لتكونوا شهداءَ على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكمْ شهيدًا ...﴾[٦٩] والوسط: العدل؛ وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها. وروى الترمذي عن أبي سعيد

---

٦٨ أخرجه مسلم. بطر الحق: تسفيهه وإبطاله. وغمط الناس: الاحتقار لهم والإزدراء بهم. ويروى (غمص) بالصاد المهملة والمعنى واحد. يقال غمصه يغمصه غمصًا واغتمصه أي استصغره.

٦٩ سورة البقرة، الآية ١٤٣.

الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وكذلكَ جعلناكمْ أمةً وسطًا﴾ قال: عدلاً. وفي التنزيل: ﴿قالَ أوسَطُهُمْ ...﴾[70] أي أعدلهم وخيرهم. ووسط الوادي: خير موضع فيه وأكثره كلأ وماء. وفي الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأمور أوساطها»[71] بمعنى: أن كل خصلة محمودة، فإن لها طرفين مذمومين، مثل أن السَّخاء وسطٌ بين البخل والتَّبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهوُّر، والإنسان مأمورٌ أن يتجنَّب كلَّ وصفٍ مذمومٍ، وتجنُّبُه بالتَّعَرِّي منه، والتَّبعُّد عنه، فكلما ازداد منه بعدًا ازداد منه تعريًا، وأبعد الجهاتِ والأماكن والمقادير من كل طرفين، فإنما هو وسطها، لأن الوسط أبعد الجهات من الأطراف، وهو غاية البعد عنها، فإذا كان في الوسط، فقد تعرّى عن الأطراف المذمومة بقدر الإمكان، فلهذا كان خير الأمور أوساطها.

... وعبارة: **وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة ...** تنطوي على تحذير لأنه لا مبالاة بسُخط خاصة الأمير مع رضا العامة. فأما إذا سخِطَت العامة لم ينفعه رضا الخاصة الذين يلازمونه ويسامرونه مع مَن ضارعهم من حواشي الوالي وأرباب الشفاعات والقُرُبات عنده.

قوله: فإن في الناس عيوبًا الوالي أحَقُّ من سَتَرَهَا، فلا تكشِفَنَّ عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهيرُ ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك، فاسترِ العورة ما استطعت يسترِ الله منكَ ما تُحِبُّ ستره من رعيتك.

---

٧٠ - سورة القلم، الآية ٢٨.

٧١ جامع الأصول لابن الأثير، المجلد الأول، المرجع السابق، الحديث رقم ١٠١، ص: ٣١٩، وللديلمي عن ابن عباس مرفوعًا: «خير الأعمال أوسطها».

نقول: هذا توجيه حكيم للتعامل مع الرعية وتذكير بحديث رسول الله ﷺ في الحض على ستر المسلم فيما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسرّ على معسر يسرّ الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة»[٧٢].

ومما يذكر أنه عاب رجل رجلاً عند بعض الأشراف فقال له: لقد استدللتُ على كثرة عيوبك بما تُكثِر فيه من عيوب الناس، لأن طالب العيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها، ومثل هذا يحكى عن عبدالملك أنّ إنساناً سأله الخَلْوة، فقال لجلسائه: إذا شئتم فانصرفوا . فلما تهيّأ الرجل للكلام قل له: اسمع ما أقول، إيّاك أن تمدَحَني فأنا أعرف بنفسي منك، أو تَكذِبني فإنّه لا رأي لمكذوب، أو تسعى بأحد إليّ فإنّي لا أحبّ السعاية؛ قال: أفيأذن أمير المؤمنين بالانصراف! قال: إذا شئت.

قوله: أطلق عن الناس عقدة كل حِقْدٍ ، واقطع عنك سبب كل وِتْرٍ ، وتغابَ عن كل ما لا يَضِحُ لك ، ولا تعجلن إلى تصديق ساع ، فإن الساعي غاشٌ ، وإن تشبه بالناصحين . ولا تُدْخلنَّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ، ويَعِدُكَ الفقر ، ولا جباناً يُضعِفُكَ عن الأمور ، ولا حريصاً يُزَيّنُ لك الشَّرَه بالجور . . .

---

٧٢ رواه مسلم.

نقول: في هذا توجيه للوالي بالابتعاد عن الحقد والثأر والغاشين من أهل البطانة، وألا يشاور البخيل والجبان والحريص.

فقوله: ...ولا تدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر ...مأخوذ من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿الشيطانُ يعدكمُ الفقرَ ويأمركم بالفحشاءِ واللهُ يعدكم مغفرةً منهُ وفضلا ...﴾[73]، قال بعض المفسرين: الفحشاء ههنا البخل، ومعنى ﴿يعدكمُ الفقرَ﴾ يخيل إليكم أنكم إن سمحتم بأموالكم افتقرتم فيخوفكم فتخافون فتبخلون. ورأى حكيم رجلاً مُثرياً يأكل خبزاً وملحاً، فقال: لم تفعل هذا؟. قال: أخاف الفقر، قال: فقد تعجلته.. ومن حِكم علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه قال: عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيش في الدنيا عيشة الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء.

ويقول رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال».

وقال الله تعالى: ﴿ولا يحسبنَّ الذينَ يبخلونَ بما آتاهمُ اللهُ من فضلهِ هوَ خيراً لهمْ بلْ هوَ شرٌّ لهمْ سيطوقونَ ما بخلوا بهِ يومَ القيامةِ وللهِ ميراثُ السمواتِ والأرضِ واللهُ بما تعملونَ خبيرٌ﴾[74].

قال الخليل وسيبويه والفراء المعنى البخل خيراً لهم، وهذه الآية نزلت في البخل بالمال والإنفاق في سبيل الله وأداء الزكاة المفروضة.. وفي

---

٧٣ - سورة البقرة، الآية ٢٦٨.

٧٤ - سورة آل عمران، الآية ١٨٠.

الحديث: «ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله من فضل ما عنده فيبخل به عليه إلا أُخرج له يوم القيامة شجاعٌ من النار يتلمَّظ حتى يُطَوِّقه». والبُخْل والبَخَل في اللغة أن يمنع الإنسان الحق الواجب عليه. وقيل البخل: الامتناع من إخراج ما حصل عندك. والشُّح: الحِرصُ على تحصيل ما ليس عندك. وقيل: إن الشح هو البخل مع حِرص. وروى مسلم عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشُّح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم». كما روى النسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لا يجتمع غُبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم في منخري رجل مسلم أبداً ولا يجتمع شح وإيمان في قلب رجل مسلم أبداً».

وقول الله تعالى: ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ دلالة على أن الأموال كانت عارية عند أربابها فإذا ماتوا رُدَّت العارية إلى صاحبها وهو الله، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إنَّا نحنُ نرثُ الأرضَ ومنْ عليها ...﴾[75]. والمعنى في الآيتين أن الله تعالى أمر عباده بأن يُنفقوا ولا يبخلوا قبل أن يموتوا ويتركوا ذلك ميراثًا لله تعالى ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا .. وقال الله تعالى: ﴿ولا تجعلْ يدكَ مغلولةً إلى عنقكَ ولا تبسطها كلَّ البسطِ فتقعدَ ملومًا محسوراً﴾[76]، وهذا مجاز عبّر به عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله، فضرب له مثل الغَلّ الذي يمنع من التصرف باليد، وقوله تعالى: ﴿ولا تبسطها كلَّ البسطِ﴾ ضرب بَسْطَ اليد مثلاً لذهاب المال. والمقصود لا تسرف ولا تتلف مالك فتبقى محسوراً منقطعًا عن النفقة

---

٧٥ سورة مريم، الآية ٤٠.

٧٦ سورة الإسراء، الآية ٢٩.

والتصرف.

قوله: إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً.. ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك.. ثم رُضْهُمْ على ألا يُطْروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو...

نقول: ينصح علي بن أبي طالب كرم الله وجهه واليه مالك بن الحارث بأن يحسن اختيار بطانته، يصطفيهم ممن يقول الحق. فقوله: .. **ثم رُضْهم على ألا يطروك** .. أي عودهم ألا يمدحوك في وجهك، **ولا يبجحوك بباطل**.. وأثنى رجل على عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه في وجهه ثناء أوسع فيه، فقال له: أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك.

ولو تأملنا العبارة: **وليكن آثرهم عندك أقولهم بمرّ الحق لك** .. فقد روى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر، أو ليوشكن الله يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم»[77].

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أعظم الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطان جائر»[78]. وعن طارق بن شهاب أن رجلاً سأل النبي ﷺ وقد وضع رجله في الغَرْزِ: أي الجهاد أفضل؟ قال: «كلمة حق عند

---

٧٧ - أخرجه الترمذي، وللحديث شاهد عند الطبراني في الأوسط عن ابن عمر وآخر عند الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة بلفظ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم» انظر مجمع الزوائد، ٧/ ٢٦٦.

٧٨ هذه الرواية للترمذي.

سلطان جائر»[79].

قوله: فإن حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلاً، وإن أحقَّ مَن حَسُنَ ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده. ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية. ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها، والوزر عليك بما نقضت منها.

نقول: على الوالي أن يحسن الظن برعيته، فقد نهى الله تعالى عن اتهام الناس بغير دليل راجح وإدانتهم بالشكوك والظنون الضعيفة، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً منَ الظنِّ إنَّ بعضَ الظنِّ إثمٌ ...﴾[80].. وعليه ألا ينقض سنة حسنة، قال رسول الله ﷺ: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» رواه مسلم.

قوله: استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً.. وتفقد أمورهم بحضرتك، وفي حواشي بلادك، واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً، وشحاً قبيحاً، واحتكاراً للمنافع، وتحكماً في البياعات، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الوُلاة، فامنع من الاحتكار، فإن رسول الله ﷺ منع منه، وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تُجحف

---

79 - أخرجه النسائي.

80 - سورة الحجرات، الآية ١٢.

بالفريقين من البائع والمبتاع..

نقول: إن الاهتمام بتنظيم أعمال الصناعة والتجارة وبالعاملين فيهما أمر ضروري، ولكنه يحتاج لضوابط تنظيمية.. وقوله: ... **فامنع من الاحتكار** ... ينطوي على حكمة بالغة. فمن روائع ما قدم الإسلام للفكر الاقتصادي منع الاحتكار. فقد روى أبو هريرة ومعقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «يُحشر الحاكرون وقتلة الأنفس في درجة، ومن دخل في شيء من سعر المسلمين يُغليه عليهم، كان حقًا على الله أن يعذّبه في مُعظَم النار يوم القيامة».

وذكر أبو أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «أهل المدائن هم الحُبساء في سبيل الله، فلا تحتكروا عليهم الأقوات، ولا تُغْلوا عليهم الأسعار، فإن مَن احتكر عليهم طعامًا أربعين يومًا ثم تصدّق به لم يكن له كفارة».

وعن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من احتكر طعامًا أربعين يومًا[81] يريد به الغلاء فقد برئ من الله وبرئ الله منه»..

وقال معاذ بن جبل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بئس العبد المحتكر إن أرخص الله الأسعار حزِن وإن أغلاها فرِح».

قوله: وتعهد أهل اليُتْم، وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له، ولا ينصبُ للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل، والحق كله ثقيل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم.

---

81 قال علي القاري: لم يرد بأربعين التوقيت والتحديد. بل أراد أن المحتكر يجعل الاحتكار حرفته، ويريد به نفع نفسه وضرَّ غيره. وهو المراد بقوله: يريد الغلاء. لأن أقل ما يتحوّل فيه المرء في حرفته هذه المدة.

نقول: في ذلك بيان بالواجب تجاه اليتيم، وكبار السن ممن لا يسألون الناس إلحافًا. وفيه توجيه لمن يرعاهم ويستقصي أحوالهم بتوطين النفس على الصبر في ذلك.

وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبغوني ضعفاءكم، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»[٨٢]. وروى أيضًا عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم»[٨٣].

كما حثّ رسول الله ﷺ على رعاية اليتيم وكفالته، فقال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما»[٨٤].. وقول الله تعالى: ﴿فأمَّا اليتيمَ فلا تقهرْ. وأمَّا السائلَ فلا تنهرْ﴾[٨٥] يدل على اللطف باليتيم وبره والإحسان إليه. وروي عن أبي هريرة أن رجلاً شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه؛ فقال: «إن أردت أن يلين، فامسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين». ومن حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي من ذا الذي أبكى هذا اليتيم الذي غيبت أباه في التراب، فتقول الملائكة ربنا أنت

---

٨٢ أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي. أبغوني، يقال: أبغني كذا، أي أعطني وأوجدني، وأصله من الابتغاء: الطلب. يقال: بغى فلان كذا: إذا طلبه، وأبغيته كذا: إذا أزلت ابتغاءه، مثل أشكيته إذا أزلت شكواه. ويقال ابغني - بهمزة موصولة - أي: اطلب لي، وأبغني - بهمزة مقطوعة - أي: أعنّي على الطلب.

٨٣ قال أبو هريرة: إن رسول الله ﷺ قال: «رُبَّ أشعث مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه» أخرجه مسلم.

٨٤ رواه البخاري.

٨٥ سورة الضحى، الآيتان ٩ و ١٠.

أعلم، فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي، اشهدوا أن من أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة». وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من ضم يتيماً فكان في نفقته، وكفاه مؤونته، كان له حجاباً من النار يوم القيامة، ومن مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة».

وعن السائل روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعن أحدُكم السائلَ، وأن يعطيه إذا سأل، ولو رأى في يده قُلْبين من ذهب». وقال ابراهيم بن أدهم: نعم القوم السؤّال: يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال ابراهيم النخعيّ: السائل يريد الآخرة، يجيء إلى باب أحدهم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء. وروى من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها ثم رُدّوا عليه بوقار ولين أو ببذل يسير أو ردّ جميل فقد يأتيكم من ليس بإنس ولا جان ينظرون صنيعكم فيما خوّلكم الله تعالى».

ولو تأملنا العبارة: فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها.. فإنها تعطي صورة مشرقة عن أدب التعامل واللطف وحسن الاستماع والتواضع.. ثم يكون التصرف بعد ذلك ببذل يسير أو ردّ جميل؛ وقد قيل: لا تستحِ من إعطاء القليل، فإن الحرمان أقل منه.

قوله: واجعل لذوي الحاجات فيك قسماً تفرغُ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً، فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتُقعدُ عنهم جُندك وأعوانك من أحراسك وشرطك، حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقولُ في غير موطن «لن تُقدَّس أمةٌ لا يؤخذُ للضعيف

فيها حقَّهُ من القوي غير متتعتع»[٨٦]. ثم احتمل الخَرْق منهم والعِي، ونَحِّ عنهم الضيق والأنف يبسُطِ الله عليك بذلك أكناف رحمته، ويوجبْ لك ثواب طاعته. وأعطِ مما أعطيت هنيئًا، وامنع في إجمال وإعذار.

نقول: إن واجب الحاكم أن يتواضع[٨٧] إلى الله فيخصص من وقته قسمًا لذوي الحاجات يلقاهم بشخصه ويستمع إليهم في مجلس لا يحضره أعوانه أو جنده كي يشعر ذو الحاجة بالراحة النفسية الكاملة. وعليه أن يصبر فربما لا يتمكن ذو الحاجة من التعبير عنها بطلاقة؛ ثم عليه إما أن يعطي هنيئًا أو يمنع في إجمال. وقد قال أحد الحكماء: الق صاحب الحاجة بالبشر، فإن عدمت شكره لم تعدم عذره. ويقول رسول الله ﷺ: «الكلمة

---

٨٦ المتتعْتع: المتردد المضطرب في كلامه عيًا من خوف لحقه. أخرجه ابن أبي شيبة (٢١٤٧)، وابن ماجه (٢٣٢٦) مطولاً، وأبو يعلى (١٠٩١) بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري بلفظ: «لا قُدّستْ أمةٌ لا يُعطى الضعيف فيها حقّه غير مُتعْتع».. وأخرجه الطبراني في الكبير (٩٠٨) عن ربيعة بن يزيد أنّ معاوية كتب إلى مسلمة بن مخلد أن سلْ عبدالله بن عمرو بن العاص هل سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا قُدّست أمةٌ لا يأخذ ضعيفها حقّه من قويّها وهو غير مضطهد»، فإن قال: نعم فاحملْه إليّ على البريد، فسأله فقال: نعم، فحمله على البريد من مصر إلى الشام. فسأله معاوية فأخبره، فقال معاوية: وأنا قد سمعتُه ولكن أحببتُ أن أثبت. وأخرجه المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ١٧١ عن معاوية بلفظ: «لا تُقدس أمة لا يُقضى فيها بالحق ويأخذُ الضعيف حقّه من القوي غير مُتعْتع». وأخرجه ابن عساكر ٧/ ٤٤١ عن عبدالله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب.

٨٧ قول الله تعالى: ﴿... واخفض جناحك للمؤمنين﴾ سورة الحجر/ ٨٨. أي النْ جانبك لمن آمن بك وتواضع لهم. وأصله أن الطائر إذا ضمّ فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ، فجعل ذلك وصفًا لتقريب الإنسان أتباعه. ويقال: فلان خافض الجناح، أي وقور ساكن.

الطيبة صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق»[88] أي بالبشر والترحيب. ويقول ﷺ: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق»[89]. وعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء. وعن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخِل الناسَ الجنة؟ فقال: «تقوى الله وحسن الخلق». وعن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون». قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون»[90].

قوله: ... ثم أمورٌ من أمورِك لا بد لك من مباشرتها، منها إجابة عمالك بما يَعْيَا عنه كُتَّابُك، ومنها إصدارُ حاجات الناس يوم ورودها عليك بما تَحرُجُ به صدور أعوانِك. وأَمْضِ لكل يوم عمله، فإن لكل يومٍ ما فيه.

نقول: لا ريب أن من حسن الإدارة إصدار حاجات الناس يوم ورودها، لأن التأخير يؤدي إلى تعطيل المصالح بسبب تراكم الأعمال، وإلى ضياع الحقوق، ويعزى ذلك في الإدارات الحكومية إلى سوء التنظيم وتعقد

---

٨٨ - أخرجه مسلم.

٨٩ - رواه أبو سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة.

٩٠ - أخرجه الترمذي. الثرثارون: الذين يكثرون في الكلام تكلفًا وخروجًا عن حد الواجب. المتفيهقون: الذين يتوسعون في الكلام ويفتحون به أفواههم، مأخوذ من الفهق، وهو الامتلاء، المتشدقون: هم الذين يتكلمون بملء أفواههم تفاصحًا وتعظيما لنطقهم.

الإجراءات وغلبة البيروقراطية. وعبارة **فإن لكل يوم ما فيه** تتضمن الحضّ والتوجيه على استغلال الوقت. وقد قيل إن ساعة من اليوم أفضل من يوم غد كله؛ ولو أهدر المرء ساعة واحدة كل يوم فإنه يضيع من عمره خمسة عشر يومًا من السنة.

قوله: ولا تَخيسَنَّ بعهدك، ولا تَخْتِلَنَّ عدوك، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي، وقد جعل الله عهده وذمته أمنًا أفضاه بين العباد برحمته، وحريمًا يسكنون إلى منعته، ويستفيضون إلى جواره فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه.

نقول: ينطوي هذا القول على توجيه حكيم بأهمية الوفاء بالعهود حتى للأعداء، والأمانة في التنفيذ، والالتزام، فلا يغدر الوالي بذمته ولا يخيس بعهد.. وقد قال الله تعالى: ﴿... وأوفوا بالعهدِ إنَّ العهدَ كانَ مسؤولاً﴾[91]. ويدخل في العهد كل ما أمر الله به ونهى عنه كما قال الزجاج. وقال الله تعالى: ﴿والذينَ همْ لأماناتهمْ وعهدهمْ راعونَ﴾[92].

والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك. والأمانة أعم من العهد، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد. ويقول الله تعالى: ﴿الذينَ يوفونَ بعهدِ اللهِ ولا ينقضونَ الميثاقَ﴾[93]. وقال رسول الله

---

٩١ سورة الإسراء، الآية ٣٤.

٩٢ سورة المؤمنون، الآية ٨.
وسورة المعارج، الآية ٣٢.

٩٣ سورة الرعد، الآية ٢٠.

ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»[٩٤]. ويقول الله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ يأمركمْ أن تؤدوا الأماناتِ إلى أهلها﴾[٩٥].

قوله: إياك والدماء وسفكها بغير حلِّها، فإنه ليس شيء أدعى لنقمة، ولا أعظم لتبعة، ولا أحرى بزوال نعمة، وانقطاع مدة، من سفك الدماء بغير حقها، والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه، بل يُزيله وينقله.

نقول: قال الله تعالى: ﴿... من قتلَ نفساً بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأرضِ فكأنَّما قتلَ الناسَ جميعاً ومنْ أحياها فكأنَّما أحيا الناسَ جميعاً ...﴾[٩٦]. فمما قيل في ذلك أن من قتل نفساً فالمؤمنون كلهم خُصماؤه؛ لأنه قد وَتَرَ الجميع. وقال رسول الله ﷺ: «قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا»[٩٧]. وقال أيضاً: «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دمٍ مؤمنٍ لأكبَّهم الله في النار»[٩٨].

---

٩٤ خرجه الدار قطني وغيره.

٩٥ سورة النساء، الآية ٥٨.

٩٦ سورة المائدة، الآية ٣٢.

٩٧ أخرجه النسائي عن بريدة ٧ / ٨١ في تحريم الدم في فاتحته. وعن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم» أخرجه النسائي ٧ / ٨٢ و ٨٣ في تحريم الدم، باب تعظيم الدم، والترمذي برقم ١٣٤٥ في الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن.

٩٨ أخرجه الترمذي برقم ١٣٩٨ في الديات، باب الحكم في الدماء.

قوله: وإياك والإعجاب بنفسك، والثقة بما يعجبك منها، وحب الإطراء؛ فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه، ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين.

نقول: إن حب الإطراء من مواطن الضعف في الفرد، فإذا تحلّق حوله بعض الممالقين من ذوي النفاق فامتدحوه وزينوا له أفعاله وصفاته اختلّ توازنه واختلّ ميزان الإدارة. وقد نبّه رسول الله ﷺ إلى ذلك فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبدٌ فقولوا: عبدالله ورسوله»[99]. وقال أيضًا: «احثوا التراب في وجوه المدّاحين».

قوله: وإيّاك والمنَّ على رعيتك بإحسانك، أو التَّزيُّدَ فيما كان من فعلك، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخُلفك، فإن المنَّ يبطل الإحسان، والتزيد يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله والناس. قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ مقتًا عندَ اللهِ أن تقولوا ما لا تفعلونَ﴾[100].

نقول: قال الله تعالى في الآية التي قبلها: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا لِمَ تقولونَ ما لا تفعلونَ﴾[101] استفهام على وجه الإنكار والتوبيخ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله، أما في الماضي فيكون كذبًا، وأما

---

٩٩ رواه البخاري، وقد ورد مطولاً عن عبدالله بن عباس في جامع الأصول لابن الأثير برقم ٢٠٧٦ الجزء الرابع. والنص في صفحة رقم ٩٣. والإطراء: المبالغة في المدح والإسراف فيه....

١٠٠ سورة الصف، الآية ٣، والمقت والمقاتة مصدران؛ يقال رجل مَقيت وممقوت إذا لم يحبه الناس.

١٠١ سورة الصف، الآية ٢.

في المستقبل فيكون خَلَفًا، وكلاهما مذموم. وقال الله تعالى: ﴿الذينَ ينفقونَ أموالهمْ في سبيلِ الله ثمَّ لا يُتبعُونَ ما أنفقوا منًا ولا أذىً لهمْ أجرُهُمْ عندَ ربِّهِمْ ولا خوفٌ عليهمْ ولا همْ يحزنونَ﴾[١٠٢].

وهذا يبين أن ذلك الحكم والثواب إنما هو لمن لا يتبع إنفاقه منًا ولا أذى، لأن المنّ والأذى مبطلان لثواب الصدقة. والمنّ: ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها، أو التحدث حتى يبلغ المعطى فيؤذيه. والأذى: السب والتشكّي وهو أعمّ من المنّ. ومما روى النسائي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «... وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه والمدمن الخمر والمنّان بما أعطى». وقال الله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تُبطلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى كالذي يُنفقُ مالهُ رئاءَ الناسِ ولا يُؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فمثلُهُ كمثلِ صفوانٍ عليهِ ترابٌ فأصابهُ وابلٌ فتركهُ صلدًا لا يقدرونَ على شيءٍ مما كسبُوا واللهُ لا يهدي القومَ الكافرينَ﴾[١٠٣].. وقال جمهور العلماء في هذه الآية: إن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أن يمنّ أو يؤذي بها فإنها لا تُقبل. وقيل: بل قد جعل الله للمَلَك عليها أمارة فهو لا يكتبها. والعرب تقول لما يُمَنُّ به: يد سوداء. ولما يُعطى عن غير مسألة: يد بيضاء. ولما يُعطى عن مسألة: يد خضراء.. ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر، ثم تلا: ﴿لا تُبطلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى﴾. وقد مثّل الله تعالى الذي يمنّ ويؤذي بصدقته بالذي ينفق ماله رئاء الناس لا لوجه الله تعالى، وبالكافر الذي ينفق ليقال جواد وليُثنى عليه بأنواع الثناء. ثم مثّل هذا المنفقَ بصفْوان عليه تراب

---

١٠٢ سورة البقرة، الآية ٢٦٢.

١٠٣ سورة البقرة، الآية ٢٦٤.

فيظنه الظانّ أرضًا مُنبتة طيّبة فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب وبقي صلدًا[104].

كما أشار علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في وصيته أن من واجب الوالي ألا يخلف وعده مع الرعية **والخلف يوجب المقت** ... وقد حضّ رسول الله ﷺ على الوفاء بالوعد، ونهى عن الخلف به، واعتبره من آيات المنافق، فقال ﷺ: «آية المنافق ثلاث - زاد مسلم: وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، ثم اتفقا -: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر»[105].

قوله: ... فضعْ كل أمرٍ موضعه، وأوقع كل عمل موقِعَه ...

نقول: هذا التوجيه ينطوي على فكر تنظيمي، ويضع الأصول الحكيمة للمعالجة الإدارية الواعية التي تبدأ بتحليل المشكلة، وعزل المظاهر الثانوية الفرعية عنها، تمهيدًا لتشخيصها، ووضع البدائل الممكنة، وجمع المعلومات اللازمة لدراسة مضاعفاتها، ثم اختيار البديل المناسب؛ كل ذلك دون استعجال بالأمور أو تخاذل عنها إذا وضحت وزالت ملابساتها.

---

١٠٤ والصفوان: الحجر الكبير الأملس، وقال الأخفش: هو جمع واحده صفوانه. وقال الكسائي: صفوان واحد وجمعه صفوان وصُفِيّ وصِفِيّ. وقال النحاس: صفْوان وصفوان يجوز أن يكون جمعًا ويجوز أن يكون واحدًا إلا أن الأولى به أن يكون واحدًا. والوابل: المطر الشديد.

١٠٥ أخرجه البخاري ومسلم. وفي رواية لهما وللترمذي والنسائي مثله، والرابعة: «إذا ائتمن خان». الآية: العلامة. رواه البخاري ١ / ٨٣ في الإيمان، باب علامات المنافق، وفي الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد.. ومسلم برقم ٥٩ في الإيمان، باب بيان خصال المنافق، والترمذي برقم ٢٦٣٣ في الإيمان، باب ما جاء في علامة المنافق، والنسائي ٨ / ١١٧ في الإيمان، باب علامة المنافق.

قوله: أملك حمية أنفك، وسَوْرَة حدك، وسطوة يدك، وغَرْبَ لسانك، واحترس من كل ذلك بكف البادرة، وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك، فتملك الاختيار. ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك.

نقول: هذا من روائع التوجيه الإداري. فعلى الحاكم أن يملك نفسه فلا يتسرع، لا سيما إذا كان في الأمر ما يُغضب. فإذا هدأت نفسه، وسكن غضبه، أصبح أكثر قدرة وملك الاختيار. وقد أوصى رسول الله ﷺ بذلك فقال: «لا تغضب».

ولنتأمل قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.. **ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك**.. دلالة على أن الفرد يجب أن يحاسب نفسه وألا يغرب عن ذهنه ذلك الموقف العظيم حيث لا ينفع مال ولا بنون.. يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. وقد قال تعالى: ﴿واتقوا يومًا ترجعونَ فيهِ إلى اللهِ ثمَّ تُوفّى كلُّ نفسٍ ما كسبتْ وهمْ لا يظلمونَ﴾[١٠٦].

وتجدر الإشارة إلى أن كتاب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى واليه على مصر مالك بن الحارث يزخر بالأفكار والتوجيهات الإدارية. فبالإضافة إلى ما سبق أن عرضناه وعلّقنا عليه يتضمن الكتاب نقاطًا يحسن بالوالي وبكل من يمارس الحكم والإدارة أن يلتزم بها والتي منها:

- التمييز بين المحسن والمسيء.. فليسا بمنزلة سواء، فهو إن فعل زهّد أهل الإحسان في الإحسان ودرب أهل الإساءة على الإساءة.

---

١٠٦ سورة البقرة، الآية ٢٨١.

- أن يولي أنصح الجند في نفسه لله وللرسول وللخليفة، وأنقاهم جيباً وأفضلهم حلماً ممن يبطئ عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء، وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف.
- الاعتماد على ذوي المروءات والأحساب[107] وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة، وأهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة.
- على الوالي أن يتفقد من أمور من اعتمد عليهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما. وأن لا يجد غضاضة فيما منحهم تقوية لهم إذا كان كثيراً، وأن لا يحتقر القليل مما أعطاهم مما يدعوهم إلى بذل النصيحة وحسن الظن.
- أن يكون رؤوس الجند ممن يبذل العطاء للجند بما يكفيهم ويسع أهليهم ليتفرغوا لجهاد العدو.
- على الوالي أن يعرف لكل فرد من مرؤوسيه ما أبلى، وأن لا يضيع ما أبلاه الفرد بإضافته إلى بلاء غيره، وأن يكون أساس تقويم أداء الأفراد ما أبلوه فعلاً، فلا يعظم بلاء الشريف لشرفه إذا كان بلاؤه صغيراً، أو يستصغر بلاء فرد بسيط إذا كان بلاؤه عظيماً.
- على الوالي أن يردد إلى الله ورسوله ما يضلعه من الخطوب أو يشتبه عليه من الأمور، والرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة. قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكمْ فإن تنازعتمْ في شيءٍ فردوهُ إلى اللهِ والرسولِ ...﴾[108].

---

١٠٧ كان يقال: عليكم بذوي الأحساب، فإن هم لم يتكرموا استحيوا.

١٠٨ سورة النساء، الآية ٥٩.

- حسن اختيار من يحكم بين الناس، ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم[١٠٩]، ولا يتمادى في الزلة[١١٠]، ولا يحصر في الفيء إلى الحق إذا عرفه ولا تشرف نفسه[١١١] على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج، وأقلهم تبرمًا بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم[١١٢] عند اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراء، ولا يستميله إغراء. وبما أن هؤلاء قليل فعلى الوالي أن يكثر تعاهد قاضيه ويفسح في البذل له، لتقل حاجته إلى الناس، ويعطيه المنزلة الرفيعة عنده مما لا يطمع فيه غيره من الخاصة، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عند الوالي.
- على الوالي أن ينظر في أمور عماله فيستعملهم اختبارًا لا محاباة وأثرة، فإنهما من شعب الجور والخيانة. وأن يتوخى أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام، فهم أكرم أخلاقًا وأصح أعراضًا وأقل طمعًا وأبلغ في عواقب الأمور نظرًا .. وعليه أن يسبغ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أو ثلموا الأمانة. ثم عليه أن يتفقد أعمالهم ويتابعها فيبعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإذا ثبتت خيانته أخذه بما أصاب من عمله ووسمه بالخيانة وعار التهمة. ولا ريب أن حسن الاختيار والاختبار ثم المتابعة من أهم

١٠٩ - تجعله ماحكًا، أي لجوجًا، محك الرجلُ أي لجّ.

١١٠ أي إن زلَّ رجع فأناب، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

١١١ الإشراف: الإشفاق والخوف.

١١٢ - أي أقطعهم وأمضاهم.

متطلبات الإدارة الناجحة.

- الناس عيال على الخراج وأهله، ولذلك يجب على الوالي أن يتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله. وأن يهتم بعمارة الأرض أكثر من استجلاب الخراج لأنه يأتي بالعمارة. وإذا حلت مصيبة بمصدر الخراج على الوالي أن يخفف عن أهله بما يصلح أمورهم فهم ذخر يعودون به في العمارة وحسن ثناء منهم، وخراب الأرض يؤتى من إعواز أهلها، ويعوز هؤلاء من حرص الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر.
- أن يحسن اختيار الكتّاب، وألا يكون الاختيار على الفراسة وحسن الظن، فالرجال يتعرفون على فراسة الولاة بالتصنّع والحديث الحسن. ولهذا لا بد من اختبارهم بما ولّوا للصالحين، ولمن كان أحسنهم في العامة أثرًا وأعرفهم بالأمانة وجهًا.
- الاهتمام بالقانع والمعتر من المساكين، فلهم قسم من بيت المال، للأقصى منهم مثل الذي للأدنى فالمسؤولية عنهما سواء. ولا ينشغل الوالي عنهم ببطر.. ولا يصعر خده لهم[113]، بل يتفقد أمور من لا يصل إليه منهم بتفريغ الثقة من أهل الخشية والتواضع كي يرفعوا إلى الوالي هؤلاء المحتاجين فهم من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم.
- أن يجعل لنفسه أفضل المواقيت بينه وبين الله، وكلها لله إذا صلحت النية.

---

113 لا يصعر: لا يُمل وجهه عنهم تكبراً وإعراضاً. الصعَر: الميل. يقال: أصاب البعير صعرٌ وصيد أي داء يلوي منه عنقه. ويقال للمتكبر: فيه صعرٌ وصيد. وفي الحديث: «يأتي على الناس زمان ليس فيهم إلا أصعر أو أبتر». والأصعر: المعرض بوجهه كبراً.

- ألا يحتجب عن الرعية فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير، ويقبح الحسن ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل.
- أن يحذر من الخاصة والبطانة، ففيهم استئثار وتطاول، وأن يحسم مادتهم بقطع الأسباب، وأن يلزم الحق من القريب والبعيد صابراً محتسبًا واقعًا من القرابة والخاصة حيث وقع.
- أن يتذكر ما مضى من حكومة عادلة، أو سنة فاضلة، أو فريضة في كتاب الله. ولا ريب أن ذلك جماع الكلم ورأس الحكمة ونبراس البصيرة.

* * *

(٢) كتاب الحسن البصري إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز :

عندما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى أحد الحكماء الصالحين وهو الحسن بن أبي الحسن البصري يسأله أن يكتب له بصفة الإمام العادل.. فأجاب بكتاب هو أشبه ما يكون بالوصية إلى الحاكم يرشده إلى أفضل السبل للعدل. وقد جاء الكتاب على النحو التالي[١١٤]:

«بسم الله الرحمن الرحيم..

اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قِوَامَ كلّ مائل، وقصد كل جائر؛ وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومَفْزَع كل ملهوف. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنُّها من أذى الحر والقرّ.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرَّة الرفيقة بولدها، حملته كُرْهاً ووضعته كُرهاً وربته طفلاً، تسهر بسهره وتسكن بسكونه، تُرضعه تارة وتَفْطِمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويَمُون كبيرهم.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح

---

١١٤ ابن عبدربه الأندلسي: العقد الفريد، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٣، المجلد الأول، ص: ٣٤ - ٣٦.

بصلاحه، وتفسد بفساده.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر إلى الله ويُريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم.

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيِّدُه، واستحفظه ماله وعياله، فبدَّد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها. وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم.

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقِلَّةَ أشياعك عنده، وأنصارِك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك فيه أحباؤك، يُسلِمونك في قعره فريداً وحيداً. فتزود له ما يصحبك {يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه}، واذكر يا أمير المؤمنين {إذا بُعثر ما في القبور، وحُصّل ما في الصدور}، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

فالآن يا أمير المؤمنين أنت في مَهَل قبل حلُول الأجل، وانقطاع الأمل. لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تُسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يَرقُبون في مؤمن إلا ولا ذِمّةً، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك. ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك، ولا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع

من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم.

إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النُّهَى من قبلي، فلم آلُك شفقةً ونُصحًا، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة... والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»...

* * *

ينطوي هذا الكتاب على توجيهات إدارية مُثلى، ترشد إلى العدل، وتنير السبيل إلى تحقيق أفضل النتائج في الحكم والإدارة. ولعل من بعضها ما يلي:

قوله: أن الله جعل الإمام العادل قِوامَ كل مائل، وقَصْدَ كل جائر ؛ وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومَفْزَع كل ملهوف.

نقول: إن العدل في الحكم والإدارة هو أحد الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره وأثر تطبيقي من آثاره، لأنه يعني المساواة، وذلك بإعطاء كل ذي حق ما يعادل حقه. ولهذا كان الميزان رمزًا لإقامة العدل.

والعدل في الإدارة مطلوب لتستقيم الأمور، فهو مطلوب في التعامل مع العاملين، وفي تقسيم العمل بينهم، وفي تحقيق القسط في توزيع الأجور، وفي جميع السياسات الإدارية من اختيار وتعيين وترقية..

والعدل من لوازم الإيمان، ولهذا فعندما أمر الله بالعدل خاطب بأمره الذين آمنوا لأن الإيمان يجعلهم يحبون الحق فيدفعهم ذلك لإقامة العدل، وإلى الحكم بالعدل، والقول والشهادة بالعدل، ومعاملة الناس بالعدل،

والكتابة بالعدل.. قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا كونوا قوَّامينَ بالقسطِ شهداءَ لله ولو على أنفسكمْ أو الوالدينِ والأقربينَ إن يكن غنيًا أو فقيرًا فاللهُ أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلوًا أو تعرضُوا فإنَّ اللهَ كان بما تعملونَ خبيرًا﴾[115]، وهذا أمر للمؤمنين بأن يكون العدل خلقًا من أخلاقهم المتمكنة فيهم، لأن (قوّام) هي صيغة مبالغة لقائم، وبذلك يكون العدل من سجايا المؤمنين وخلقٌ ثابتٌ من أخلاقهم، فالمؤمن يكون قوّامًا بالقسط ويشهد لله ولو كان ضد نفسه أو والديه والأقربين؛ كما أنه لا يجوز أن يكون الجور وسيلة لمساعدة الفقراء إذا كان ذلك يخالف العدل، فالله أولى بتقدير حال كل من الخصمين، فالحق أحق أن يُتَّبع. وكذلك لا يجوز اللَّيُّ في الشهادة أو الحكم، ولا الإعراض بكتم الشهادة أو الحكم بغير العدل.

وفي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا كونوا قوامينَ لله شهداءَ بالقسطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شنآنُ قومٍ على ألا تعدلوا اعدلوا هوَ أقربُ للتقوى واتقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعلمونَ﴾[116] ما يفيد أن يكون المؤمنون قوامين على الناس لتنفيذ شريعة الله التي تأمر بالعدل فلا يحملهم بغضهم لقوم على ألا يعدلوا معهم. واستخدم كلمة ﴿لا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يرمز إلى مزج شيء من معنى الجريمة إلى الكلمة..

ومن روائع التكامل في الآيات القرآنية تكامل الآيتين في سورة النساء والمائدة:

- آية سورة النساء: ﴿كونوا قوامين بالقسطِ شهداءَ لله﴾.

---

١١٥ - سورة النساء، الآية ١٣٥.

١١٦ سورة المائدة، الآية ٨.

- آية سورة المائدة: ﴿كونوا قوامينَ للهِ شهداءَ بالقسط﴾.

فعندما يكون المؤمن قوّامًا بالقسط يكون شاهدًا لله، وكذلك عندما يكون قوّامًا لله يكون شاهدًا بالقسط ولو كان ذلك ضد نفسه أو والديه والأقربين .

وإذا عالجت الآية الكريمة من سورة النساء دوافع الحب والشفقة والعصبية. فقد عالجت الآية الكريمة من سورة المائدة دافع البغض والكراهية.

وفي قوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ يأمركمْ أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتمْ بينَ الناسِ أن تحكموا بالعدلِ إنَّ اللهَ نعمًّا يعظُكُم به إنَّ اللهَ كانَ سميعًا بصيرًا﴾[117]، ما يفيد تأدية كل الأمانات إلى أهلها وفي مقدمتها ولاية أمور المسلمين إلى من هم أكفياء لها، قادرون على ضبطها وعلى حسن إدارتها، وإقامة العدل.. ولهذا بيَّن رسول الله ﷺ أن الإمام العادل هو أول السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله[118].

والمجالات التي يدخل فيها العدل كثيرة من بعضها: الولاية على الناس، العدل في القضاء في الفصل بين الخصماء بالتسوية بينهم في مجلس القضاء، وفي الشهادة والكتابة، والمعاملة الأسرية للزوجات والأولاد،

---

١١٧ سورة النساء، الآية ٥٨.

١١٨ روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

والكيل والميزان[119]، والإصلاح بين الفئات.

قوله: والإمام العادل كالقلب بين الجوارح، تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده.

نقول: القلب هو مستقر الإيمان، قال الله تعالى: ﴿قالت الأعرابُ آمنَّا قل لَّمْ تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمَّا يدخلِ الإيمانُ في قلوبكمْ ...﴾[120].

وكل فكرة تجزم بها النفس وتعتقدها تصل إلى دائرة القلب فتدخل فيه وإن كتمها صاحبها أو ادعى خلافها. ولذلك كان كاتم الشهادة مرتكب إثم قلبي، قال الله تعالى: ﴿... ولا تكتموا الشهادةَ ومن يكتمها فإنه آثمٌ قلبهُ واللهُ بما تعملونَ عليمٌ﴾[121].. وكان الذي يقول خلاف ما يعلم إنما يقول بلسانه ما ليس في قلبه، قال الله تعالى: ﴿سيقولُ لكَ المخلفونَ من الأعرابِ شغلتنا أموالُنا وأهلونا فاستغفرْ لنا يقولونَ بألسنتهم ما ليسَ في قلوبهمْ ...﴾[122]. وقد تصاب بصيرة القلب بالعمى حتى تكون منطمسة عن رؤية دلائل الحق والهدى، قال الله تعالى: ﴿أفلمْ يسيروا في الأرضِ فتكونَ لهمْ قلوبٌ يعقلونَ بها أو آذانٌ يسمعونَ بها فإنها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدورِ﴾[123].. فدل ذلك على أنه ليس العمى هو عمى

---

١١٩ - قال الله تعالى: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ...﴾ سورة الأنعام/ ١٥٢.
و ﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ سورة الإسراء/ ٣٥.
والقسطاس اسم لأعدل الموازين وأقومها.

١٢٠ - سورة الحجرات، الآية ١٤.

١٢١ - سورة البقرة، الآية ٢٨٣.

١٢٢ - سورة الفتح، الآية ١١.

١٢٣ - سورة الحج، الآية ٤٦.

الأبصار ولكنه عمى البصائر في القلوب.. في مركز العمق من نفس الإنسان حيث تصبح القلوب مقفلة كما في قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرونَ القرآنَ أمْ على قلوبٍ أقفالها﴾[١٢٤]. وتترتب مسؤولية الإنسان عن سلوكه بما تعمّده قلبه وكأن الإرادة الموجهة للسلوك تصدر عن القلب، وهذا في قوله تعالى: ﴿... وليسَ عليكمْ جناحٌ فيما أخطأتم بهِ ولكن ما تعمدتْ قلوبكمْ وكانَ اللهُ غفوراً رحيمًا﴾[١٢٥].

وكما يصيب الخوفُ القلب فتزيغ الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر من شدة الخوف، قال الله تعالى: ﴿إذ جاءُوكم من فوقكمْ ومنْ أسفلَ منكمْ وإذ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ ...﴾[١٢٦]، فإن القلب قد يقسو فلا يندى بعطاء ولا يلين، قال الله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿ثمَّ قستْ قلوبكم من بعدِ ذلكَ فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوةً وإنَّ منَ الحجارةِ لما يتفجَّرُ منهُ الأنهارُ وإنَّ منها لمَا يَشَّقَّقُ فيخرجُ منهُ الماءُ وإنَّ منها لمَا يهبطُ منْ خشيةِ اللهِ وما اللهُ بغافلٍ عمَّا تعملونَ﴾[١٢٧]، أما قلب المؤمن فإنه مطمئن بذكر الله، قال الله تعالى: ﴿الذينَ آمنوا وتطمئنُّ قلوبهم بذكرِ اللهِ ألا بذكرِ اللهِ تطمئنُ القلوبُ﴾[١٢٨].

وقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم». ولذلك

---

١٢٤ سورة محمد، الآية ٢٤.

١٢٥ سورة الأحزاب، الآية ٥.

١٢٦ سورة الأحزاب، الآية ١٠.

١٢٧ سورة البقرة، الآية ٧٤.

١٢٨ سورة الرعد، الآية ٢٨.

كانت قيمة الأعمال في تقرير الجزاء عند الله على قدر نية العاملين لها، ففي الحديث الشريف: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ...» كما أشار رسول الله ﷺ إلى أن القلب هو مكان التقوى. فإذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله.

قال النعمان بن بشير: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بَيِّن وإن الحرام بَيِّن، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعِرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا ولكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مُضْغَةً إذا صلَحَتْ صلَحَ الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» أخرجه البخاري ومسلم.

قوله: فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيِّدُه، واستحفظه ماله وعياله فبدَّد المال وشرّد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

نقول: إن الأمانة تقتضي الالتزام وأداء الحق، وقد شبّه الحسن البصري الحاكم بالعبد المؤتمن على المال والعيال، وقد اختار المال لحرص الإنسان عليه وحبه له، قال تعالى: ﴿وتحبونَ المالَ حبًا جمًا﴾[129].

واختار العيال أيضًا لما فيهم من ضعف وحاجة، كالأيتام الذين لا عائل لهم، فحاجتهم إلى من يعولهم كبيرة[130].

---

١٢٩ - سورة الفجر، الآية ٢٠. أي كثيراً. يقال: جمّ الماء في الحوض إذا اجتمع وكثر. والجمّة: المكان الذي يجتمع فيه ماؤه. والجموم: البئر الكثيرة الماء.

١٣٠ يقول الله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ سورة النساء/ ١٠. قيل إن المراد الأوصياء الذين يأكلون ما لم يبح لهم من مال اليتيم. وخصّ البطون بالذكر لتبيين نقصهم، =

والأمـــانة في الإدارة ركن أســاسي من أركـــان العـــمل القـــائم على أخلاقيات التعامل، لأن الأمانة من الفروع الخلقية لحب الحق وإيثاره. وهي صـفـة تنم عن سلوك سـوي للفـرد الذي يعف عـمـا ليس له به حق حـتى وإن تهيأت له الفرص.

ومجالات الأمانة متعددة منها: الأمانة في الأموال، والمعارف والعلوم، والشـهـادة والقـضـاء، والكتـابة والمـجـالس والأسـرار والولاية، وقـد قـال الله تعالى: ﴿والذينَ همْ لأماناتهمْ وعهدهمْ راعونَ﴾[131]، و ﴿يا أيهـا الذينَ آمنوا لا تخونوا اللهَ والرسولَ وتخونوا أماناتكمْ وأنتمْ تعلمونَ﴾[132].

روى البخـاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قـال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قـيل: من يا رسـول الله؟ قـال: «الذي لا يأمن جاره بوائقـه»[133]. وروى التـرمـذي والنسـائي عن أبـي هريرة قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «المـسلم من سلم المـسلمـون من لسـانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمـائهم وأمـوالهم». وروى البـيـهـقي في شـعب الإيمـان عن أنس قال: قلّما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

وبذلك ربط رسـول الله ﷺ الأمـانة بالإيمان، وجعل الخيانة من علامات

= والتشنيع عليهم بضدّ مكارم الأخلاق. وأكل مال اليتيم من الكبائر في حديث رسـول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقـات ....» وذكـر فيـهـا: «وأكل مـال اليتيم». والسعير: الجمر المشتعل.

131 - سورة المؤمنون، الآية ٨. سورة المعارج، الآية ٣٢.

132 سورة الأنفال، الآية ٢٧.

133 بوائقه: غوائله وخياناته.

النفاق في حديث رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم». وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أوتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ...﴾[134] يفيد وجوب تأدية جميع أنواع الأمانات إلى أصحابها ومستحقيها، وتشمل جميع الحقوق المتعلقة بذمم الناس بما في ذلك إعطاء الحكم إلى أهله، وإسناد أعمال الإدارة والقضاء إلى الأجدر بها والأكفياء للقيام بواجباتها وسواها من أنواع الأمانات، لأن مجيء النص على عمومه يجعل مجال الأمانة واسعًا. وقد وردت أحاديث شريفة عن رسول الله ﷺ تبيّن أن إسناد الحكم إلى أهله أمانة، كما أن الحكم نفسه هو أمانة أيضًا.

فقد روى مسلم عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟، فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»[135]. فاعتبر رسول الله ﷺ الولاية أمانة لأن تأدية حقها بالعدل وعدم الاستغلال الشخصي، والحرص على مصالح الناس لا يكون إلا بخلق الأمانة، ولهذا

---

١٣٤ – سورة النساء، الآية ٥٨.

١٣٥ يلاحظ من قول رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، إنك ضعيف» أن الولاية تحتاج إلى القوة، لأنها من متطلبات الإنفاذ.

١٣٦ رواه البخاري ومسلم عن عبدالرحمن بن سمرة.

فمن الأمانة أيضاً ألا يطلب الولاية من ليس كفؤًا لها، ولهذا نهى رسول الله ﷺ عبدالرحمن بن سمرة عن طلب الإمارة فقال ﷺ: «لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها»[١٣٦].

وسلطة التولية أمانة أيضًا، بدليل أن تأديتها إلى غير أهلها خيانة. فقد روى الحاكم أن رسول الله ﷺ قال: «من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».

ولما كان اختيار الأكفياء للإدارة والحكم أمرًا ليس بيسير، فقد كان رسول الله ﷺ يدفع إلى القيادات من يتفرس منهم القدرة عليها فيضعهم موضع الاختبار والتجربة ويتابعهم بملاحظاته وتوجيهاته، فمن وجده أهلاً للقيادة أسند إليه فيما بعد مسؤوليات أكبر وحمّله من أعباء الإمارة ما يقدر على حمله.

وكان من سياسته ﷺ ألا يوسّد الأمر مَن يطمع به طمعًا يدفعه إلى طلبه، ولا من يحرص عليه. روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحدهما: يا رسول الله أمّرنا على بعض ما ولاك الله، وقال الآخر مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «إنا والله لا نولّي هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرص عليه». وفي رواية أن الرسول ﷺ قال: «لا نستعمل على عملنا من أراده». بل إن رسول الله ﷺ قد اعتبر من مظاهر قيام الساعة أن يوسّد الأمر إلى غير أهله. فقد روى البخاري عن أبي هريرة قال: بينما كان النبي ﷺ يحدّث، إذ جاء أعرابي فقال: متى الساعة؟ قال: «إذا ضيِّعت الأمانة فانتظر الساعة،

---

١٣٦ رواه البخاري ومسلم عن عبدالرحمن بن سمرة.

قال: كيف إضاعتها؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

وقد نبَّه رسول الله ﷺ من فتنة الإمارة فيما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة: «تجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الأمر حتى يقع فيه». كما روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة»[١٣٧].

قوله: ... وأن الله أنزل القِصاص حياة لعباده ...

نقول: إن الحدود من وسائل الزجر عن الفواحش والانحراف، ومهمة الحاكم أن يقيم الحدود حماية لأفراد المجتمع، ولا شفاعة في الحدود، فعندما أهمَّ قريشًا شأن المخزومية التي سرقت، قالوا من يُكلم فيها رسول الله ﷺ؟. فقالوا ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ. فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟». ثم قام فاختطب، ثم قال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ. وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» متفق عليه.

وهذا دليل قاطع على أن الناس جميعهم سواء أمام القانون في

---

١٣٧ أي أنها آسرة محبوبة شأن المرضعة للرضيع ولكن عاقبتها بعد الفطام والانفصال وخيمة ما لم يكن الذي تولاها أمينًا فيها مؤديًا حقوقها، انظر في ذلك: عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، الطبعة الثانية، الجزء الأول، دمشق، دار القلم، ١٩٨٧، ص: ٦٦٠.

المجتمع الإسلامي، وتلك هي العدالة الكاملة.

ومع ذلك فإقامة الحدود لا يتم إلا بعد التثبت. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أدرؤوا الحدودَ عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلّوا سبيله، فإن الإمامَ إنْ يخطئْ في العفو خير من أن يخطئَ في العقوبة»[138]. قال الله تعالى: ﴿ولكمْ في القصاصِ حياةٌ يا أولي الألبابِ لعلكمْ تتقونَ﴾[139].

قوله: واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ...

نقول: أثار الحسن البصري عاملين مؤثرين: الموت، وكل نفس ذائقة الموت، وما بعد الموت. تعبيراً عن الموقف الذي يكون المرء فيه وحيداً، لا ينفعه إلا عمله الصالح يوم الفزع الأكبر.

والتذكّر بالموت عبرة وموعظة للإنسان العاقل، فقد قيل: نَفَسُ المرء خطاه إلى أجله. وقال عبدالله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء». قلنا: إنا لنستحيي من الله يا رسول الله، والحمد لله.

---

١٣٨ وفي رواية مختصراً قال: «أدرؤوا الحدود ما استطعتم» أخرجه الترمذي. وحديث سفيان الثوري عن عاصم عن أبي وائل عن عبدالله بن مسعود موقوفاً قال: «ادرؤوا الحدود بالشبهات، ادفعوا القتل عن المسلمين ما استطعتم». قال الحافظ في التلخيص: ورواه ابن حزم في كتاب الاتصال عن عمر موقوفاً عليه بإسناد صحيح، وفي ابن أبي شيبة عن طريق إبراهيم النخعي عن عمر: لأن أخطأ في الحدود بالشبهات أحب إليّ من أن أقيمها بالشبهات.

١٣٩ سورة البقرة، الآية ١٧٩. وهذا من الكلام البليغ الوجيز، ومعناه لا يقتل بعضكم بعضاً؛ رواه سفيان عن السُّدّي عن أبي مالك. والمعنى: أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم فيه ازدجر من يريد قتل آخر، مخافة أن يقتص منه فحييا بذلك معاً.

قال: «ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى. وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، وآثر الآخرة على الأولى، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء»[140].

قوله: واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك فيه أحباؤك، يُسلمونك في قعره فريداً وحيداً ...

نقول: لقد تكلّم الحسن البصري في كتابه إلى الخليفة بالصورة، فجاءت الصورة أبلغ من الكلمات وأشد تأثيراً، عندما ذكّر الخليفة بالقبر يطول فيه ثواؤه، ويفارقه فيه أحباؤه، وقد أسلموه في قعره فريداً وحيداً.

وفيما يقوله في كتابه حضٌّ للخليفة وموعظة للتزوّد بالعمل الصالح.. ﴿يومَ يفرُّ المرءُ من أخيه. وأمهِ وأبيهِ. وصاحبتهِ وبنيهِ﴾[141]. ثم يذكّره بقول الله تعالى: ﴿... إذا بُعْثِرَ ما في القبورِ. وحُصِّلَ ما في الصدورِ﴾[142]، حيث ليس ثمة أسرار فكلها ظاهرة؛ والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ووضعَ الكتابُ فترى المجرمينَ مشفقينَ مما فيه ويقولونَ يا ويلتنا مالِ هذا الكتابِ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا

---

١٤٠ أخرجه الترمذي. وما وعى: السمع والبصر واللسان، والمراد به الحثّ على الحلال من الرزق، واستعمال هذه الجوارح فيما يُرضي الله تعالى.

١٤١ سورة عبس، الآيات ٣٤ ـ ٣٦.

١٤٢ سورة العاديات، الآيتين ٩ و ١٠. وبُعثر: أثير وقُلب وبُحث. وحُصّل: مُيز ما فيها من خير وشر أو أبرز.

أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلمُ ربُّك أحداً ﴾[143]، و ﴿يومَ ترونها تذهلُ كلُّ مرضعةٍ عمَّا أرضعتْ وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وترى النَّاسَ سُكارى وما هُمْ بسكارى ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ ﴾[144].

ثم يبيّن الحسن البصري للخليفة بعد أن ذكّره بالموت وما بعده، ومثواه، ويوم الحساب، أن الطريق إلى العمل الصالح والعدل في الإدارة يتطلب:

- ألا يحكم في عباد الله بحكم الجاهلين.
- ألا يسلك بالرعية سبيل الظالمين.
- ألا يسلط المستكبرين على المستضعفين.

ويعود ليقول: بأنه إن فعل باء بأوزاره وأوزار مع أوزاره، وحمل أثقاله وأثقالاً مع أثقاله..

- ألا يغتر بما يتنعم به الآخرون.
- ألا ينظر إلى قدرته اليوم، ولكن إلى قدرته غداً وهو مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم.

والمتأمل لهذا الكتاب يجد العديد من النقاط والتي منها:

- تكامل العناصر، فثمة بيان لخصائص الإمام العادل، وأهمية العدل في الإدارة، ومسؤولية الحاكم كمؤتمن، والقصاص كوسيلة للحكم العادل وحماية المجتمع.

---

١٤٣ سورة الكهف، الآية ٤٩.

١٤٤ سورة الحج، الآية ٢.

- التعبير عن المضمون بالأسلوب المناسب، فقد عرف عن الخليفة عمر بن عبدالعزيز الورع والخشية من الله والحرص على العدل. ولهذا فقد تناول الحسن البصري النقاط الحساسة في نفس الخليفة فذكّره بالموت وما بعده، ومثواه في قعر القبر والحساب. ثم بيّن له سبيل إقامة العدل.

ولعل من نافلة القول أن نذكر أن حرص الخليفة عمر بن عبدالعزيز على العدل دفعه إلى السؤال، وحرص الحسن البصري ونصحه لم يمنعه من أن يستخدم عبارات يوجهها إلى الخليفة دون حرج مثل: .. اعلم. .. لا تحكم. .. لا تسلك. .. لا يغرنك.. دون أية مواربة أو مداهنة أو نفاق

* * *

(٣) كتاب طاهر بن الحسين إلى ابنه عبدالله والي مصر في عهد الخليفة المأمون* :

وهو من الوثائق الإدارية الهامة التي تدل على سمو وروعة الفكر الإداري في الإسلام. وقد انتشر خبره وذاع صيته، ولما علم به الخليفة المأمون أعجب به وأمر بتعميمه على الولاة والعمال ليقتدوا به ويعملوا بما جاء فيه، ونص الكتاب كما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. أما بعد،

فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته، ومراقبته عز وجل، ومزايلة سخطه. واحفظ رعيتك في الليل والنهار، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه، وموقوف عليه ومسؤول عنه، والعمل في ذلك كله بما يعصمك من الله عز وجل، وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه. فإن الله سبحانه قد أحسن إليك وأوجب الرأفة عليك بما استرعاك أمرهم من عباده، وألزمك العدل فيهم، والقيام بحقه وحدوده عليهم، والذب عنهم، والدفع عن حريمهم ومنصبهم، والحقن لدمائهم، والأمن لسربهم، وإدخال الراحم عليهم، ومؤاخذك بما فرض عليك، وموقفك عليه، وسائلك عنه، ومثيبك عليه بما قدمت وأخّرت.

ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه شاغل، وإنه رأس أمرك وملاك شأنك، وأول ما يوقفك الله عليه. وليكن أول ما تلزم به نفسك وتنسب إليه فعلك المواظبة على ما فرض الله عز وجل عليك من الصلوات

---

* محمد كرد علي، الإدارة الإسلامية في عز العرب، المرجع السابق، ص: ١٥١ - ١٥٦، وله أيضاً: الإسلام والحضارة العربية، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٣٤ و ١٩٣٦، ص: ٢/ ٢٢٣ - ٢٢٨.

الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك، وتوقعها على سننها، من إسباغ الوضوء لها، وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها، ورتل في قراءتك، وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك، ولتصرف فيه رأيك ونيتك، واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يدك وادأب عليها، فإنها كما قال الله عز وجل: ﴿ ... تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾. ثم اتبع ذلك بالأخذ بسنة رسول الله ﷺ، والمثابرة على خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه، وبلزوم ما أنزل الله عز وجل في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه، وائتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله ﷺ، ثم قم فيه بالحق لله عز وجل ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد.

وآثر الفقه وأهله، والدين وحَملته، وكتاب الله عز وجل والعاملين به، فإن أفضل ما يتزيَّن به المرء الفقه في الدين، والطلب له، والحث عليه والمعرفة مما يتقرب به إلى الله عز وجل، فإنه الدليل على الخير كله، والقائد إليه والآمر به، والناهي عن المعاصي والموبقات كلها. ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة وجلالاً له ودركًا للدرجات العلى في المعاد، مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبة لسلطانك ولأنسه بك والثقة بعدلك.

عليك بالاقتصاد في الأمور كلها، فليس شيء أبين نفعًا، ولا أصفى أمنًا، ولا أجمع فضلاً منه، والقصد داعية إلى الرشد، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق قائد إلى السعادة، وقوام الدين والسنة الهادية بالاقتصاد فآثره في دنياك كلها، ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد والإعانة، والاستكثار من البر والسعي له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته، ومرافقة أولياء الله في دار كرامته..

واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ويمحص من الذنوب، وإنك لن تحوط نفسك من قائل ولا تنصلح أمورك بأفضل منه، فأته واهتد به تتم أمورك، وتزد مقدرتك وتصلح عامتك وخاصتك، وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقم لك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستدم به النعمة عليك.

ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة، فإن إيقاع التهم بالبداء والظنون السيئة بهم مآثم، فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك، واطرد عنك سوء الظن وارفضه، يعنك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم. ولا تتخذن عدو الله الشيطان في أمرك معمداً، فإنه يكتفي بالقليل من وهنك، ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لذاذة عيشك. واعلم أنك تجد بحسن الظن قوةً وراحة، وتكتفي به ما أحببت كفايته من أمورك، وتدعو الناس إلى محبتك والاستقامة في الأمور كلها. ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك، ولتكن المباشرة لأمور الأولياء والحياطة للرعية والنظر في حوائجهم، وحمل مؤوناتهم، أيسر عندك مما سوى ذلك، فإنه أقوم للدين وأحيا للسنة.

وأخلص نيتك في جميع هذا، وتفرّد بتقديم نفسك تفرُّد من يعلم أنه مسؤول عما صنع، ومجزي بما أحسن، ومؤاخذ بما أساء، فإن الله عز وجل جعل الدين حرزاً وعزاً، ورفع من اتبعه وعززه. واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدى، وأقم حدود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه، ولا تعطل ذلك ولا تتهاون به، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة، فإن في تفريطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك، واعتزم على أمورك في ذلك بالسنن المعروفة، وجانب البدع والشبهات يسلم لك

دينك وتتم لك مروءتك.

وإذا عاهدتَ عهداً فأوف به، وإذا وعدت الخير فأنجزه، واقبل الحسنة وادفع بها وأغمض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وابغض أهل النميمة، فإن أول فساد أمورك في عاجلها وآجلها تقريب الكذوب والجرأة على الكذب، لأن الكذب رأس المآثم، والزور والنميمة خاتمها، لأن النميمة لا يسلم صاحبها، وقائلها لا يسلم له صاحب، ولا يستقيم له أمر.. وأحبب أهل الصلاح والصدق، وأعز الأشراف بالحق، وأعن الضعفاء وصل الرحم، وابتغ بذلك وجه الله تعالى وإعزاز أمره، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة.

واجتنب سوء الأهواء والجور، واصرف عنها رأيك، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك، وأنعم بالعدل سياستهم، وقم بالحق فيهم، وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى. واملك نفسك عند الغضب، وآثر الحلم والوقار، وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله، وأخلص لله وحده النية فيه واليقين به.

واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى، يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء. ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة إلى أحد أسرع منه إلى جهلة النعمة من أصحاب السلطان، والمبسوط لهم في الدولة إذا كفروا نعم الله وإحسانه، واستطالوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله. ودع عنك شره نفسك، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكنز البر والتقوى، واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم، والتفقد لأمورهم، والحفظ لدمائهم، والإغاثة لملهوفهم.

واعلم أن الأموال إذا اكتُنزتْ وادُّخرتْ في الخزائن لا تنمو، وإذا كانت في صلاح الرعية، واعطاء حقوقهم، وكف الأذية عنهم، نمت وزكت، وصلحت

بهـا العـامـة، وترتبت بهـا الولاية، وطاب بهـا الزمـان، واعـتـقـد فـيـهـا العـز والمنفعة. فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله، ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم، واوف من ذلك حصصهم، وتعهّد ما يصلح أمورَهم ومعاشَهم، فإنك إذا فعلت ذلك أقرت النعمة لك واستوجبت المزيد من الله تعالى، وكنت بذلك على جبـاية أمـوال رعـيتك وخـراجك أقـدر، وكان الجـمـيع لمـا شملهم من عـدلك وإحسـانك أسـاسـاً لظلمتك، وطب نفسـاً بكل مـا أدت، واجهد نفسك فيما حددتُ لك في هذا الباب، وليعظم حقك فيه. وإنمـا يبـقى من المـال مـا أنفق في سـبـيل الله وفي سـبـيل حـقـه، واعـرف للشاكرين حقهم وأثبهم عليه.. وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتهاون بما يحق عليك، فإن التهاون يورث التفريط، والتفريط يورث البوار. وليكن عملك لله عز وجل وفيه، وارج الثوابَ منه، فإن الله سبحانه وتعالى قد أسبغ عليك فضله. واعتصم بالشكر، وعليه فاعتمد، يزدك الله خيراً وإحساناً، فإن الله عز وجل يثيب شكر الشاكرين وإحسان المحسنين. ولا تحقرن ذنباً، ولا تمـالئن حـاسـداً، ولا ترحـمن فـاجـراً، ولا تصلن كـفـوراً، ولا تداهنن عدواً، ولا تصدقن نـمّاماً، ولا تؤمنن غداراً، ولا توالين فاسقاً، ولا تتبعن غاوياً، ولا تحملن مرائياً، ولا تحقرن إنساناً، ولا تردن سائلاً فقيراً، ولا تحسِّنن باطلاً، ولا تلاحظن مضـحكاً، ولا تخلفن وعداً، ولا تزهون فـخراً، ولا تظهرن غضباً، ولا تباينن رجاءً، ولا تمشين مرحاً، ولا تزكين سفيهاً، ولا تفرطن في طلب الآخرة، ولا ترفـعن للنمام عيناً، ولا تغمـضن عن ظالم رهبـةً منه أو محـاباة، ولا تطلب ثواب الآخرة في الدنيا. وأكثر مشاورة الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلم، وخـذ عن أهـل التجـارب وذوي العـقل والرأي والحكمة، ولاتدخلن في مـشـورتك أهـل الرفـه والبـخل، ولا تسـمـعن لهم قـولاً، فـإن ضـررهـم أكـثـر من

نفعهم.

وليس شيء أكثر فساداً لما استقبلت به أمر رعيتك من الشح، واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية، وإذا كنت كذلك لم يستقم أمرك إلا قليلاً، فإن رعيتك تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم. ووال من صافاك من أوليائك بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم، واجتنب الشح، واعلم أنه أول ما عصى الإنسان ربه، وأن العاصي بمنزلة الخزي، وهو قول الله عز وجل: {ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون}، فسهل طريق الجود بالحق، واجعل للمسلمين كلهم في فيئك حظًا ونصيبًا، وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد، فأعده لنفسك خلقًا وارض به عملاً ومذهبًا. وتفقَّدْ الجند في دواوينهم ومكاتبهم وأدرر عليهم أرزاقهم، ووسِّعْ عليهم في معاشهم يذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم، فيقوى لك أمرهم، وتزيد قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً. وحسب ذي السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته ذا رحمةٍ في عدله وعطيته وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فزايل مكروه أحد البابين باستشعار فضل الباب الآخر ولزوم العمل به، تلق إن شاء الله تعالى نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً.

واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس فوقه شيء من الأمور، لأنه ميزان الله الذي تعدل عليه أحوال الناس في الأرض. وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية وتؤمن السبل، وينتصف المظلوم، وتأخذ الناس حقوقهم، وتحسن المعيشة، ويؤدى حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقيم الدين، ويجري السنن والشرائع في مجاريها. واشتد في أمر الله عز وجل، وتورع عن النطف، وامض لإقامة الحدود وأقلل العجلة، وابعد عن الضجر والقلق، واقنع بالقسم، وانتفع بتجربتك، وانتبه في

صمتك، واسدد في منطقك، وانصف الخصم، وقف عند الشبهة، وابلغ في الحجة، ولا يأخذك في أحدٍ من رعيتك محاباة ولا مجاملة، ولا لومة لائم، وتثبَّتْ وراقب وانظر وتفكَّر وتدبر واعتبر، وتواضع لربك، وارفق بجميع رعيتك، وسلط الحق على نفسك، ولا تسرعن إلى سفك دم، فإن الدماء من الله عز وجل بمكانٍ عظيم، فإياك انتهاكها بغير حقها.

وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية، وجعله الله للإسلام عزًا ورفعة، ولأهله توسعةً ومنعة، ولعدوه كبتًا وغيظًا، ولأهل الكفر من معاديهم ذلاً وصغارًا، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم، ولا تدفعن شيئًا منه عن شريفٍ لشرفه، ولا عن غني لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا عن أحدٍ من خاصتك ولا حاشيتك، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له، ولا تكلِّف أمرًا فيه شطط، واحمل الناس كلهم على أمر الحق، فإن ذلك أجمع لإلفتهم وألزم لرضاء العامة.

واعلم أنك جعلت بولايتك خازنًا وحافظًا وراعيًا، وإنما سمي أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيِّمهم، فخذ منهم ما أعطوك من عفوهم، ونفذه في قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم. واستعمل عليهم أولي الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف. ووسِّعْ عليهم في الرزق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك، فلا يشغلك عنه شاغل، ولا يصرفك عنه صارف، فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك، وحسن الأحدوثة في عملك، واستجررت به المحبة من رعيتك، وأعنت على الصلاح، فدرت الخيرات ببلدك، وفشت العمارة بناحيتك، وظهر الخصب في كورك، وكثر خراجك وتوفرت أموالك، وقويت بذلك على ارتياض جنودك، وإرضاء العامة بإفاضة العلماء فيهم من

نفسك، وكنت محمود السياسة، مرضي العدل في ذلك عند عدوك، وكنت في أمورك كلها ذا عدلٍ وآلة وقوةٍ وعدة، فنافس فيها ولا تقدم عليها شيئًا تحمد عاقبة أمرك إن شاء الله تعالى.

واجعل في كل كورة من عملك أمينًا يخبرك خبر عمالك، ويكتب إليك بسيرهم وأعمالهم، حتى كأنك مع كل عامل في عمله معاينًا لأموره كلها. وإذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فأمضه وإلا فتوقف عنه، وراجع أهل البصر والعلم به، ثم خذ فيه عدته. فإنه ربما نظر الرجل في أمره وقد أتاه على ما يهوى، فأغواه ذلك وأعجبه، فإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره. فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعد عون الله عز وجل بالقوة، وأكثر من استخارة ربك في جميع أمورك.

وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك، وأكثر مباشرته بنفسك، فإن لغدٍ أمورًا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت. واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى تمرض منه، وإذا أمضيت لكل يومٍ عمله أرحت بدنك ونفسك وجمعت أمر سلطانك.

وانظر أحرار الناس وذوي الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم، وشهدت مودتهم لك، ومظاهرهم بالنصح والمحافظة على أمرك، فاستخلصهم وخلف عليهم الحاجة، واحتمل مؤونتهم وأصلح حالها، حتى لا يجدوا لخلتهم مناقرًا. وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه، فسل عنه أحفى مسألة، وكِلْ بأمثاله أهل الصلاح في رعيتك، وهم برفع حوائجهم وخلالهم

إليك لتنظر فيما يصلح الله به أمرهم. وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم، واجعل لهم أرزاقًا من بيت الله اقتداءً بأمير المؤمنين أعزه الله تعالى في العطف عليهم والصلة لهم، ليصلح الله بذلك عيشهم، ويرزقك به بركةً وزيادة. وأجر للأضرار من بيت المال، وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم، وانصب لمرضى المسلمين دورًا تأويهم وقوّامًا يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال.

واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيهم لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم، طمعًا في نيل الزيادة وفضل الرفق بهم. وربما تبرّم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد إليه، ويشغل ذكره وفكره منهم ما يناله به من مؤونة ومشقة. وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب الآجل كالذي يستقل ما يقربه من الله تعالى وتلتمس به رحمته.

وأكثر الإذن للناس عليك، وأرهم وجهك، وسكّن لهم حواسك، واخفض لهم جناحك، وأظهر لهم بشرك، ولِن لهم في المسألة والنطق، واعطف عليهم بجودك وفضلك. وإذا أعطيت فاعط بسماحة وطيب نفس، والتماس للصنيعة والأجر، من غير تكدير ولا امتنان، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله تعالى. واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومَن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة، ثم اعتصم في أحوالك كلها لله سبحانه وتعالى، والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسننه، وبإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله عز وجل.. واعرف ما يجمع عمالك من الأموال، وما ينفقون منها، ولا

تجمع حراماً، ولا تنفق إسرافاً. وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأخلاق ومعاليها، وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً لم تمنع هيبتك من إنهاء ذلك إليك في ستر، وإعلامك بما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومضاهريك.

وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك، فوقِّت لكل منهم في كل يوم وقتاً يدخل فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من حوائج أعمال الدولة ورعيتك، ثم فرغ لما يورد عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك، وكرر النظر فيه والتدبير له فما كان موفقاً للحق والحزم فامضه، واستخر الله عز وجل فيه، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى المسألة عنه والتثبت منه.

ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تؤاتيه إليهم، ولا تقبل من أحد إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور المسلمين، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك.

وتفهَّم كتابي إليك وأمعن النظر فيه والعمل به، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره وإن الله عزّ وجل مع الصلاح وأهله. وليكن أعظم سيرتك وأفعل رغبتك ما كان لله عز وجل رضىً ولدينه نظاماً، ولأهله عزاءً وتمكيناً، وللملة والذمة عدلاً وصلاحاً.. وأنا أسأل الله عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام.

* * *

يمكننا أن نستنتج من هذا الكتاب الكثير من التوجيهات الإدارية، فهو أشبه ما يكون بالوثيقة الجامعة أو الباقة التي ضمت أغلب الألوان.. ومن بعض ذلك ما يلي:

قوله: ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد.

نقول: إن هذا القول إنما يعبّر عن النزاهة في القضاء[146]، وقد قال الله تعالى: ﴿ ... وإذا قلتمْ فاعدلوا ولو كانَ ذا قُربى وبعهدِ اللهِ أوفوا ذلكمْ وصاكم بهِ لعلكمْ تذكّرونَ﴾[147].. وهذا يتضمن الأحكام والشهادات ﴿ولو كان ذا قربى﴾ أي ولو كان الحق على مثل قراباتكم ﴿وبعهد الله أوْفوا﴾ عامّ

١٤٦ - جاء في الحديث: «لا يقضي القاضي وهو غضبان». وقال أيضاً: «من ابتُلي بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم في لحظه وإشارته ومجلسه ومقعده».
وقال بكر بن عبدالله العدويّ لابن أرطاة - وأراد أن يستقضيه: والله ما أحسن القضاء، فإن كنتُ صادقًا لم يحلّ لك أن تستقضي منْ لا يحسن، وإن كنت كاذبًا فقد فسقت، والله لا يحلّ أن تستقضي الفاسق.
وكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية: أما بعد، فقد كتبت إليك في القضاء بكتاب لم آلك ونفسي فيه خيراً، الزم خمس خصال يسلمْ لك دينك، وتأخذْ بأفضل حظك: إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة أو اليمين القاطعة، وأدْن الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه، وتعهد الغريب فإنك إن لم تتعهده ترك حقه ورجع إلى أهله، وإنما ضيّع حقه من لم يُرفقْ به، وآس بين الخصوم في لحظك ولفظك، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يستبن لك فصل القضاء..
وكتب عمر أيضاً إلى شريح: لا تساررْ ولا تضاررْ، ولا تبع ولا تبتع في مجلس القضاء، ولا تقض وأنت غضبان، ولا شديد الجوع، ولا مشغول القلب. انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد الجزء الأول، المرجع السابق، ص: ٨٤ - ٨٥.
وعزل عمر بن عبدالعزيز أحد قضاته؛ فقال: لم عزلتني؟. فقال: بلغني أن كلامك أكثر من كلام الخصمين إذا تحاكما إليك. وقال مرة: إذا أتاك الخصم وقد فُقئت عينه فلا تحكم له حتى يأتي خصمه، فلعله قد فُقئت عيناه جميعاً.
وقال الشعبي: كنت جالساً عند شريح إذ دخلت عليه إمرأة تشتكي زوجها وهو غائب، وتبكي بكاءً شديداً. فقلت: أصلحك الله، ما أراها إلا مظلومة. قال: ما علّمك؟. قلت: لبكائها. قال: لا تفعل، فإن أخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يبكون.

١٤٧- سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

في جميع ما عهده الله إلى عباده. ويحتمل أن يراد به جميع ما انعقد بين إنسانين. وأضيف ذلك العهد إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به. وقال تعالى: ﴿إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ ...﴾[148]. وحكى النقاش قال: يقال زكاة العدل الإحسان، وزكاة القدرة العفو، وزكاة الغنى المعروف، وزكاة الجاه كَتْبُ الرجل إلى إخوانه.

قوله: ... وجانب البدع والشبهات، يسلم لك دينك، وتتم لك مروءتك..

نقول: إن مجانبة البدع والشبهات فيه توجيه إلى التمسك بما ورد في القرآن والسنة والأعمال الرشيدة والحذر من البدع. قال الله تعالى: ﴿... ولا تتبعوا السُّبُلَ فتفرقَ بكمْ عن سبيلهِ ...﴾[149]. وعن عبدالله بن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ يومًا خطًا، ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خطّ خطوطًا عن يمينه وخطوطًا عن يساره ثم قال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه». وهذه سبل أهل الملل والبدع والضلالات.

وروى ابن ماجه وغيره عن العِرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووَجِلت منها القلوب؟ فقلنا: يا رسول الله، إن هذه لموعظة مودع، فما تَعْهَد إلينا؟ فقال: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك. من يعش بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدي، عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأمورَ المحدثات، فإن كل بدعةٍ ضلالة، وعليكم بالطاعة وإن عبدًا حبشيًا، فإنما المؤمن كالجمل الأنِف حيثما قيد

---

١٤٨ سورة النحل، الآية ٩٠.

١٤٩ سورة الأنعام، الآية ١٥٣.

انقاد»[150]. وقال سفيان الثوري: البدعة أحب إلى أبليس من المعصية، المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يتاب منها.

قوله: وإذا عاهدت عهداً فأوف به... واقبل الحسنة وادفع بها... واشدد لسانك عن قول الكذب والزور... لأن الكذب رأس المآثم، والزور والنميمة خاتمها...

نقول: هذه التوجيهات كلها من مكارم الأخلاق، لا تصلح الإدارة إلا بالتمسك بها وتطبيقها في العمل وفي التعامل مع الآخرين، ولو تأملنا عبارة طاهر بن الحسين.. والدفع بالحسنة.. ألا تدل على الرشد والنبل وحسن الخلق والصفح والجميل مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ادفعْ بالتي هيَ أحسنُ السيئةَ نحنُ أعلمُ بما يصفونَ﴾[151]، وقوله تعالى: ﴿ولا تستوى الحسنةُ ولا

---

١٥٠ - أخرجه الترمذي بمعناه وصححه. النّواجذ: الأضراس التي بعد الناب، جمع ناجذ، وهذا مثلٌ في شدة الاستمساك بالأمر، لأن العضّ بالنواجذ عضٌ بمعظم الأسنان التي قبلها والتي بعدها. الأمور المحدثات: ما لم يكن معروفًا في كتاب ولا سنة ولا إجماع. البدعة والابتداع: إذا كان من الله وحده فهو إخراج الشيء من العدم إلى الوجود. وهو تكوين الأشياء بعد أن لم تكن، وليس ذلك إلا إلى الله تعالى. فأمّا الابتداع من المخلوقين، فإن كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله، فهو في حيّز الذمّ والإنكار، وإن كان واقعًا تحت عموم ما ندبَ الله إليه وحضّ عليه أو رسوله، فهو في حيّز المدح، وإن لم يكن مثاله موجودًا، كنوع من الجود والسخاء، وفعل المعروف، فهذا فعل من الأعمال المحمودة لم يكن الفاعل قد سُبق إليه، ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما وَرَدَ الشَّرعُ به، لأن رسول الله ﷺ قد جعل له في ذلك ثوابًا فقال: «منْ سنّ سُنَّةً حسنة، كان له أجرُها وأجرُ منْ عمل بها» وقال في ضده: «من سنّ سُنَّةً سيِّئة، كان عليه وزرُها ووزْرُ من عمل بها».

١٥١ - سورة المؤمنون، الآية ٩٦.

السيئةُ ادفعْ بالتي هيَ أحسنُ فإذا الذي بينكَ وبينهُ عداوةٌ كأنهُ وليٌّ حميمٌ﴾[152] ..

وفي قوله: الكذب رأس المآثم.. تأكيد لحديث رسول الله ﷺ فيما قال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتبَ عند الله كذابًا»[153].

قوله: واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء...

نقول: هذا واضح في قوله تعالى: ﴿قلِ اللهمَّ مالكَ الملكِ تؤتي الملكَ من تشاءُ وتنزعُ الملكَ ممن تشاءُ وتعزُّ من تشاءُ وتذلُّ من تشاءُ بيدكَ الخيرُ إنَّك على كلِ شيءٍ قديرٌ﴾[154]، وفي قوله تعالى: ﴿تباركَ الذي بيدهِ الملكُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾[155].

قوله: واعلم أن الأموال إذا كنزت وادخرت في الخزائن لا تنمو، وإذا كانت

---

١٥٢ - سورة فصلت، الآية ٣٤.

١٥٣ - أخرجه البخاري ومسلم.

١٥٤ - سورة آل عمران، الآية ٢٦.

١٥٥ - سورة الملك، الآية ١.
الذي بيده الملك: أي ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة. وقال ابن عباس: بيده الملك يعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء، يحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع.

في صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكفّ الأذية عنهم نمت وزكت وصلحت بها العامة، وترتبت بها الولاية .. وإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل الله وفي سبيل حقه ..

نقول: إن وظيفة الأموال ألا تكتنز أو تخزّن، وإنما أن تستخدم في صلاح الرعية والمعاش، وإعطاء الحقوق، وكفّ الأذية، والانفاق في سبيل الله؛ وإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيله[156]. وقول طاهر بن الحسين يدل

---

١٥٦ قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ سورة التوبة/ ٣٤. والكنز أصله في اللغة الضم والجمع، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة وخصهما بالذكر لأنه مما لا يُطّلع عليه بخلاف سائر الأموال. وسمي الذهب ذهباً لأنه يذهب، والفضة لأنه تنفض فتتفرق. وقال ابن خويزمنداد: تضمنت هذه الآية زكاة العين. وقيل الكنز ما لم تؤدّ منه الحقوق العارضة كفك الأسير وإطعام الجائع وغير ذلك. وقيل: الكنز لغةً المجموع من النقدين، وغيرهما من المال محمول عليه بالقياس.

وتجدر الإشارة إلى أن قوله تعالى: ﴿ ولا ينفقونها في سبيل الله ﴾ ولم يقل ينفقونهما فيه أقوال: الأول قال الأنباري: قصد الأغلب والأعم وهي الفضة ومثله قوله: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة ﴾ سورة البقرة/ ٤٥. رد الكناية إلى الصلاة لأنها أهم. ومثله: ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾ سورة الجمعة/ ١١. فأعاد الهاء إلى التجارة لأنها الأهم وترك اللهو، قاله كثير من المفسرين. وأباه بعضهم وقال: لا يشبهها، لأن ﴿ أو ﴾ قد فصلت التجارة من اللهو فحسن عود الضمير على أحدهما. الثاني - العكس وهو أن يكون ﴿ ينفقونها ﴾ للذهب والثاني معطوفاً عليه. والذهب تؤنثه العرب تقول: هي الذهب الحمراء. وقد تذكّر والتأنيث أشهر. الثالث - أن يكون الضمير للكنوز. الرابع للأموال المكنوزة. الخامس للزكاة، التقدير ولا ينفقون زكاة الأموال المكنوزة. السادس - الاكتفاء بضمير الواحد عن ضمير الآخر إذا فهم المعنى وهذا كثير في كلام العرب.

على فهم عميق لوظيفة الأموال في الإسلام، فهي يجب أن تنفق في سبيل الله. ونعتقد أن هذا يتضمن – من جملة ما يتضمن – إقامة المشروعات الاقتصادية الحلال في مجالات الأعمال الزراعية والصناعية، بغية توفير فرص عمل للناس دون أن يقتصر الأمر على الزكاة فحسب. لأن من الخطأ اكتناز الأموال لما في اكتنازها من تجميد وتعطيل.. تجميد يجعلها خارج دورة الأعمال الاقتصادية غير مساهمة فيها، وتعطيل للأفراد فلا يجدون فرصاً للعمل والمعاش، وحجب منافعها عن المجموع، عن مالكها وقد اكتنزها فجمّد وعطّل ولم ينتفع، وعن الآخرين فحرمهم فرص العمل وضيّع عليهم أسباب المعاش والكسب.

ولهذا فقد أمر الله تعالى بالانفاق في السراء والضراء، فقال: ﴿الذينَ ينفقونَ في السراءِ والضراءِ والكاظمينَ الغيظَ والعافينَ عنِ النَّاسِ واللهُ يحبُّ المحسنينَ﴾[١٥٧].

ونعتقد أيضاً أن الميل إلى الاكتناز، وهو ما حرمه الإسلام، وعدم تثمير الأموال من شأنه أن يؤدي إلى تناقص مبالغ الزكاة المفروضة، وتلك نتيجة ليست في صالح الفرد الذي يكتنز – حتى ولو أخرج زكاته – وليست في صالح المجتمع أيضاً. ومما يؤيد وجوب التثمير أن رسول الله ﷺ قد أمر به حتى في أموال اليتامى. فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ خطب الناس فقال: «ألا من وَلِيَ يتيماً له مالٌ فليتَّجر فيه، ولا يتركه حتى تأكله الصدقة». وعن مالك بن أنس بلغه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اتَّجروا في أموال اليتامى، لا تأكلها الصدقة. وعنه أيضاً أن عائشة رضي الله عنها كانت تعطي أموال اليتامى مَن يتَّجر فيها.

---

١٥٧ سورة آل عمران، الآية ١٣٤.

وجاء في الحديث: «أن العبد إذا مات قال الناس ما خلّف؟ وقالت الملائكة ما قدم؟». وخرّج البخاري والنسائي عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم مال وارثه أحبُّ إليه من ماله؟». قالوا يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: «فإن ماله ما قدَّم، ومال وارثه ما أخَّر»[158].

ومن أقوال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ... وليكن سرورك بما قدّمتَ، وأسفك على ما خلّفتَ، وهمّك فيما بعد الموت.. وجاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه مرَّ ببقيع الغَرْقَد، فقال: السلام عليكم أهل القبور، أخبارنا ما عندنا أن نساءكم قد تزوجن، ودوركم قد سكنت، وأموالكم قد قسمت. فأجابه هاتف: يابن الخطاب أخبار ما عندنا أن ما قدمناه وجدناه، وما أنفقناه فقد ربحناه، وما خلفناه فقد خسرناه. وقال رسول الله ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله»[159].

قوله: وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة..

نقول: إن التذكير بهول الآخرة فيه عظة، ولهذا وجّهه إلى الاستعداد لها، وألا يفرّط في طلبها، وأن يلتزم قواعد السلوك السوي في إدارة مصالح الرعية بقوله: ولا تحقرن ذنبًا، ولا تمالئن حاسدًا، ولا ترحمن فاجرًا، ولا تصدقن نمّامًا، ولا تؤمنن غدّارًا ...، ولا تحقرن إنسانًا، ولا تردن سائلاً، ولا

---

١٥٨ - البخاري ١١ / ٢٢١ في الرقاق، باب ما قدم من ماله فهو له، والنسائي ٦ / ٢٣٧، ٢٣٨ في الوصايا، باب الكراهية في تأخير الوصية.

١٥٩ - متفق عليه.

تحسنن باطلاً...، ولا تخلفن وعداً، ولا تزهون فخراً، ولا تظهرن غضباً ....، ولا تمشين مرحاً.

لقد جمع طاهر بن الحسين في هذا الجزء من وصيته لابنه الكثير من مكارم الأخلاق التي حض عليها الإسلام. فقوله: «ولا تمالئن حاسداً ..» مثلاً ينم عن حكمة بالغة، لأن الحسد مذموم وصاحبه مغموم، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. وقال الحسن: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد، نفَس دائم، وحزن لازم، وعبرة لا تنفد. وقال عبدالله بن مسعود: لا تعادوا نِعم الله. قيل له: ومَن يعادي نِعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله. وقال الله تعالى: ﴿أَمْ يحسدونَ الناسَ على ما آتاهمُ اللهُ من فضلهِ ...﴾[160]..

ويقال: الحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء، وأول ذنب عُصي به في الأرض؛ فأما في السماء فحسَدُ إبليس لآدم، وأما في الأرض فحسَدُ قابيلَ لهابيل.

والحسد نوعان: مذموم ومحمود؛ فالمذموم أن تتمنّى زوال نعمة الله عن أخيكَ المسلم؛ وسواء تمنيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا. وهذا النوع الذي ذمّه الله تعالى بقوله: ﴿أَمْ يحسدونَ الناسَ على ما آتاهمُ اللهُ من فضلهِ ...﴾ والآية في اليهود، وكذلك قوله تعالى: ﴿ودَّ كثيرٌ من أهلِ الكتابِ لو يردونكم من بعدِ إيمانكمْ كفاراً حسداً من عندِ أنفسهم من بعدِ ما تبينَ لهمُ الحقُّ فاعفوا واصفحوا حتى يأتيَ اللهُ بأمرهِ إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾[161].

---

١٦٠ - سورة النساء، الآية ٥٤.

١٦١ - سورة البقرة، الآية ١٠٩.
العفْوُ: ترك المؤاخذة بالذنب. والصفح: إزالة أثره من النفس.

وقد أمرنا الله بالعفو والصفح، وقد ذمّ رسول الله ﷺ الحسد، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكلُ الحسنات كما تأكل النارُ الحطب – أو قال: العشبَ»[١٦٢]

أما الحسد المحمود فهو الغِبطة، وهو ما رواه عبدالله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا على اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار، ورجل أعطاه الله مالاً، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»[١٦٣]. وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد[١٦٤] إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويُعلِّمُها، ورجل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته في الحق»[١٦٥]. وقد يجوز أن يسمى منافسة، ومنه قوله تعالى: ﴿ ... وفي ذلكَ فليتنافسِ المتنافسونَ ﴾[١٦٦].

---

١٦٢ - أخرجه أبو داود برقم ٤٩٠٣ في الأدب، باب الحسد.

١٦٣ - أخرجه البخاري ومسلم والترمذي، البخاري ٩ / ٦٥ في فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن، وفي التوحيد، باب قول النبي ﷺ: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ومسلم برقم ٨١٥ في صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، والترمذي برقم ١٩٣٧ في البر والصلة، باب ما جاء في الحسد.

١٦٤ - قال الحافظ في الفتح: قوله: «لا حسد» أي: لا رخصة في الحسد إلا في خصلتين.

١٦٥ - أخرجه البخاري ومسلم، البخاري ١ / ١٥٣ في العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، وفي الزكاة، باب انفاق المال في حقه، وفي الأحكام، باب أجر من قضى بالحكمة، وفي الاعتصام، باب ما جاء في اجتهاد القضاة بما أنزل الله تعالى؛ ومسلم برقم ٨١٦ في صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه.

١٦٦ - سورة المطففين، الآية ٢٦.

ولنتأمل قوله: «ولا تصدقنّ نمّامًا ...» فالنميمة مذمومة لأنها تفسد بين الناس. قال الله تعالى: ﴿ولا تطعْ كلَّ حلافٍ مهينٍ. همّازٍ مشّاءٍ بنميمٍ﴾[167] وقال رسول الله ﷺ: «لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئًا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[168].

قوله: واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس فوقه شيء من الأمور، لأنه ميزان الله الذي تعدل عليه أحوال الناس في الأرض، وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية وتؤمن السبل وينتصف المظلوم.. ولا يأخذك في أحدٍ من رعيتك محاباة ولا مجاملة، ولا لومة لائم، وتثبت وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك..

نقول: إن إقامة العدل في القضاء، كي تؤمن السبل وينتصف المظلوم ويأخذ الناس حقوقهم، والوقوف عند الشبهة وتحري الحجة، والبعد عن المحاباة والمجاملة.. والنظر والتثبت والتفكّر، والتدبر والاعتبار والتواضع لله من الأمور الأساسية في الإدارة.

بل إن تأكيد العدل في إدارة القضاء في الإسلام هو مصداق لقوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ يأمركمْ أن تؤدوا الأماناتِ إلى أهلها وإذا حكمتم بينَ الناسِ أن تحكموا بالعدلِ ...﴾[169]، قال الضحاك: بالبينة على المدّعي

---

١٦٧ - سورة القلم، الآيتين ١٠ و ١١. الحلاف: كثير الحلف. مهين: كذاب أو حقير الرأي. همّاز: كثير العيب والاغتياب للناس. مشّاء بنميم: بالوشاية والإفساد بين الناس.

١٦٨ - رواه أبوداود والترمذي.

١٦٩ - سورة النساء، الآية ٥٨.

واليمين على من أنكر. وهذا خطاب للولاة والحكام، ويدخل في ذلك جميع الخلق في أداء الأمانات. ويقول رسول الله ﷺ: «إن المقسطين يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا». وقال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته ... الحديث. وفي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا كونوا قوامينَ للهِ شهداءَ بالقسطِ ولا يجرمنكمْ شنئَانُ قومٍ على ألا تعدلوا اعدلوا هوَ أقربُ للتقوى واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعملون﴾[170]، تأكيد للعدل وأمر من الله بالشهادة بالحق من غير ميل إلى الأقارب وحَيْف على الأعداء. وكذلك في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا كونوا قوامينَ بالقسطِ شهداءَ للهِ ولو على أنفسكمْ أو الوالدينِ والأقربينَ إن يكنْ غنيًا أو فقيرًا فاللهُ أولى بهما فلا تتبعُوا الهَوَى أن تعدلوا وإن تَلوُا أو تعرضُوا فإنَّ اللهَ كانَ بما تعملونَ خبيرًا﴾[171].

وتجدر الإشارة إلى أنه مع هذا العدل الذي أمر الله به، وهو عدل مطلق لا يضارعه عدل آخر، أمر الله تعالى أيضًا بالتواضع، فقال: ﴿واخفضْ

---

170 سورة المائدة، الآية ٨.

171 سورة النساء، الآية ١٣٥. و ﴿كونوا قوامين﴾ بناء مبالغة، أي ليتكرر منكم القيام بالقسط وهو العدل في شهادتكم على أنفسكم، وشهادة المرء على نفسه إقراره بالحقوق عليها. ثم ذكر الوالدين لوجوب برهما وعظم قدرهما. ثم ثنّى بالأقربين إذ هم مظنة المودّة والتعصب؛ فكان الأجنبي من الناس أحرى أن يقام عليه بالقسط. ومن بر الوالدين أن يشهد الولد عليهما ويخلصهما من الباطل، وهو معنى قوله تعالى: ﴿قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾ سورة التحريم/ ٦. وقوله تعالى: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ فيه إضمار وهو اسم كان؛ أي إن يكن الطالب أو المشهود عليه غنياً فلا يُراعى لغناه ولا يُخاف منه، وإن يكن فقيراً فلا يراعى إشفاقًا عليه.

جناحكَ لمنِ اتبعكَ منَ المؤمنينَ﴾[١٧٢]. وهو تواضع لله أمر به وحضّ عليه. ولهذا أوصى طاهر بن الحسين في وصيته لابنه بالتواضع لله وعدم الاستعلاء. وفي هذا قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: العز إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني في واحد منهما عذبته»[١٧٣].

قوله: ... وإذا أردت أن تأمرهم بأمر، فانظر في عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السلامة فيه والعافية، ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فامضه، وإلا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم به، ثم خذ فيه عدته، فإنما ربما نظر الرجل في أمره وقد أتاه على ما يهوى، فأغواه ذلك وأعجبه... وأكثر من استخارة ربك في جميع أمورك.

نقول: إن دراسة عواقب الأمور وما قد تُسفر عنه من نتائج ومضاعفات أمر مطلوب في الإدارة. ولا بأس من مراجعة أهل الدراية والعلم فيه، فقد يغلب على الفرد هواه فيغويه ما رآه وأعجبه. ولهذا نهى الله سبحانه وتعالى عن اتباع الهوى، فقال: ﴿... فلا تتبعوا الهوَى ...﴾[١٧٤]. فان اتباع الهوى مُرْدٍ فهو يحمل على الشهادة بغير الحق، وعلى الجور في الحكم. وقال الشعبي: أخذ الله عز وجل على الحكام ثلاثة أشياء: ألا يتبعوا الهوى، وألا يخشَوا الناسَ ويخشوه، وألا يشتروا بآياته ثمنًا قليلاً. وقد قال الله تعالى: ﴿بل اتبعَ الذينَ ظلموا أهواءهم بغيرِ علمٍ فمن يهدي منْ أضلَّ اللهُ وما لهم

---

١٧٢ - سورة الشعراء، الآية ٢١٥.

١٧٣ - رواه مسلم.

١٧٤ - سورة النساء، الآية ١٣٥.

من ناصـرينَ ﴾[١٧٥]. وقـال تعـالى: ﴿ يا داودُ إنَّا جـعلناكَ خليـفـةً في الأرضِ فـاحكم بين النَّاسِ بالحقِّ ولا تتـبعِ الهـوى فـيُضلكَ عن سـبـيلِ الله إنَّ الذينَ يَضلُّونَ عن سـبيلِ اللهِ لهمْ عـذابٌ شـديدٌ بمـا نَسـوا يومَ الحسـابِ ﴾[١٧٦]. وقـال أيضًا: ﴿ فـإن لم يستجيبوا لكَ فاعلمْ أنَّما يتبعونَ أهواءهمْ ومن أضَلُّ ممن اتبعَ هواهُ بغيرِ هدىً منَ اللهِ إنَّ اللهَ لا يهدي القومَ الظالمينَ ﴾[١٧٧].

قوله: وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ...

نقول: هذه ناحية أساسية في حسن الإدارة تتعلق بإدارة الوقت، لأن الوقت هو الحياة، ولأن عنصر الوقت يختلف عن بقية عناصر الانتاج في أنه لا يمكن ادخاره أو اقـتراضـه أو إيقـافـه أو اسـترجـاعـه. ويبقى التصـرف الإداري الممكن هو تنظيم الوقت وحسن استغلاله.

قوله: وانظر أحرار الناس وذوي الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك، ومظاهرهم بالنصح ...

نقـول: هذا توجيـه حكيم أن يسـتخلص من اخـتـبـر صـفـاء طويتـه وإخلاصـه ونصحه ومودّته ليستشيره في أمور الحكم والإدارة. ولا بأس من أن يكثر من مجالسة العلماء ومشاورتهم، فقد قيل: من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها، وثمرة رأي المشير أحلى من الأرْي

---

١٧٥ - سورة الروم، الآية ٢٩.

١٧٦ - سورة ص، الآية ٢٦.

١٧٧ - سورة القصص، الآية ٥٠.

المشور[178].. وأن يقرِّب مَن إذا رأى عيبًا في الوالي لم تمنعه هيبته من أن ينبهه إليه سرًا ويلفت انتباهه إلى مواطن النقص فيه. قال رسول الله ﷺ: «الدين النصحية» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم»[179].

قوله: وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك... فسل عنه أحفى مسألة.: وانصب لمرضى المسلمين دورًا تأويهم وقوامًا يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم.

نقول: من قواعد الإدارة في الإسلام ما يفرض على الحاكم أن يستقصي أحوال الناس بنفسه ليعرف الفقراء والمساكين، فربما استتر هؤلاء فمنعهم الحياء من السؤال. وإذا تعذرت الإحاطة فيجب أن يكلف بذلك أهل الصلاح في الرعية لرفع حوائج المحتاجين.. ولهذا فقد أجهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه نفسه في هذا الأمر فعسّ في الليل والنهار..

وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس، فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان» قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنى يُغنيه، ولا يُفطن له فيُتَصدَّق عليه، ولا يسأل الناس شيئًا»[180]..

وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الساعي على

---

١٧٨ - الأري: العسل، المشور: المستخرج. شرت العسل: استخرجته.

١٧٩ - رواه مسلم.

١٨٠ - متفق عليه.

الأرملة[181] والمسكين كالمجاهد في سبيل الله – وأحسبه قال – وكالقائم لا يفْتُرُ وكالصائم لا يُفْطِرُ». وفي رواية عن صفوان بن سُلَيم، يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «السَّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل»[182].

قوله: وأكثر الإذن للناس عليك، وأرهم وجهك، وسكن لهم حواسك، واخفض لهم جناحك، وأظهر لهم بشرك.

نقول: لو تأملنا عبارة طاهر بن الحسين نجدها تنطوي على معنى ألا يحتجب الوالي عن الناس.. ونجد أن هذا التوجيه نابع من توجيه رسول الله ﷺ.. قال أبو مريم الأذري: دخلت على معاوية فقال: ما أَنْعَمَنَا بك يا أبا فلان؟ – هي كلمة تقولها العرب – فقلت: حديث سمعته أخبرك به، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولاه الله شيئًا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخَلَّتهم وفقرهم احتجب الله عنه دون حاجته وخَلَّته وفقره يوم القيامة». قال: فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس[183].

---

١٨١ الأرملة: هي من لا زوج لها، سواء كانت تزوجت قبل ذلك أم لا. وقيل: هي التي فارقها زوجها؛ قال ابن قتيبة: سُميت أرملة لما يحصل لها من الإرمال، وهو الفقر وذهاب الزاد بفقد الرجل. يقال: أرمل الرجل إذا فني زاده.

١٨٢ أخرجه البخاري ومسلم والترمذي، وأخرج النسائي الرواية الأولى إلى قوله: «في سبيل الله».

١٨٣ أخرجه أبو داود، وفي رواية الترمذي عن عمرو بن مُرَّة الجهني أنه قال لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من إمام يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخَلَّة والمسكنة، إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته». فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس.. ما أنعمنا بك: يريد ما أعملك إلينا. وما جاء =

والحقيقة فإن التوجيهات الإدارية التي تضمنها كتاب طاهر بن الحسين تحتاج إلى سفر كبير للشرح والتعليق وإبراز المعاني والحكم الإدارية التي تتجاوز بكثير أرقى ما وصلت إليه المدارس الإنسانية والسلوكية في الإدارة.

فبالإضافة إلى الشروحات المختصرة التي أوردناها حول بعض نقاط الكتاب، هناك توجيهات أخرى فيه تعين القائم بأعمال الحكم والإدارة، وتنير له السبيل لتحقيق أفضل النتائج، ومن بعضها ما يلي:

- الالتزام بتقوى الله وخشيته ومراقبته، والمحافظة على الرعية في الليل والنهار، والتذكر بالمعاد والحساب، والشعور بالمسؤولية ... (أوجب الرأفة عليك بمن استرعاك ... ألزمك العدل فيهم، والذب عنهم، وإدخال الراحم عليهم، وحقن دمائهم ... الله مؤاخذك بما فرض عليك، وسائلك عنه، ومثيبك عليه).
- الالتزام بالفرائض والسنن واقتفاء أثر السلف الصالح والرجوع إلى الله في كل شيء.
- التفقه في الدين[184]، والطلب له، والحث عليه، فإنه الدليل إلى الخير كله، فيزداد المرء معرفةً ودركًا للدرجات العلى في المعاد، وتزداد ثقة الرعية بعدل الوالي.

= بك؟ قال الخطابي: أحسبه مأخوذًا من قولهم: ونُعْمَةُ عين أي قُرَّةُ عين. وإنما يقال ذلك لمن يُعتدّ بزيارته، ويُفرح بلقائه، كأنه يقول: ما الذي أطلعك علينا أو حيّانا بلقائك؟. ومن ذلك قولهم: أنعم صباحًا في التحية. الخَلّة: بفتح الخاء: الحاجة.

١٨٤ - قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين» متفق عليه. وقال أيضًا: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي» رواه مسلم.

- الاقتصاد في الأمور كلها، لأن القصد داعية إلى الرشد الذي يقود إلى التوفيق والسعادة، والاستكثار من البر والتماس الوسيلة إلى الله في الأمور كلها.
- حسن الظن مع المسألة والبحث والنظر في حوائج الناس وحمل مؤوناتهم.
- إخلاص النية، والشعور بالمساءلة[185] وإقامة الحدود في أصحاب الجرائم على قدر الاستحقاق دون تعطيل أو تهاون.
- أن يملك نفسه عند الغضب، ويؤثر الحلم والوقار، ويبتعد عن الحدة والغرور.
- الاهتمام بالرعية، وتفقّد أمورهم، وحفظ دمائهم، وعمارة البلاد، وإغاثة الملهوفين.
- أن يكثر مشاورة الفقهاء، ويستعمل نفسه بالحلم، وأن يأخذ عن أهل التجارب وذوي العقل والرأي والحكمة.
- ألا يتعامل مع الرعية بالشح[186]، فيكون حريصاً كثير الأخذ قليل العطية، فلا تستقيم أمور الناس. وعليه أن يتفقّد الجند وأن يوسع عليهم، وأن يعامل الرعية والجند برحمة وعدل وإنصاف، وألا يمنن على الرعية ولا غيرهم بمعروف أسداه إليهم.
- توزيع الخراج بين مستحقيه بالحق والعدل، والأخذ من الرعية ما أعطوه

---

١٨٥ - قال الله تعالى: ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليُروا أعمالهم. فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ سورة الزلزلة/ ٦ - ٨. وقال أيضاً: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يُرى. ثم يُجزاه الجزاء الأوفى﴾ سورة النجم/ ٣٩ - ٤١.

١٨٦ - قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: ابن آدم، أنفق أنفق عليك» متفق عليه.

من عفوهم لتنفيذه في قوام أمرهم وصلاحهم، وتقويم أودهم، واستعمال أهل العلم والخبرة والتجربة والعدل والعفاف في ذلك.

- مراقبة العمال في كل ناحية بوساطة أمناء يراقبون ويكتبون عن سيرتهم وأعمالهم.
- الاعتبار بما يرى من أمور الدنيا، وممن مضى من أهل السلطان، والاعتصام بالله سبحانه في الأحوال كلها.
- أن يعرف ما يجمع العمال من الأموال وما ينفقون منها. وألا يجمع حرامًا ولا ينفق إسرافًا، مع إيثار مكارم الأخلاق ومعاليها.

والمتأمل لكتاب طاهر بن الحسين لابنه عبدالله يستنتج أنه قد جمع الكثير من أطراف الحكمة والبصيرة في العمل الإداري، فهو ذو مضمون تربوي وسلوكي، ما ترك شيئًا من أمور التوجيه والإدارة إلا بيَّنه بأسلوب ناصح فيه الموعظة الحسنة. ولم يقتصر على ذلك فحسب ولكن أوضح الكيفية التي يمكن بها تحقيق أفضل النتائج.

وقد بدأ ببيان الالتزام بتقوى الله في العمل، والإحساس بالمساءلة، والاعتقاد بأن الملك لله. وتلك ناحية تربوية ونفسية تجعل المدير مراقبًا لنفسه ولسلوكه وتعامله، مما يساهم في بناء الإنسان فكرًا وسلوكًا، ويجعله قدوة صالحة لمرؤوسيه.. كما وجه إلى العلم والتفقّه، لكي يأتي العمل ثمرة للمعرفة.

ثم أعطى من التوجيهات ما جمع به وفيه الكثير من قواعد وأصول التعامل الإداري السوي، لا سيما من حيث التمسك بالعدل وإدارة القضاء والأخذ بالشورى، وتقريب الصالحين من العلماء والحكماء ممن ينصح لله، والاقتصاد والرشد، وتثمير الأموال لعمارة البلاد، وتحقيق العدالة في

التوزيع، والرقابة على الأفراد من حيث اختيارهم وتعاملهم، وكذلك الرقابة على الأموال وترشيد الإنفاق، وإنجاز الأعمال في وقتها، والاتصال بالناس وخفض الجناح لهم وتقصّي أحوالهم.

والجدير بالذكر أن هذه التوجيهات الإدارية جميعها إذ تعبر عن سمو الفكر الإداري في الإسلام، تنبجس من معين: القرآن الكريم ... وهو كتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين، وسنة رسول الله ﷺ المبعوث رحمة للعالمين.

* * *

(٤) كتاب يعقوب بن إبراهيم «أبو يوسف القاضي» إلى هارون الرشيد

هذا الكتاب هو جزء من مقدمة كتاب الخراج الذي كتبه أبو يوسف القاضي يعقوب بن إبراهيم إلى هارون الرشيد بناءً على طلبه، كي يعمل في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي[188] .. وقد جاء النص في بداية مقدمة كتاب الخراج على النحو التالي:

إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألني أن أضع له كتابًا جامعًا يعمل به في جباية الخراج، والعشور والصدقات والجوالي، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته، والصلاح لأمرهم. وفق الله تعالى أمير المؤمنين، وسدَّده وأعانه على ما تولى من ذلك، وسلمه مما يخاف ويحذره، وطلب أن أبين له ما سألني عنه مما يريد العمل به، وأفسره وأشرحه.. وقد فسرت ذلك وشرحته.

---

١٨٧ - يعقوب بن إبراهيم/ أبو يوسف، الخراج، القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها، الطبعة السادسة، ١٣٩٧هـ، ص: ٣ - ٦.

١٨٨ - الجوالي مفردها جالية وتعني الجزية، وهي التكليف السنوي الوحيد الذي يفرض على القادرين من غير المسلمين في مقابل دخوله في ذمة المسلمين وتمتعه بما تخول له من حقوق وضمانات. ويعفى منها النساء والأطفال والشيوخ وغير القادرين على الكسب والرهبان والمنقطعون للعبادة. وهي ضمان الأمن والأمان لأهل الذمة تعفيهم من عبء الدفاع حتى عن أنفسهم.
وتجدر الإشارة إلى أن إعفاء المسلم من الجزية لم يكن ميزة مالية فعليه من التكاليف المالية لبيت المال ما هو أكثر من الجزية ممثلاً بزكاة المال وزكاة النفس وهي صدقة الفطر، ونصابها أن يتوفر لدى المكلف بها يوم استحقاقها مقدار الصدقة المفروضة زائدة عن قوت يومه هو ومن تلزمه نفقتهم كباراً أو صغاراً.

يا أمير المؤمنين، إن الله وله الحمد قد قلدك أمراً عظيماً، ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب. قلدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم الله، وائتمنك عليهم، وابتلاك بهم، وولاك أمرهم. وليس يلبث البنيان – إذا أسس على غير التقوى – أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه. فلا تضيعنَّ ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعيَّة، فإن القوة في العمل بإذن الله.

لا تؤخر عمل اليوم إلى غد، فإنك إذا فعلت ذلك أضعت، إن الأجل دون الأمل، فبادر الأجل بالعمل، فإنه لا عمل بعد الأجل. إن الرعاة مؤدون إلى ربهم ما يؤدي الراعي إلى ربه. فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك لو ساعة من نهار، فان أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راعٍ سعدت به رعيته، ولا تزغ فتزيغ رعيتك. وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب. وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى.

وكن من خشية الله على حذر، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد، ولا تخفْ في الله لومة لائم. واحذر فإن الحذر بالقلب وليس باللسان، واتق الله فإنما التقوى بالتوقي، ومن يتق الله يقه. واعمل لأجَل مفضوض، وسبيل مسلوك، وطريق مأخوذ، وعمل محفوظ، ومنهل مورود. فإن ذلك المورد الحق والموقف الأعظم الذي تطير فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته، والخلق له داخرون بين يديه ينتظرون قضاءه، ويخافون عقوبته، وكأنَّ ذلك قد كان. فكفى بالحسرة والندامة يومئذ في ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل، يومٌ تزلّ فيه الأقدام وتتغير فيه الألوان، ويطول فيه القيام، ويشتد فيه الحساب.

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿وإنّ يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾. و ﴿هذا يومُ الفصل جمعناكم والأولين﴾. و ﴿إن يوم الفصل ميقاتُهم أجمعين﴾. و ﴿كأنهم يوم يرونَ ما يوعدون لم يلبَثُوا إلا ساعة من نهار﴾. و ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضُحاها﴾.

فيالها من عثرة لا تقال، ويالها من ندامة لا تنفع، إنما هو اختلاف الليل والنهار؛ يبليان كل جديد، ويقرِّبان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود، ويجزي الله كل نفس بما كسبت، إن الله سريع الحساب.

فالله الله فإن البقاء قليل والخطب خطير، الدنيا هالكة وهالك من فيها، والآخرة هي دار القرار. فلا تلق الله غداً وأنت سالك سبيل المعتدين، فإن ديان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمنازلهم.. وقد حذَّرك الله فاحذر، فإنك لم تخلق عبثاً، ولن تترك سُدىً.. وإن الله سائلك عما أنت فيه وعما عملت به، فانظر ما الجواب!؟.

واعلم أنه لن تزول غداً قدما عبد بين يدي الله تبارك وتعالى إلا من بعد المسألة، فقد قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن علمه ما عمل فيه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسده فيم أبلاه».. فاعدد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها، فإن ما عملتَ فأثبتَّ فهو عليك غداً يقرأ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في مجمع الأشهاد.

وإني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله، ورعاية ما استرعاك الله، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله. فإنك أن لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى، وتعمى في عينك وتتعفى رسومه ويضيق عليك رحبه، وتنكر منه ما تعرف، وتعرف منه ما تنكر، فخاصم نفسك خصومة من يريد الفَلَج

لها لا عليها، فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة بإذن الله وأورده أماكن الحياة والنجاة، فإذا ترك ذلك أضاعه وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه أضرّ، وإذا صلح كان أسعد من هنالك بذلك ووفاه الله أضعاف ما وفى له.

فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربُّها حقها منك ويضيعك - بما أضعت - أجرك، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم، وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره، وعليك ما ضيعت منه، فلا تنس القيام بأمر من ولاك الله أمره فلست تُنسى. ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يُغفل عنك.

ولا يضيع حظُّك من هذه الدنيا في هذه الأيام والليالي كثرةَ تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحًا وتهليلاً وتحميدًا، والصلاة على رسوله ﷺ نبي الرحمة وإمام الهدى ﷺ. وإن الله بمنه ورحمته جعل ولاة الأمر خلفاء في أرضه، وجعل لهم نورًا يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم، ويبين ما اشتبه من الحقوق عليها. وإضاءة نور ولاة الأمر إقامة الحدود وردُّ الحقوق إلى أهلها بالتثبت الأمر البين، وإحياء السنن التي سنها القوم الصالحون أعظم موقعًا، فإن إحياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت.

وجور الراعي هلاك للرعية، واستعانته بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة. فاستتم ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها، والتمس الزيادة فيها بالشكر عليها، فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾. وليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح، ولا أبغض إليه من الفساد، العملُ بالمعاصي كفر النعم، وقلّ من كفر من قوم قطُّ النعمة ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا

عزهم، وسلط الله عليهم عدوهم. وإني أسأل الله يا أمير المؤمنين الذي منّ عليك بمعرفته فيما أولاك أن لا يكلك في شيء من أمرك إلى نفسك، وأن يتولى منك ما تولى من أوليائه وأحبائه، فإنه وليّ ذلك المرغوب إليه فيه.

وقد كتبتُ لك ما أمرتَ به وشرحته لك وبينته، فتفقهه وتدبره وردِّد قراءته حتى تحفظه، فإني قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلك والمسلمين نصحًا، ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه. وإني لأرجو – إن عملت بما فيه من البيان – أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد، ويصلح لك رعيتك فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم، والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم، وكتبت لك أحاديث حسنة، فيها ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه، مما تريد العمل به إن شاء الله. فوفقك الله لما يرضيه عنك، وأصلح بك وعلى يديك.

ينطوي هذا النص على الكثير من النصائح والتوجيهات الإدارية التي تساعد من يتولى أعمال الإدارة على تحقيق أفضل النتائج، ولعل من بعض ذلك ما يلي:

- الحكم مسؤولية وأمانة واختبار، وعلى الحاكم واجب البناء والعمل، وأن يؤسس ذلك على التقوى، وأن يحفظ ما استحفظه الله ويرعى ما استرعاه الله.
- ألا يؤخر عمل اليوم إلى الغد، وليبادر بالعمل، فالأجل أقرب من الأمل.
- رعاية أمور الرعية مسؤولية يحاسب عليها، وأداؤها يستلزم إقامة الحق، وإسعاد الرعية كي يسعد بذلك يوم الحساب.
- يجب ألا يزيغ الراعي فتزيغ الرعية، وأن يحذر الأمر بالهوى أو الأخذ بالغضب.

- أن يعالج الأمور بميزان الآخرة فهي خير وأبقى، وأن يخشى الله، ويسوّي بين الناس، وألا يخاف في الله لومة لائم، وأن يحذر بقلبه ويتقي الله، فمن يتق الله يقه.
- أن يحسب حساب الآخرة يوم تزلّ الأقدام وتتغير الألوان والناس داخرون بين يدي الله الذي يجزي كل نفس بما كسبت، وأن يحذر من إضاعة رعيته فيستوفي الله حقها منه، فله من العمل ما عمل وعليه ما أضاع.
- على الحاكم أن يقيم الحدود، ويرد الحقوق إلى أهلها، وأن يرفع الظلم عن الناس، ويستعين بأهل الثقة والخير، وليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح ولا أبغض إليه من الفساد، والعمل بالمعاصي هو كفر بالنعم يؤدي إلى زوالها، ومن كفر بالنعمة سلط الله عليه عدوه.

وتجدر الإشارة إلى ما يلي:

* إن هذا الكتاب هو بناء على طلب الخليفة، وأن الغرض منه - كما جاء في النص - ... أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته، والصلاح لأمرهم ...
* إن دور العلماء ورجال الفكر كان دوراً عظيماً، حيث يلجأ إليهم الخلفاء والولاة ينهلون منهم ويطلبون آراءهم في شؤون الحكم والإدارة، بل كان بعض العلماء يحضر في مجلس الحكم يراقب ويتأمل ... ويتدخل إذا لزم الأمر.
* تمتع العلماء ورجال الفكر بالحصانة التي اعترف بها ذوو السلطان والعامة والخاصة دون أن تكون هذه الحصانة مكتوبة، بل كانت اعترافًا استقر في النفوس والأذهان.. ولهذا لم يكن العلماء ورجال الفكر يجدون حرجًا في تقديم التوجيه بالمضمون والمحتوى الذي يشاؤون من ترغيب

وتهديد، وأمر وحض على الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وتزخر كتب التاريخ والسير بالعديد من المواقف المؤيدة لما ذهبنا إليه.

فمن بعض ذلك مثلاً:

دخل شيخ من المتكلمين على الخليفة الواثق فسلّم عليه، فرد الواثق: لا سلّم الله عليك - فقد كان واجداً عليه - فإذا بالرجل يجيبه: بئس ما أدبك معلمك، قال الله تعالى: ﴿وإذا حُييتم بتحية فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها﴾ ... فلا حييتني بأحسن منها ولا رددتها.

ودخل سفيان الثوري على أبي جعفر المنصور فقال: فما قولك يا أمير المؤمنين فيما أنفقتَ من مال الله ومال أمة محمد ﷺ بغير إذنهم، وقد قال عمر في حجة حجها وقد أنفق ستة عشر ديناراً هو ومن معه: ما أرانا إلا وقد أجحفنا ببيت المال. فيقول أبو عبيد الكاتب: أمير المؤمنين يستقبل بهذا؟. فيجيبه سفيان: اسكت، فإنما أهلك فرعونُ هامانَ وهامانُ فرعونَ.

* * *

مراجع الكتاب

- **القرآن الكريم.**
- **كتب التفسير..** والتي منها: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، جامع البيان للطبري، الدر المنثور في التفسير المأثور السيوطي، تفسير القرآن للصنعاني، تفسير القرآن العظيم لابن كثير، زاد المسير لابن الجوزي، فتح القدير للشوكاني، الكشّاف للزمخشري، الجواهر الحسان للثعالبي، التحرير والتنوير لابن عاشور، مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، تفسير المنار لمحمد رشيد رضا.
- **كتب الحديث..** والتي منها: جامع الأحاديث للسيوطي، صحيح البخاري، فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، صحيح مسلم بشرح النووي، مصابيح السنة وشرح السنة للبغوي، سنن أبي داود، سنن ابن ماجه، سنن النسائي، المسند لابن حنبل، السنن الكبرى وشعب الإيمان للبيهقي، رياض الصالحين للنووي، جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير الجزري.
- أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، جدة، الدار السعودية، ١٩٨٥.
- أبو الأعلى المودودي، نظام الحياة في الإسلام، النظام السياسي، ترجمة محمد عاصم حداد، الطبعة الثانية، دمشق، دار الفكر الإسلامي، ١٩٥٨.
- أبو الأعلى المودودي، تدوين الدستور الإسلامي، بيروت، دار الفكر، (د. ت).
- أبو الأعلى المودودي، الخلافة والملك، تعريب أحمد إدريس، الطبعة الأولى، الكويت، دار القلم، ١٩٧٨.

- أبو الحسن النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، (د. ت).
- أحمد المحب الطبري (أبو جعفر)، الرياض النضرة في مناقب العشرة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٤.
- أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (أبو بكر/ ٤٥٨هـ)، السنن الكبرى، بيروت، دار المعرفة، (د. ت).
- أحمد بن عبدالله القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، سلسلة التراث العربي في الكويت، ١٩٨٥.
- أحمد بن علي الرازي (أبو بكر الجصاص)، أحكام القرآن، بيروت، دار الكتاب العربي (عن طبعة مصورة بمطبعة الأوقاف الإسلامية)، ١٣٢٥هـ.
- أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي، العقد الفريد، القاهرة، المطبعة الأزهرية، ١٩٢٨. وبيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٢.
- د. أحمد عبدالمنعم البهي، تاريخ القضاة في الإسلام، القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٦٥.
- أحمد محمد شاكر، عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٧.
- تقي الدين أحمد بن عبدالحليم (ابن تيمية)، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، بيروت، دار الكتاب العربي، (د. ت).
- تقي الدين أحمد بن عبدالحليم (ابن تيمية)، الحسبة في الإسلام، الكويت، مكتبة دار الأرقم، ١٩٨٣.
- د. جبر محمود الفضيلات، القضاء في صدر الإسلام، الجزائر، شركة الشهاب، ١٩٨٧.
- جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، الطبعة الرابعة، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٦٩.

- د. حسن هويدي، الشورى في الإسلام، الكويت، مكتبة المنار الإسلامية، ١٩٧٥.
- سعيد عبدالمنعم الحكيم، الرقابة على أعمال الإدارة في الشريعة الإسلامية والنظم المعاصرة، القاهرة، ١٩٧٦.
- سهل بن عثمان (أبو حاتم السجستاني)، المعمرون والوصايا، تحقيق عبدالمنعم النمر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦١.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة / بيروت، دار الشروق، ١٩٨٠.
- سيد قطب، تفسير آيات الربا، القاهرة / بيروت، دار الشروق، (د. ت).
- سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، بيروت/ القاهرة، دار الشروق، ١٩٧٥.
- شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر (ابن القيم الجوزية)، أعلام الموقعين عن رب العالمين، راجعه وقدم له وعلق عليه طه عبدالرؤوف سعد، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، (د. ت).
- شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٩.
- صلاح الدين عبدالفتاح الخالدي، الشورى في القرآن، من كتاب الشورى في الإسلام، عمان/ الأردن، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ١٩٨٩.
- الطاهر بن عاشور، التنوير والتحرير، تونس، الدار التونسية، ١٩٧٠.
- ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، دار النفائس، ١٩٨٧.
- عباس محمود العقاد، عبقرية محمد – عثمان بن عفان – عبقرية الإمام علي، مجموعة العبقريات الإسلامية، بيروت، المكتبة العصرية، (د. ت).

- عبدالرحمن بن محمد الحضرمي المالكي (ابن خلدون)، المقدمة، القاهرة، المطبعة الأميرية، (د. ت).
- عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، الطبعة الثانية، دمشق، دار القلم، ١٩٨٧.
- عبدالرحمن عبدالخالق، الشورى في ظل نظام الحكم الإسلامي، الكويت، دار القلم، ١٩٧٥.
- عبدالسلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، بيروت، المجمع العلمي العربي الإسلامي، ١٣٧٤هـ.
- عبدالسميع سالم الهراوي، لغة الإدارة في صدر الإسلام، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.
- عبدالقادر عودة، الإسلام وأوضاعنا القانونية، الطبعة الخامسة، القاهرة، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ١٩٧٧.
- عبدالقادر عودة، الإسلام وأوضاعنا السياسية، القاهرة، المختار الإسلامي، ١٩٧٨.
- عبدالقادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي، القاهرة، دار العروبة، ١٩٦٤.
- عبدالله بن الحكم (أبو محمد)، سيرة عمر بن عبدالعزيز، بيروت، مؤسسة دار الفكر الحديث، ١٩٨٧.
- عبدالملك بن هشام، السيرة النبوية، الطبعة الثالثة، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٥.
- د. عبدالمنعم النمر، الشورى في البيت والإدارة، من كتاب الشورى في الإسلام، عمان/ الأردن، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ١٩٨٩.
- عبدالوهاب خلاف، السياسة الشرعية، نظام الدولة في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية، القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها،

١٣٥٠هـ.
- علي بن محمد الخزاعي التلمساني (أبو الحسن)، تخريج الدلالات السمعية، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٨٠.
- علي بن محمد بن حبيب الماوردي (أبو الحسن - ٤٥٠هـ)، الأحكام السلطانية، الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٦.
- علي الطنطاوي، أبو بكر الصديق، الطبعة الثالثة، جدة، دار المنارة، ١٩٨٦.
- علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، سيرة عمر بن الخطاب، دمشق، المكتبة العربية، (د. ت).
- علي علي منصور، نظام الحكم والإدارة في الشريعة، القاهرة، مكتبة مخيمر، (د. ت).
- د. عطية مشرفة، القضاء في الإسلام، القاهرة، شركة الشرق الأوسط، ١٩٦٦.
- عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر (ابن كثير)، البداية والنهاية، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٣٩.
- عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الخامسة، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٥.
- د. عيسى عبده، الربا ودوره في استغلال موارد الشعوب، الكويت، دار البحوث العلمية، ١٩٦٩.
- د. عيسى عبده، وضع الربا في البناء الاقتصادي، الكويت، دار البحوث العلمية، ١٩٧٣.
- قحطان عبدالرحمن الدوري، الشورى بين النظرية والتطبيق، الطبعة الأولى، بغداد، مطبعة الأمة، ١٩٧٤.
- مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد (ابن الأثير الجزري)، جامع

الأصول في أحاديث الرسول، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣.
- د. محمد الزحيلي، تاريخ القضاء في الإسلام، دمشق، دار الفكر، وبيروت، دار الفكر المعاصر، ١٩٩٥.
- محمد الشربيني الخطيب، مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٨.
- محمد المبارك، تدخل الدولة الاقتصادي في الإسلام، في الاقتصاد الإسلامي، بحوث مختارة من المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي، جدة، جامعة الملك عبدالعزيز، ١٩٨٠.
- محمد المبارك، نظام الإسلام، الحكم والدولة، الطبعة الرابعة، بيروت، دار الفكر، ١٩٨١.
- محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١.
- محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧.
- محمد بن إسماعيل الصنعاني، سبل السلام، الطبعة الرابعة، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٠.
- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الطبعة الرابعة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٢.
- محمد بن خلف بن حيان (وكيع)، أخبار القضاة، بيروت، طبعة عالم الكتب، (د. ت).
- محمد بن علي (ابن الأزرق)، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق د. علي سامي النشار، منشورات وزارة الإعلام العراقية، ١٩٧٧.
- محمد بن يزيد المبرد (أبو العباس)، الكامل، تحقيق محمد أحمد الدالي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦.

- محمد حسين هيكل، الصديق أبو بكر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١.
- د. محمد رأفت عثمان، النظام القضائي في الفقه الإسلامي، الكويت، مكتبة الفلاح، ١٩٨٩.
- د. محمد سعيد رمضان البوطي، خصائص الشورى ومقوماتها، من كتاب الشورى في الإسلام، عمان/ الأردن، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ١٩٨٩.
- محمد شريف الشيباني، الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، بيروت، دار الحضارة العربية، ١٩٨٨.
- د. محمد ضياء الريس، النظريات السياسية الإسلامية، الطبعة الثالثة، القاهرة، مطبعة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠.
- د. محمد عبدالقادر أبو فارس، النظام السياسي في الإسلام، الطبعة الثانية، عمان/ الأردن، دار الفرقان، ١٤٠٧هـ.
- د. محمد عبدالقادر أبو فارس، حكم الشورى ومدى إلزامها، من كتاب الشورى في الإسلام، عمان/ الأردن، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ١٩٨٩.
- محمد كرد علي، الإدارة الإسلامية في عز العرب، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٣٤.
- محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٣٦.
- د. محمد محمد ناشد، إدارة الأفراد، دبي، دار القلم، ١٩٩٠.
- د. محمد محمد ناشد، المدخل إلى إدارة الأعمال، منشورات جامعة حلب، ١٩٨٠.
- د. محمد محمد ناشد، التسويق وإدارة المبيعات: مدخل تحليلي كمي، الطبعة الثانية، من منشورات جامعة حلب، ١٩٧٩.
- محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، الطبعة الرابعة، القاهرة، دار

الشروق، ١٩٦٨.

- محمود شيت خطاب، الرسول القائد، الطبعة الخامسة، بيروت، ١٣٩٤هـ.
- د. محمود عساف، المنهج الإسلامي في إدارة الأعمال، القاهرة، مكتبة عين شمس، ١٩٨٧.
- د. مصطفى السباعي، السيرة النبوية: دروس وعبر، الطبعة الثامنة، دمشق/ بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٥.
- د. مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، الطبعة الثالثة، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٢.
- د. مصطفى السباعي، اشتراكية الإسلام، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٠.
- مهدي فضل الله، الشورى طبيعة الحاكمية في الإسلام، الطبعة الأولى، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٤.
- يحيى بن شرف النووي الدمشقي (أبو زكريا)، رياض الصالحين، بيروت، دار الجيل، (د. ت).
- يعقوب بن إبراهيم (القاضي أبو يوسف)، كتاب الخراج، الطبعة السادسة، القاهرة، المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٣٩٧هـ.

الفهــرس

The Publications of Juma Al-Majid Centre for
Culture and Heritage-Dubai



THE ADMINISTRATIVE THOUGHT IN ISLAM

Dr. Mohammad Mohammad Nashad
Professor In Business Administration
The Ex - Dean of Economics Faculty in
University of Aleppo

